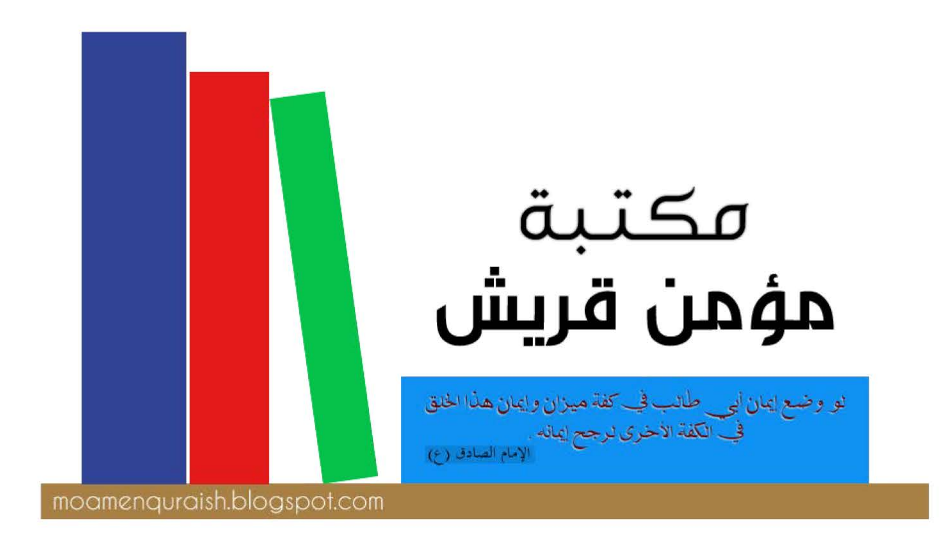
نتائج الفكر

في شرح الباب الحادي عشر

الشيخ محمد الكرمي

الجزء الثاني



مكتبة
مؤمن قريش
لو وضع إيمان أبي طالب في كفة ميزان وإيمان هذا الخلق
في الكفة الأخرى لرجح إيمانه.
الإمام الصادق (ع)
moamenquraish.blogspot.com

نتائج الفكر

في شرح الباب الحادي عشر

القسم الثاني

تأليف خادم الشرع المقدّس
الشيخ محمّد الكرمي قدس سره
١٣٤٠ ـ ١٤٢٣ هـ

هوية الكتاب

الكتاب: .... نتائج الفكر في شرح الباب الحادي عشر / الجزء الثاني

المؤلّف: .... الشيخ محمّد الكرمي

الناشر: .... مهدى يار

تاريخ النشر: ١٤٢٦هـ-٢٠٠٥م

الطبعة: .... الأُولى

تعداد النسخ: ١٠٠٠

المطبعة: .... محمّد

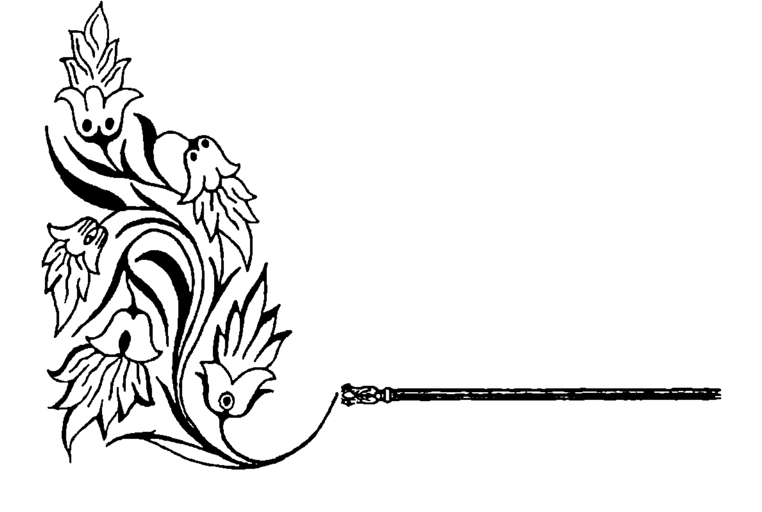
شابك ٦-٧٥-٧٦٤٣-٩٦٤

يتكفّل هذا الكتاب البحث عن اثبات الصانع ؛ ونقد أقوال الماديّين الشرقيّين والغربيّين في كلّ اصولهم المؤسّسة لتشييد مباني الطبيعة ؛ والبحث عمّا يجب للصانع وما لا يجوز عليه ؛ وعن النبوّات العامّة والخاصّة ؛ وعن الإمامة والمعاد الجسماني

محمّد الكرمي



والصلاة على محمّد وآله الطاهرين
وبعد فهذا هو الجزء الثاني من سلسلة نتائج الفكر في شرح الباب الحادي عشر نقدمه للقراء حامدين شاكرين وسائلين من الله اتمام بقية الأجزاء فإنّه خير مسؤول



مُقدّمة

يتكفل هذا الجزء وتواليه البحث عن السيرة النبوية المحمدية بتوسع وتغلب عليه الجنبة المعنوية الاجتهادية التي تقوم بتمحيص الحقائق بعد ضبطها من زبر التاريخ وأنت إذا استرسلت في سلسلة هذا البحث من مبتداه إلى منتهاه عرفت انّه لم يكتب في السيرة كتاب بجامعية ما كتبت من جهة النقد والتمحيص أصلاً فإنّ الكتب التي أفاضت في حديث السيرة امّا ممحضة للتاريخ وحده ككل كتاب كتبه الأقدمون في هذا الموضوع وامّا طافحة بالبحوث الخيالية والتخرصات المزعومة ككل ما كتبه المتجددون في ذلك، ومن جملتهم محمّد حسين هيكل.

ونحن في مجاري حديثنا الذي تقرأه إن شاء الله قد تناولنا ما اسف به هيكل في كتابه الذي كتبه عن حياة محمّد ﷺ وزيفناه كما زيفنا آراء كثيرين وأشبعنا النقاط الحساسة في السيرة بحثاً عالياً كنا فيه من أهل الابتكار بطرز البحث عنه والاجتهاد فيه وهذه الخدمة القليلة من ناحية الجليلة من ناحية ثانية نتقدم بها عن يد صاغرة لصاحب الرسالة الاسلامية تقديراً لبعض جهوده وقياماً ببعض الواجب من حقه وشكراً لبعض أنعمه التي أسداها إلى الجامعة الإنسانية قاطبة وتمتع بها المقتفون لأثره من المسلمين خاصة.

وهذا الجزء هو الحلقة الثانية من سلسلة كتاب نتائج الفكر، وفقنا الله لاتمامه فإنّه خير كتاب في خير موضوع؛ ومنا بعث العزائم من مراقدها وعلى الله التسهيل والتيسير.

وانّ لمكتبة صاحب السيادة والفضيلة السيد شهاب الدين المرعشي النجفي على هذا الكتاب يداً بما أسداه إليّ من تخويلي أي كتاب أردته من خزانته العامرة وبذاك قد ضرب في أجر تأليف هذا الكتاب بسهم.

❊ ❊ ❊

لا شبهة انّ محور الحديث كلّه على طول خط الحياة من أي متحدث يفرض هو الإنسان من بين كل الكائنات وما الحديث عن سائر الكونيات الميتة والحية إلّا كالحاشية تعلق على متن البحث؛ وهو الإنسان. والذي يتحدث به عن هـذا النوع نوعاً هو حديث تعظيمه وتكريمه بشتى أساليب البيان وكل انسان حـذر متبصر إذا قصطع من عمره الخمسين أو الستين أو ما فوق ذلك من السنين وحاسب نفسه في آخر ايامه عن مشهوداته ومحسوساته وما اتصل بـه ولحـقه على طول الخط في حياته ـ ومهما كان محظوظاً موفقاً ـ لا تراه ينطبق فوه ولا ينفتح إلّا بالتذمر والتألم والتأثر من أفراد الجوامع التي مشى معها فـي الجـامعة كتفاً إلى كتف وليس بي كما ليس به هو ـ ان نشرح مفاد حديثه ـ لأنّه هو هذا الذي نحن بصدد التحدث عنه قطع طوال ايامه ولياليه قاصاً عن موجعات قلبه وآلامه ولم تسعه الأوقات من اتمام قصة كل يوم في وقتها فكيف يستطيع هو أو أنا أن نجمع حديثه على طول شقه في ظهر ورقة أو كتاب أو سلسلة كتب ـ لا يكون ذلك ـ فالى أي حدّ ليت شعري من الاغـراق تـصل جـنايات هـذا المـوجود ـ الإنسان ـ إلى كل كائن في الوجود وكيف يلتقي في حقه حديث تعظيمه وتكريمه وحديث جناياته وسيآته إلى تلك الدرجة وهذه اللتين تحدثنا عنهما في الأسطر السابقة فلنشرح الآن اجمال هذا المجمل ونحلل معميات هذا اللغز ولنقف ـ جهد مقدورنا ـ على حقيقة ما يقال في حقه انّه عظيم كريم وانّه جان خائن.

هوية الإنسان

يفتح الناشيء عينيه في جنبات العالم فيرى ظواهر الحياة جذابة إلى أقصى ما فيه من حسن فمن أبنية تطاول السحاب ارتفاعاً وتهز الحس القوي اعجاباً وتجمع من الهيئات والتراكيب والألوان والأصابيغ وحسن الصنعة ما يملك النظر وعلى هذا المنوال من جمال النظرة والتركيب أبوابها وستورها وشعلها الملونة الوضاءة ومن شوارع شارعة بفسحتها فارعة بنضارتها ومن وسائل وآلات لا تعد ولا تحصى وكل قد قام بعمل وتضمن تهيأة موضوع يرتفق به نوع البشر بما يتبعه في شتى احتياجاته وتجملاته ، ويجد كل ذلك من عمل الإنسان ونتيجة أتعابه ؛ كما يفتح الناشيء أيضاً عينيه في جنبات العالم فيرى الدول المنظمة والهيئات الحاكمة الضابطة لشؤون الناس المدبرة لأُمور معاشهم والحافظة لدمائهم وأعراضهم وأموالهم وحيثياتهم والسائرة بهم سيراً لا يستقيم من دونها . ويجد هذا العمل الجسيم من الإنسان أيضاً .

وكما يفتح الناشيء أيضاً عينيه في جنبات العالم فيرى الأقلام والألسنة والأفكار والأنظار قد جالت جولات لا يأتي عليها حساب واحرزت من جولانها هذا علوماً جمة ومعارف مهمة تتقطع الأنفاس ولا تعطي نفسها لرائدها إلّا بعد جد مجهد واستعداد متوقد ؛ ويجد هذه البضائع الثقيلة العيار كلها للانسان فلا ريب بعد هذا إذا أخذ في تمجيده وتعظيمه وتكريمه بما لا يسعنا الآن تحبيره وتحريره ولا لائمة عليه إذا اعتبر الإنسان محور الحديث كله وعصارة الموجودات بأسرها بعد أن شاهد منه تيك المواقف الجبارة التي تستغربها الفكر أكثر مما يستغربها البصر .

وهذا الناشيء نفسه إذا دربته الحوادث والاتفاقات وأوقفته على بواطن

الأشياء بعد أن قطع فصيلة عمره الأوّل لا يعرف منها إلّا ظواهرها التي شرحنا لك بعضاً منها آنفاً حصل له العلم القاطع الجازم بأنّ تلك الأبنية الشامخة العظيمة الشأن لم تتهيأ مادتها إلّا بالاجحافات المترادفة على حقوق الضعفاء في القوة أو في الحسن وانّ تلك الأبواب والستور والشعل الملونة نتيجة أتعاب أُناس سلبتهم الظروف الجائرة قسطهم من الراحة وسهمهم من الحرية وأوثقتهم كتافاً من الصباح إلى المساء بهذه الأعمال الشاقة ازاء دراهم معدودة؛ ويجد كل هذه الانحرافات الجائرة من عمل الإنسان لا عمل الشجر والحيوان الأعجم والمدر.

كما يحصل له العلم القاطع الجازم أيضاً بأنّ ما تحدثنا عنه من الوسائل الضخمة والمعدات المهمة القائمة بجميع احتياجات الإنسان وتوابعه بل وتجملاته من الثمرات التي بذر بذرتها الأُولى الضعيف بأرضه المأخوذة منه قهراً ومنابع وطنه المقتطعة منه قسراً وبمحدوديته الموثقة له كتافاً التي لا يستطيع معها حراكاً في أحقر الأشياء وأدناها.

مضافاً إلى انّ هذه الوسائل الضخمة المتحدث عنها لم يعد ينتفع بها ضعيف الحال قليل المال وإنّما هي سهم الأقوياء مادة ونفوذاً؛ ويجد انّ هذا التلاعب في تسهيم الحقوق على مستحقيها فبعض محروم للغاية وبعض متنعم إلى النهاية من عمل الإنسان لا عمل الشجر والحيوان الأعجم والمدر.

كما يحصل له أيضاً العلم القاطع الجازم بأنّ ما أسلفنا عنه الحديث من تمصير الأمصار وتهيأة الحرس والجيوش والهيئات الحاكمة القائمة بحفظ شؤون الناس وحيثياتهم لم يحصل لأي دولة تفرض إلّا بعد سفك الدماء والفتك بالأبرياء واستعباد الضعفاء وارشاء الأقوياء وما تدمى له عواطف الانسانية الصادقة وعلى طول الخط لا تبرح هذه التبعيضات الجارحة بين القوي والضعيف؛ ويجد كل هذا الظلم من يد الإنسان وحده.

وكما يحصل له أيضاً العلم القاطع الجازم بأنّ ما أسلفنا الحديث عنه من ثمرات الأقلام والألسنة والأفكار والأنظار وما تعطيه من بضائع ضخمة ومعارف مهمة أغلبه مزخرف الظاهر خبيث الباطن لم يحرر لبيان حقيقة ولم يحبر لاعطاء نظرية صادقة بل لم يندفع به مؤلفه إلّا لأغراض مرموزة ولم يكتبه كاتبه إلّا لعصبيات قومية أو مذهبية أو لرضيخة وضخت له وما نراه من هذا التلاعب الكثير في العقائد والنظريات الاجتماعية والسياسية والمصالح العامة ليس إلّا من تعاكسات الأقلام وانحراف الآراء وجور التبليغات ؛ وليست هذه المفاسد العظيمة إلّا من عمل الإنسان صرفاً ؛ فلا ريب من هذا الناشيء في بادءه المتفطن في أواسط عمره وآخره إذا لوى بكله كشحاً عن الإنسان وعرفه خائناً جانياً وعرفه لغيره بأنّه الجاني الوحيد في خافقي العالم.

فإن أشكل الملحد على الموحد وقال: لا يزال علم التوحيد مصراً على وصف الصانع بكونه حكيماً ونحن كما نرى جميعاً انّ منشأ الآلام والجنايات هو الإنسان الذي يعد أعظم مخلوق يستدل بصنعته على وجود الصانع فأين محط الحكمة في خلقته وهل في الأذايا والآلام ما يسمى حكمة ؟

كان للموحد أن يجيب: انّ حكمة الصانع حقاً إنّما تتجلى في خلقة الإنسان الذي وصمناه بأنّه جان خائن وانّ الآلام المنتشرة في العالم منشأها هو وانّ بذرتها صدرت منه فإنّ هذا الموجود نفسه بواسطة الوسائل الغريزية التي أبدعها فيه باريه يستطيع أن يكون من نفسه جامعة روحية تغبطه عليها الملائكة الروحيون، وصلحاء العالم وعباده من أنبياء وأوصياء وعرفاء ومقدسين وروحيين ومثاليين نموذج مما صورناه.

ولا ريب انّ هذا الفريق الروحي المثالي من البشر محل غبطة كل ذي نفس تشعر انساناً كان أم ملكاً وهل حكمة أعلا من هذه الحكمة التي استطاعت أن

تنتج من هيكل عظمي انتاجات متعاكسة بأشد ما يتصور وميزان جلاء هذه المتعاكسات وقوفك أيّها الإنسان على حقيقة الملك والشيطان ولا يعرف النشاط والجد الحقيقي والرياضة التامة إلّا بأن تكون في الإنسان هاتان البذرتان الملكية والشيطانية حتى إذا فرع عن ملكيته عدّ من أغلا جواهر الكون بحقيقة هذه الكلمة أو استرسل في ضلال شيطانيته عدّ من أخس موجودات العالم وأحقر من الذرة والذبابة وحسن ذلك انّ كلتا تيكما الحالتين فيه عن اختيار تام منه.

وبنقطة الاختيار يتجلى اعجازه إذا جاء ملكوتياً وخساسته وحقارته إذا دفع بنفسه إلى الكون وجوداً شيطانياً؛ ومن وجود هاتين البذرتين فيه المطاوعتين لارادته الخاضعتين لاختياره كان باستطاعته أن يجيء بالعالم صامته وناطقه ميته وحيه ساكنه ومتحركه علويه وسفليه وكل شيء فيه أحسن مجموعة يتمناها أكمل وجود عقلي في فسحة الامكان ولا مؤونة عليه في ذلك إلّا كالمؤونة التي يتكبدها في استعمال شهواته وجهالاته فإنّ مواقع الشهوة ومظان النزوات الشيطانية ليست مما تحصل مجاناً وبلا تكبد تعب ويكفيك العيان برهاناً على انّ شهوانيي العالم أكثر تعباً في استحصال منوياتهم من عباده وزهاده وصلحاءه وأتقياءه وهذا الرعيل الثاني لما راض نفسه على جادته التي استمر بالتدرج عليها لم يعد يرى الحياة إلّا فيما هو فيه من سير ومنهج كما لا يعد فريق الشهوانيين إلّا فريق وحوش وحيوان هامل يرثى له حقاً.

والصانع الحكيم جد عالم انّ هذه المنابع الذهبية الممتازة في نوعها إلى أقصى حدود الامتياز ـ وهي موجودات بني الإنسان ـ لا تكون مورد تنافس المتنافسين إلّا إذا وضعت في ميدان سباق عام تشهده الأجيال والقرون وكافة العوالم فيتجلى فيه السابق من اللاحق لا بمزيد في أصل خلقه الأوّل ولا من قصور في جوهر الثاني بل لهمة الأوّل ونشاطه وفتور الثاني وتثاقله وهذا أهم

مائز في ميادين السباق ولو كان النشاط من تمام الخلقة والفتور من نقصانها لما كان للسابق فضل ولا في قناة اللاحق مغمز إذ لا تفاخر في الجبلات والغرائز ولا تكاثر في الأُمور الخلقية القسرية وعند أي حد تقف القابليات التكوينية يبطل سوق المفاخرة والمكاثرة والتفاضل بطور قطعي.

لهذا أوجب الصانع الحكيم على نفسه أن يربق أفراد البشر وجامعة بني الإنسان في ربقة التكليف وهو عبارة عن الأهداف التي توزن بها المسابقات الجارية فيما بين الناس غايته انّ الناس يتسابقون في أُمور خفيفة الكفة من ناحية المعنويات، كألعاب الكرة، والدراجات، والرياضة، والخيول، والمراماة ونظير ذلك؛ والله سبحانه وتعالى يريد بهم سباقاً روحياً ونضالاً فكرياً ورياضة معنوية ومطاردة ذات ثمن ونتائج صالحة تقيم أود المجتمعات وتطهر أخلاقها وتدر أرزاقها وتكسبها الأمن والحرية والاستقلال وراحة الفكر والبدن فإنّ التكاليف الربانية جلها من هذا السنخ الذي نعده الآن وليس فيها ترهب وتبتل إلّا قليل جداً وهذه الجوامع الفقهية شعار هذه الدعوى فإنّ قسم العقود والايقاعات والأحكام لا يشذ عن هذا الحد الذي وقفنا عنده، وأمّا قسم العبادات ففيه موضوع الصلاة والصيام صرفاً قد يكون بظاهره نابياً عن مساق ما بأيدينا من حديث وأمّا مباحث الطهارات والزكوات والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بل والحج فهي ألصق الأشياء بتأمين موارد الاحتياج وتعديل نظام الجوامع تحقيقاً، ومن هنا صح للمتكلم أن يقول بوجوب التكليف على الله سبحانه لطفاً بعباده وتنظيماً لأُمور الجامعة بجميع ما يتعلق بها لا يشذ عن ذلك الحيوان الصامت والموات الهامد.

ثمّ انّ موضوع التكليف وكيفية ايصاله إلى المكلفين لا يعد وفي مقام المشابهة أن يكون كالمدرسة ودروسها ومعلميها وطلابها؛ فالمدرسة هي الجوامع الكونية

والدروس هي الوظائف والتكاليف المحولة على عاتق البشر والمعلمون هم الأنبياء والأوصياء والعلماء والعقول؛ والطلاب هم الأفراد الذين يجوز تحويل الوظائف على عواتقهم من أفراد الناس والغاية من هذا التحصيل هو النجاح والفوز بالكرامة العاجلة والآجلة أو السقوط والتدهور باختيار نفس الطالب كذلك عاجلاً وآجلاً فلنبحث الآن عن كل واحد من المدرسة والمدرسين والدروس والطلاب والأهداف النهائية.

❊ ❊ ❊

المدرسة ولنسمها المدرسة الكونية العالمية

تتأنق معارف اليوم في طرح الخرائط لوضع مدارسها فتجتهد أن يكون محيط المدرسة في أحسن أرض وأرق هواء وأحدث بناء وأبهج منظر وتتزود بمقدورها من اسالة الماء واحداث الجنينات النضرة وغرس الأشجار المونقة وتلتزم بالنظافة جهدها في كل شيء يعود للمدرسة ان في أرضها وان في بنائها وان في الوارد عليها من معلم وتلميذ ومستخدم ذاهبة إلى انّ هذه المميزات تشحذ من ذهن الطالب وتقوي قلبه وتبعث فيه اقبالاً ونشاطاً إلى تلقي الدروس وضبطها وتنحاز به عن موجبات السأم والضجر فاصلة بعيدة وهي قد تحسب لنفسها حساباً كبيراً بهذا التأنق والطلوع بهذه النظرية الحديثة غافلة عن انّ بديع السموات والأرض منذ الأزل اعتز بهذه النظرية لطفاً بعباده فإنّه سبحانه لما أبدع فسحة الكون مجالا تترد في الكائنات وبالأخص الحساسة منها للتزود من خيرات الحياة ودرس مواهبها راعى في هذه المدرسة العظيمة الشأن أهم الأُصول الحيوية والاجتماعية لتموين طلابها وما هو احتياجهم وسداد عوزهم ان من جهة اقامة الأبدان وان من جهة تغذية الأرواح وتنقيح مجاري العقول فأشع في اطباق السموات والأرضين شعل النور الزاهي واسال الماء المتدفق في كل مكان وأنبت الشجر والورد على الربوة وفي الوهدة وفي الأرض السوي وأبدع الطيور المغردة في كل جهة وفتح للعالم من كنوز قدرته ما لا يأتي عليه الكتاب الواسع تعديداً لصنوفه وألوانه صنع ذلك كله وأضعافاً مثله أعداداً لأن يكون هذا الوجود الواسع بكل شيء فيه من أضخم المدارس سعة وآنقها منظراً وأحسنها تربة وأرقها هواء حتى يتسنى لأهل العقول والمشاعر أن تواصل الدراسة في تحقيق هويات الكائنات وما يعطى كل نوع منها بل كل فرد من درس

متقن يدرب العقول على الدرك ويشحذ الأذهان على الفهم ويمنح كل ذي حس من كل منظر ونظرة موهبة جديدة في الفن ودساً مبتكراً في العلم الشهودي.

ـ ولا ريب ـ فإنّ الإنسان إذا أحدّ النظر في كل مخلوق لله يعترض لعينية لقف منه درساً ثميناً عالياً بحيث يستطيع من مواصلاته الدراسية في هاته المخلوقات التي لا تحصى كثرة وتفاوتاً في الغرائز والطبائع والمواهب أن يجيء أبلغ عالم في علماء الجامعة تفنناً وسعة اطلاع وطول باع وأن يكون أشخص انسان في فنون الفلسفة والطبيعة ومعرفة هويات المواليد الثلاث الحيوانات والنباتات والجمادات والدرس في هذه المدرسة لا يحتاج إلى أكثر من حسن الالتفات والدقة في النظر فلا يحتاج إلى شراء كتاب أو اقتناء مكتبة أو فراغ أوقات أو مراجعة معلم أو خرج أموال أو عطلة من اشغال أو هجرة من مكان إلى مكان كما تقتضي المدارس الكسبية ذلك واضعافاً مثله على انّ الممارسة في المدرسة الكونية تعطي الإنسان أنواع الفنون والعلوم خصوصاً علم الاجتماع الذي عليه مدار نظام الجامعة من معاملاتها وأحكامها وسياساتها كما انّ تعاليم هذه المدرسة بمفردها جد كافية في اتمام الحجة من الله سبحانه على كافة مخلوقاته القابلة لاعتناق التكاليف والوظائف لكن مع ذلك من باب مزيد البيان وتقرير الابلاغ تلطف الباري سبحانه وراء الطافه التي لا تحصر بارسال المبلغين حتى يشفعوا لسان الحجج القائمة من مظاهر الكون والحياة بلسان شارح معبر لا يحتمل فيه أقل سكوت عن بيان الحق ولا عجز عن تعبير المقاصد ولا قلة بضاعة في أسواق العلم كما لا يتصور فيه تسامح وتساهل في مقام الارشاد والتبليغ أو عصبية وحمية تنحاز به إلى فريق دون فريق وجانب دون جانب أو كذب وتدليس في الدعاية إلى الحق وترويج الحقيقة أو جبن وخوف من الحوادث التي يحتملها كل مبلغ في طريق تبليغه ما لا يرتبط بكل عاطفة وروية

وزودهم مع ذلك بمعلومات ثرة من بضاعته الخاصة التي لا توجد في حقيبة أي انسان يفرض تقريباً للناس من أُفق الواقع ووقوفاً بهم على جوهر الحقائق، وأضاف على كل ذلك البراهين التي يكشفها لأنظار النظار دعامة لصدقهم في مدعياتهم والمعجزات التي يظهرها على أيديهم تثبيتاً لقلوبهم وتشييداً لقواهم وجلباً لاذعان الناس بما يقولونه ويخبرون به ويبرمونه وينقضونه؛ ومن هنا نتحدث:

(عن المدرسين)

كذلك تشترط معارف اليوم أن يكون المدرس في مدارسها خريج جوامع وكليات موثوقاً بتربيته معتبراً في جنبة أخلاقه وآدابه مصوناً في عرضه وناموسه بعيداً عن الرذائل قريباً من الفضائل ولكنها لم تتوفق لاحراز هذه الشروط إلّا في الشاذ النادر من أساتذتها وان مدير مدرسة الكون جلّ وعلا يشترط في أساتذة مدرسته أكثر مما تشترط المعارف الجديدة فيشترط:

أوّلاً: تمام الخلقة وأن لا يكون مصاباً بعاهة حتى لا تشمئز منه الأنظار في بادء نظراتها.

وثانياً: رشد الفكر والبنية حتى يكون قوياً في مقام التعليم ناهضاً بأعباء ما حمل به من وظيفة.

وثالثاً: حسن معروفيته وسمعته بين الناس حتى يكون من أوّل وروده في المدرسة محل اعتبار واعتماد.

ورابعاً: أن يكون في باطنه وظاهره واحداً طاهراً طيباً حسن المنويات في الرتبة الأُولى من صفوف البشر.

وخامساً: أن يكون معصوماً من كل ما يحط بالكرامة أمام الخالق والمخلوق.

وسادساً : أن يقوم بجميع واجبات المدرسة وما تحتاج إليه علمياً ولا يوجد وراء هذه الجامعية للمزايا والمواهب معنى يمكن تصوره في جامعة البشر حتى يستدركه الإنسان على مدير مدرسة الكون العالمية .

ومصاديق هذه العناوين الضخمة هم أنبياء الله سبحانه ورسله الذين ابتعثهم واحداً واحداً لتنظيم امور الناس وشؤون الجامعة مادياً ومعنوياً لمصالح الدنيا والآخرة جميعاً ومن بعدهم خلفاؤهم وأوصيائهم المعصومون ومعارف اليوم ان حازت قسطاً واسعاً من بيوت الأموال لتأمين مدرسيها مادياً بتوسع فمدرسوا المدرسة الكونية ينادون بأعلا أصواتهم وما نسألكم عليه أجراً ويعيشون بزهد وقناعة .

(وأمّا الدروس)

فمعارف اليوم إن حذفت منها التعاليم التي استفادتها من جامعة الدين والمتدينين لم تر عندها بضاعة ذات أهمية وخير مختصاتها الرياضيات والعلوم الطبيعية وتكثر فيها ألاعيب الأطفال باسم الرياضة البدنية ، وأمّا العلوم العالية كالنحو والصرف والمعاني والبيان والفقه والأُصول والتفسير والحديث والمنطق والفلسفة والكلام وعلم الأخلاق فذلك مما بعثه أهل الدين من مرقده ودوّنوه في سلاسل متقنة من الكتب وبما انّ الهدف الأعلى للديانات الربانية هو تهذيب النفوس واصلاح الأرواح وتعديل نظام النشأتين وتسيير الجامعة على جادة الحق وتضمين حركاتها وسكناتها بضمان وزين موقور لم تعد تعبأ بالدروس العارية عن هذه الروح كالجغرافيا والهندسة وما مت مت ذلك .

ودونك الآن حديثاً عالياً عن المعلمين وعن الدروس العالية العلمية

أسلفنا بطور اجمالي انّ معلمي مدرسة الله تعالى حائزون على صفات جاؤوا معها في أوّل صفوف البشر بلا استثناء ولا مبالغة فكانوا أصبر ما يكون على الضراء والبأساء يتحملون من الشدائد والأهوال في طريق تبليغهم وارشادهم وتحويلهم أُفق الأفكار من دان إلى عال ما لا يتحمله أي انسان يفرض ولو في منافعه الشخصية الصرفة ويبلغون بلسان وطلاقة وأخلاق لا توجد في أفضل أخلاقيي العالم فتراهم وهم الكبراء الأعاظم في مقاماتهم يتنازلون إلى أخس فرد في أنظار الناس في سبيل تعليمه وتفهيمه واصلاحه وانجاح حاضره ومستقبله في حال انّ أعظم الناس في سبيل تعليمه وتفهيمه واصلاحه وانجاح حاضره ومستقبله في حال انّ أعظم الناس أخلاقاً لا يتنازل عن قسط ما فيه من عظمة إلى البشر السائر من الناس ولو لأهداف تخصه ويهمهم من امور الناس ما لا يهم الناس أنفسهم من خواص شؤونهم وبالأخص ما يتعلق بنشأة الروح والمعنى ولا يزالون يواصلون السير في الترفيه عن عقول الناس وقلوبهم جهد ما يستطيعون حتى يتصلوا من وراء المثابرة والاصرار على الدعوة بما هو هدفهم ولكن بعد جد وتشمير لا يقوم معهما الحديد الشديد، إذاً فلا يدع إذا شاد الله سبحانه بذكرهم وبجلهم غاية التبجيل وواصل ذكرهم في كل كتاب أنزله ومنشور فصله وشكرهم على جهودهم شكراً له قيمته الغالية ورفع من أقدارهم بما ميزهم عن كل فرد من أفراد مخلوقاته وخصصهم بمميزات ليس لغيرهم وجعلهم في جبهة الدهر عنواناً ولكافة بني الإنسان شرفاً وفخراً فقال سبحانه في شأن نوح ودعوته الاصلاحية لقومه:

(الأعراف ، آية ٥٨) ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ أي إلى الجيل الذي عاشرهم وباشرهم ﴿ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ فإنّ التوجه إلى مبدأ الكائنات وكيفية خروج المخلوقات من كتم العدم إلى حيّز الوجود والجهات الواصلة بين الخالق والمخلوق وما هو مقصود الله سبحانه في بسطه لهذا الوجود مما يثمر للانسان عقلاً دراكاً وفهماً عالياً ونفساً نورانية ويميت فيه روح التوحش والحيونة ويقطعه عن الرذائل ويقربه من الخيرات بلا شبهة فإنّ الفوارق التي توجد مكشوفة بجلاء بين العرفاء الأخيار الذين تسعد بهم الأرض والسماء لحبهم الخير لكل أحد وبين الماديين البعيدين عن كل رحمة الذين لا يزالون شقاء الأرض والسموات جميعاً لاقتصارهم بالخير كله على أنفسهم فقط مثارها الوحيد معرفة الله وانكاره هو وكل رحمة وعاطفة تترشح منه .

﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إذا انحرفتم بمجاري عقولكم عن السير في المبادىء الرحمانية وهذا العذاب المتوعد به عذابان عذاب في النشأة الأُولى فإنّ الجري المادي العاري عن الرحمة عذاب مستمر لا انقطاع له وعذاب في النشأة الأُخرى فإنّ المتعنت اللجوج يؤدب .

(آية ٥٩) ﴿ قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ ﴾ لبعدهم عن كل معرفة وانتباذهم عن مقام عقولهم وإلّا فأقل التفات إلى عوالم الفكر مما يدعو إلى اللين في الجواب والأدب في الخطاب خصوصاً في مقابل الداعية الروحاني الذي لا يريد مزاحمة ماديات الناس التي هي أهم الأشياء عندهم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أي منحرفاً عن جادة الصواب بدعوتك ايانا إلى ما ليس نعرف ولا بدع إذا قالوا ذلك بعد أن قصروا شراشر وجودهم على المأكول والملبوس والمشروب وما إلى ذلك بسوء اختيارهم وإلّا فكافة أفراد البشر لم يحرمهم خالقهم من موهبة الادراكات العالية التي يتصلون بها إلى ما وراء هاته الماديات المستحقرة .

(آية ٦٠) ﴿ قَالَ ﴾ في جوابهم مراعياً لنقاط الأدب حتى كأنّه ليخاطب من هو فوق منه في شخصيته وأدبه: ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ ﴾ أي انحراف عن جادة الحق وشريعة الصواب ﴿ وَلَٰكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ﴾ حملني رسالة الحق اليكم لأنقذكم من هوة الجهل وأرفعكم إلى علالي الفضل رحمة منه بكم واشفاقاً منه عليكم.

(آية ٦١) ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللّٰهِ مَا لَاتَعْلَمُونَ ﴾ لأنّ الله أوقفني على مكنون علمه وأدبني بأدبه وكشف لي عن صفحات الواقع وألزمني ان أكون واسطته اليكم في وصلكم وقربكم منه ووقوفكم على ما يصلحكم في شأني دنياكم واخراكم.

(آية ٦٢) ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ ولا عجب فإنّ ربكم أرأف بكم من أنفسكم وأشفق عليكم منكم ويريد لكم الخير وبكم الاحسان وأن تكونوا قريبين من الحق بعيدين عن الباطل سعداء دنياً وآخرة ﴿ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنْكُمْ ﴾ أي من جنسكم أو من لحمتكم القريبة ولا بدع فإنّ الأشياء إنّما تعرف بمناسباتها والروحيات لا يحيط بها إلّا من هو لصيق بها ولا قربى بين البعيدين ولا اتصال فيما بين الجنسين الممتازين فكيف يكون الملك رسولاً إلى البشر وهو مفطور على سنخية ومخلوق على روحية ليستا من قماش البشر بالمرة.

والهدف من أن يجيئكم ذكر من ربكم على رجل منكم ﴿ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ أي تستوجبون الرحمة من ربكم بهديكم واستقامتكم وحسن مزاولتكم للأمور.

*(آية ٦٣) ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ بعد تلك الاصرارات وانحرفوا عنه بعد تلك المواعظ البليغات ولم يقيموا لتعليمه وزناً بعد تلك المحاورات لجاجة وعناداً وعتواً لا يبرره أي مقام يفرض؛ لذلك ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُ فِي ٱلْفُلْكِ ﴾ اعتزازاً بمقام

ايمانهم ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً عَمِينَ ﴾ أي يتجاهلون بالحقيقة بعد مكاشفتها وينخذلون عن الحق بعد أن يعرفوه، ولا ريب انّ العضو الفاسد يجب استئصاله والمتمرد اللجوج يلزم تأديبه.

ويقول سبحانه في سورة يونس آية (٧١) ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي يا محمّد اتل على قومك ﴿ نَبَأَ نُوحٍ ﴾ وكيفية دعوته لقومه وما لاقى في طريق تبليغه ﴿ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ ﴾ بعدما مرّ منه التذكير لهم والتحذير من مخالفة ربهم الحفي بهم العطوف عليهم ﴿ يَاقَومِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَقَامِي ﴾ بين ظهرانيكم داعياً لكم إلى طريق الرشاد منتحياً بكم عن سبل الغي والفساد ﴿ وَتَذْكِيرِي ﴾ لكم ﴿ بِآيَاتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي لا يهمني من اعراضكم عني لخاصة نفسي شيء فانني واثق بربي متوكل عليه وكفى به ثقة ووكيلاً؛ وإن كنتم عزمتم على مواجهتي بهتك حرمتي ﴿ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ﴾ أي توجهوا إلى من قصد واحد ونية قاطعة ﴿ ثُمَّ ٱقْضُوا إِلَيَّ وَلاَ تُنظِرُونِ ﴾ وهو عليه السلام يفيد بجملته هذه عدم الاكتراث بهم والتفنيد لمزاعمهم بأنّه ومهما أجمعوا أمرهم وشركائهم وتوجهوا إليه عن قصد واحد لا يتمكنون من ايصال الأذى إليه لأنّ الله في حمايته منهم بالمرصاد لهم يمنعه منهم ولو كانوا عدد الرمل والحصى كثرة وأشد من الحديد بأساً.

(آية ٧٢) ﴿ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ ﴾ عني وأعرضتم ﴿ فَمَا سَأَلْتُكُم ﴾ على تبليغي آنفاً ﴿ مِنْ أَجْرٍ ﴾ حتى يفوتني ما أنتظره منكم باعراضكم عني ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ﴾ الذي شاد بمقامي وعزز شأني وقدس موقفي ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾ له الذابين عن كلماته الحائدين عن غيره.

(آية ٧٣) ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ بعد كل التبليغات التي أفادوها في بيان رموز الواقع وتحقيق الحقائق وكشف العمايات والجهالات ﴿ فَنَجَّيْنَاهُ وَمَن مَعَهُ ﴾ من

المؤمنين به العارفين بحقه التابعين لطريقته ﴿ فِي ٱلْفُلْكِ وَجَعَلْنَاهُمْ خَلائِفَ ﴾ وبدلا مكان أُولئك الكفرة واقطعناهم الأرض خالصة لهم ﴿ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ وجعلناهم خبراً بعد شخوص أثر ﴿ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴾ الذين خوفوا من بأس الله وتنكيله فاتخذوه سخرياً ولم يعبأوا به طرفة عين.

ويقول سبحانه في سورة هود (آية ٢٥): ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ ﴾ ليقول لهم ﴿ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ ﴾ من ارتكاب ما لا يجوز في شريعة الله ومصالحه التي أجراها في عباده ﴿ مُبِينٌ ﴾ لكم في بياني عما أُريد ايصاله لكم من الأمر بما لا يصلحكم والنهي عمّا لا يليق بكم وجماع ذلك (آية ٢٦) ﴿ أَن لاَ تَعْبُدُوا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ لأنّه هو وحده المستحق لأن يعبد ويتوكل عليه في أحقر الأشياء وأخطرها وكل من سواه فهو عاجز عن ادارة شؤون نفسه والقيام بمصالح ذاته فضلاً عن الحجر ينحت فيعبد وما تفعله الملاحدة من عبادة البشر والحجر فذلك من أخس توجه العقول انصافاً ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ بانحرافكم عن جانب الله والتمرد على أوامره ونواهيه ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴾ يأخذكم به الله تأديباً وتأنيباً خصوصاً وهو قد أعذر اليكم وأنذر لكم.

(آية ٢٧) ﴿ فَقَالَ ٱلْمَلأُ ﴾ يقال انهم أشراف القوم وساداتهم ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ في جواب خطابه الآنف ﴿ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَراً مِثْلَنَا ﴾ وليس لك امتياز علينا من ناحية الخلقة والصورة حتى تكون مميزاتك الخلقية شعار تقدمك علينا كأن سوانح خواطرهم دلتهم على انّ مدعي الزعامة الروحية لا يصدق إلّا إذا كان منحازاً عن جامعة الأفراد بمميزات صورية تكون فيه ولا توجد فيهم تغافلاً منهم عن انّ مجرى الدعوة الروحية لا يرتبط بأي سمة مادية تفرض ما دام منظوراً فيها العلم والفضل والمعارف وافق هذا التعقل قريب من كل عاقل وان لم يكن مدرباً مهذباً فكيف بعد عنه هذا الجمع فما هو إلّا التجاهل والتمرد، ﴿ وَمَا نَرَاكَ

﴿ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ ﴾ أي لو كنت صادقاً في دعواك لاتصل بك الأشراف لا الذنابى غافلين عن انّ ميادين هذه الدعوة بضاعتها درك المعاني من أي مدرك يفرض وليست مجالاً لمسابقة الأموال وكثرة الرجال وتعدد العمومة والأخوال وما يصطف في مصاف ذلك وهذه البضاعة المرموز اليها يملكها الفقير والغني والضعيف والقوي لأنّها موهبة من الله لم يحرم منها أحداً من مكلفيه فلا طعن على نوح إذا دعى الفقير والضعيف إلى جنبة الروحيات كما دعى الغني القوي إلى ذلك لاشتراك الكل في جامع الدعوة ﴿ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ ﴾ يريدون به فضل المادة وإلّا فهم يدركون بضرورة الحال فضل نوح في منطقه وبيانه وعريض استرساله في كلامه وكأنهم شعروا أخيراً بهذه المؤاخذة تترتب عليهم فأعرضوا عن انكار فضلهم بل اعترفوا بلباقتهم الروحية ولكن اتهموهم بالكذب في دعوتهم هذه إلى الله بقولهم: ﴿ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ ﴾ .

(آية ٢٨) ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي ﴾ تدل على صدق دعوأي إليه ﴿ وآتَانِي رَحْمَةً مِنْ عِندِهِ ﴾ وهي المعجزات اؤتاها ﴿ فَعُمِّيَتْ عَلَيْكُمْ ﴾ باعراضكم عن النظر في وجه اعجازها ﴿ أَنُلْزِمُكُمُوهَا ﴾ أي وجوه المعرفة ﴿ وَأَنتُمْ لَهَا كَارِهُونَ ﴾ فإنّ اقبال النفس وحضور الذهن إلى التعقل شرط أساسي وحتى في درك البديهيات بالضرورة .

(آية ٢٩) ﴿ وَيَا قَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُم عَلَيْهِ ﴾ أي على التعليم والتبليغ ﴿ مَالاً ﴾ وأجراً حتى تتهموني بأني مادي في صورة أب روحي أو حتى يلويكم اعتزازكم بالمال عن الاصاخة لتعليماتي ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ﴾ الذي تكفل برزقي وحفظي وجزائي في الآخرة بالجزاء الموفور ﴿ وَمَا أَنَا بِطَارِدِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ لأنّهم أراذل باعتباركم ولذلك لا تتصلون بي ترفعاً عن مخالطتهم وعدهم معكم في صف واحد ﴿ إِنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ﴾ الذي دعاهم إليه بدعوته فأجابوه ﴿ وَلَٰكِنِّي

أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ بسؤالكم الشيء الخارج عن عهدتي البعيد التناول بالنسبة إليّ وهو طرد المؤمنين عن ايمانهم نزولاً على رغباتكم الزائفة وأنظاركم الخاطئة.

(آية ٣٠) ﴿ **وَيَا قَوْمِ مَن يَنصُرُنِي مِنَ ٱللَّهِ إِن طَرَدتُّهُمْ** ﴾ فإنّ طرد الراغب في الحق عن شريعة الحق ظلم لا يعادله ظلم ﴿ **أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ** ﴾ أي أفلا تراجعون عقولكم في هذا الأمر أتجوز لكم ارتكابه أم لا.

(آية ٣١) ﴿ **وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ** ﴾ عند ما أدعوكم إلى الله ﴿ **عِندِي خَزَائِنُ ٱللَّهِ** ﴾ فأنا من أُولي الثروة الطائلة والأموال الممدودة حتى أعطيكم منها ﴿ **وَلاَ** ﴾ أقول لكم انني ﴿ **أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ** ﴾ حتى تستفيدوا مني علم ما خفي عليكم من صحة ومرض وربح في تجارة وما أشبه ذلك مما يعود للمنافع الشخصية المادية ﴿ **وَلاَ أَقُولُ إِنِّي مَلَكٌ** ﴾ أي لست من جنسكم زعماً منكم انكم لا تصدقون بمدعى الرسالة إلّا إذا كان ملكاً لا بشراً ﴿ **وَلاَ أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَن يُؤْتِيَهُمُ ٱللَّهُ خَيْراً** ﴾ فإنّ الملاك الذي يه يزدري الله العبد ليس هو الملاك الذي في أنفسكم من كون الإنسان فقيراً مملقاً ومقلاً من الأعمام والأخوال والسلاح والرجال والأموال بل هو الانحراف عن شوارع الحق والميل إلى جانب الظلم وهؤلاء الذين تزدري أعينكم جادون في شوارع الحقائق مائلون إلى الايمان بعيدون عن جانب الظلم والعدوان فهم أهل الله وأهل الخير ﴿ **ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا فِي أَنفُسِهِمْ إِنِّي إِذاً لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ** ﴾ أي مآل هؤلاء ومعاملتهم مع الله فهو أدرى بدخائل صدورهم وعلى هذه المنويات يعاملهم وانني ظالم لنفسي أوّلاً ولهم ثانياً إذا قلت في حقهم انّ الله لا يؤتيهم خيراً لأنّ ذلك اجحاف بحقوق المستحقين وتحكم على الله في أمر سلطانه.

ولما رأى الجمع أن لا طاقة لهم بمحاكمة نوح من وجهة المنطق وقول

الصواب (آية ٣٢) ﴿ قَالُوا يَانُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَـنَا ﴾ ونحن لا نتضعضع عن رويتنا بمثل هذه المطارحات ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من تعذيب الله لنا ان لم نقبل منك ﴿ إِن كُنْتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ فيما تقول، (٣٣) ﴿ قَالَ إِنَّـمَا يَأْتِـيكُم بِـهِ ٱللَّـهُ إِن شَاءَ ﴾ لا أنا ﴿ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ الله فإنّ الله ذو قدرة واسعة لا تـقوم أمـامها طلباتكم ومهما عظمت .

(آية ٣٤) ﴿ وَلاَ يَنفَعُكُمْ نَصْحِي إِنْ أَرَدْتُّ أَنْ أَنـصَحَ لَكُـمْ إِن كَـانَ ٱللَّـهُ يُـرِيدُ أَن يُـغْوِيَكُمْ ﴾ أي أن يعطف بلطفه عنكم ولا يسهل عليكم طريق التعرف بالخيرات فإنّ الله سبحانه إذا وجد عبده معتزلاً بنفسه عن ربه منحرفاً عن صوبه قلل مـن عنايته به وصرفه إلى نفسه ومتى ما انصرف الإنسان إلى نفسه بعد عن عقله ولبه ومن يبعد عن عقله ولبه لا يعود يعرف الحق ولا العمل بالحقيقة ولا التوجه إلى صوب الخيرات ومتى صار بهذه المنزلة عقم تأثير النصائح في حقه وانقطع طريق العلم إلى قلبه فجاء كالحجر القاسي وهذا معنى اغواء الله له وعدم تأثير النصائح فيه ﴿ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ والحوالة بتعذيبكم أو الصفح عنكم إليه .

(آية ٣٥) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ ﴾ أي اختلق حديث تعذيب الله لنا ان لم نؤمن بدعوته ﴿ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرَامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُـجْرِمُونَ ﴾ في قـبال ربكـم بعبادتكم لغيره واصراركم على الالحاد به .

(آية ٣٦) ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ ﴾ انك قد أعذرت وأنذرت ووعظت وبالغت في النصيحة و ﴿ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَـدْ آمَـنَ ﴾ ولا انـتظار بـالباقين ﴿ فَـلاَ تَبْتَئِسْ ﴾ ولا تحزن ولا تتأسف ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ من اللجاجة أمـام الحـق والعناد قبال التبليغ الصادق .

(آية ٣٧) ﴿ وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا ﴾ مع توجهنا الخاص لك كما تقول لتلميذك اعمل هذا العمل أمامي وأنا أنظر مريداً به اتـقان العـمل ووقـوعه عـلى وجـه

الصواب لا محالة ﴿ **وَوَحْيِنَا** ﴾ أي وتعليمنا لك كيفية الصنع ﴿ **وَلاَ تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا** ﴾ أي ولا تخاطبني في ارخاء العنان لهم أكثر مما مضى عليهم ﴿ **إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ** ﴾ بقضائي عليهم ذلك.

(آية ٣٨) ﴿ **وَيَصْنَعُ** ﴾ نوح ﴿ **الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ** ﴾ لأنّه كان يعمل السفينة في الأرض اليباب حيث لا نهر ولا بحر ﴿ **قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا** ﴾ فعلاً ﴿ **فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُم** ﴾ عندما تأخذكم الأمواج المتلاطمة حيث لا عاصم لكم إلّا الله وهو الذي حكم عليكم بالاغراق لشديد تعنتكم ﴿ **كَمَا تَسْخَرُونَ** ﴾ منا الآن بصنع السفينة في الأرض اليباب.

(آية ٣٩) ﴿ **فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ** ﴾ عندما يأخذ الماء بقلل الجبال ﴿ **مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُقِيمٌ** ﴾ لا انقطاع له وهو اتصال عذابكم الدنيوي بعذاب الآخرة الذي لا انتهاء له.

(آية ٤٠) ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا** ﴾ باغراقهم ﴿ **وَفَارَ التَّنُّورُ** ﴾ بالماء اعجازاً وطبق الماء وجه الأرض حتى أخذ بقلل الجبال ﴿ **قُلْنَا** ﴾ لنوح ﴿ **احْمِلْ فِيهَا** ﴾ أي في سفينتك ﴿ **مِن كُلٍّ** ﴾ من مخلوقات عصرك ﴿ **زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ** ﴾ ذكراً وانثى ابقاءً لأصول التناسل وإن كان ابداع خلق جديد من أسهل الأُمور على الله سبحانه كما كان بدأ الخلقة كذلك ﴿ **وَ** ﴾ احمل ﴿ **أَهْلَكَ** ﴾ أيضاً ﴿ **إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ** ﴾ منا بالاغراق ﴿ **وَ** ﴾ احمل ﴿ **مَنْ آمَنَ** ﴾ معك أيضاً في السفينة ﴿ **وَمَا آمَنَ مَعَهُ** ﴾ على طول المدة وبعد مسافة التبليغ ﴿ **إِلَّا قَلِيلٌ** ﴾ وهذا اشعار بمزيد تعنت قومه وانصرافهم عن جانب الحق بطور مستغرب.

(آية ٤١) ﴿ **وَقَالَ** ﴾ نوح لركاب سفينته ﴿ **ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِيْهَا وَمُرْسَاهَا** ﴾ هذه مقالة تقال للتيمن والتبرك ﴿ **إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ** ﴾ بعباده ومن رحمته بهم أن يهيأ لهم ما به خلاصهم كالأسباب التي هيأها للمؤمنين به منا.

(آية ٤٢) ﴿ وَهِيَ ﴾ أي السفينة ﴿ تَجْرِي بِهِمْ ﴾ أي بـركابها ﴿ فِـي مَـوْجٍ ﴾ عظيم ﴿ كَالْجِبَالِ وَ ﴾ عند ذاك ﴿ نَادَىٰ نوحُ ٱبْنَهُ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ ﴾ عنه في العقيدة وفي المكان أيضاً ﴿ يَا بُنَيَّ ﴾ آمن بالله و ﴿ ٱرْكَبْ مَعَنَا وَلاَ تَكُـن مَـعَ ٱلْكَـافِرِينَ ﴾ المحكوم عليهم بالاغراق لكفرهم.

(آية ٤٣) ﴿ قَالَ ﴾ ابنه في جوابه ﴿ سَآوِي إِلَىٰ جَبَلٍ يَـعْصِمُنِي مِـنَ ٱلْـمَاءِ ﴾ ولا أحتاج الايمان بربك وسيلة لنجاتي ﴿ قَالَ لاَ عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ﴾ وعذابـه ﴿ إِلَّا مَن رَحِمَ ﴾ وتلطف عليه بـالخلاص ودوام البـقاء ﴿ وَحَـالَ بَـيْنَهُمَا ﴾ الأب والابن ﴿ ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴾.

(آية ٤٤) ﴿ وَ ﴾ عندما تمّ قضاء الله سبحانه باغراق مـن حكـم عـليهم بـه ﴿ قِـيلَ ﴾ والقائل هو الله سبحانه لأنّ مثل هذا القول لا يكون من غـيره لقـصور قدرة كل قادر عن قدرته الواسعة ﴿ يَا أَرْضُ ٱبْلَعِي مَـاءَكِ ﴾ كما خرج منك بادئاً بالفوران ﴿ وَيَا سَماءُ أَقْلِعِي ﴾ من ارسال الماء شآبيب ﴿ وَغِيضَ ٱلْمَاءُ ﴾ أي ذهب كأن لم يكن بعدما كان موجه كالجبال عظمة وارتفاعاً ﴿ وَقُـضِيَ ٱلْأَمْـرُ ﴾ مـن تنكيل الجاحدين والابقاء على المؤمنين ﴿ وَٱسْتَوَتْ ﴾ السفينة ﴿ عَلَى ﴾ جبل يقال له ﴿ ٱلْجُودِيِّ وَقِيلَ ﴾ والقائل هو الله سبحانه ويصح هذا القول من كل مؤمن منصف ﴿ بُعْداً لِلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ الذين أدى بهم ارتكاب الظلم إلى هذه العواقب الوخيمة أعاذ الله منها كل ذي شعور وهذه القطعة من أمتن كلام يسمعه عـارف بتراكيب العرب.

وقال سبحانه في سورة الشعراء (آية ١٠٥): ﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْـمُرْسَلِينَ ﴾ أي انهم لما كذبوا رسولهم نوحاً فكأنما كذبوا المرسلين جميعاً لاشتراكهم فـي الهدف الذي يقصدون إليه وهو توحيد الله سبحانه وتزكية الأخلاق.

(آية ١٠٦) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلاَ تَتَّقُونَ ﴾ أي تخافون مـغبة العـصيان

والتمرد على الله بتكذيبكم رسل ربكم فيما يدعونكم إليه .

(آية ١٠٧) ﴿ **إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ** ﴾ أي فلا تتهموني فيما أدعوكم .

(آية ١٠٨) ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ فيما أنصحكم به .

(آية ١٠٩) ﴿ **وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ** ﴾ أي على التبليغ ﴿ **مِنْ أَجْرٍ** ﴾ حتى تتهموني على الطمع أو يصدكم بذل المال عن اتباعي لانكم تجدون فيه ضرراً يتوجه اليكم ﴿ **إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ على اني لا اريد منه أجر المادة وإنّما أتوقع منه الرضوان والمغفرة والاحسان يوم الجزاء يوم لا ينفع مال ولا بنون .

(آية ١١٠) ﴿ **فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ** ﴾ كرر عليهم هذه المقالة تأكيداً وتثبيتاً .

(آية ١١) ﴿ **قَالُوا** ﴾ في جوابه ﴿ **أَنُؤْمِنُ لَكَ** ﴾ مستنكرين ذلك ﴿ **وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ** ﴾ أي لأنّ أراذلنا يريدون بهم الفقراء ومن لا سمعة لهم آمنوا بك ويشين علينا أن نقف في صفوفهم ونعد في عدادهم ونشترك معهم في سمة واحدة بانهم مؤمنون ونحن مؤمنون .

(آية ١١٢) ﴿ **قَالَ** ﴾ لهم نوح ﴿ **وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا** ﴾ قبل الايمان بكلمة ربهم ﴿ **يَعْمَلُونَ** ﴾ حتى أسمهم بالرذالة والجلالة بل غاية علمي بهم انهم اصغوا إلى كلمات الله وأحسنوا تلقيها وهذا لا يجوز أن يقف في طريق تصديقكم بكلمات ربكم حجر عثرة .

(آية ١١٣) ﴿ **إِنْ حِسَابُهُمْ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ** ﴾ أي وما يهمكم ما كانوا عليه من رذالة وجلالة بعد ان لم يحشروا معكم في جامعة دنيا لبعدكم عنهم مباشرة ومعاشرة ولا يقترنون بكم في الآخرة بعدما كان حسابهم على ربهم وحسابكم على ربكم وكل يجزى بما يحاسب عليه .

(آية ١١٤) ﴿ **وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ تقرباً من عواطفكم .

(آية ١١٥) ﴿ **إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ** ﴾ أنذر جميع بلا خصوصية لفرد على آخر

وأُبيّن لهم ما يصلحهم من ارتكاب ازاء المعاش والمعاد .

(آية ١١٦) ﴿ قَالُوا ﴾ بعد أن فلجوا بحججه ولم يستطيعوا أمام بيانه برهاناً ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَانُوحُ ﴾ عنا بدعوتك ﴿ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ أي تلحقك منا أذية ونبارزك مبارزة شديدة .

(آية ١١٧) ﴿ قَالَ ﴾ نوح بعد أن ضاق بهم ذرعاً ﴿ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴾ تكذيبهم له كان سابقاً ولكن كان يداريهم ويجاملهم علّما تحصل منهم نتيجة صالحة .

(آية ١١٨) ﴿ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحاً ﴾ تخلص به أحدنا من صاحبه وتريح بعضنا من بعض ﴿ وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذين استجابوا لي بدعائي لك . (آية ١١٩) ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ ﴾ .

(آية ١٢٠) ﴿ ثُمَّ ﴾ أي بعد أن حملنا في الفلك البرىء من عذابنا ﴿ أَغْرَقْنَا بَعْدُ الْبَاقِينَ ﴾ المستحقين له .

وقال سبحانه في سورة نوح (آية ١) : ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ إن كان أراد سبحانه بالعذاب الأليم المذكور عذاب الآخرة فمعنى الآية خوف قومك من ارتكاب ما يستوجبون به عذاب يوم القيامة وإن أراد به العذاب الذي قضاه عليهم في مكنون علمه في الدنيا جزاء كفرهم به وتمردهم عليه فمعناها أتمم عليهم الحجة وأظهر ما في مكنونات صدورهم حتى يتجلى لهم انّ ما قضيناه عليهم من عذاب لم يكن عن تشه وتخرص .

(آية ٢) فامتثل نوح أمر ربه فـ ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ وبين جهة انذاره وهدفه في دعوته فقال (آية ٣) ﴿ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴾ فعبادته بما يرسمه لكم من طريق تسلكون على سننه وامّا تقواه فهو خوفه في كل ما يخوفكم به من واجب تأتونه فأنتم خافوا من مخالفته ومن محظور تذرونه

فأنتم حاذروا من ارتكابه وامّا اطاعتي فهو خضوعكم لكل ما آمركم به وأنهاكم عنه باعتباري ممثلاً عن الله سبحانه وكافلاً لنظامكم الذي تسعدون به دنياً وآخرة.

(آية ٤) فإذا عبدتم الله واتقيتموه وأطعتموني ﴿ يَغْفِرْ ﴾ الله ﴿ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ ﴾ يجوز أن تكون ـمن ـبيانية فمعناه يغفر لكم ذنوبكم ويجوز أن تكون تبعيضية فمعناه يغفر لكم ذنوبكم السالفة منكم ﴿ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى ﴾ أي لا يقصر من أعماركم ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّـهِ ﴾ النهائي ﴿ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾.

(آية ٥) ﴿ قَالَ ﴾ نوح ﴿ رَبِّ إِنِّي ﴾ امتثلت أمرك و ﴿ دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلاً وَنَهَاراً ﴾ غير وان ولا متساهل.

(آية ٦) ﴿ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي ﴾ إليك ﴿ إِلَّا فِرَاراً ﴾ عنك وعني.

(آية ٧) ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ ﴾ إليك ﴿ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ ﴾ حتى لا يسمعوا خطابي ﴿ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ أي جعلوها غشاءً حتى لا يروني ﴿ وَأَصَرُّوا ﴾ على العناد ﴿ وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً ﴾ عن الانقياد لك ولي ولا يكون تمرد أشد من هذا الذي وصفه نوح عليه السلام.

(آية ٨) ﴿ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ ﴾ إلى الحق ﴿ جِهَاراً ﴾ بحيث لا حجاب بيني وبينهم ولا حياء أستتر به عنهم لتتم عليهم الحجة وتبلغ من لم تبلغ منهم الدعوة.

(آية ٩) ﴿ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَاراً ﴾ أي داولتهم بكلّ ما يحتمل معه التأثير فلم يتأثروا.

(آية ١٠) ﴿ فَقُلْتُ ﴾ لهم تنكبوا عن هذه المزالق التي أنتم معنيون بها ومرتكبون لها و ﴿ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ بعد خطيئتكم ﴿ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴾ لعباده الذين يتنصلون من ذنوبهم.

(آية ١١) و ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّماءَ عَلَيْكُم مِدْرَارا ﴾ ليمهد لكم الزرع ويقيم الضرع وينعشكم أيّما انعاش.

(آية ١٢) ﴿ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ ﴾ تتسعون بها ﴿ وَبَنِينَ ﴾ ترتفقون بهم ﴿ وَيَجْعَل لَكُمْ جَنَّاتٍ ﴾ تتمتعون بها ﴿ وَيَجْعَل لَكُمْ أَنْهَاراً ﴾ تستفيدون منها ما تريدون.

(آية ١٣) ﴿ مَا لَكُمْ ﴾ عصيين على الداعي فـ ﴿ لاَ تَرْجُونَ ﴾ من أنفسكم لعتوها ﴿ لِلَّهِ ﴾ وهو أعظم ما يتصور ﴿ وَقَاراً ﴾ وتعظيماً.

(آية ١٤) ﴿ وَ ﴾ هو للبرهنة على عظمته وعلوّ شأنه ﴿ قَدْ خَلَقَكُمْ ﴾ كما خلق غيركم ﴿ أَطْوَاراً ﴾ في كل شيء فلا ترى انساناً نظير الإنسان الآخر في تخطيط صورته وسمات خلقته وطرز تفكره وكمية ما عنده من مال ومنال ورجال وما هو عليه من صحة ومرض وسراء وضراء وما إلى ذلك ليدل بذلك على واسع قدرته وباهر صنعته وعظيم حكمته.

(آية ١٥) ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقاً ﴾ برهاناً على عظيم شأنه واقامة لمصالح العباد وتنظيم امور البلاد ولغير ذلك من الشؤون التي لا ندركها.

(آية ١٦) ﴿ وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ ﴾ أي في السماوات ﴿ نُوراً ﴾ تستفيد منه الأرض فضلاً عن غيرها ﴿ وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجاً ﴾ يشع على العالم العلوي والسفلي ويغذي الكائنات بالحياة.

ثمّ انّ الله سبحانه عقب مقالات نوح حيث انتهت إلى هذه النقطة الفارعة ببيان ما لله من اعجاز في الأرض والسماء بمقالة نفسه حيث قال (آية ١٧): ﴿ وَٱللَّهُ أَنبَتَكُم مِنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتاً ﴾ أي أبدعكم منها ابداعاً كما أبدع النبات وغيره.

(آية ١٨) ﴿ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا ﴾ أي في الأرض بعد الموت ﴿ وَيُخْرِجُكُمْ

إِخْرَاجاً ﴾ ببعث يوم القيامة للحساب.

(آية ١٩) ﴿ **وَاللَّهُ** ﴾ لأجل تمهيد امور الحياة لكم وتنعيمكم بشتى أنواع النعم ﴿ **جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بِسَاطاً** ﴾ أي مبسوطة.

(آية ٢٠) ﴿ **لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا** ﴾ في قضاء أشغالكم وتأمين احتياجاتكم ﴿ **سُبُلاً فِجَاجاً** ﴾.

ثمّ انّه سبحانه بعد أن بلغ عباده ببيان عن بعض قدرته ورحمته ونعمته أتم من حيث قطع قصة نبيه نوح فقال (آية ٢١): ﴿ **قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَاراً** ﴾ أي انّ الأفراد اتبعوا أهل النفوذ فيهم من متمولين ومتنفذين هؤلاء الذين لم تزدهم هذه النعم الربانية التي أعطوها إلّا طغياناً على من تفضل بها وأعطاها.

(آية ٢٢) ﴿ **وَمَكَرُوا** ﴾ لاغواء اولئك الضعاف ﴿ **مَكْراً كُبَّاراً** ﴾ وجاؤوهم بشتى الحيل حتى لا يتبعوا خطوات رسولك اليهم.

(آية ٢٣) ﴿ **وَقَالُوا** ﴾ أي هؤلاء المتنفذون لأُولئك الضعاف ﴿ **لاَ تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ** ﴾ نزولاً على رغبة نوح بعبادة الله الذي يدعوكم إليه ﴿ **وَلاَ تَذَرُنَّ وَدّاً وَلاَ سُوَاعاً وَلاَ يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْراً** ﴾ هؤلاء الذين قطعتم أعماركم على عبادتهم كما كان آباؤكم يعبدونها.

(آية ٢٤) ﴿ **وَقَدْ أَضَلُّوا** ﴾ أي الملأ المتنفذون أضلوا ﴿ **كَثِيراً** ﴾ بزخارفهم هذه ﴿ **وَلاَ تَزِدِ** ﴾ يا ربي ﴿ **الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلاَلاً** ﴾ أي تحيراً في أودية التيه لأنّهم مصرون على العناد لا بشيء يعود عليهم بالنفع حتى يعذروا من أجله.

(آية ٢٥) ﴿ **مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ** ﴾ أي لأجل خطيئاتهم المتكاثرة ﴿ **أُغْرِقُوا** ﴾ بسبب الطوفان ﴿ **فَأُدْخِلُوا نَاراً** ﴾ أي نار جهنم التي آووا اليها ﴿ **فَلَمْ يَجِدُوا لَهُم مِن دُونِ اللَّهِ أَنصَاراً** ﴾ يمنعونهم من الاغراق والاحراق ويحولون بينهم وبين الله.

(آية ٢٦) ﴿ وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لاَ تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَافِرِينَ ﴾ وهم كافروا زمانه ﴿ دَيَّاراً ﴾ لشدة ما لاقى منهم من عتو وضلال وعناد .

(آية ٢٧) ﴿ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ ﴾ وتبق منهم باقية ﴿ يُضِلُّوا عِبَادَكَ ﴾ لأنّهم مشغوفون باغواء من يجدونه لين العريكة سمح العاطفة بحيث يرجى منه الايمان ﴿ وَلاَ يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً ﴾ أي يربونه تربية كفر والحاد فلا ينشأ منهم ناشيء إلّا بصفة الكفر والزندقة .

(من هو نوح)

قال الزمخشري ووافقه الطبرسي على انّ نوحاً هو ابن لمك بن متوشلخ بن اخنوخ واخنوخ اسم ادريس النبي ، قيل أُرسل نوح وهو ابن خمسين سنة وكان نجاراً .

يروى انّه لما بعث الله عزوجل نوحاً دعا قومه علانية فلما سمع عقب هبة الله بن آدم من نوح تصديق ما في أيديهم من العلم وعرفوا انّ العلم الذي في أيديهم هو العلم الذي جاء به نوح صدقوه وسلموا له فلما ولد قابيل فإنّهم كذبوه وقالوا، انّ الجن كانوا قبلنا فبعث الله اليهم ملكاً فلو أراد أن يبعث الينا لبعث الينا ملكاً من الملائكة .

وعن أبي عبد الله عليه السلام قال : آمن مع نوح من قومه ثمانية نفر . وفي حديث وهب بن منبه انّ نوحاً عليه السلام كان أوّل نبي نبأه الله بعد ادريس وكان إلى الادمة ما هو دقيق الوجه في رأسه طول عظيم العينين دقيق الساقين طويلاً جسيماً ، دعا قومه إلى الله حتى انقرضت أزمان كثيرة يدعوهم سراً وجهراً فلا يزدادون إلّا طغياناً ولا يأتي منهم قرن إلّا كان أعتى على الله من الذين قبلهم وكان الرجل منهم يأتي بابنه وهو صغير فيقيمه على رأس نوح فيقول يا بني إن بقيت بعدي فلا

تطيعن هذا المجنون وكانوا يثورون إلى نوح فيبرحون به إلى حدّ بعيد فأوحى الله إليه انّه لن يؤمن من قومك إلّا من قد آمن فعند ذلك أقبل على الدعاء عليهم فقال ﴿**ربّ لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً**﴾ فأعقم الله أصلاب الرجال وأرحام النساء ولبثوا زماناً لا يولد لهم وقحطوا في هذه المدة حتى هلكت أموالهم وأصابهم الجهد والبلاء ثمّ قال لهم نوح ﴿**استغفروا ربكم انّه كان غفاراً**﴾ فأعذر اليهم فلم يزدادو إلّا كفراً فلما يأس منهم أقصر عن كلامهم ودعائهم فلم يؤمنوا وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسرا.

يروى عن ابن عباس انّه قال: كانت سفينة نوح ثلاث طبقات طبقة للناس وطبقة للأنعام والدواب وطبقة للهوام والوحوش وجعل أسفلها للوحوش والسباع والهوام وأوسطها للدواب والأنعام وركب هو ومن معه في الأعلى مع ما يحتاج إليه من الزاد.

وتروي عائشة عن النبي ﷺ انّه قال: مكث نوح في قومه ألف سنة إلّا خمسين عاماً يدعوهم إلى الله تعالى حتى إذا كان آخر زمانهم غرس شجرة فعظمت وذهبت كل مذهب فقطعها وجعل يعمل على سفينته وقومه يمرون عليه فيسألونه فيقول أعمل سفينة فيسخرون منه ويقولون تعمل سفينة على البر فكيف تجري فيقول سوف تعلمون فلما فرغ منها وفار التنور وكثر الماء في السكك خشيت اُم صبي عليه وكانت تحبه حباً شديداً فخرجت إلى الجبل حتى بلغت ثلثه فلما بلغها الماء صعدت به حتى بلغت ثلثيه فلما بلغها الماء صعدت حتى استوت على الجبل فلما بلغ الماء رقبتها رفعته بيديها حتى ذهب بهما الماء فلو رحم الله منهم أحداً لرحم اُم الصبي.

ويروى غير ما مرّ انّ الذين كانوا آمنوا به من قومه ثمانون رجلاً.

❊ ❊ ❊

وقال سبحانه في شأن هود من سورة الأعراف (آية ٦٥): ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ أي وبعد أن قضى نوح نوبة تبليغه ومضى هو وجيله واتسعت عـاد فـي أفرادها أرسلنا اليهم أخاهم في اللحمة والنسب هوداً ليعلمهم وينهج بـهم نـهج المصلح المربي فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم في طليعة مقاله ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ حتى تعبدوه فإنّ إله السماء والأرض والأجيال السابقة واللاحقة وإله كل شيء هو الله سبحانه الذي أبدع هذا الوجود بعد أن لم يكن ﴿ أَفَلاَ تَـتَّقُونَ ﴾ أي تخافون مغبة عنادكم لمالك أزمة الكل بعبادتكم لغيره طغياناً وعناداً .

(آية ٦٦) ﴿ قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ في جـواب خـطابه لهـم ﴿ إِنَّا لَنَرَاكَ ﴾ يا هود ﴿ فِي سَفَاهَةٍ ﴾ أي عارياً من الرشد بنهيك لنا عمّا نتخذه فعلاً من عبادات وعادات لكنهم لم يبينوا جهة سفاهته في هذا النهي وكذلك كل متحكم يتكلم عن قوة ﴿ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴾ في دعواك الرسالة عن الله الينا وهذا يحتمل فيه تكذيبهم لمجرد كونه رسولاً مـع اعـترافـهم بـالله وان تـذرعوا إليـه بالأصنام كما يحتمل فيه تكذيبهم للجميع وانهم ملاحدة بلا تردد .

(آية ٦٧) ﴿ قَالَ ﴾ هود في جواب مزاعمهم ﴿ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَـفَاهَةٌ ﴾ ولا قلة رشد وتعقل ولست مسبوقاً بهذه الآفة حتى تتهموني بها ﴿ وَلٰكِنِّي رَسُولٌ مِن رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ موظف من ناحيته أن أمركم بأوامره وأنهاكم عن كلما لا يـريده ومن هنا نهيتكم عن عبادة الأصنام واتخاذها وأمرتكم بالرجوع إلى الله وحده .

(آية ٦٨) ﴿ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي ﴾ من أوامره ونواهيه وسننه وآدابه وكـلما يكلفني تبليغه اليكم مما يعود لمصلحتكم خـاصة ﴿ وَأَنَـا لَكُـمْ نَـاصِحٌ أَمِـينٌ ﴾ لا ترون مني غشاً ولا خيانة وكيف أغشكم وأخونكم وأنتم أبناء جلدتي وفصيلة من نسبي .

(آية ٦٩) ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِن رَبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِـنكُمْ لِـيُنذِرَكُـمْ ﴾ أي

لا عجب في أن يذكركم الله ويدليكم على طرق مصالحكم وينهاكم عمّا لا يليق بمجاري حياتكم من جميع نواحيها ولابد لهذه الدلالة والارشاد من وسيلة تقوم بهما وأحسن الوسائل هو توظيف من له احاطة بهويات وروحيات من يرسل اليهم وبالأخص إذا كان ذا لحمة فيهم حتى يكون منساقاً إلى أداء الواجب لداعيين لا لداع واحد، داعي الرسالة وهي وظيفة يجب القيام بها وداعي العاطفة القومية فإنّ لها أثراً عميقاً في النفوس فالى هنا ثبت ان لا شيء يقتضي عجب القوم من أنزل الله لهم صحفاً يحتذون عليها ولا في ارسال من يقوم بأداء الرسالة نذيراً من فعل السيئات بشيراً بجزيل الثواب على اتيان الخيرات، هذا كله لا عجب فيه ولكن العجب في اتخاذكم الأصنام وهي موجودات ميتة فاقدة لأقل ميزة يجدها حي من الأحياء، ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ أي ولا يغيب عنكم ما فعل الله بقوم نوح لاصرارهم على الكفر وما جعله لكم من وراثة الأرض من بعدهم تتبوأونها مقيلاً هادئاً وما زادكم به عليهم من بسطة في الخلقة والقوة، فاذكروا آلاء الله ونعمه عليكم لعلكم تفلحون إذا جعلتم ذلك على ذكر منكم.

(آية ٧٠) ﴿ **قَالُوا** ﴾ في جوابه مع شدة انحراف عن سنن خطابه ﴿ **أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا** ﴾ انصافاً لقد استبعدوا أمراً عدم تركهم له أولى بالاستبعاد فإنّه لا يستبعد من الإنسان تركه عبادة الشجر والحجر وإنّما المستبعد اصراره على عبادة ما ليس له من الاحترام الواقعي مقدار ذرة ولا قيد شعرة ﴿ **فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا** ﴾ أي نحن لا نعرض عما تنهانا عنه ولا نقبل إلى ما تدعونا إليه فاتنا بما وعدتنا به من عذاب الله لنا إن لم نقلع عن خطتنا ﴿ **إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ** ﴾ في تقول.

(آية ٧١) ﴿ **قَالَ** ﴾ لهم هود إذا كنتم على هذه الروحيات الممقوتة فلا ريب

﴿ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ ﴾ أي حق وثبت عليكم ﴿ مِن رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ ﴾ من قبلكم ﴿ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي لم تأتكم حجة من الله عليها حتى تتخذوها وتعتبروها نفاعة ضرارة ﴿ فَانْتَظِرُوا ﴾ عذاب الله الذي وعدتكم به ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ لوقوع بكم.

(آية ٧٢) ﴿ فَأَنْجَيْنَاهُ ﴾ أي بعد أن حكمنا عليهم بالعذاب أنجينا هوداً ﴿ وَالَّذِينَ ﴾ آمنوا ﴿ مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ خصصناهم بها ﴿ وَقَطَعْنَا دَابِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ﴾ أي معجزاتنا التي أظهرناها على يد رسولنا ضماناً لصدقه وتأكيداً لارساله للقوم المذكورين ﴿ وَمَا كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ بها على ما تملك من دواعي الايمان بها لاعجازها الدال بصراحة على انها أثر مؤثر واسع القدرة والنفوذ بما لا نظير له فيما يحسونه بأبصارهم ويلمسونه بسائر حواسهم.

ويقول سبحانه في سورة هود (آية ٥٠) ﴿ وَإِلَىٰ عَادٍ ﴾ أي وأرسلنا إلى عاد ﴿ أَخَاهُمْ هُوداً ﴾ أي أخوهم في لحمة النسب لا في الروحيات والعقائد فـ ﴿ قَالَ ﴾ لهم بعد تحمل وظيفة الرسالة منا ﴿ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي ادخلوا في دين التوحيد ونبذ الالحاد والشركاء ﴿ مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ أي غير الذات المتصفة بوجوب الوجود والأزل والأبد والقيمومة على كل الموجودات والخالقية لكل الأشياء وان كلّ شيء تراه أبصاركم وتحس به حواسكم ومع ما لا تبصرونه ولا تحسون به جميعاً معلول لها ومترشح من فيضها ﴿ إِنْ أَنتُمْ ﴾ باتخاذكم الشركاء له مما خلقه وأبدعه ﴿ إِلَّا مُفْتَرُونَ ﴾ على الواقع بأنّ الأصنام التي تتخذونها لها شركة في التأثير مع الله سبحانه.

(آية ٥١) ﴿ يَاقَوْمِ لاَ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على دعائي لكم من نبذ الأصنام وعدم الاعتداد بها والاعتقاد بضرّها ونفعها والاقبال على من بيده ملكوت كل شيء ﴿ أَجْراً ﴾ لا أجر مال بأن ترضخوا الي رضيخة أتمول منها أو أعيش بها ولا

أجر تقدير وتعظيم إلّا أن تسوقكم أنفسكم إلى توقير من يرشدكم ويعلمكم وينقذكم من الغواية إلى سبيل الرشد والهداية ﴿ إِنْ أَجْرِيَ ﴾ مالاً كان أو احتراماً ﴿ إِلَّا عَلَى ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ وخلقني وتكفل برزقي كما تكفل برزق كل ما هو بحاجة إلى الرزق هذا فضلاً عن كونه ردأ للصالحين وعوناً للمخلصين ولا ريب انّ الأنبياء في طليعة اولئك ﴿ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ انّ اقتداري وكلما أجده قبل الارسال وبعده منه وحده فهو مدبري والقائم بجميع شؤوني.

(آية ٥٢) ﴿ وَيَاقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ من هذه المعاصي التي ترتكبونها أمام قدس عظمته وفي مقابل جليل منزلته ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ قولاً وعملاً، امّا القول بأن تصارحوا بألسنتكم بتنصلكم مما كنتم ترتكبونه، وأمّا العمل فبأن تأتمروا لطاعة الله بأوامر رسله المبلغين وتنزجروا عن ارتكاب ما لا يرضاه توسط امناءه على وحيه وبعثائه إلى خلقه فإذا فعلتم ذلك وكنتم عباداً لله حقاً معترفين بما له من نفوذ السلطان وما بيده من بسط المنافع ودفع المضار ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَاءَ عَلَيْكُم مِدْرَاراً وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ أي يؤمن لكم أسباب معيشتكم ويزيدكم على ما عندكم من حال ومال ﴿ وَلاَ تَتَوَلَّوْا ﴾ عما أقول لكم وأنصحكم به ﴿ مُجْرِمِينَ ﴾ أي مرتكبين للاجرام والآثام.

(آية ٥٣) ﴿ قَالُوا ﴾ بعد طويل ذلك النصح واتمام تيك الحجج ﴿ يَا هُودُ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ ﴾ وأي بينة أجلى من بينات هود السالفة ولكنهم لاصرارهم على ما هو مغروس في أدمغتهم ومعكوس في نفوسهم يرون تلك النصائح الكافية والبينات الشافية هجراً من القول وطائفة من الألفاظ عارية عن المعاني ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِي آلِهَتِنَا ﴾ التي نعبدها فعلاً ونعدها نفاعة ضرارة ﴿ عَن قَوْلِكَ ﴾ أي لأجل قولك ﴿ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ أي ومهما أدليت بحجة وجئت ببينة فنحن لا ننثني عن خطتنا ولا نلتوي عن مرامنا.

(آية ٥٤) ﴿ إِن نَّقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ ﴾ أي فضلاً عن عدم متابعتنا لك أو انقيادنا لدعوتك نعتقد انّ آلهتنا بكثير ما مسستها بسوء وأذى واستحقار وازدراء أثرت فيك داءً أثره خروجك بوضعك عن أوضاعنا فأنت لا تفتأ تبشر وتنذر وتتصل بهذا وتدعو ذاك وتزاحم نفسك على راحتها وهدوءها واستقرارها ونحن بخلاف ذلك هادءون لا نبغي حولاً عن سنن سلفنا وما شرعه لنا آباؤنا ﴿ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي على أثر عقائدكم الضالة هذه واعتقادكم بالجماد الهامد أو الوحش المتحرك انّه ينفع ويضر ويعطي من أقبل عليه ويمنع من أدبر عنه ولم يعبده اشهد الله كما أُشهدكم على نفسي اني منفصل عنكم وعن عقائدكم الفاسدة تماماً .

(آية ٥٥) ﴿ مِن دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ ﴾ أي وإذا وصلت النوبة بي وبكم إلى ان الهي الذي أدعو إليه لا أثر له عندكم وانّ آلهتكم تضر وتنفع وانها أصابتني بسوء كما تزعمون فاجمعوا جميع قواكم وتكدسوا أُمماً وصفوفاً في مقابلي فاني لا أعيركم أقل نظر ولا أعبأ بجمعكم ومهما كثر ولا بآلهتكم ومهما اتسع أثر قواها بادعائكم ومن هذا يستبين انّ هوداً وكل رسول مثله بل كل معتنق الله ولو من وراء الستار وبمجرد حسن الظن به أتم عدة للعبد الصالح وأقطع .

(آية ٥٦) ﴿ إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُم ﴾ وان كنتم لا تعترفون به كما هو واجبه وبه ابارزكم وأنشط به عليكم ﴿ مَّا مِن دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا ﴾ أي قاهر لها مستول عليها ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ يجزي كلا بما يستحق الكافر بكفره والشاكر على شكره وأنا وأنتم على هذا التقابل في الحادكم به وتوحيدي له ودعوتي إليه .

(آية ٥٧) ﴿ فَإِن تَوَلَّوْا ﴾ أي تعرضون عني وعن دعوتي ﴿ فَقَدْ أَبْلَغْتُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ إِلَيْكُمْ ﴾ من بيان المصالح التي تكفل الحياة الهادءة لكم والمفاسد التي

تضركم وأنتم عنها غافلون ﴿ وَيَسْتَخْلِفُ رَبِّي قَوْماً غَيْرَكُمْ وَلاَ تَضُرُّونَهُ شَيْئاً ﴾ أي انّ كثرة تكراري في نصحكم لم يكن بداعي الاستفادة منكم وليس المقصود إلّا هدايتكم لما يعود ثمره لخاصة أنفسكم وإلّا فالله كما خلقكم يسهل عليه خلق غيركم ليكونوا في أرضه بدلاً منكم وخلفاء بعدكم ولا تضرونه بكفركم به كما لا تنفعونه بايمانكم ﴿ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أي قائم يعلم كلما صدر منكم إلي وإليه وما صدر مني اليكم وفي سبيله وما يصلح عباده وما لا يصلحهم.

(آية ٥٨) ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي قضاؤنا بعذاب هذا الفريق المتعنت ﴿ نَجَّيْنَا هُوداً وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ ولطف بهم احتراماً لمقامهم ﴿ وَنَجَّيْنَاهُم مِنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴾ أصبنا به أعدائهم وأعدائنا بل وأعداء عقولهم.

(آية ٥٩) ﴿ وَتِلْكَ عَادٌ ﴾ جمع بعد تفصيل ﴿ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ ﴾ أي معجزاته وعلائم وجوده القاهر وقدرته الواسعة وقيمومته التامة ﴿ وَعَصَوْا رُسُلَهُ ﴾ هوداً ومن كان على شاكلة هود في الدعوة إلى الله سبحانه ﴿ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴾ من معاصريهم ومجاوريهم الذين حرفوهم عن صوب السعادة جهلاً وعناداً.

(آية ٦٠) ﴿ وَأُتْبِعُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ﴾ بأن صاروا مدعواً عليهم من كل مؤمن عاصرهم أو يأتي بعدهم بالطرد والابعاد تحقيراً لهم وغظاً منهم وان ابلسوا بعذاب من الله لم يبق عليهم ولم يذر ﴿ وَ ﴾ كذلك يطردون من رحمة الله ﴿ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ عَاداً كَفَرُوا رَبَّهُمْ ﴾ هذا التنبيه اشهار بسقوط نفسياتهم ومكابرتهم لدعاتهم إلى الله سبحانه وتخليصهم من مفسدات الحياة النظم الناقصة وعبادة الأوثان ﴿ أَلاَ بُعْداً لِعَادٍ قَوْمِ هُودٍ ﴾ دعاء يقال ولو عقيب التلف اظهاراً لمزيد التنفر وانذاراً للسامعين أن لا يرتكبوا ما يكونون به نظير هؤلاء المدعو عليهم.

وقال في سورة الشعراء (آية ١٢٣) ﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي قبيلة عاد

بتكذيبها لنبيها هود كانها قد كذبت كل رسول من قبل الله .

(آية ١٢٤) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُـودٌ ﴾ في دعوته لهم ﴿ أَلَا تَـتَّقُونَ ﴾ الله أي تخافونه وتحذرون سطوته بالائتمار بأوامره والانتهاء بنواهيه .

(آية ١٢٥) ﴿ إِنِّي ﴾ بدعوتي ﴿ لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ إليكم ﴿ أَمِينٌ ﴾ في حقكم لا أخونكم ولا أغشكم وإنّما هدفي اصلاحكم وايصال السعادة لكم .

(آية ١٢٦) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما أرشدكم إليه .

(آية ١٢٧) ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ ﴿ مِنْ أَجْـرٍ ﴾ مادياً كان أو معنوياً ﴿ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الذي بيده كل شيء ولا يعسر عليه أهم الأشياء .

(آية ١٢٨) ﴿ أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعْبَثُونَ ﴾ مـن هـنا شـرع يـذكر لهـم مـا يرتكبونه من الأخطاء حسب المقارنات الخارجية التي تحتف بهم وبها ينبغي أن توزن حركاتهم وسكناتهم فقال انكم تبنون في الأمكـنة المـرتفعة أبـنية عـالية شاهقة خارجة عن محل حاجتكم ولوانكم صرفتم الوقت والمال والهـمة التـي بذلتموها على هذه الزوائد في تسـديد أُمـوركم الأسـاسية مـن تشـييد مـباني الاعتقادات والعمل عليها وصرف الأوقات في الطاعات والأموال في وجوه البر والاحسان والمصالح العامة عليها وصرف الأوقات في الطاعات والأموال فـي وجوه البر والاحسان والمصالح العامة لكنتم قد أديتم إلى دين الحق كـثيراً مـن وظائفه المحولة على عواتقكم وقمتم بكـثير مـن واجـبات الانسـانية عـليكم وتخطيتم جانب الاسراف والعبث .

(آية ١٢٩) ﴿ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ ﴾ وهي المخازن العظيمة تحت الأرض تتخذ لخزن الماء وفي قول انها الحصون والقصور المشـيدة ﴿ لَـعَلَّكُمْ تَـخْلُدُونَ ﴾ أي كأنكم خالدون لا تفنون فإن قيل انّ المنافع الجارية والخدمات الباقية لا يـلام

الإنسان عليها فإنّ الباني المؤسس وإن كان لا يستوفي بعمره القصير جميع منافع ما أسسه إلّا انّ الجيل الذي يخلفه بعده قريباً له كان أو بعيداً عنه يستفيد من آثار سلفه ما لا يجعل عمله الصادر منه لغواً بل قد يكون صاحب العمل مأجوراً مثاباً بعمله هذا لاستفادة العاجزين والمعوزين منه ومن هذه الجهة حبب الشارع المقدس الصدقات الجارية للناس وهي الفوائد التي تبقى بعد مفيدها يستفيد منها غيره قلنا كل ذلك حق بشرط أن لا تكون هذه الأعمال مما تضر بواجبات صاحبها اللازمة له فإنّ فعل الخير إنّما يلبس هذا العنوان بفراغ ذمة صاحبه من كل واجب عليه لله أو لعباد الله وهؤلاء إنّما ذمهم نبيهم بتهالكهم حول هذه الأعمال لأنّها حجزت بينهم وبين طاعة ربهم وعبادته ومواساة الضعفاء وأداء ما عليهم من حقوق ووظائف ولا يقال للغشوش المدلس المناع لما عليه من حق عن مستحقيه إذا وقف وقفاً في سبيل الله أو خدمة للجامعة من هذا الممر الغير المشرع انّه فعل خيراً بالضرورة القاطعة.

(آية ١٣٠) ﴿ وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ ﴾ أي انكم فضلاً عن كونكم ظالمين تتجاوزون الحد في ظلمكم شأن العتاة الجبابرة الذين يتجاوزون حدود المنطق في كل شيء تجاوزاً فاحشاً.

(آية ١٣١) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ كرر ذلك تنبيهاً لهم وايقاظاً من غفلتهم.

(آية ١٣٢) ﴿ وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعْلَمُونَ ﴾ أحالهم على ما يعهدونه من نعم الله عليهم مجملاً من غير تفصيل لأنّ التفصيل يضيق به عده بل قد يكون لا يحصيها ثمّ أشار إلى بعض منها فقال.

(آية ١٣٣) ﴿ أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَنِينَ ﴾ (آية ١٣٤) ﴿ وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ أي أمدكم بالحيوان الأهلي الذي يسد كثيراً من خلل معائشكم وبالأولاد الذين تنتفعون بكدهم وجدهم وقوتهم وبالجنان الخضرة المثمرة التي تأكلون منها

وتستثمرون المال من معاوضتها وبالعيون الخرارة التي تؤمن حياتكم وحياة أولادكم ومواشيكم وجنانكم وكلما يتوقف على الماء من الموجودات .

(آية ١٣٥) ﴿ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ إذا ابتذلتم جانب الله الذي أحذركم ايّاه .

(آية ١٣٦) ﴿ قَالُوا ﴾ له على طول كلامك معنا ونصحك لنا فيما تزعم ﴿ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَوَعَظْتَ أَمْ لَمْ تَكُن مِّنَ ٱلْوَاعِظِينَ ﴾ أي لا نؤمن لك ولا نتبع قولك ونحن اليوم معك مثلنا قبل ارسالك .

(آية ١٣٧) ﴿ إِنْ هٰذَا ﴾ أي ما نحن عليه من تشييد البناء واتخاذ المصانع والتجبر وعدم الاصاخة لما تدعوا إليه ﴿ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ أي هو بعينه سجية أسلافنا من الأُمم الماضية فلم نكن بفعلنا هذا بدعاً في المخلوق .

(آية ١٣٨) ﴿ وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ كما تزعم لا في دنيانا هذه ولا في الآخرة التي تلهج بها ولا نعرفها .

(آية ١٣٩) ﴿ فَكَذَّبُوهُ ﴾ أي كذبوا هوداً بنفس جوابهم هذا واصرارهم العملي على مخالفته ﴿ فَأَهْلَكْنَاهُمْ ﴾ جزاء تكذيبهم ومكابرتهم لرسولهم ﴿ إِنَّ فِي ذٰلِكَ ﴾ أي في اهلاكهم بعد الاعذار اليهم وتعاصيهم على المنذرين ﴿ لَآيَةً ﴾ أي بياناً واضحاً وعبرة صريحة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ أي مع تيك المواعظ البليغة والآيات البينة لم يؤمن لهود إلّا القليل من قومه .

وقال في سورة الأحقاف (آية ٢١): ﴿ وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ ﴾ أي هوداً ﴿ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِٱلْأَحْقَافِ ﴾ هو منزل قومه وفيه أقوال انّه وأدبين عمان ومهرة أو رمال فيما بين عمان إلى حضرموت أو رمال مشرفة على البحر بالشحر من اليمن أو أرض خلالها رمال ﴿ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ ﴾ إلى الناس ﴿ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ﴾ أي سابقاً على هود ﴿ وَمِنْ خَلْفِهِ ﴾ أي من بعده وهود ومن سبقه ولحقه من الرسل هدفهم الوحيد

الذي يجتمعون إليه ويدورون حواليه هو قولهم لأممهم ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ ﴾ إذا أصررتم على عتوكم وانصرافكم عن الله ربكم وعبدتم غيره أو أشركتم به ﴿ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ في الدنيا وفي الآخرة جميعاً.

(آية ٢٢) ﴿ قَالُوا ﴾ في جوابه ﴿ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ آلِهَتِنَا ﴾ أي ليس في دعوتك لنا إلّا حضنا وبعثنا إلى الانصراف عن آلهتنا التي كان يعبدها أسلافنا وهذا ما لا يكون منا ﴿ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ من تعذيب الله لنا في هذه الدنيا قبل الآخرة إذا لم نطعك ولم نجب دعوتك ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ فيما تعدنا به.

(آية ٢٣) ﴿ قَالَ ﴾ لهم هود أنا لا أعلم بميعاد نزول العذاب عليكم ﴿ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّا أُرْسِلْتُ بِهِ ﴾ اليكم ومن جملته نزول العذاب عليكم إذا انحرفتم عن الله ربكم وكذبتموني في دعوتي ﴿ وَلَٰكِنِّي أَرَاكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ ﴾ باصراركم على نزول العذاب بكم وانحرافكم عن شارع النجاة قصداً وعمداً.

(آية ٢٤) ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ ﴾ أي رأوا ما سألوه من هود بقولهم فاتنا بما تعدنا ولكن لا يعلمون انّه هو بل حسبوه ﴿ عَارِضاً ﴾ أي سحاباً ﴿ مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ ﴾ التي يسكنونها وفيها أنعامهم وزروعهم ﴿ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ﴾ ومنقذنا من الجدب إلى الخصب ومن الموت إلى الحياة عندها قال لهم هود ليس الأمر كما ظننتم فإنّه بعيد عنكم لكفركم بباعث هذا العارض ومنشأه ﴿ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ﴾ وجعلتموه آية صدقي على دعوتي ﴿ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

(آية ٢٥) ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا ﴾ وأحاطت بهم هذه الريح العاصف ﴿ فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ ﴾ منهم شيء يتخذونه ويقتنونه وحتى أنفسهم ﴿ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ﴾ لتبقى من بعدهم آية وعبرة ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كهذا الجزاء ﴿ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴾.

من هو هود

قال الشوكاني : عاد هو من ولد سام بن نوح ، قيل هو عاد بن عوص بن ارم بن شالخ ابن ارفخشذ بن سام بن نوح .

وأخرج ابن أبي حاتم عن الربيع بن خيثم قال كانت عاد ما بين اليمن إلى الشام مثل الذر .

وأخرج ابن عساكر قال لما أرسل الله الريح على عاد اعتزل هود ومن معه من المؤمنين في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلّا ما تلين عليه الجلود وتلتذ به الأنفس وانها لتمر بالعادي فتحمله بين السماء والأرض وتدمغه بالحجارة .

وعن الطبرسي ملخصاً انّ عاداً كانوا ينزلون اليمن وكانت مساكنهم منها بالشحر والأحقاف وهي رمال يقال لها رمل عالج والدهناء ويبرين ما بين عمان إلى حضرموت وكان لهم زرع ونخل ولهم أعمار طويلة وأجساد عظيمة وكانوا أصحاب أصنام يعبدونها فبعث الله تعالى اليهم هوداً نبياً وكان من أوسطهم نسباً وأفضلهم حسباً فدعاهم إلى التوحيد وخلع الأنداد فأبوا عليه وكذبوه وآذوه فأمسك الله عنهم المطر مدة سنين حتى قحطوا وكان الناس في ذلك الزمان إذا نزل بهم بلاء أو جهد التجأوا إلى بيت الله الحرام بمكة مسلمهم وكافرهم فبعثت عاد وفداً إلى مكة ليستسقوا لهم فخرج الوفد إلى مكة يستسقون بها لعاد وكان قيل من عنز رأس وفد عاد فقال يا الهنا إن كان هو صادقاً فاسقنا قد هلكنا فأنشا الله سبحانه سحاباً ثلاثاً بيضاء وحمراء وسوداء ثمّ ناداه مناد من السماء يا قيل اختر لنفسك فاختار السحابة السوداء التي في العذاب فساق الله سبحانه تلك السحابة بما فيها من النقمة إلى عاد فلما رأوها استبشروا بها وقالوا هذا عارض ممطرنا يقول الله عزوجل بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم

فسخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيّام حسوماً أي دائمة فلم تدع من عاد أحداً إلّا هلك.

❊ ❊ ❊

وقال سبحانه في شأن صالح من سورة الأعراف (آية ٧٢): ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ أي وأرسلنا إلى قبيلة ثمود أخاهم في لحمة النسب صالحاً فـ ﴿ قَالَ ﴾ لقومه كما يقول كل نبي لقومه الذين يبتعث اليهم ﴿ يَا قَوْمِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ ﴾ وحده ﴿ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ حتى تشركوه في عبادته ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ تدل على صدق دعوأي وتلك البينة ﴿ هٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ وتخصيصها بالله من جهة اعجازها بأنّها انشأت انشاءً من صخرة تمخضت عنها على الصفة التي أرادوها منه وبأنّها تشرب ماء الوادي كله وتعطي القوم بمقداره لبناً ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ ولا تكلفكم خرجاً ولا خدمة ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ لتعديكم على حرمات الله سبحانه.

(آية ٧٣) ﴿ وَٱذْكُرُوا ﴾ نعمة الله عليكم ﴿ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي وسع عليكم من فضله اليكم بأن أحلكم في أرضه ﴿ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا ﴾ أي أمكنتها الصالحة للجيئة والذهوب والبنيان السمح ﴿ قُصُوراً وَتَنْحِتُونَ ٱلْجِبَالَ بُيُوتاً ﴾ تعززاً وتحصناً ﴿ فَاذْكُرُوا آلاَءَ ٱللَّـهِ ﴾ بتسهيله عليكم ولطفه بكم ﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بخيلاء النعمة وترف المعيشة.

(آية ٧٤) ﴿ قَالَ ٱلْمَلأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ ﴾ وجهة استكبارهم ابتلاء الله اياهم بما أفضل عليهم به من مال وكثرة رجال وبأس وقوة فانقلبوا بهذه النعم على المنعم كافرين به وواقفين في طريق من يريد الايمان حجر عثرة ﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا ﴾ أي غلبهم الضعف في محيطهم لقلة ما يملكون من مال أو رجال أو

بأس أو قوة ﴿ لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ﴾ أي انّ هذه المقالة جرت ما بين المستكبرين وضعفاء المؤمنين إن كان يوجد في من آمن بصالح انسان قوي في أعينهم ﴿ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحاً مُرْسَلٌ مِن رَبِّهِ ﴾ وليس بكاذب فيما يدعيه ﴿ قَالُوا ﴾ أي الضعفاء للمستكبرين ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ﴾ لا يعترينا في ذلك شك ولا ريب.

(آية ٧٥) ﴿ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ طغياناً وتكبراً لا لمحذور آخر يمنعنا من الايمان به.

(آية ٧٦) ﴿ فَعَقَرُوا النَّاقَةَ ﴾ أي أبطلوا حياتها ﴿ وَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ ﴾ حيث قيل لهم لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم فما انتهوا وما انزجروا وبما انّ عملهم هذا لم يكن عن مصلحة تعود لدنياهم أو لأُخراهم عبر عنهم بالعتاة وهم الذين يرتكبون المعصية تمرداً وتعنتاً وبخبث ضمير ﴿ وَقَالُوا ﴾ عقيب ما عقروا ﴿ يَاصَالِحُ ائْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا ﴾ أي بما وعدتنا به إذا عقرنا الناقة من العذاب ﴿ إِن كُنتَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ أي كنت صادقاً لا محالة لأن تحتم الصدق لا يكون إلّا في الرسول.

(آية ٧٧) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ بسؤالهم للعذاب وعذابهم كان من الله الرجفة وهي الحركة المزعجة امّا بصاعقة من السماء أو بزلزلة من الأرض أو بريح أو بسوى ذلك من الموجبات ﴿ فَأَصْبَحُوا ﴾ عقيب الايقاع بهم ﴿ فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ راكدين عن كل حركة وهو عبارة عن الموت الأبدي إلّا أن يشاء الله.

(آية ٧٨) ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَاقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ ﴾ يحتمل أن يكون توليه عنهم ومقالته لهم عند ما أشرف بهم العذاب اجترافاً حيث لا ينفع النصح ولا الابلاغ ويحتمل أن يكون ذلك بعد ما أصبحوا في ديارهم جاثمين طلباً لعبرة الغير أو كما يحدث الإنسان نفسه

ويخاطبها بعد الاصابة لمزيد الاشفاق والتأثر.

وقال سبحانه في سورة هود (آية ٦١): ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ يقال انّ ثمود كانت بوادي القرى بين المدينة والشام ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ ﴾ أي قوموا بوظائف العبودية له ﴿ مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الْأَرْضِ ﴾ أي اختار مادتكم التي تكون نوعكم منها من تراب الأرض وماءها باعتبار انّه سبحانه أبدع خلق آدم من هذه المادة وثمود من نسل آدم ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ أي جعلكم عماراً لها بايداعه القابليات المنتجة فيها وإنّما أنتم آلات لكسب منافعها واستيفاء متاعها ﴿ فَاسْتَغْفِرُوهُ ﴾ من خطيئاتكم التي اجترحتموها بين يديه على ماله من نعمة سابغة لكم ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ إلى تنصلوا من أعمالكم الماضية ووطنوا أنفسكم على أن لا تعودوا لما لا يرضيه بارتكاب ما يقربكم إليه ﴿ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ ﴾ من عباده لا يخفى عليه فعل السوء يأتيه عبده ولا عمل الخير يكون منه ﴿ مُجِيبٌ ﴾ لكل من يدعوه إلى تمهيد وسائل الخير والطاعة.

(آية ٦٢) ﴿ قَالُوا يَا صَالِحُ قَدْ كُنتَ فِينَا ﴾ قبل أن تظهر هذه الدعوة منك ﴿ مَرْجُوّاً ﴾ لكل خير يؤمل من كل خير ﴿ قَبْلَ هٰذَا ﴾ أي قبل زمانك هذا الذي تدعونا فيه إلى عبادة الله وحده ونبذ الأنداد والشركاء ﴿ أَتَنْهَانَا ﴾ مستنكرين ذلك ﴿ أَن نَعْبُدَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ من هذه الأصنام التي تراها فينا من قديم الأيّام ﴿ وَإِنَّنَا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ ﴾ والذي أثار الشك في أنفسهم من صالح هو انهم يرونه ناهياً عن سنة قديمة وعادة بين أقوامهم مطردة تلك عبادة الأوثان فلم يرق في أعينهم أن يخطأوا سلفهم ويصدقوا صالحاً وحده.

(آية ٦٣) ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي ﴾ تدعم مدعاي وتوطد أساس دعوتي ﴿ وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً ﴾ هي انني صرت بعيثه ورسوله ﴿ فَمَن يَنْصُرُنِي مِنَ اللَّهِ إِنْ عَصَيْتُهُ ﴾ بالمروق عن دينه ومتابعتكم في عبادة الأصنام

﴿ فَمَا تَزِيدُونَنِي غَيْرَ تَخْسِيرٍ ﴾ بدعوتكم إياي في الانصراف عن الله ودينه ومتابعتكم على ما أنتم عليه.

(آية ٦٤) ﴿ وَيَا قَوْمِ هَٰذِهِ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ آيَةً ﴾ تدل على صدقي وعلى انّ من أدعوكم إليه في غاية القدرة والنفوذ لا يقوم أمام قدرته شيء ولا يتحداه احد أصلاً ﴿ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ ٱللَّهِ ﴾ لا تكلفكم خرجاً ولا خسارة فضلاً عما تنعم عليكم به من لبن مدرار لا يجف ﴿ وَلاَ تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ على جسارتكم ﴿ عَذَابٌ قَرِيبٌ ﴾.

(آية ٦٥) ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي تواطئوا على عقرها ورضوا به وإن كان المباشر لعقرها بعضهم ﴿ فَقَالَ ﴾ لهم صالح عن لسان الله سبحانه ﴿ تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ ﴾ فقط أي حصتكم من الدنيا ونعيمها ثلاثة أيّام لا أكثر ﴿ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴾ ولا مزور عليكم.

(آية ٦٦) ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي جرى قضاؤنا بتدميرهم ﴿ نَجَّيْنَا صَالِحاً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ من العذاب النازل بقومه الكافرين ﴿ وَمِنْ خِزْيِ يَوْمِئِذٍ ﴾ وعاره ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ ٱلْقَوِيُّ ﴾ الذي لا تعجزه الأقوياء ﴿ ٱلْعَزِيزُ ﴾ الذي لا ينال حرمته أحد كائناً ما كان بسوء تعالى الله.

(آية ٦٧) ﴿ وَأَخَذَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ من قوم صالح ﴿ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ وجهها الله لهم فأماتهم بها ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي راكدين عن كل حركة.

(آية ٦٨) ﴿ كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ إذا رآهم الرائي حسبهم انهم ميتون من سالف الزمان لا بهذا القرب وفي هذه العبارة اشارة إلى شديد ايقاع الله بهم ﴿ أَلاَ إِنَّ ثَمُودَ كَفَرُوا رَبَّهُمْ أَلاَ بُعْداً لِثَمُودَ ﴾ الذين لم يتدبروا الحق بعد أن أروه ولجّوا في عبادة الله ولم يستجيبوا لنصح رسوله.

وقال سبحانه في سورة الشعراء (آية ١٤١): ﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ قولاً

وعملاً، أمّا اللسان فلمواجهتهم الرسل بصريح التكذيب، وأمّا العمل فلتركهم عبادة ربهم الحق وانصرافهم إلى عبادة الأوثان والأصنام.

(آية ١٤٢) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ ﴾ في لحمتهم النسبية ﴿ صَالِحٌ أَلَّا تَتَّقُونَ ﴾ الله وتخافونه بانصرافكم عن عبادته.

(آية ١٤٣) ﴿ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ ﴾ منه ﴿ أَمِينٌ ﴾ عليكم لا أخونكم ولا أغشكم فيما أدعوكم إليه.

(آية ١٤٤) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ (آية ١٤٥) ﴿ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ ﴾ أي على التبليغ ﴿ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ الذي في قبضته أعظم الخيرات وأهم البركات.

(آية ١٤٦) ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَاهُنَا ﴾ أي في هذه الحياة الدنيا ﴿ آمِنِينَ ﴾ أي هادئين من تحمل عواتقكم وظائف التكاليف الربانية من فعل يلزم التكليف به وترك يجب المضي فيه كل ذلك لمصالح تعود لكم وان كنتم لا تدركونها بنظراتكم السطحية ثمّ عدد سبحانه بعضاً من متاع الدنيا الذي يهوون الاستنامة له وفراغ البال والأوقات فيه فقال:

(آية ١٤٧) ﴿ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴾ (آية ١٤٨) ﴿ وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلْعُهَا هَضِيمٌ ﴾ أي يانع ناضج.

(آية ١٤٩) ﴿ وَتَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً ﴾ تتحصنون بها ﴿ فَارِهِينَ ﴾ عارفين بنحتها بطرين في أصل صنعها لاكتفائكم من المساكن بغيرها.

(آية ١٥٠) ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه من لدن الله سبحانه.

(آية ١٥١) ﴿ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴾ أي ولا تنقادوا للمسرفين في أوامرهم التي يصدرونها اليكم بتكذيب الدعاة إلى الله والاستقامة على عبادة

الأوثان والأصنام؛ ثمّ بيّن حال المسرف وما معناه فقال:

(آية ١٥٢) ﴿ ٱلَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴾ قولاً وعملاً أمّا اللسان فلتحريضهم كل ضعيف الحاسة على استيفاء كل شهوة للنفس ومتابعة جميع الميول، وأمّا العمل فلأنهم يتقدمون هذا الفريق المستضعف في عقله ولبه بالأعمال الفاسدة التي يحرضون على ارتكابها باللسان.

(آية ١٥٣) ﴿ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ ﴾ في كلامك هذا من أوّل دعوتك إلى ختامها ﴿ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴾ أي الذين عصفت بعقولهم الأسحار وتلاعبت بألبابهم السحرة بكثير ما كبستها من الخيالات والأوهام والتأثيرات.

(آية ١٥٤) ﴿ مَا أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ فلا مزية لك علينا حتى نتبعك ونقدمك ﴿ فَأْتِ بِآيَةٍ ﴾ تدعم دعواك حتى نصدقك فيما تقول وتدعوا إليه ﴿ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾.

(آية ١٥٥) ﴿ قَالَ هَٰذِهِ نَاقَةٌ ﴾ من الله لكم آية على صدقي ﴿ لَّهَا شِرْبٌ ﴾ مخصوص بها ﴿ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴾.

(آية ١٥٦) ﴿ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ ﴾ من أجله ﴿ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ من الله سبحانه.

(آية ١٥٧) ﴿ فَعَقَرُوهَا ﴾ أي فخالفوا أمر نبيهم فنحروها ﴿ فَأَصْبَحُوا ﴾ على ما فعلوا ﴿ نَادِمِينَ ﴾ خائفين من وقوع العذاب بهم.

(آية ١٥٨) ﴿ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ ﴾ أي اجترفهم ولم يبق لهم من باقية ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي في تعذيبهم باستئصالهم ﴿ لَآيَةً ﴾ أي لعبرة ﴿ وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم ﴾ أي قوم صالح ﴿ مُّؤْمِنِينَ ﴾ بل الذين تابعوه في غاية القلّة.

وقال سبحانه في سورة النمل (آية ٤٥): ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً ﴾ فقال لهم ﴿ أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ فَإِذَا هُمْ ﴾ أي قومه ﴿ فَرِيقَانِ ﴾ فريق آمن به

وفريق بقي على كفره ﴿ يَخْتَصِمُونَ ﴾ المؤمن به يخطأ من بقي على كفره والكافر يخطأ من آمن به.

(آية ٤٦) ﴿ قَالَ ﴾ صالح للكافرين من قومه ﴿ يَا قَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ أي لم تلجون من أوّل أمركم فتقولون لدعاتكم إلى الله إن كنتم صادقين فيما تقولون فلينزل علينا ربكم العذاب وهلّا سألتم منهم دليلاً على صدقهم ما ترحمون به بأن تقولوا لهم فليعطنا آمالنا وليرزقنا وليحسن الينا حتى نستبين صدقكم من ذلك ﴿ لَوْلاَ تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ ﴾ أي فهلا ترتفعون عن اللجاجة وتستغفرون ربكم ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ من لدنه.

(آية ٤٧) ﴿ قَالُوا ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ ﴾ أي تشائمنا منك ومن الذين آمنوا بك ونحسب انّ ما يرد علينا من الحوادث السيئة هو من شؤمكم علينا ﴿ قَالَ طَائِرُكُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ أي ما تتشائمون به هو من الله انتقام منه لكم لكفركم به ومبارزتكم المؤمنين ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ تُفْتَنُونَ ﴾ أي تختبرون وتمتحنون بالحوادث حتى تبدو ما تكنه صدوركم.

(آية ٤٨) ﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي مدينة صالح وقومه ﴿ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ أي أفراد تسعة من أشرافهم ﴿ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلاَ يُصْلِحُونَ ﴾ أي دأبهم التهييج على صالح والمؤمنين به ولا يهمهم من صلاح مواطنيهم وبني عمومتهم ولحمتهم أقل شي.

(آية ٤٩) ﴿ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ ﴾ أي تحزبوا على صالح في الخفاء وحلفوا بأجمعهم أن لا يخون بعضهم بعضاً في الاقدام الذي نووه في قتل صالح ﴿ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ﴾ أي نأتيهم ليلاً على حين غفلة ﴿ ثُمَّ ﴾ بعد أن نقضي مرامنا منه ﴿ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ ﴾ أي من يدعينا بدمه من أهله وأرحامه ﴿ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ ﴾ أي لا نعلم بما جرى عليه ﴿ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴾ أي نقول لهم عقيب تلك المقالة اننا

لصادقون في ذلك أي في اخبارنا بعدم العلم بما جرى عليه .

(آية ٥٠) ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ أي هؤلاء التسعة ﴿ مَكْراً ﴾ أي دبروا في أنفسهم أمراً ظنوا انهم بالغوه ﴿ وَمَكَرْنَا مَكْراً ﴾ أي قدرنا عليهم ضد ما قدروا في أنفسهم على رسولنا ﴿ وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ ﴾ بما قضينا عليهم .

فيروى انهم دخلوا على صالح ليقتلوه فسلط الله عليهم الملائكة فأهلكوهم رمياً بالحجارة وقيل نزلوا في سفح جبل ينظر بعضهم بعضاً ليأتوا صالحاً فخر عليهم الجبر ، وقيل بل المراد انّ الله أهلكهم مع قوم صالح الكافرين جميعاً قبل أن يلحق صالحاً أقل أذى منهم .

(آية ٥١) ﴿ فَانظُرْ ﴾ أيّها الناظر ﴿ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ ﴾ والعاقبة هي ﴿ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ ولم ينج إلّا صالح والفريق المؤمنون .

(آية ٥٢) ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ ﴾ في مرئى الرائي ﴿ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ أي ما فعلناه بهم ﴿ لآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ ليتدبروا انّ الله لا يعجزه أحد في الأرض ولا في السماء .

من هو صالح

قال الشوكاني في تفسيره : ثمود قبيلة سموا باسم أبيهم وهو ثمود بن عاد بن ارم بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ، وصالح هو ابن عبيد بن اسف بن ماشح بن عبيد بن حاذر بن ثمود وكانت مساكن ثمود الحجر بين الشام والحجاز إلى وادي القرى .

عن أبي الطفيل قال : قالت ثمود لصالح ائتنا بآية إن كنت من الصادقين قال اخرجوا فخرجوا إلى هضبة من الأرض فإذا هي تمخض كما تمخض الحامل ثمّ انها انفرجت فخرجت الناقة من وسطها .

عن قتادة انّ صالحاً قال لهم حين عقروا الناقة تمتعوا ثلاثة أيّام ثمّ قال لهم: آية هلاككم أن تصبح وجوهكم غداً مصفرة وتصبح اليوم الثاني محمرة ثمّ تصبح اليوم الثالث مسودة فأصبحت كذلك فلما كان اليوم الثالث أيقنوا بالهلاك فتكفنوا وتحنطوا ثمّ أخذتهم الصيحة فأهمدتهم.

عن جابر بن عبد الله انّ رسول الله ﷺ لما نزل الحجر قام فخطب فقال: يا أيّها الناس لا تسألوا نبيكم عن الآيات، فإنّ قوم صالح سألوا نبيهم أن يبعث اليهم آية فبعث الله لهم الناقة فكانت ترد من هذا الفج فتشرب مائهم يوم ورودها ويحتلبون من لبنها مثل الذي كانوا يأخذون من الماء يوم غبها وتصدر من هذا الفج فعتوا عن أمر ربهم فعقروها فوعدهم الله العذاب بعد ثلاثة أيّام وكان وعد من الله غير مكذوب ثمّ جاءتهم الصيحة فأهلك الله من كان منهم.

❊ ❊ ❊

ويقول سبحانه في شأن ابراهيم في سورة البقرة (آية ١٢٤): ﴿ **وَإِذِ ٱبْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ** ﴾ أي اختبره بتكاليف كلفه بها ليكشف لمن لم يحط بهويته خبراً انّه كيف يقوم بامتثالها ويصيخ لها ﴿ **بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ** ﴾ وقد اختلفت الروايات والمفسرون في معنى الكلمات تفصيلاً، ولسنا الآن بصدد شرحها إلّا بنحو يتم به نظام الآية، فالمراد بالكلمات بطور قاطع هي الوظائف الموجهة من الله لابراهيم فأتمهنّ أي قام بها ابراهيم أحسن قيام ووفى بها لله سبحانه كما يقول في حقه ربه وابراهيم الذي وفّى ﴿ **قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً** ﴾ أي قدوة ومرشداً ومتبوعاً تأخذ الناس منك معالم دينها ودنياها لكفاءتك في هذا الأمر ﴿ **قَالَ** ﴾ ابراهيم عند ذلك لربه مستفهماً أو داعياً ﴿ **وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي** ﴾ الذي أعهده

للرسل والأنبياء من قبلي إلى عبادي ﴿ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ من الناس ولا من غيره لأنّ الظالم بعيد عن مستوى الفطرة الصحيحة فضلاً عن بعده عن سنن الصلحاء والأخيار ولا يصلح للسفارة والامامة إلّا من كان مصوناً في ظاهره وباطنه أجمع حتى تتأتى منه النتيجة المقصودة وهي صلاح العالم.

(آية ١٢٥) ﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ ﴾ أي بيت الله في مكة ﴿ مَثَابَةً لِلنَّاسِ ﴾ يروحون منه ويعاودونه فهو مزار ومطاف دائمي ﴿ وَأَمْناً ﴾ أي مأمناً يكسب الأمن فيه كل أحد وذلك لكثرة ما وصى به الأنبياء والرسل حتى صار احترامه مرسوماً وحتى من الكافرين وحدد له في الشرع وظائف ﴿ وَٱتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ ﴾ المعهود في المسجد الحرام ﴿ مُصَلًّى ﴾ أي مكان صلاة يؤديها الطائف بالبيت ﴿ وَعَهِدْنَا ﴾ أي قررنا ﴿ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ ﴾ ولده ﴿ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ ﴾ أي قدساه أو أزيلا منه ما كان يطرحه المشركون فيه من قذر أو من الأصنام التي كان يضعها المشركون فيه للعبادة ﴿ لِلطَّائِفِينَ ﴾ الذين يطوفون به ﴿ وَٱلْعَاكِفِينَ ﴾ المقيمين في جواره ﴿ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴾ أي كل راكع وساجد لله سبحانه.

(آية ١٢٦) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَذَا بَلَداً آمِناً ﴾ بأن تودع في القلوب حرمته حتى تحترمه الناس فلا تجني فيه جناية ولا تهتك فيه حرمة ولا ينفر منه أحد وحتى الوحوش وتبلغ توسط رسلك تكليفاً وجوب حشمته واحترامه ﴿ وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَاتِ ﴾ أي هيأ لهم رزقاً يرتفقون به فإنّهم بواد غير ذي زرع ﴿ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلآخِرِ ﴾ أي انّ دعائي هذا أخصه بمؤمني الحاضرين فيه ﴿ قَالَ ﴾ الله ﴿ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلاً ﴾ أي امتعه في حياته المقسومة له ﴿ ثُمَّ أَضْطَرُّهُ ﴾ أي أدفع به ﴿ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ﴾ يوم القيامة ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ نار جهنم.

(آية ١٢٧) ﴿ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ ﴾ جمع قاعدة وهي أُصول البنيان التي

عليها يشاد البناء ويرفع إلى فوق ﴿ مِنَ ٱلْبَيْتِ ﴾ أي الكعبة ﴿ وَإِسْمَاعِيلُ ﴾ يؤازره في هذا العمل ويقولان في سبيل عملهما ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا ﴾ عملنا هذا ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ للدعاء ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما تكن الضمائر والنفوس.

(آية ١٢٨) ﴿ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ ﴾ أي ثبتنا على الإسلام لك فيما بقي من أعمارنا كما ثبتنا آنفاً وليكن اسلامنا لك مما ترتضيه وتقبله وتراه خالصاً موجباً لرضاك ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾ يحتمل في ـ من ـ البيان كما يحتمل في قبال ربه ﴿ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا ﴾ أي محال تعبدنا حتى نأتي بها على وجهها اللازم ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَا ﴾ كلمة يقولها كل ورع في مقام الخضوع أمام مولاه ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ تقبل توبة التائب الناصح من عبادك وترحم حتى غير المستوجب للرحمة منك.

(آية ١٢٩) ﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ ﴾ أي في اولئك الذين قالا عنهم ومن ذريتنا امة مسلمة ﴿ رَسُولاً مِنْهُمْ ﴾ أي من لحمتهم وفي هذا مع ملاحظة الاحتفافات الأُخر اشعار واضح بأنّ الرسول الموما إليه هو محمّد لأنّ البلد الذي دعيا له بالأمن والرزق هو مكة ولم ينجز منها غير محمّد واسماعيل انحصر مقامه وبنوه وأهله بالبلد المزبور أيضاً فلم يكن مورد لدعائه إلّا محمّداً وابراهيم وان كانت ذراريه غير اسماعيل فيما سوى هذا المكان إلّا انّ هذا البلد ينسب له خارجاً عنهم لأنّ بيئتهم لم تكن في الحجاز أصلاً وهو في صدد الدعاء له ولأهله كما هو ظاهر ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ ﴾ أي يقرؤها عليهم ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَابَ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ أي يفقههم بهما ويقف بهم على مضامينهما حتى يتدبروا ذلك عن شعور ومعرفة ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ أي يطهرهم من جهل الجاهلية وأدناس الشرك والوثنية ﴿ إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَزِيزُ ﴾ أي المعظم الذي تسهل عليه اجابة هذه المسؤلات ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ الذي يوقع الأشياء في مواقعها.

(آية ١٣٠) ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ﴾ أي لا يعرض عن دين ابراهيم إلّا من أهلك نفسه وأوبقها لأنّ دينه مجموعة محاسن تصلح دنيا الإنسان وآخرته ﴿ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ﴾ ولذلك حملناه أعباء الرسالة ﴿ وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ أي الناجحين بسبب صلاحهم.

(آية ١٣١) ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ ﴾ هذا تعليل إلى انّ ملته من خير الملل وبيان إلى جهة اصطفائه وصلاحه في الآخرة عند الله وذلك انّ الله سبحانه دعاه إلى التوحيد بلسان البرهان العقلي عند ما أخذ يتجسس ابراهيم عن صانع العالم في الشموس والأقمار والكواكب وسائر الموجودات فلم ير فيها ما يصلح لأن يكون علة الايجاد فنفاها واعتنق واجب الوجود الصانع للكون ﴿ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ أي الخالق لجيمع الكائنات.

آية ١٣٢) ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَا ﴾ أي بكلمة الإسلام التي تدبرها بعقله فأجاب بها دعوة ربه ﴿ إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ ﴾ لأنّ الأبناء أقرب الأفراد إلى الإنسان مكاناً وحناناً وأولى بحسن الوصية من كل أحد ﴿ وَ ﴾ هكذا ﴿ يَعْقُوبُ ﴾ وصّى بها بنيه ﴿ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ ﴾ أي اختاره لكم وهو دين الإسلام ﴿ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُسْلِمُونَ ﴾ أي ليكن الإسلام معكم من أوّل نشأتكم وحتى آن الوفاة.

وقال سبحانه في سورة البقرة (آية ٢٥٨) : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ أي خاصمه في اثبات الصانع للكون وهو نمرود بن كنعان فإنّه كان يدعي الربوبية لنفسه لاغتراره بما اوتيه من ملك ومن جبروت كما قال الله ﴿ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ ﴾ أي لأجل أن ابتلاه بعظيم السلطان ﴿ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ لنمرود دليلي على انّ صانع الكون هو الله لا أنت ولا غيرك هو انّ ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي ﴾ المادة الهامدة التي لا حياة لها ﴿ وَيُمِيتُ ﴾ من غير خنق ولا شنق ولا ذبح ونظير ذلك من الوسائل التي تتخذ لازهاق الروح وكما انّ اعطاء الحياة معجزة، كذلك الاماتة

من غير تيك الطرق المذكورة معجزة أيضاً ﴿ قَالَ أَنَا أُحْيِي ﴾ أي أفك العاني وأعفو عمن حكم عليه بالقتل ونظير ذلك ﴿ وَأُمِيتُ ﴾ بالقتل والشنق ونظائره، ولا شبهة انّ هذه القدرة واهية جداً ولا تناسب بالقياس تلك القدرة بالاحياء والاماتة المنسوبين لله سبحانه ﴿ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ لا معترفاً بما أدلى به نمرود من حجة بأنّه يحيي ويميت كما انّ الله يحيي ويميت فهما من هذه الناحية نظيران ولكنه وجد حجاجه له في معنى الاحياء والاماتة قد يطول من غير طائل لاغراق الطرف وحشايته في الجهل بحيث لا يكادون يتعقلون فرقاً بين المعنيين الاحياء من الله والاحياء من نمرود وهكذا الاماتة ولهذا عدل إلى حجة أُخرى لا يستطيع أن يقابلها نمرود ولو بمقابل لفظي فقال له ابراهيم ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ ﴾ طبق ما هو المتعارف من أصل الخلقة إلى يومهما ذاك الذي كانا فيه ﴿ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ ﴾ إن كنت كما تدعي رباً ﴿ فَبُهِتَ ٱلَّذِي كَفَرَ ﴾ أي وقع في حيرة ودهشة من هذه المحاجة التي حكمته في أوّل وهلة ﴿ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ أي لا يفتح لهم طريقاً من موفقياته التي يسوقها بلطفه للراغب فيه الداعي له الراجي للطفه.

وقال سبحانه في الآية (٢٦٠) من السورة المذكورة: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ ﴾ في مقام أراد به تأييد عقلياته في العقائد بحسياته فإنّ المكلف يجب عليه أن يعتقد بمفاد البرهان والبرهان قد لا يتعرض لكم ولا لكيف على انّ تطبيق البرهان على الحس الشهودي ان أمكن يبعث في العقيدة رسوخاً لا مزيد عليه أصلاً ﴿ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ فإنّ الذي كلّف به ابراهيم اعتقاده بأنّ قدرة الله تعالى تتناول احياء الموتى ولكن كيف ذلك لم يكلف به كما لم يبين في الشريعة حتى يستغنى عن السؤال عنه ﴿ قَالَ ﴾ الله له ﴿ أَوَلَمْ تُؤْمِن ﴾ بأني أُحييها ﴿ قَالَ بَلَىٰ ﴾ ولا يتخالجني من هذه الجهة أقل شبهة ﴿ وَلَٰكِن لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي ﴾ بازدياد المعرفة

من طريق الحس ﴿ قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ﴾ أي قطعهن قطعاً ﴿ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِنْهُنَّ ﴾ أي من تلك الطيور المقطعة الأعضاء ﴿ جُزْءاً ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْياً ﴾ أي بعد أن تجتمع أوصالهن المبددة بإذن الله ﴿ وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ﴾ عظيم الجانب له قدرة واسعة ﴿ حَكِيمٌ ﴾ في بسطه للأشياء وقبضه اياها وفي كل شيء.

وقال سبحانه في سورة الأنعام (آية ٧٤): ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ ﴾ يقال انّ أهل النسب لا يختلفون بأنّ اسم أبي ابراهيم تارخ فيحتمل قوياً أن يكون آزر جده لأُمه كما روى ذلك كما يحتمل أن يكون أحد أقاربه اللصيقين به جداً القائمين عليه وهل هناك مانع عقلي من أن يكون أب النبي غير مؤمن ـ لا ـ لا مانع من ذلك إذا خليت المسألة هي والعقل وحده ﴿ أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ أنكر عليه أن يتخذ الصنم الها كما اتخذه مواطنوه وقومه فإنّ الصنم عار عن أقل المؤهلات التي تقدمه أقل تقدم وترفعه في الأنظار أقل رفعة وأقل ما يجب في الاله من وصف بالزام العقل ضرورة الوجود والحياة والقدرة والعلم والارادة والتجرد عن المادة وأين يكون ملاك الصنم عن هذا الملاك ولذلك وصفهم بقوله انـي أراك وقومك في ضلال، أي انحراف عن الصواب مبين أي واضح لا يخفى على أقل مدرك.

(آية ٧٥) ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ ﴾ أي وبهذه الصورة التي قابل بها آزر وقومه وفنّد مزاعمهم في عبادة اقل الكائنات قدراً نكشف لابراهيم المبادىء التي ينتقل منها إلى انّ صانع الكون يلزم أن يكون فوق ما يقول به آزر وقومه من كل جهة حتى يصح انتساب الكائنات إليه بالايجاد والخلق والتدبير واحكام الصنعة وليس هذا الكشف الذي يذكره الله سبحانه لابراهيم مختصاً به بل هذا الكشف حاصل لكل من ينظر إلى

نفسه وما يحتف به من سماء وأرض وما يحتويان عليه نظر امعان وتدبر بل هو ضروري في كل مكلف حتى يأخذ عقائده عن مدارك واضحة ويقنع بـه نـفسه وليحكم غيره كما يحكم نفسه في مقام التشكك والتـردد والتـحير وهـو مـراده سبحانه من قوله: وليكون من الموقنين أي على يقين من جميع عقائده.

ومن هنا شرع سبحانه في بيان الكيفية التي أقنع بها ابراهيم نفسه ليـقنع بـها غيره في مقام التبليغ وفصل الخـصومة فـي مـوضوع العـقائد والصـورة التـي استعرضها ابراهيم فيما يلي صورة من ملايين الصور التـي تـوصل إلى الصـانع للكون بما له من مزية تلزم بها الضرورة القاطعة من العقل:

(آية ٧٦) ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱللَّيْلُ ﴾ أي غـمره بـظلامه ﴿ رَأَىٰ كَـوْكَـباً ﴾ مـن الكواكب ﴿ قَالَ ﴾ لنفسه هل يجوز أن يكون ﴿ هَٰذَا رَبِّـي ﴾ أي خالقي وصانعي ﴿ فَلَمَّا أَفَلَ ﴾ أي غاب وزال عن مكانه ﴿ قَالَ لاَأُحِبُّ ٱلآفِـلِينَ ﴾ بـمعنى انّ الآفـل محكوم لغيره وذلك الحاكم هو تلك القوة التي تشخصه مرة وتستره آونـة ومـا يكون كذلك فهو متأثر بغيره والصانع للعالم لا يكون متأثراً بـغيره فـإنّ فـرض الصانعية يأبى أن يكون فوقها ما هو أعلا منها وأقوى لأنّ الكلام في العلّة الأُولى لكل المعلولات ومع هذا التصوير لا يصح فرض علّة وراء تلك العلّة.

(آية ٧٧) ﴿ فَلَمَّا رَأَى ٱلْقَمَرَ بَازِغاً قَالَ ﴾ قد يكون ﴿ هَٰذَا ﴾ باعتبار انّه أكبر من الكوكب الأوّل وأشع منه وأوفى من ذاك نصيباً في الكمال هو ﴿ رَبِّي فَلَمَّا ﴾ رآه ﴿ أَفَلَ ﴾ كما أفل الكوكب الأوّل واعتراه من النـقص والتأثـر مـثل مـا اعـترى الكوكب ﴿ قَالَ لَئِن لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي ﴾ إلى وجه الصواب من هذا المسير العلمي حتى أتصل بمعتقداتي عن مدرك واضح الحجّية ﴿ لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّالِّينَ ﴾ التائهين عن قصد السبيل.

(آية ٧٨) ﴿ فَلَمَّا رَأَى ﴾ ابراهيم ﴿ ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ ﴾ هل يجوز أن يكـون

﴿ هٰذَا رَبِّي ﴾ فإنّ ﴿ هٰذَا أَكْبَرُ ﴾ وأنور من الكواكب السابقة ﴿ فَلَمَّا أَفَلَتْ ﴾ واعتراها ما اعترى الكوكبين الآنفين ﴿ قَالَ ﴾ لا يصلح كل من هذه الموجودات المحسوسة لأن يكون ربّ العالم لنقصانه بكثير عما يلزم به العقل من فرض واجب الوجود . ثمّ بعد أن تم عنده بوضوح بطلان هذه الأُمور من ناحية التأله قال ﴿ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ ﴾ أي تجعلونه شريكاً للصانع في الفعل والنفوذ والتأثير على العوالم .

(آية ٧٩) ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ ﴾ بعد ما أذعنت نفسي اذعاناً تاماً ﴿ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّماوَاتِ وَٱلْأَرْضَ ﴾ وأبدعهما بعد أن لم يكونا ﴿ حَنِيفاً ﴾ أي مائلاً عن الشرك إلى الاخلاص ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ بالله .

(آية ٨٠) ﴿ وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ ﴾ فيما يعتقد هو ويعتقدون هم ﴿ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي ٱللّهِ ﴾ وانّه واجب الوجود صانع العالم علة العلل مؤثر التأثيرات خالق كل الكائنات الذي بيده أزمة الأمور كلها طبعاً من كونه المبدأ النهائي كما هو المبدأ الأولي ﴿ وَقَدْ هَدَانِ ﴾ بلطفه إلى أن عرفت الحق بطريق الكشف الشهودي من الحس والعقل ﴿ وَلاَ أَخَافُ مَاتُشْرِكُونَ بِهِ ﴾ لأنّه أقل من كل شيء في كل شيء من المزايا التي تفرض وتقدر للعلل والمؤثرات ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئاً ﴾ أي يقدر على شيئاً من البلاء على أثر احتقاري لهذه الآلهة التي تعبدونها وتنتظرون خيرها وتخافون ضرها على انّ ذلك إن يكن فهو من الله لا من آلهتكم ﴿ وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ لأنّ كل شيء يفرض مخلوق له والخالق يستحيل عليه أن لا يعلم ما خلق ﴿ أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ ﴾ أي تراجعون رشدكم وعقولكم حتى تهتدوا بنورها إلى الصواب .

(آية ٨١) ﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ ﴾ به الله سبحانه ﴿ وَ ﴾ ها أنتم ﴿ لاَ تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللّهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَاناً ﴾ أي حجة تؤيده

ومستمسكاً يثبته بل الحجج والمستمسكات إنّما تثبت الله وحده وتؤيد الصانع وتنفي غيره وتوجب أن يكون الخوف منه فقط وعدم الاعتناء من غيره وعليه ﴿ فَأَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ ﴾ أنا الذي أعبد الله وحده وأنتم الذين تشركون به ﴿ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ ﴾ من العقوبة ممن بيده العقوبة وهو أولى بها ﴿ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ أي تميزون مواقع العلم من الجهل والصواب من الخطأ .

وقال سبحانه في سورة مريم (آية ٤١) ﴿ وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَابِ ﴾ أي القرآن ﴿ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقاً ﴾ أي كثير صدق اللهجة يتحرى الواقع جهده ﴿ نَّبِيّاً ﴾ أي مرسلاً من الله لتبليغ أُمته .

(آية ٤٢) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ ﴾ قد سبق ما هو المراد من لفظ الأب المضاف لابراهيم ﴿ يَاأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لاَ يَسْمَعُ وَلاَ يُبْصِرُ وَلاَ يُغْنِي عَنكَ شَيْئاً ﴾ لامه على عبادة ذات لا تحيط بالسمع والمسموعات ولا بالبصر والمبصرات ولا يرجى منها ايصال خير ولا دفع شر وبلاء ولا ريب انّ من يتخذ لنفسه معبوداً بالوصف المذكور فهو مفند ملوم بواضح الضرورة فإنّ الضرورة القاطعة حاكمة بوجوب كون المعبود في أعلا مرتبة من كل وصف جميل وأبعد كل الأشياء عن النقص والعيوب .

(آية ٤٣) ﴿ يا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ ﴾ الذي أستطيع به التمييز بين المصلح وغيره والصائب والزائف ﴿ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ لأنّه لم يكن من همتك البحث عما يعرض لك من خاطرة تبعث في خاطرك أو عقيدة تساق اليك لتعتنقها أو ترفضها ولهذا أصبحت مقلداً محضاً تخضع لكل شيء يزين لك وعلى هذا ﴿ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطاً سَوِيّاً ﴾ لا عوج فيه ببيان الحجج الواضحة الدالة على المقصود بصراحة مكشوفة مثل قوله له يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئاً .

(آية ٤٤) ﴿ يَا أَبَتِ لاَ تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَانَ ﴾ أي لا تتبع خطوات الشيطان وتزييناته الباطلة فإنّ من يقتدي بأحد ويتخذه مناراً له بمنزلة العابد له ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمٰنِ عَصِيّاً ﴾ فهو دائماً يوسوس في صدور الناس حرصاً على اغوائهم واضلالهم وايقاعهم في الحيرات تحقيقاً لعناده.

(آية ٤٥) ﴿ يَاأَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ ٱلرَّحْمٰنِ ﴾ بانحرافك عنه مع انّه خالقك ورازقك ومحييك وبيده زمام كل أُمورك ﴿ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيّاً ﴾ أي قريباً في كلّ ما يصيبه من الله من عذاب وانتقام.

(آية ٤٦) ﴿ قَالَ ﴾ هذا الأب في جواب ولده الرؤوف به العطوف عليه ﴿ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ آلِهَتِي ﴾ التي أعبدها وهي الأصنام ﴿ يَاإِبْرَاهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ ﴾ عن تبليغك لله في انّه واحد لا شريك له وانّه لا تجوز عبادة أحد سواه كائناً ما كان وعن احتقارك وذمك لهاته الآلهة التي أعبدها أنا وقومك ﴿ لَأَرْجُمَنَّكَ ﴾ أي أدخل عليك الأذى والضرّ ﴿ وَٱهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾ أي ابتعد عني زماناً لا أراك ولا تراني لما رأيته من عملك في الاقبال على الله وحده وتركك الأصنام التي نعبدها وتعريضك بها انتصاراً لله.

(آية ٤٧) ﴿ قَالَ ﴾ ابراهيم لهذا الأب بعد أن قال له اهجرني ملياً ﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكَ ﴾ سلام مفارق مع التحفظ بكمال الأدب أمام هذا الأب ولو كان مشركاً ﴿ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي ﴾ أي أسأله أن يلطف بك فتتوجه مشاعرك نحوه فتعترف له بما ينبغي لشأنه فيعفو عما سلف من ذنبك ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الله ربي ﴿ كَانَ بِي حَفِيّاً ﴾ أي رؤوفاً مبالغاً في الرحمة بي والتحنن عليّ فأرجو أن يحقق أملي فيك يا أب.

(آية ٤٨) ﴿ وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّـهِ ﴾ أي أتجنب جماعتكم والأصنام التي تعبدونها من دون الله ﴿ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيّاً ﴾ أي أعبد الله الذي خلقني عسى أن اصادف من عبادة واجب الوجود

الذي بيده زمام كل شيء رحمته بي ورضوانه علي وهذا من أشد الخضوع لله سبحانه إذ يعد العبد أعماله غير مستلزمة لوجوب القبول من الله ولزوم الاثابة عليها.

(آية ٤٩) ﴿ **فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ** ﴾ وخلص إلى الله وحده لا يملك أباً ولا قوماً ﴿ **وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ** ﴾ ولداً ﴿ **وَيَعْقُوبَ** ﴾ حفيداً ﴿ **وَكُلاً** ﴾ منهما ﴿ **جَعَلْنَا نَبِيّاً** ﴾ مرسلاً أي جبرنا كسر خاطره بمفارقة أهله وقومه بأن عوضناه عنهم بمن هو خير له ديناً ودنياً.

(آية ٥٠) ﴿ **وَوَهَبْنَا لَهُمْ مِن رَّحْمَتِنَا** ﴾ أي ترحمنا عليهم في كل شيء فجعلنا في ذريتهم النبوة والرياسة وسعة العدد وكثرة المال وعلو الاسم والرفعة ﴿ **وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ عَلِيّاً** ﴾ أي ذكراً خالداً على مرور الأجيال لا يذكرون إلّا بحسن ولا يقال فيهم إلّا الخير.

وقال سبحانه في سورة الأنبياء (آية ٥١): ﴿ **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ** ﴾ أي لطفنا به عندما تحرى طريق الرشد والهداية فألفتنا نظره إلى ما يصل معه إلى المقصود الصالح من أوّل نشاطه ونضوج فكره واستعداد قواه لتلقي المعارف ﴿ **وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ** ﴾ قبل أن يخلق انّه يكون صالحاً بختيار نفسه.

(آية ٥٢) ﴿ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَٰذِهِ التَّمَاثِيلُ** ﴾ وهي المجسمات ﴿ **الَّتِي أَنْتُم لَهَا عَاكِفُونَ** ﴾ تعبدونها وتعتقدون فيها ان مقدراتكم في قبضتها.

(آية ٥٣) ﴿ **قَالُوا** ﴾ في جوابه ﴿ **وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ** ﴾ فاقتفينا آثارهم في ذلك ولا نعلم من أمرها أقل علم.

(آية ٥٤) ﴿ **قَالَ** ﴾ لهم ابراهيم ﴿ **لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ** ﴾ السابقون الذين اقتفيتم آثارهم ﴿ **فِي ضَلَالٍ** ﴾ أي انحراف عن طريق الصواب ﴿ **مُبِينٍ** ﴾ واضح.

(آية ٥٥) ﴿ **قَالُوا أَجِئْتَنَا** ﴾ فيما تقوله في حق الله وانّه المعبود الحق وحده

وإنّما نعبده نحن وآباؤنا تزوير باطل ﴿ بِالْحَقِّ ﴾ أي معتقداً بأنّه الحق الذي لا محيص عنه وجاداً فيه عن تصميم ﴿ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّاعِبِينَ ﴾ الهازلين وإنّما تقوله لنا مزاح ومفاكهة في الحديث.

(آية ٥٦) ﴿ قَالَ ﴾ أنا جاد ولست بهازل وليس ربكم الحق ما تعبدونه الآن أنتم وآباؤكم من قبلكم ﴿ بَل رَّبُّكُمْ رَبُّ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ ﴾ أي أبدعهنّ ﴿ وَأَنَا عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّاهِدِينَ ﴾ أي وأنا أيضاً اقرر هذا البرهان القائم على وجود واجب الوجود المستجمع لصفات الجلال والجمال والكمال فإنّ تقرير العقلاء للدليل العقلي مؤيد له بلا شبهة.

(آية ٥٧) ﴿ وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُم ﴾ أي اوقع بها ما يوجب محقها وسحقها ﴿ بَعْدَ أَن تُوَلُّوا ﴾ عنها ﴿ مُدْبِرِينَ ﴾ ويبقى بيت أصنامكم شاغراً منكم.

(آية ٥٨) ﴿ فَجَعَلَهُمْ جُذَاذاً ﴾ أي قطعاً قطعاً بفأس كانت معه ﴿ إِلَّا كَبِيراً ﴾ من الأصنام ﴿ لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ أي يرجعون إلى هذا الكبير عندهم المعزز الجانب لديهم الذي يعتقدون فيه القدرة والتأثير أكثر من غيره فيسألونه عن خبر هذه الواقعة ومن الفاعل لها، يروى انّ ابراهيم بعد أن حطم الأصنام بفأسه علّق الفأس في عنق الصنم الكبير وذهب لقصده...

(آية ٥٩) ﴿ قَالُوا ﴾ بعد أن رجعوا إلى بيت أصنامهم ووجدوها بالحالة المذكورة ﴿ مَن فَعَلَ هَٰذَا ﴾ الفعل ﴿ بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ لَمِنَ ٱلظَّالِمِينَ ﴾ لنفسه بجرأته على أرباب الناس.

(آية ٦٠) ﴿ قَالُوا ﴾ أي بعضهم قال لبعض ﴿ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ ﴾ بسوء واحتقار أو يتمناهم بسوء ويريد بهم ايقاعاً باطلاً ﴿ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ ﴾ فلعل الفاعل لذلك هو فاطلبوه.

(آية ٦١) ﴿ قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَىٰ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ ﴾ أي بمنظر العموم ومشهدهم

﴿ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴾ اقراره بما فعل أو يعاينون سوء التنكيل به جزاء على ارتكابه السيء.

(آية ٦٢) ﴿ قَالُوا ﴾ بعد أن جاؤوا به على مشهد من الناس ﴿ أَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمَ ﴾ يريدون تقريره بما اتهموه به.

(آية ٦٣) ﴿ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا ﴾ مراده من هذا القول فتح باب الحجاج القاطع لا تنصله من العمل حتى لا يوقعوا به سوءً ﴿ فَسْأَلُوهُمْ ﴾ أي الأصنام المكسرة والصحيحة جميعاً ﴿ إِن كَانُوا يَنطِقُونَ ﴾ أي إن كان بهم قدرة ردّ الجواب فضلاً عن المعارضة والمخاصمة.

(آية ٦٤) ﴿ فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ ﴾ أي تنبهوا من قول ابراهيم إلى خطأهم العظيم وانهم طوال هذه الأعمار يعبدون حجراً هامداً لا ينطق ولا يتكلم ولا يجلب خيراً وحتى لنفسه ولا يدفع ضراً وحتى عما يراد به ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أيّها الجمع الذي قضى عمره في عبادة هذه الأصنام ﴿ أَنتُمُ ٱلظَّالِمُونَ ﴾ لا ابراهيم الذي حطمها.

(آية ٦٥) ﴿ ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُؤُوسِهِمْ ﴾ من الخجل والحيرة وقال بعضهم لبعض ﴿ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنطِقُونَ ﴾ حتى يبينوا لنا من فعل بهم هذا الفعل.

(آية ٦٦) ﴿ قَالَ ﴾ ابراهيم حينئذ لهم ﴿ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴾.

(آية ٦٧) ﴿ أُفٍّ ﴾ أي تباً ﴿ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ انّ الذي لا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً كيف يتوقع منه دفع الضر عن غيره وجلب الخير لمن سواه.

(آية ٦٨) ﴿ قَالُوا ﴾ حمية لأنفسهم وأنفة من هذا الهوان الذي لحقهم ﴿ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوا آلِهَتَكُمْ ﴾ ومرادهم بهذه النصرة تأمين حيثياتهم وشخصياتهم

وأن لا يقال في حقهم انهم جهلاء خرافيون يعبدون الأحجار والأشجار والشموس والأقمار أو ما إلى ذلك ﴿ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ ﴾ لما تتوعدون به.

فلما ألقوه في النار (آية ٦٩) ﴿ قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْداً وَسَلاَماً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ ﴾ لا يجد منك أقر ضرر، فحالت قدرة الله بين تأثير النار وبين بدن ابراهيم وليس ذلك على الواسع القدرة النافذ في جميع شؤون الطبيعة بعزيز.

(آية ٧٠) ﴿ وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً ﴾ أي اهلاكاً ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ أي لم يتمكنوا أن يصلوا إليه بأقل سوء وأذى.

وقال سبحانه في سورة الشعراء (آية ٦٩): ﴿ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ ﴾ أي على قومك ﴿ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ ﴾ مع قومه ليعتبروا بما صادف الأمم السالفة من شقاء جزاء تكذيبهم لرسلهم وليسهل عليك أنت يا محمّد ما تلقاه من جهلاء قومك.

(آية ٧٠) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ ﴾ أي ايّ شيء تتخذونه معبوداً امّا لأنكم ترونه مستحقاً للعبادة لذاته أو للخوف من عذابه والرجاء لثوابه.

(آية ٧١) ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَاماً فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ ﴾ أي مستمرين على عبادتها وعند هذا الجواب لم يقبحهم على زائف اعتقادهم بل احب أن يستكشف منهم أكثر حتى يقف على حقيقة ما يعبدونه.

(آية ٧٢) ﴿ قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ ﴾ وتكون علامة سمعهم لدعائكم استجابتهم لكم.

(آية ٧٣) ﴿ أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ ﴾ أي يكون الداعي لعبادتكم ايّاهم هو رجاء المنفعة وخوف الضرر بشاهد التجارب المتكررة.

(آية ٧٤) ﴿ قَالُوا ﴾ لم نر منهم استجابة لدعاء ولا منفعة ولا مضرة لأجلها خصصناهم بالعبادة ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آباءَنَا كَذٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ أي يعبدون هذه الأصنام فقلدناهم في ذلك تقليداً لم نتفهم معه عن شيء ولما وقف على مستقر عقولهم

وما تضطم عليه جوانحهم وانهم من أخس الناس عقلاً ومنطقاً.

(آية ٧٥) ﴿ قَالَ ﴾ لهم ﴿ أَفَرَأَيْتُم مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ﴾ (آية ٧٦) ﴿ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ﴾ (آية ٧٧) ﴿ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي ﴾ باعتبار انهم قد شغلوا حيزاً كبيراً من أدمغتكم وليس من حقهم هذا الاشغال واقتطعوا من أوقاتكم أزماناً وفيرة في عبادتهم والرجوع اليهم وكان من حق هذه الأوقات التي تصرف في عبادتهم والرجوع اليهم أن تخصص بمن يستحق ذلك حقاً وصدقاً وعبر عن هذا المستحق بقوله ﴿ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ أي خالق الكائنات بأسرها.

(آية ٧٨) ﴿ ٱلَّذِي ﴾ من أوصافه انّه ﴿ خَلَقَنِي ﴾ وأبدعني بعد أن لم أكن موجوداً ﴿ فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ إلى ما فيه صلاحي ورشادي.

(آية ٧٩) ﴿ وَٱلَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ﴾ أي يتكفل برزقي ومعاشي.

(آية ٨٠) ﴿ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴾ أي يذهب عللي ويصحّ بدني.

(آية ٨١) ﴿ وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ﴾ ولو من غير علة ظاهرة ولا سبب مكشوف وهذا النوع من الأمانة معجز لا يستطيعه البشر ﴿ ثُمَّ يُحْيِينِ ﴾ أي بعد موتي ويريد بذلك يوم القيامة.

(آية ٨٢) ﴿ وَٱلَّذِي أَطْمَعُ ﴾ من رحمته وهذا تعليم لغيره بأنّ الله ذو رحمة وإلّا فهو في منزلته هذه بعيد عن السيئات حتى يطلب غفرانها من الله سبحانه ﴿ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴾ أي يوم الجزاء والحساب.

(آية ٨٣) ﴿ رَبِّ هَبْ لِي حُكْماً ﴾ أي علماً يريد بذلك المزيد على ما أُوتي ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ أي بدرجاتهم وفي مراتبهم، ولا شبهة انّ أعظم مقامات الإنسان هو الصلاح وهو الاستقامة على الطريقة الحقة.

(آية ٨٤) ﴿ وَٱجْعَل لِي لِسَانَ صِدْقٍ فِي ٱلْآخِرِينَ ﴾ أي ذكراً خالداً تتناقله الأجيال بحسن سيرتي في دنياي.

(آية ٨٥) ﴿ وَٱجْعَلْنِي مِن وَرَثَةِ جَنَّةِ ٱلنَّعِيمِ ﴾ هذه الآية مشعرة بأنّ العبد وإن كان قاطعاً حسب سيره العملي باستحقاقه للثواب إلّا أنّ في ايصال الثواب إليه جنبة تفضل من الله سبحانه حتى كأن التكاليف المسوقة للعبد وان كانت مغياة بالثواب عند الامتثال في لسان الأدلّة جارية على نحو التعبد وسلطان المولوية وما يكون بهذا اللون لا يستلزم الثواب قهراً بدون تفضل وتلطف من المولى بالعبد وهذه الآيات الشارحة لبعض خصائص الرب سبحانه سيقت من ابراهيم لعبدة الأصنام بنحو أوجبت تخطأتهم وأيدت معتقده هو بأنّ أربابهم عاجزة عن كل شيء وانّ ربه قادر على أنواع المقدورات ومن يكن بهذه الصفة فهو الجدير بالعبادة لا غير.

(آية ٨٦) ﴿ وَٱغْفِرْ لِأَبِي إِنَّهُ كَانَ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴾ أي التائهين عن طريق الرشد والصواب بعبادته لغيرك.

(آية ٨٧) ﴿ وَلَا تُخْزِنِي ﴾ أي لا تشهرني بعيوبي شهرة توجب انتقاصي أمام الناس، وهذا منه تنصل أدبي وخضوع أمام عظمة المعبود وإلّا فهو أجلّ من ذلك ﴿ يَوْمَ يُبْعَثُونَ ﴾ أي يوم يحشر الناس.

(آية ٨٨) ﴿ يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ ﴾ يفتدي به من أسر السيئات ﴿ وَلَا بَنُونَ ﴾ يستعان بهم في مقابل بطش الله.

(آية ٨٩) ﴿ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي نزيه خال من كل حزازة توجب الارتكاس في الذنوب أعاذنا الله من ذلك.

وقال سبحانه في سورة الصافات (آية ٨٣): ﴿ وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ ﴾ أي شيعة نوح ومتابعيه ﴿ لَإِبْرَاهِيمَ ﴾ لأنّه تحمل في سبيل التبليغ إلى ربه مثلما تحمل نوح عليه السلام.

(آية ٨٤) ﴿ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴾ أي سالم من العيوب ومخامرة الذنوب.

(آية ٨٥) ﴿ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴾ مستنكراً من عبادتهم التي يوجهون بها إلى غير مستحقها.

(آية ٨٦) ﴿ ءَإِفْكاً آلِهَةً ﴾ أي آلهة مزورة ﴿ دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾ في حال انّ الله ليس في قصور حتى يجبر نقصه باشادة هذه الأصنام ولا هي مما فيها كفاءة لأن تكون معبودة مقصودة متوجهاً اليها بالدعاء.

(آية ٨٧) ﴿ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ أي ما هي عقيدتكم بمن يصح في حقه أن يكون ربّ العالمين ومصدر كل الوجودات فهل تجوز لكم عقولكم أن يكون الربّ الواقعي هو ما تنحتونه بأيديكم أو هو من أدعوكم إليه الجامع لأشرف الصفات البعيد عن كل وصمة وعيب البرىء من كل مؤاخذة.

(آية ٨٨) ﴿ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي ٱلنُّجُومِ ﴾ (آية ٨٩) ﴿ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ ﴾ كان منه هذا النظر والقول والقوم مجتمعون حوله يناظرونه في آلهتهم ويفند زعمهم فيها ويثبت لهم واقعية واجب الوجود بما يستطيعون دركه وإنّما نظر نظرة في النجوم وفي عوالم الوجود العلوي لما فيه من وجودات عظيمة الشأن أحب أن يدرس في مطالعتها الوجوه التي تضعف كل شيء أمام المبدأ المبدع الخلاق وحتى أعظم الوجودات العلوية فقال لهم تفرقوا عني انّ فكري في شاغل عنكم ويحتاج إلى الاستراحة من كل مزاحم حتى يتسنى له الدقة في التفكير وحدة النظر في المطالعة.

(آية ٩٠) ﴿ فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ ﴾ إلى شأن من شؤونهم.

(آية ٩١) ﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ آلِهَتِهِمْ ﴾ أي مال اليها في خلوة من كل أحد ﴿ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴾ إنّما خاطب الأصنام بهذه المخاطبات لأجل أن يثبت لنفسه ولمن يسمع كلامه ولو بالنقل وسوق الحديث خسة ما عليه عبدة الأصنام من انحطاط روحيات وضعف نفوس لعبادتهم أحقر الموجودات وهي الجمادات.

(آية ٩٢) ﴿ مَالَكُمْ لاَ تَنطِقُونَ ﴾ فلما استفحلت نفسه بالغيظ على هاته الأحجار التي أصبحت حجاباً كثيفاً بين الله وعباده صنع بها ما قصه الله بقوله :

(آية ٩٣) ﴿ فَرَاغَ عَلَيْهِمْ ضَرْباً بِالْيَمِينِ ﴾ أي مال بيمينه على آلهتهم ﴿ فجعلهم جذاذاً ﴾ فبلغهم ما فعل ابراهيم.

(آية ٩٤) ﴿ فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴾ أي يسرعون في مشيهم فتلقاهم بحججه الدامغة.

(آية ٩٥) و ﴿ قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴾ بأيديكم من حجارة أو خشب أو أي مادة تفرض مقهورة لقوتهم وعملهم وهذا يشعر بأعظم الاستنكار وله مكانه الواسع.

(آية ٩٦) ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾ أي في حال انّ الله خلقكم أنتم وخلق المواد التي تقع تحت تأثيركم فكيف تنصرفون عنه إلى غيره.

(آية ٩٧) ﴿ قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَاناً ﴾ أي حوطوا له مكاناً واملؤوه حطباً ﴿ فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ ﴾ أي النار الشديدة.

(آية ٩٨) ﴿ فَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً ﴾ أي أذية وضرراً وهلاكاً ﴿ فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ ﴾ أي المخذولين الذي انعكست عليهم مقاصدهم.

(آية ٩٩) ﴿ وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ ﴾ أي مهاجر من دار الكفر ﴿ إِلَىٰ رَبِّي ﴾ أي إلى مكان أعبد فيه ربي من غير مزاحمة أحد انّ ربي ﴿ سَيَهْدِينِ ﴾ إلى ما فيه النجاة والرشاد والتفرغ للعبادة.

من هو ابراهيم

يذكر في نسب ابراهيم انّه ابن تارخ بن ناحور بن ساروغ بن راعو بن فالغ بن عابر بن شالخ بن ارفخشذ بن سام بن نوح ؛ وانّ تارخ ولد له ابراهيم وناحور

وولد لها ران لوط فهو ابن اخي ابراهيم وولد ابراهيم في أرض بابل وانطلق تارخ بابنه ابراهيم وامرأته سارة وابن اخيه لوط إلى أرض الكنعانيين فنزلوا حران.

❊ ❊ ❊

وقال سبحانه في شأن لوط من سورة الأعراف (آية ٨٠): ﴿ **وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ** ﴾ أي أترتكبون العيب الظاهر القبح ﴿ **مَاسَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ** ﴾.

(آية ٨١) ﴿ **إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهْوَةً مِن دُونِ ٱلنِّسَاءِ** ﴾ في حال انّ محل افضاء الشهوة هي المرأة ﴿ **بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ** ﴾ أي متجاوزون عن حدود متعارف البشر.

(آية ٨٢) ﴿ **وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا** ﴾ أي قال بعضهم لبعض ﴿ **أَخْرِجُوهُمْ مِن قَرْيَتِكُمْ** ﴾ أي أخرجوا لوطاً وأهله ﴿ **إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ** ﴾ أي يترفعون عن دنس ما نرتكبه من عمل وهو اللواط.

(آية ٨٣) ﴿ **فَأَنْجَيْنَاهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ** ﴾ أي من الباقين مع قومه المتخلفين عنه المحكومين بالعذاب.

(آية ٨٤) ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً** ﴾ أي حجارة متتالية النزول عليهم كالمطر ﴿ **فَانْظُرْ** ﴾ أيّها المعتبر ﴿ **كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ** ﴾ المتعدين عن حدود الله.

وقال سبحانه في سورة هود (آية ٧٧): ﴿ **وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا** ﴾ من الملائكة ﴿ **لُوطاً** ﴾ لأجل اهلاك قومه ﴿ **سِيءَ بِهِمْ** ﴾ أي استاء بسبب مجيئهم خوفاً من مزاحمة قومه لهم وافتضاحه من أجلهم ﴿ **وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً** ﴾ أي قلّت حيلته في ايوائهم وحفظهم، فقد روي انّ الملائكة جاءت إلى لوط وهو في زراعة قرب

القرية فسلموا عليه ورأى هيئة حسنة عليهم ثياب بيض وعمائم بيض فدعاهم إلى منزله وتقدمهم ومشوا خلفه فقال في نفسه أي شيء صنعت آتي بهم قومي وأنا أعرفهم فالتفت اليهم فقال انكم لتأتون شراراً من خلق الله ﴿ وَقَالَ هَـٰذَا يَوْمٌ عَصِيبٌ ﴾ أي شديد عليّ يهمني فيه أمر أضيافي كثيراً.

(آية ٧٨) ﴿ وَجَاءَهُ قَوْمُهُ يُهْرَعُونَ إِلَيْهِ ﴾ أي يتدافعون في الوصول إلى منزله لما علموا انّ عنده ضيفاً ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ هذا الوقت ﴿ كَانُوا يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ ﴾ وهو فعل اللواط وعلى هذه السنة الخاطئة زاحموا لوطاً على أضيافه ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ هَؤُلاءِ بَنَاتي ﴾ أُزوجكم اياها وان كنتم لستم بأكفاء لهنّ ﴿ هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ لأنهنّ من حرث الرجال لا من تطلبونه أنتم ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي خافوه من عتوكم وطغيانكم هذا ﴿ وَلاَ تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي ﴾ أي تدخلون العار عليّ بسبب مزاحمة أضيافي ﴿ أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ ﴾ يميز ما أقول فيشير على أصحابه بالرجوع عن هذه الخطيئة الجائرة.

(آية ٧٩) ﴿ قَالُوا لَقَدْ عَلِمْتَ ﴾ من ديدننا ﴿ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ ﴾ ولا في غيرهن من كل انثى ﴿ مِنْ حَقٍّ ﴾ أي من حاجة ﴿ وَإِنَّكَ ﴾ أنت يا لوط ﴿ لَتَعْلَمُ مَا نُرِيدُ ﴾ في مجيئنا هذا وفي نظائره.

(آية ٨٠) ﴿ قَالَ ﴾ لما أعيته القوم منزعاً وتأكد من وقاحتهم وصلافتهم ﴿ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً ﴾ أي أجد ما أتقوى به بين ظهرانيكم ﴿ أَوْ آوِي إِلَىٰ رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ من غيركم أعتصم به وأردكم من عاديتكم.

هناك أبرز الرسل ما في ضمائرهم (آية ٨١) و ﴿ قَالُوا يَالُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوا إِلَيْكَ ﴾ بسوء ﴿ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ ﴾ أي في ظلمة من الليل ﴿ وَلاَ يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ ﴾ عن مستقبل وجهه ولا يهمكم أمر من يكون وراءكم ﴿ إِلَّا امْرَأَتَكَ ﴾ فاتركها مع قومك ولا تسر بها فإنّها ظالمة مثلهم ﴿ إِنَّهُ مُصِيبُهَا مَا

أَصَابَهُمْ ﴾ من العذاب ﴿ **إِنَّ مَوْعِدَهُمُ** ﴾ في اجترافهم ﴿ **ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ** ﴾ يا لوط كأن هذا تسلية منهم للوط وشفاء قريب.

(آية ٨٢) ﴿ **فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا** ﴾ أي تحقق قضاؤنا ﴿ **جَعَلْنَا عَالِيَهَا** ﴾ أي عالي قريتهم ﴿ **سَافِلَهَا** ﴾ أي قلبناها بهم ﴿ **وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِن سِجِّيلٍ** ﴾ أي من طين مفخور ﴿ **مَنْضُودٍ** ﴾ أي مركوم بعضه فوق بعض لكثرته ﴿ **مُسَوَّمَةً** ﴾ تلك الحجارة أي معلمة بعلائم الغضب والتحطيم لأولاء القوم ﴿ **عِندَ رَبِّكَ وَمَا هِيَ مِنَ ٱلظَّالِمِينَ بِبَعِيدٍ** ﴾ فلا أمان لأحد منها إذا جنح إلى ظلم.

وقال سبحانه في سورة العنكبوت (آية ٢٨): ﴿ **وَلُوطاً إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ ٱلْعَالَمِينَ** ﴾ تشعر الآية بأنّ فعل اللواط لم يكن معروفاً قبل هؤلاء القوم ثمّ انّه فسر في الآية اللاحقة المراد من قوله في هذه الآية لتأتون الفاحشة فقال:

(آية ٢٩) ﴿ **أَءِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ** ﴾ بفعل اللواط ﴿ **وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ** ﴾ أي تخافكم المارّة على أنفسها وأموالها ﴿ **وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ** ﴾ أي في محال اجتماعاتكم ﴿ **ٱلْمُنكَرَ** ﴾ قيل انهم كانوا لا يتحاشون في مجالسهم من اخراج الريح ذي الصوت، وقيل انهم كانوا يلوطون بمحضر الناس فهم فضلاً عن ارتكابهم لجريمة اللواط لا يمتنعون من التجاهر بالفضائح، وقيل انهم كانوا لا يعرفون الأدب في مجالسهم فيتشاتمون ويتصافعون ويسخفون جهد جهلهم ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَن قَالُوا ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ** ﴾ فيما تعدنا به اننا إذا لم نلو صفحاً عن هذه الأفعال تجيئنا من الله بعذاب.

(آية ٣٠) ﴿ **قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ** ﴾ الذين لم تمش بهم نفوسهم في أقل جادة من جواد المعروف ولا تلقاهم إلّا ضلالاً غارقين في السيئات جهد ما يستطيعون.

(آية ٣١) ﴿ وَلَمَّا جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ أي الملائكة الذين أرسلناهم لتبشير ابراهيم بحمل سارة باسحاق منه ﴿ إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ قَالُوا ﴾ أي الرسل لابراهيم ﴿ إِنَّا ﴾ في طريقنا هذا ﴿ مُهْلِكُوا أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا ظَالِمِينَ ﴾ للناس ولأنفسهم بشتى أنواع الظلم.

(آية ٣٢) ﴿ قَالَ ﴾ لهم ابراهيم ﴿ إِنَّ فِيهَا ﴾ أي في هـذه القـرية التـي أنـتم عازمون على اهلاك أهلها ﴿ لُوطاً ﴾ فما أنتم صانعون ﴿ قَالُوا نَحْنُ أَعْلَمُ ﴾ منك ﴿ بِمَن فِيهَا ﴾ من صالح وطـالح ﴿ لَنُنَجِّيَنَّهُ وَأَهْلَهُ إِلَّا امْرَأَتَهُ كَانَتْ ﴾ لكـفرها ومخالفتها لزوجها ﴿ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ﴾ أي الباقين مع قومه المعذبين المنكل بهم.

(آية ٣٣) ﴿ وَلَمَّا أَن جَاءَتْ رُسُلُنَا ﴾ بعد قفولهم من ابراهيم ﴿ لُوطاً سِيءَ بِـهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعاً ﴾ خوفاً عليهم من مزاحمة هؤلاء الأرجاس لهم وعدم غناءه في الدفاع عنهم وفي ذلك من لحوق العار له ما لا يتحمله الشريف مثله ﴿ وَقَالُوا ﴾ أي الرسل للوط ﴿ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ ﴾ من جهتنا بابتلاء قومك لنا ونحن بضيافتك وعجزك عن الانتصار لنا منهم ﴿ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَابِرِينَ ﴾ لكفرها بالله وبنعمتك التي تتفيأ بها صباح مساء.

(آية ٣٤) ﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ ٱلسَّماءِ ﴾ أي عـذاباً نستأصلهم به ﴿ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾. (آية ٣٥) ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَا ﴾ أي مـن القرية المذكورة ﴿ آيَةً بَيِّنَةً ﴾ أي علامة ومعتبراً ﴿ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ أي يزنون مثل هذه الحوادث بميزان العظات الناجعة والاعتبارات الصادقة.

من هو لـوط

ولوط هو ابن هاران اخي ابراهيم فابراهيم عم لوط وكان قد نزح عن مـدينة عمه بأمر منه ونزل بمدينة سدوم وكان أهلها أفجر الناس وأضلهم لا يتحاشون

عن فعل المنكرات لا في خلواتهم ولا في جلواتهم وقد كرر الله سبحانه ذكرهم في الكتاب العزيز كثيراً بعبارات مختلفة ومعان متحدة تشهيراً بعملهم السيء هذا حتى يكونوا عبرة للغير خصوصاً بعدما يقف الإنسان على لون عذابهم الشديد وفيما ذكرناه نموذج من ذلك وبه كفاية وبلاغ.

❊ ❊ ❊

وقال سبحانه في شأن شعيب في سورة الأعراف (آية ٨٥): ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً ﴾ في لحمة النسب كما يأتي في التعريف به وبقومه هؤلاء ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَالَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ فإنّ كل إله تفرضونه لأنفسكم مرجعه في وجوده إليه فهو مصدر الوجودات ومبدع الموجودات ﴿ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ على لساني وهي توضيح مناهجكم وتعديل أُمور نظامكم بما تؤيده العقول وتشهد بصدقه الأنظار الراجحة ﴿ فَأَوْفُوا ﴾ للناس ﴿ الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ ﴾ في معاملاتكم معهم ﴿ وَلاَ تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي ولا تظلموا الناس في أشيائهم فلا تأخذوا منهم زائداً وتعطوهم ناقصاً ولا تغشوهم ولا تدلسوا عليهم ولا تخفوا عليهم الواقع في كل شيء يكون بينكم في طريق المعاملة فكأنّ هؤلاء القوم فضلاً عن عبادتهم لغير الله كانوا منحرفين عن شوارع المعاملات الصحيحة وليس من هدفهم إلّا جمع المال من أي وجه حصل ولو من وجه اللصوصية مكشوفة ومستورة ﴿ وَلاَ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا ﴾ من جهة الله سبحانه فإنّه لم يخلق شيئاً عاطلاً فيها أوّل مرة وإنّما الذي يفسدها أو يسلك بها سبيل صلاحها الاولى هو الإنسان فلا تعاكسوا سيرة الله في أرضه، أو بعد ما أصلحها الله ببعثة الأنبياء والرسل وتنظيم القوانين وما به ضبط شؤون الناس ﴿ ذٰلِكُمْ ﴾ أي

ايفاءكم الكيل والميزان وعدم بخسكم الناس أشيائهم وعدم افسادكم في الأرض ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ لأنّه يقيم أود اجتماعاتكم ويحفظ نفوسكم وأموالكم من التلف ويضبط أُمور دنياكم ضبطاً لا مزيد عليه ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي إنّما تستفيدون من مسايرة هذه النظم العادلة تحت ظل الايمان بالله فإنّ الايمان بالله رأس كل حسنة.

(آية ٨٦) ﴿ وَلاَ تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ ﴾ الناس بسلب أموالهم واخافة طرقهم أو توعدون المؤمنين منكم بالله لتردوهم إلى ملّة الكفر بالارهاب والتهديد أو توعدون كلّ من يختلف إلى شعيب بانكم إذا عادوتم المجيء إليه نوقع بكم مكروهاً ﴿ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ ٱللّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ ﴾ عن سلوكها ليستفيد من شرائعها النافعة ﴿ وَتَبْغُونَهَا عِوَجاً ﴾ أي تحورون فيها الحق لتكثر والاشتباهات والعواثر على البسطاء حتى تتلبد عليهم معاطف المحجة وينستر وجه الحجة ﴿ وَاذْكُرُوا ﴾ نعم الله عليكم ﴿ إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلاً ﴾ في العدد ﴿ فَكَثَّرَكُمْ ﴾ أو فقراء فأغناكم أو ضعفاء فقواكم أو أذلاء خاملين فعززكم وشهر بكم ﴿ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴾ الذين كانوا على مثل رويتكم فأهلكهم الله وها هم أُولاء بالقرب منكم زمناً قوم لوط وابراهيم وقبلهم قوم صالح وهود ونوح كيف ترون صنع الله بهم في الدنيا قبل الآخرة.

(آية ٨٧) ﴿ وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِنْكُمْ آمَنُوا بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَمْ يُؤْمِنُوا ﴾ بالذي ارسلت به ﴿ فَاصْبِرُوا حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ ﴾ وعند ذلك ترون نصيب المؤمن من رحمة الله والكافر من عذابه ونقمته.

(آية ٨٨) ﴿ قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا ﴾ أي أظهروا العلو والجبرية ﴿ مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَاشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَا ﴾ حتى نستريح من تحكمك فينا واغوائك لجهالنا ولا ريب انّ نوع العتاة لا يرضون بوجود أي داع روحي بين

ظهرانيهم لأنّه يكدر عليهم حياتهم التي يريدون قطعها بكل حرية وكل توسع والروحي لا يدع لهم هذا الميدان الوسيع الضارّ بهم وبمن سواهم في أغلب شؤون الحياة ونظام الاجتماع ﴿ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا ﴾ وتسير بسيرنا ولا تعارضنا في أي شيء يفرض بل تسالمنا عليه وتوافقنا فيه ﴿ قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَارِهِينَ ﴾ أي تشترطون علينا العودة في ملتكم حتى لو كنا كارهين لها مبغضين لطرائقها.

(آية ٨٩) ﴿ قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ حيث حكينا عنه لكم عدم رضاه بتطفيفكم للمكاييل والموازين وعبادتكم الأصنام وبخسكم الناس أشيائهم وافسادكم في الأرض بعد اصلاحها وقعودكم بكل صراط توعدون وصدكم عن سبيل الله وابتغاءكم فيها العوج ﴿ إِنْ عُدْنَا فِي مِلَّتِكُمْ ﴾ وتصادقنا معكم على ما ترتكبون من تلك المساوي وكيف نعود في ملتكم ﴿ بَعْدَ إِذْ نَجَّانَا اللَّهُ مِنْهَا ﴾ أي تلطف بنا فما زغنا عن دينه الحق لا اننا كنّا مرتكبين لها قبل ادعاء النبوة وبعد البعثة جررنا أيدينا منها ﴿ وَمَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَعُودَ فِيهَا ﴾ أي لا يصلح لنا العود إلى ما أنتم عليه لما فيه من الارتكاس في الخطايا والذنوب ومعصية الله سبحانه ﴿ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا ﴾ هذا تعليق بشعر ظاهره بجواز تعلق مشيئة الله بالعودة لملة الكفر ملّة هؤلاء الأقوام إلّا انّه من قبيل التعليق على المحال مثل إن كان للرحمن ولد فأنا أوّل العابدين أي لا يكون ذلك فإنّه من المحال على الله أن يشاء تشريعاً أو تكويناً الكفر وعبادة الأصنام وارتكاب السيئات المنهي عنها بلسان رسله وأنبيائه ﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ فهو يعلم المصالح والمفاسد الواقعية فلا يترك الدعوة إلى الصالح ولا يمسك عن التنديد بالمفاسد كما يعلم الله اننا لا نحب ما أنتم عليه من دين وصبغة ونهوى أن نكون على طرف مقابل من أعمالكم وعقائدكم ﴿ عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ هو عمادنا الذي نعتمد عليه في المهمات ﴿ رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ ﴾ أي احكم بيننا وبينهم فقد ملّ كلّ منّا صاحبه

وليس في القوم مطمع ﴿ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴾.

(آية ٩٠) ﴿ وَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ ﴾ لمن يجدون فيه ليناً وتوجهاً إلى شعيب ﴿ لَئِنْ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْباً إِنَّكُمْ إِذاً لَخَاسِرُونَ ﴾ لأنكم تنحازون عن قومكم في جانب والمنحاز عن قومه خاسر.

(آية ٩١) ﴿ فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ ﴾ نكالاً بهم ومؤاخذة على سوء صنيعهم والرجفة قيل هي الزلزلة وقيل رعدة وحرّ شديد أخذ بأنفاسهم فدخلوا أجواف بيوتهم تحصناً منه فلم ينفعهم ذلك فبعث الله سحابة فيها ريح طيبة فطاب لهم برد الريح وطيبها وما في السحابة من ظل كريم فأصحروا لها فلما اجتمعوا بارزين ألهب الله السحابة عليهم ناراً ورجفت بهم الأرض فماتوا بأسرهم محترقين وقيل صيح بهم صيحة واحدة أخمدتهم في أمكنتهم ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ أي راكدين على وجه الأرض لا ترى لهم من حس ولا حراك.

(آية ٩٢) ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً ﴾ واستخفوا بدعوته ﴿ كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ أي كأنهم لم يشيدوا داراً ولم يسكنوا مزاراً ولم يكن لهم دوي اجتماع ولا زمزمة أصوات وهذا اشعار بعظيم تنكيل الله الذي يقلب المجتمعات الغاصة بأهلها إلى موات خافت بأسرع من طرفة عين ولا شبهة انّ ذلك انتقام مرهب وتنكيل يوجب العبرة والجزع ﴿ الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ ﴾ هذا تعريض من الله سبحانه بالملأ الكافر من قوم شعيب الذين كانوا يقولون لمن فيه من اخوانهم بعض اللين لشعيب واحتمال ايمانهم به لئن اتبعتم شعيباً انكم إذا لخاسرون أي انّ الخاسرين أنتم أيّها الملأ الكافرون لا الذين استجابوا لشعيب أو في شرف الاستجابة له للصوق دعوته بقلوبهم وإن كانوا يخافون التظاهر بها من بطشكم وشدتكم.

(آية ٩٣) ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ ﴾ يحتمل أن يكون اعراض شعيب عنهم وتركه لهم

بعدما حق العذاب بهم وهم بعد أحياء لم يحترقوا ولم يموتوا كما يحتمل أن يكون بعد الايقاع بهم ﴿ وَقَالَ يَا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالاَتِ رَبِّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ آسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَافِرِينَ ﴾ ومعنى مقالته هذه في الاحتمال الأوّل انّه قد نجز يا قوم ما يمكن حصوله مني وهو الابلاغ والانذار والاعذار نصحاً وشفقة عليكم فإذا أبيتم ذلك مني وحملتموني على محمل خشن حق عليكم بسببه عذاب الله فأنا عاجز عن دفع ما قضاه الله فيكم ثمّ انني كيف أسف عليكم وأنتم متمردون في كفركم غارقون في جهلكم بعيدون عن كل رحمة قريبون من كل سيئة، ومعنى ذلك في الاحتمال الثاني تصوير لمن يقف على جثة ميت أرداه سوء عمله فيقول له من باب حديث النفس أو مضايقة العاطفة لقد خفت عليك هذا المصرع وأنذرتك ايّا آنفاً فلم تتبلغ من عظتي لك فاذهب الساعة ضحية سوء تدبيرك وقلّة اعتبارك بالاصاخة لقول الحق.

وقال سبحانه في سورة هود (آية ٨٤): ﴿ وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِنْ إِلٰهٍ غَيْرُهُ ﴾ في كافة الموجودات إذ لا يصلح لذلك إلّا هو لاستجماعه لصفات الكمال المؤهلة لأن يكون وحده المعبود بالحق ﴿ وَلاَ تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ ﴾ في معاملاتكم وأخذكم من غيركم واعطائكم له ﴿ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ ﴾ أُولي نعمة وحسن حال وكثرة أموال وفي هذه الحالة رادع آخر عن أكل أموال الناس بالباطل غير رادع الدين ومتابعة نواهي المولى ﴿ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ ﴾ أظهر بذلك كمال شفقته بهم لخوفه عليهم أن ينالهم عذاب الله الذي لا تنفع معه مساعدة ومواساة في يوم لا مفرّ منه إلّا مواجهة الله والوقوف أمام محكمة عدله بكل خضوع ولا انساء فيه ولا تفاوت فالكل مجموعون لحكمه والجميع محكومون بعدله.

(آية ٨٥) ﴿ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ﴾ أي أقل ما يراد منكم

العدل بأن تأخذوا من الناس لا بزيادة وتعطوهم من دون نقيصة مما لكم عليهم أولهم عليكم ﴿ وَلاَ تَبْخَسُوا ٱلنَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ ﴾ أي تظلمونهم في كل شيء يعود لهم ولم ينزعه سبب صحيح عن سلطانهم ﴿ وَلاَ تَعْثَوْا فِي ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ بشتى طرق الفساد والافساد قولاً وعملاً.

(آية ٨٦) ﴿ بَقِيَّتُ ٱللَّهِ ﴾ وهي الأعمال الصالحة التي تبقى مع المكلف على طول طريقه وتنفعه عند الله في كل مكان أو ما أعطاه الله لكم من حال ومال بطريق مشروع لا ظلم فيه ولا خيانة ﴿ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾ في الدنيا بأنكم لا تعرفون إلّا بالصلاح والورع ونفس هذه السمة مما تعود على صاحبها إذا اشتهر بها بخير دنيوي كثير فضلاً عن خير الآخرة كما هو محسوس وفي الآخرة بأنكم تفدون على الله بوجوه بيض وأعمال سالمة من تلويث المعاصي والسيئات ﴿ إِن كُنتُم مُؤْمِنِينَ ﴾ بما أقول لكم ولا شبهة انهم إذا لم يكونوا يحسنون الظن به لا يركنون إلى أوضح شيء يصدر من لسانه لأنّ سوء الظن بالطرف مما يجعل النفس دائماً في قلق من أفعاله وأقواله وحتى الواضح الصريح منها ﴿ وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ ﴾ أي لا أتمكن أن أحفظكم من الله إن أراد بكم مكروهاً كما لا أتمكن أن أحفظ أموالكم من التلف إذا قدر الله عليها النفاد لكسبها بغير المشروع.

(آية ٨٧) ﴿ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا ﴾ أي ذكرك الله كثيراً واخلاصك له دائماً يحتم علينا أن نأتمر لك بترك ماكان يعبد أسلافنا من هذه الأصنام التي وجدناها ماثلة قبل دعوتك لنا ومما أورثها الآباء لأبنائهم من قومنا ﴿ أَو أَن نَفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ ﴾ أن نترك اختيارنا في متابعة نفوسنا فلا نأخذ من الناس زائداً ولا نعطيهم ناقصاً ولا نبخسهم أشيائهم ولا نعيث في الأرض مفسدين لأنّك تأمرنا بالصلاة وتقول في حقها انها تنهى عن الفحشاء والمنكر وتلوي بعاطفة الإنسان إلى جانب الحق والأمانة والتجنب عن مواقع

المنكر والسوء والشهوات المرذولة أي لماذا نفعل ذلك مستنكرين منه دعوته اياهم لركوب جادة الحق وملازمة نهج الصواب أي اننا لا نترك ما كان يعبد آباؤنا ونفعل في أموالنا ما نشاء ولا نحدد أفعالنا وأقوالنا بحد من الحدود التي تريدها أنت أصلاً ﴿ إِنَّكَ لأنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴾ يجوز أن يكونوا قالوا ذلك هزءً به أي أنت بمقالك هذا ودعوتك هذه لا حلم عندك ولا رشد لك كما يجوز أن يكونوا معتقدين لحلمه ورشده ووصفوه بداعي هذا الاعتقاد روماً منهم أن يوبخوه أي انك مع معروفيتك بالحلم والرشد بيننا كيف جوزت لك نفسك أن تفوه بمثل هذه الكلمات المبعوثة من غير رشد وحلم.

(آية ٨٨) ﴿ قَالَ يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِن رَبِّي ﴾ واطلاع كامل على ما أدعوكم له وقد جسمت لكم هذه البينة تجسيماً بواضح القول وصريح البرهان فعميت عليكم لانحرافكم عن الداعي وسوء ظنكم بدعوته من غير داع عقلائي أنلزمكم الحجة كرهاً واجباراً؛ لا اكراه في الدين ﴿ وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقاً حَسَناً ﴾ رزق النبوة ورزق المال ورزق العلم والكمال ومع هذه النعم الفواضل كيف اجوّز لنفسي أن تعدل بطاعتها وعبادتها وركونها إلى غير الله الذي آتاني البينة ورزقني النبوة وتلطف علي بثراء المال ونعمة العلم والكمال ﴿ وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ ﴾ أي ولا تظنوا بي تدليساً بأن أكون في نهيي لكم عن عبادة الأصنام وتطفيف المكيال والميزان وبخس الناس أشياءهم والعيث في الأرض افساداً مريداً لانصرافكم عن هذه الأشياء حتى يخلو لي محيطها فأكسب منها لنفسي ما فيه عائدة وفائدة أي ليس الأمر كما تتوهمون أو يتوهم متوهم ﴿ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلإِصْلاَحَ ﴾ لأموركم والتنظيم لأوضاعكم واستقامة بلادكم وجريان معيشتكم على الموازين الحقة والبرامج الصحيحة ﴿ مَا ٱسْتَطَعْتُ ﴾ أي جهد ما أتمكن من تبليغكم وبيان الحقائق لكم وكشف الواقع لأبصاركم ﴿ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ أي

لا أحرز الموفقية في دعوتي لكم ووصولي بكم إلى المقاصد الصالحة إلّا بحول الله وقوته ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أي فوّضت بجميع أُموري إليه لأنّه القادر المطلق الذي يحقق الأشياء وينفيها عن علم لا يشوبه جهل وحكمة لا يعيبها نقصان ﴿ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾ أي أرجع في معادي ويوم حشري ونشري.

(آية ٨٩) ﴿ وَيَاقَوْمِ لاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي ﴾ أي لا تحملكم مشاقتكم لي ومعاداتكم اياي على أن تكونوا مجرمين في قبال الله بداعي اللجاجة والعناد ﴿ أَن يُصِيبَكُم ﴾ لانغماسكم في الباطل عمداً وقصداً ﴿ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ ﴾ من العذاب المهلك والانتقام المخزي ﴿ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنكُم بِبَعِيدٍ ﴾ لا في الديار ولا في الأعصار فقد رأيتم كيف حلّ بهم عذاب الله واستأصلتهم نقمه.

(آية ٩٠) ﴿ وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ﴾ أي اطلبوا منه المغفرة عن خطاياكم ﴿ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ ﴾ بالنزوع مما سلف وتوطين النفس على الطاعة فيما يأتي ﴿ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ ﴾ أي ذو رحمة واسعة وحلم شامل ﴿ وَدُودٌ ﴾ أي يحب أن يكون عباده طائعين حتى ينالوا جزاء الطاعة وهو نيل مرضاته والخلود في نعيمه.

(آية ٩١) ﴿ قَالُوا ﴾ أي قوم شعيب عقيب هذه البيانات الناجعة والمواعظ البليغة والوفاء التام من نبيهم فقد قال في حقه نبينا الأكرم انّه خطيب الأنبياء لافصاحه في الحجة وتفيضه بالبيان إلى أقصى درجة وأخذه بمجامع القول بحيث لا مزيد لمستزيد ﴿ يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِمَّا تَقُولُ ﴾ أي انا لا نعير حججك أسماعاً واعية ولا قلوباً راضية حتى نلتفت إلى ما تقول التفات من يريد التفهم لينتفع بتفهمه ﴿ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفاً ﴾ أي لو أردنا مبارزتك بالقوة لما قويت علينا ﴿ وَلَوْلاَ رَهْطُكَ ﴾ أي مراعاة قومك وحشرنا معهم وقبح منافرتنا لهم ﴿ لَرَجَمْنَاكَ ﴾ قولاً وفعلاً ﴿ وَمَا أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴾ الخاطر والجانب حتى نمتنع

عن رجمك وايذائك.

(آية ٩٢) ﴿ قَالَ يَاقَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُم مِنَ ٱللَّهِ ﴾ الذي لا توازي قوته قوة ولا عزته عزة ولا نفوذه وقدرته نفوذ نافذ وقدرة قادر ﴿ وَ ﴾ مع ذلك ﴿ ٱتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيّاً ﴾ أي أدبرتم عنه ادبار من لا يعتني بالشيء ولا يعتده ﴿ إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴾ لا يشذ عن احاطة علمه قليل ولا كثير من أعمالكم.

(آية ٩٣) ﴿ وَيَا قَوْمِ ٱعْمَلُوا عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ ﴾ أي واصلوا ما أنتم عليه من عمل سيء وهذا من أعظم القول في التهديد ﴿ إِنِّي عَامِلٌ ﴾ عملي ماضٍ على طريقتي لا أنحرف عن مجراي في انكار المنكر عليكم وعرض طرق المعروف لكم ﴿ سَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ ﴾ مني ومنكم ﴿ عَذَابٌ يُخْزِيهِ ﴾ أي يفضحه أمام العالم الحاضر والآتي ﴿ وَمَنْ هُوَ كَاذِبٌ ﴾ مني ومنكم حيث أعدكم بعذاب الله إذا لم تنزعوا أيديكم من هذه الأعمال السيئة وحيث تعدون حديثي لكم حديثاً زائفاً ﴿ وَٱرْتَقِبُوا ﴾ لما أعدكم به ﴿ إِنِّي مَعَكُمْ رَقِيبٌ ﴾ أنتظر انتقام ربي لكم جزاء لجحودكم ومكافأة على سيىء أعمالكم.

(آية ٩٤) ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا ﴾ أي حقّ قضاؤنا الذي لا تبديل فيه ﴿ نَجَّيْنَا شُعَيْباً وَٱلَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا ﴾ اقتصرت عليهم وخلصتهم من تيك الجماهير المعذبة ﴿ وَأَخَذَتِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا ﴾ أنفسهم في قبال الله والناس جميعاً ﴿ ٱلصَّيْحَةُ ﴾ يقال انّ جبرئيل صاح بهم صيحة ماتوا على أثرها ولم يبق منهم ديار ﴿ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ ﴾ كالحجر الهامد.

(آية ٩٥) ﴿ كَأَن لَمْ يَغْنَوْا فِيهَا ﴾ ولا شيدوا قصوراً وبنوا دوراً وأثثوها بما استطاعوا جمعه من كل وجه تهيأ لهم مشروعاً وغير مشروع وها هم الساعة فقد فقدوا وراء ديارهم وأموالهم ونسائهم وأولادهم والقريب لهم والبعيد عنهم

أعمارهم وأنفاسهم ﴿ أَلاَ بُعْداً لِمَدْيَنَ ﴾ هذه القبيلة الظالمة ﴿ كَمَا بَعِدَتْ ﴾ قبلها ﴿ ثَمُودُ ﴾ بعدت عن ديارها وعن اعمارها وعن مرضاة ربّها وعن الذكر الحسن يتحدث به المتحدث عنها.

من هو شعيب

يقال انّ أهل مدين كانوا قوماً عرباً يسكنون مدينتهم مدين التي هي قرية من أرض معان من أطراف الشام مما يلي ناحية الحجاز قريباً من بحيرة قوم لوط وكانوا بعدهم بمدة قريبة وهم من بني مدين بن مديان بن ابراهيم، وشعيب هو ابن ميكيل أو ابن يشخر بن لاوي بن يعقوب أو ابن نويب بن عيفا بن مدين بن ابراهيم أو ابن ضيفور بن عيفا بن ثابت بن مدين بن ابراهيم، وقيل غير ذلك، وهذا مما يدلّ على مقدار ضعف التاريخ فيما قبل الإسلام.

❊ ❊ ❊

وقال سبحانه في شأن يوسف سورة يوسف (آية ٧): ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِلسَّائِلِينَ ﴾ أي الدواعي المهمة التي دعت الله سبحانه الذي يتتبع في كتابه العزيز مظان الحكمة فيبسطها للناس بأحسن وجه يعبره معبر ناصح مشفق إلى سرد هذه القصة الطويلة هو ما فيها من عبر قيمة وعظات بليغة وأهداف عالية مما يلزم كل فطن أن يتفهمها ويقف على مغازيها حتى يتحرز عن الروحيات الضعيفة ويتمرن على تقوية روحه وصفّها في مصاف الأرواح الشريفة كما قال سبحانه لقد كان في حديث يوسف واخوته آيات وعبر ومواعظ بليغة للسائلين.

(آية ٨) ﴿ إِذْ قَالُوا ﴾ اخوة يوسف وهم عشرة من أمين ويوسف واخوه

بنيامين من ام ثالثة ﴿ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ ﴾ من اُمّه وأبيه ﴿ أَحَبُّ إِلَىٰ أَبِينَا ﴾ يعقوب ﴿ مِنَّا ﴾ لابد انهم أدركوا من أبيهم ما تميزوا منه تقدم هذين الأخوين عنده دونهم لكن انعطاف الأب على هذين الأخوين إن كان لعاطفة فطرية وحب ذاتي لا يعلل سوى انّه ألهم ذلك وما أكثر نظيره في الناس شائقين ومشوقين فذلك لا حرج فيه بشرط أن لا يبدو ذلك منه اقبالاً على جانب واعراضاً عن جانب آخر لما فيه من المفاسد التي تعجز العاقل وتورد عليه من الآلام ما يضعف عن تحمله وأقل ما فيها خلق الغضاضة في قلوب المعرض عنهم بالنسبة إلى المحب والمحبوب جميعاً اللذين يحسبون لهما حساباً غير حساب سائر الناس وان الغضاضة إذا بذر بذرها أخذت عوامله تنمو به شيئاً فشيئاً حتى ينفجر ابان نضجه عن براكين مشتعلة ربما أتت على العناصر المتوفرة فأهلكتها وسرت في الاعقاب ارثاً لا يبطل تسربه وما أكثر الحوادث الخارجية على طول عهد البشر المنطبقة على عنوان ما تكلمنا عنه ومن جملتها قصة يوسف واخوته والشرع يؤيد النظرية التي أبدينها.

وإن كان منشأ الاقبال على بعض والاعراض عن بعض آخر هو وجود كمال في الأوّل مع نقص في الثاني أو بدونه فذلك حق لازم تشهيراً بفضائل الأوّل حتى يجد في كسب ما هو أكثر منها وتعيير للثاني حتى ينجر مما لصق به وان أثار هذا التفاضل جدالاً فإنّ الدنيا مضمار سباق ولا شبهة انّ توليد الأنفع والأفضل والأكمل لا يكون إلّا بطريق هذه المسابقات فإنّها ان تعد بحزازات وإحن ففيها من ترويج الفضائل والمعالي ما لا يحد بحاصر والذي يشعر به الكتاب العزيز من جهة يوسف واخوته انّ روحية يوسف كانت راقية بالنسبة إلى روحيات اخوته بمسافات شاسعة ولعل تقديم أبيه له كان من هذه الجهة فهو اذاً غير منفذ ولا ملوم على تفضيله هذا الولد على سائر اخوته ومهما جرت عليه الدواهي من جراء هذه

المفاضلة ﴿ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ ﴾ أي عدّة يعتصب بعضنا لبعض وفائدة كثرتنا أوفر من فائدة الفرد الواحد والاثنين ولهذا خطأوا أباهم وقالوا ﴿ **إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ** ﴾ أي انحراف عن جادة التوازن واضح لأنّ وزن الأشياء بمقاييسها يوجب تقديمنا عليهما لكثرتنا وقلتهما ولكنهم غفلوا عن انّ فرداً واحداً بجامعيته للفضائل الكثيرة قد يكون خيراً من أجيال عديدة بحيث إذا جمعت مزاياها الفاضلة لا تعدل مزاياه وهو بمفرده وهذه الغفلة فيهم من نقصهم أيضاً .

(آية ٩) ﴿ **ٱقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضاً** ﴾ بعيدة التناول عن أبيه ﴿ **يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ** ﴾ منه بعد أن كان منصرفاً بكله إليه ﴿ **وَتَكُونُوا مِن بَعْدِهِ قَوْماً صَالِحِينَ** ﴾ أي تصلح أُموركم مع أبيكم أو تتوبون من هذه الفعلة المنكرة وتكونون في زمرة الصلحاء وقد أخطأوا في ابداء هذا الرأي من عدة جهات :

أمّا أوّلاً : فإنّ العاطفة لا تجتلب اجتلاباً ولا تملك قسراً ، فإنّ أباهم إن يكن في قلبه من دواعي المحبة لهم ما يلوي به اليهم فسواء في ذلك وجود أخيهم يوسف وعدمه .

وأمّا ثانياً : فإنّ أباهم إذا اطّلع على قتلهم لعزيزه ومحبوب قلبه يكون معهم أشد اعراضاً وأقسى عاطفة لارتكابهم الجنايات العظيمة في حقه .

وأمّا ثالثاً : فلجهلهم بأحكام الشرع جداً فإنّه مما لا ريب فيه إن رجاء العفو مع الخطأ قد يكون رجاءً صحيحاً لا مغمز فيه بخلاف من يرتكب الجناية عامداً قاصداً عالماً بأنّها عظيمة الوقع شديدة الذنب متكلاً حين ارتكابها بالوصف المحرر على التوبة من بعدها فإنّ اتكاله هذا بنفسه ذنب وتجهيل للمولى فكيف يكون مع هذه الروحية الشاذة صالحاً مقبولاً .

(آية ١٠) ﴿ **قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ** ﴾ فإنّ قتل البريء أمر عظيم ﴿ **وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَتِ ٱلْجُبِّ** ﴾ في قعر بئر فإنّ المنظور من هذه المشورة تعديل

وضع نكون فيه مع أبينا على طريقة نرضاها لأنفسنا من جهته وهذه النتيجة تحصل لنا بنفس بعد يوسف عن محيطنا وبعده عنا كما يكون بقتله يكون بأبعاده مع الابقاء على حياته وهو أخف المحذورين قطعاً فلا نجنح إلى غيره ﴿ **يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ** ﴾ أي بعض المارّة بهذه الطرق ﴿ **إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ** ﴾ بأخيكم يوسف فعلاً ترجون من ورائه اقبال أبيكم عليكم.

(آية ١١) ﴿ **قَالُوا يَا أَبَانَا مَالَكَ لاَ تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ تشعر الآية انّ أباه كان ضنيناً به وخاصة منهم لما ربما كان يجده على أسارير وجوههم من الحسد له ﴿ **وَإِنَّا لَهُ لَنَاصِحُونَ** ﴾ أي لا نمضحه غير النصح في كل أعمالنا معه.

(آية ١٢) ﴿ **أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَداً** ﴾ خارج منازلنا كما هي عادتنا في الخروج إلى الصحراء ﴿ **يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ** ﴾ لا نهمله حتى يكون عرضة للتلف من حيوان أو انسان يريد به سوءً.

(آية ١٣) ﴿ **قَالَ** ﴾ لهم أبوهم يعقوب ﴿ **إِنِّي لَيَحْزُنُنِي أَن تَذْهَبُوا بِهِ** ﴾ لأنني أحبه وأخاف عليه الحوادث تقتطعه مني إذا بعد عني ﴿ **وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ** ﴾ لقصوره بصغر سنه عن مدافعة السباع ﴿ **وَأَنتُمْ عَنْهُ غَافِلُونَ** ﴾ بشؤونكم التي تخصكم وكأنّ يعقوب أفادهم بمقاله هذا فوائد لم تكن لهم على بال منها مزيد شفقته بما لم يعهدوه آنفاً حتى انّه ليحزنه فراقه القصير وهو خروجه عنه خارج البيوت لمدة سويعات ومنها انّه متخوف منهم عليه بحيث يسيء الظن بهم بالنسبة إليه ومنها انّه أرشدهم إلى وجه عذر إذا أتوا إلى أخيهم بسوء وهو انهم أصابتهم غفلة لانصرافهم إلى بعض شؤونهم فأكله الذئب بلا تحرز منهم تغافلاً وتناسياً.

(آية ١٤) ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي الأولاد لأبيهم في جوابه ﴿ **لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ** ﴾ أي عدة كثيرة لا نؤتى من قلّة ﴿ **إِنَّا إِذاً لَخَاسِرُونَ** ﴾ أي قد خسرنا أنفسنا لا أخانا فقط لشهادة الموقف بمزيد ضعفنا وعدم غناءنا في أقل الأشياء.

(آية ١٥) ﴿ فَلَمَّا ﴾ أفلتوه من يد أبيه وتمكنوا منه ﴿ ذَهَبُوا بِهِ ﴾ إلى الصحراء ﴿ وَأَجْمَعُوا ﴾ أي تصادقت أنظارهم جميعاً ﴿ أَن يَجْعَلُوهُ فِي غَيَابَتِ الْجُبِّ ﴾ أي قعر البئر حفظناه من سوئهم وربطنا قلبه ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ ﴾ وهو في هذه الحال المحزنة ﴿ لَتُنَبِّئَنَّهُم ﴾ يا يوسف بعد حين ﴿ بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا ﴾ الذي تراه بعينك ويرونه معك ﴿ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ انك أنت يوسف حي ترزق إلى ساعتك التي تحادثهم فيها وتدير سياسة مصر بعظيم سيطرة ونفوذ وفي هذا الوحي إلى يوسف بحالته تلك شد لعضده وربط لقلبه وتثبيت لفكره وانّ الله لا يريد به من هذا المقدمات الصعبة إلّا النتيجة الضخمة وفي ذلك من التسلية له ما لا يخفى .

(آية ١٦) ﴿ وَجَاءُوا ﴾ أي اخوة يوسف ﴿ أَبَاهُمْ ﴾ بعد ما رجعوا من الصحراء ﴿ عِشَاءً ﴾ طبق معمولهم في كل يوم ﴿ يَبْكُونَ ﴾ أي يتظاهرون بالبكاء اشعاراً بصدقهم فيما يقصونه على أبيهم من حديث يوسف وما جرى عليه .

(آية ١٧) ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا ﴾ لقد صدق تفرسك فينا وفي يوسف عندما أبيت أن تدفعه لنا ﴿ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَاعِنَا فَأَكَلَهُ الذِّئْبُ ﴾ في غيابنا ﴿ وَمَا أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا ﴾ فيما أخبرناك به ﴿ وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ ﴾ في مقالنا غير مفترين عليك .

(آية ١٨) ﴿ وَجَاءُوا عَلَىٰ قَمِيصِهِ ﴾ الذي سلبوه منه عند القاءه في الجب عرياناً ﴿ بِدَمٍ كَذِبٍ ﴾ استحصلوه من بعض المظان وليس بدم يوسف اشعاراً بصدق دعواهم ولكنهم مع التفاتهم إلى تلطيخه بالدم لم يمزقوه حتى تتم لهم ظواهر الحجة في أكل الذئب له ﴿ قَالَ ﴾ لهم أبوهم بعدما وقف على حقيقة المطلب من احتفافاته المشعرة بكذب ما أخبروا به فإنّه وجد القميص سالماً من جميع جهاته ومحال أن يعيث حيوان أو انسان بانسان فيمزقا جلده وثوبه عليه سالم لم يصبه سوى التلطخ بالدم من مماسة جروحه ﴿ بَلْ ﴾ كذبتم فيما جئتم به

من خبر وإنّما ﴿ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ ﴾ في أخيكم ﴿ أَمْراً ﴾ سيئاً فأتلفتموه تشفياً على انّه لم يصنع اليكم سوءً ﴿ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ﴾ على ما نزل بي ﴿ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ من فقد هذا العزيز عليّ بأكل الذئب له ولا شبهة انّ ابتلاء يوسف على صغر سنه بهذه المحن وتألم أبيه عليه بما ابيض له رأسه وعيناه من أشد مواقع ابتلاء الله عباده المخلصين.

(آية ١٩) ﴿ وَجَاءَتْ سَيَّارَةٌ ﴾ أي جماعة سائرون لمقصدهم مروا على البئر الذي أُلقي فيه يوسف فاحتاجوا إلى الاستقاء منه ﴿ فَأَرْسَلُوا وَارِدَهُمْ ﴾ أي الذي يرد لهم ويستقي لهم الماء ﴿ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُ ﴾ في البئر فتعلق يوسف بالحبل فلما جروه وجدوه أحسن خلق الله وجهاً وتركيباً ﴿ قَالَ ﴾ المخرج له مخاطباً جماعته الذين معه على البئر ﴿ يَا ﴾ قوم ﴿ بُشْرَىٰ ﴾ لنا ﴿ هَٰذَا غُلَامٌ ﴾ استفدناه مكان الماء ﴿ وَأَسَرُّوهُ ﴾ أي أخفوه عمن في القافلة حذراً من ادعائهم الشركة فيه ﴿ بِضَاعَةً ﴾ ضموها إلى ما عندهم من متاع يصرفونه في سوق مصر ﴿ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾ هؤلاء الواجدون له أو اخوته الذين جنوا عليه هذه الجناية العظيمة وانزلوا أعلا أولاد الأنبياء رتبة وكمالاً إلى أخس منازل العبودية.

(آية ٢٠) ﴿ وَشَرَوْهُ ﴾ أي الواجدون له على أهل مصر أو انّ اخوته كانوا حضوراً عند ما أخرجته السيارة من البئر فادعوا به وباعوه على المخرجين ﴿ بِثَمَنٍ بَخْسٍ ﴾ قليل حقير ﴿ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ ﴾ لا أهمية لها في النظر ﴿ وَكَانُوا ﴾ أي البائعون له بمثل هذا الثمن الضئيل ﴿ فِيهِ مِنَ ٱلزَّاهِدِينَ ﴾ أي القليلي العناية به فإنّ الحر وإن كان لا يقوم بمال قلّ أو كثر إلّا انّ مثل هذا الحرّ على جامعيته للأوصاف الوفيرة الخطيرة لو فرض من الأفراد الذين يقع عليهم البيع والشراء لصبت في ثمنه الأكياس الضخمة ذهباً وفضة ومع ذلك لا تقوم بما يجل له وهؤلاء الجمع باعوه بأبخس ثمن حتى قيل انهم باعوه بعشرين درهماً وعذرهم

في ذلك انهم لم يشخصوا هويته ولم يقفوا على حقيقته ولم يتكبدوا في سبيل تملكه أقل تعب ولم يبذلوا في شراءه ان كانوا اشتروه من اخوته إلّا كمية تنزل عن مد النظر وهكذا كل حقيقة راهنة في الدنيا يكيلها الجاهلون بها جزافاً ولا يقومون بأقل حق من حقوقها فتضمحل وتتلاشى عن الأبصار ولا يدرى بخبرها أحد.

(آية ٢١) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشْتَرَاهُ مِن ﴾ أهل ﴿ مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِ ﴾ لما وجد عليه آثار النجابة وأُبهة الجلالة ﴿ أَكْرِمِي مَثْوَاهُ ﴾ أي المكان الذي يثوي فيه ويأوي إليه بتعديل فراشه وتلطيف وسائل معاشه ﴿ عَسَىٰ أَن يَنفَعَنَا ﴾ بما اوتيه من علم وكمال ﴿ أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَداً ﴾ أي نتبناه لأنّه يروى انّ هذا الإنسان الذي اشتراه وهو خازن ملك مصر والذي يلي أُموره وجنده وكان لا يأتي النساء وزوجته هي زليخا ﴿ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ أي جعلنا بذرة تمكينه وأوّل سلسلة ترقيه في وصوله إلى هذا المحل ووقوعه في هذا البيت ثمّ نأخذ بيده مرحلة مرحلة حسب سير الأسباب بمسبباتها الذي تفرضه الحكمة ويوجبه وزن السير بالعالم حتى لا يختل نظامه ولا تنشعث أُموره ﴿ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ أي وإنّما امتحناه بهذه المحنة ليكون طول سيره فيها مقترناً بمصادفات جمة نفرض عليه أن يكون ذا علم جم ودربة واسعة فنفيض عليه الشيء بعد الشيء بما يرفع به حاجته وتتنور به مراتب كماله إلى أن يجيء في نهاية المطاف أجمع ما يكون للفضائل والمحاسن ﴿ وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ ﴾ أي على أمر يوسف بل أمر كل كائن فإنّ المقدرات التكوينية مخصوصة به فهو الذي يصح وهو الذي يمرض وهو الذي يعز وهو الذي يذل وعلى هذه الوتيرة كل تبادل يكون في أوضاع الكون ومن جملته أمر يوسف حيث تنقل به من حال إلى حال حتى بلغ به بعد أقصى مراحل الذل والهوان إلى أعلا مراتب البشر شخصية وعظمة ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ

ٱلنَّاسِ لاَ يَـعْلَمُونَ ﴾ انّ المقدرات في قبضة الله سبحانه ويحسبون انّ الانـحطاط والترقي نتيجة كسب الإنسان وتعبه وتحيله في اقتناص الأُمور.

(آية ٢٢) ﴿ **وَلَمَّا بَلَـغَ أَشُدَّهُ** ﴾ بلوغ الأشد في كل شـيء له مـيزان اعـتيادي أوقفتنا عليه الاقترانات الخارجية فقد أوقفنا العيان بالنسبة إلى نوع أفراد البشر انّ بلوغ أشده الجسمي هو تكامل أعضاءه الخلقية واستعداده التام للتلقيح، وأمّا الرشد الفكري فذلك غير تابع للسن ومبناه على الدربة واستخدام معدات الدرك والتفهم وهذا ما لا يقدر بعشرين أو ثلاثين أو أربعين سنة، وأمّا المواهب الربانية فلا تحد بحاصر فقد ينضج الرب الكريم عقل الصبي بما يساويه مع أعظم العقول البشرية والذي يظهر من الآية انّ الله لا يريد ببلوغ أشد يوسف إلّا البلوغ الجسمي واحراز المعدات بطور طبيعي ثمّ وصلها بايتاء الحكمة والعلم إلهـاماً كـما قـال سبحانه ﴿ **آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً** ﴾ يستخدمهما في حلّ الخـصومات والقـضاء فـي المرافعات وتعديل أُمور الناس وتنظيم شؤونهم ﴿ **وَكَذٰلِكَ نَـجْزِي ٱلْـمُـحْسِنِينَ** ﴾ الذين يوطنون أنفسهم لما يريد الله بهم من سرّاء أو ضرّاء ويعتقدون انّ صنع الله بهم ليس إلّا عن حكمة ومصلحة وهؤلاء محسنون إلى أنفسهم بلا ريب لأنّهم لا يدعوها تتأثر بالحوادث الخشنة لما راضوها به من التوطين والتـوكل فـي كـل شيء يعترض لها في طريق الحياة ويوسف كان من هذا القبيل.

(آية ٢٣) ﴿ **وَرَاوَدَتْهُ ٱلَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَن نَفْسِهِ** ﴾ أي طلبت امرأة العزيز من يوسف أن يواقعها بعد ما اطمأن به المكان عندها ﴿ **وَغَـلَّقَتِ ٱلْأَبْـوَابَ** ﴾ لأجـل تحقيق مرامها منه بفراغ بال وحتى لا يطلع على فعلها أحد وان اتهمت كـان لهـا وجه انكار واضح بأنّ كل من رآنا أنا وهذا الغلام على ريبة فليتقدم ومع اغلاق الأبواب باب الدار وأبواب البيوت لا مدعي للرؤية حتماً ﴿ **وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ** ﴾ أي هلم اليّ لأقضي منك وطري ﴿ **قَالَ مَعَاذَ ٱللَّهِ** ﴾ كلمة تقال عند تبرءة النفس فـي

كل مقام يراد منها ما لا يتفق مع عقيدة المطلوب منه أو تتهم به أي لا أفعل ذلك يا زليخا ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي العزيز ﴿ رَبِّي ﴾ أي صاحب نعمتي ﴿ أَحْسَنَ مَثْوَايَ ﴾ واحترم مكاني عنده ﴿ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴾ وأنا ان أتعد على ناموسه ظالم له فكيف أفلح أو كيف أرتكب منك ما لا يحل في شرع الله سبحانه وهو ربي أحسن مثوأي حيث أخرجني من غيابت الجب ومهّد لي المكان الذي آوي إليه باكرام واحترام وهو بيت زوجك العزيز فانني إن أفعل ذلك أكن ظالماً لنفسي بتعديها على محارم خالقها ولا يفلح الظالم أبداً.

(آية ٢٤) ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ ﴾ أي زليخا بيوسف بعد ما طلبت منه بالقول مواقعتها فشفعت ذلك بالعمل حيث تقدمت إليه وهمت به ﴿ وَهَمَّ بِهَا ﴾ أي بطبيعة شهوة كل رجل ولكن لم يتقدم اليها بل بالعكس دافعها مدافعة شديدة كما تشهد في حقه آيات كثيرة من هذه السورة ﴿ لَوْلَا أَن رَأَىٰ بُرْهَانَ رَبِّهِ ﴾ أي في هذا المأزق الحرج والمحاصرة التي يخاف منها الانهيار والسقوط استحضر يوسف كل مشاعره فقمع بها طغيان شهوته وهكذا كل طبيعة لها مفعول قوي لو لم تواجه بالمصادمات الرياضية التي تذلل نخوتها وتقلل من حركتها وجواب لولا في الآية محذوف يشعر به السياق بمعنى انّ دواعي شهوته لو لم تصدم بحملة شديدة من عقله لغلبته وأوقعته في المآثم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي بهذه الصورة لطفنا به وأشفقنا عليه ﴿ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ وهما مقاربة تلك المرأة المحصنة ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ أي إنّما استوجب يوسف منها هذه العناية ومزيد هذا الالتفات لعلمنا بخلوص نيته وطهارة ضميره وحبه لفعل الخير مهما تمكن.

(آية ٢٥) ﴿ وَاسْتَبَقَا الْبَابَ ﴾ أي يوسف وزليخا بأن تقدم يوسف فاراً منها إلى الباب ليفتحه ويخرج تخلصاً من شرها وتقدمت هي أيضاً موازية له لتمنعه من الخروج وفتح الباب ﴿ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِن دُبُرٍ ﴾ أي من وراءه عندما تعلقت به

وأرادت أن تجره عن التقدم إلى الباب ﴿ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَى ٱلْبَابِ ﴾ أي وصدفة وجدا هي وهو سيد المرأة وهو العزيز زوج زليخا عند الباب فسبقت زليخا بالشكاية من مزاحمة يوسف لها على نفسها تبرئة لمقامها عند زوجها وهذا ضرب من الحيلة والشيطنة ﴿ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ خارج السجن.

(آية ٢٦) ﴿ قَالَ ﴾ يوسف حينئذ في مقام الدفاع عن نفسه لما جد به الأمر كذبت زوجتك في ادعائها على سوء وانني مزاحمها على عرضها بل ﴿ هِيَ رَاوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي ﴾ وألزمتني بمطاوعتها ﴿ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَا ﴾ أي ممن ينتسب لعنصرها وينتصر لها ويهمه أمرها ويجوز أن تكون هذه الشهادة حين حدوث هذه الحادثة أو بعدها بفاصلة قليلة ﴿ إِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ ﴾ زليخا في ادعائها عليه مزاحمة ناموسها لأنّ الرجل في هذه الحال هو الذي كان يطاردها وهي فارة منه وتدافعه في كل وقت يلحق بها بيديها فتخرق قميصه من قبل لهذا الدفاع الشديد منها له ﴿ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَاذِبِينَ ﴾ في قوله هي روادتني عن نفسي.

(آية ٢٧) ﴿ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ ﴾ في قولها ما جزاء من أراد بأهلك سوءً لأنّ هذه الحالة قاضية بأنّ الرجل هو المدبر عنها وهي التابعة له والجارة لثوبه من وراء ﴿ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ في تنصله منها ونسبته الذنب اليها.

(آية ٢٨) ﴿ فَلَمَّا ﴾ تعقل العزيز مضمون هذه الشهادة ووجدها شهادة قد أخذت بوجوه الحجج القوية و ﴿ رَأَىٰ قَمِيصَهُ قُدَّ مِن دُبُرٍ ﴾ التفت إلى زوجته و ﴿ قَالَ إِنَّهُ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ وهذا الفتى بريء أشد البراءة من أدنى هذه الذنوب التي الصقتها به ثمّ توجه إلى يوسف وقال:

(آية ٢٩) ﴿ يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا ﴾ الذي مرّ بك واطو حديثه ولا تذكر منه

أقل شيء وبعد ذلك التفت إلى زليخا ﴿ وَ ﴾ قال لها ﴿ ٱسْتَغْفِرِي لِذَنبِكِ ﴾ ايتها المرأة ﴿ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ ٱلْخَاطِئِينَ ﴾ في خيانتك لزوجك وتمردك على هذا الإنسان العفيف.

(آية ٣٠) ﴿ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي ٱلْمَدِينَةِ ﴾ أي في المدينة التي كان يقيم بها العزيز وزوجته زليخا ويوسف والذي يشعر به سياق القصة وطرز حديثها انّ القائلات نساء أشراف يضاهي أزواجهن العزيز وأمثاله لأنّ وضع زليخا مع يوسف لم يكن لينتشر يومئذ حتى يخرج إلى المدن المجاورة أو إلى كل امرأة في المصر ﴿ ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ ﴾ أي تطالب غلامها أن يواقعها وهي ذات بعل قلن هذا القول في غيابها على سبيل التعيير والمذمة ﴿ قَدْ شَغَفَهَا حُبّاً ﴾ أي دخل حبه فيما وراء شغاف قلبها وهذه الكلمة تقال حيث يبلغ الحب أقصى درجاته في المحب ﴿ إِنَّا ﴾ أي نحن النسوة اللائي نظيرها في جنسية الخلقة والترف والشرف والتحصن ﴿ لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ من خطتها هذه فاننا لا نرتكب ما ارتكبت ولا نحدث أنفسنا بما انطوى عليه ضميرها.

(آية ٣١) ﴿ فَلَمَّا سَمِعَتْ ﴾ زليخا ﴿ بِمَكْرِهِنَّ ﴾ أي اظهاراتهن العارية عن الحق وانّ ما في نفوسهن حب الوقوف على الوضع الذي ارتهن زليخا بقوته فانهن لم يعهدنها في السابق من العواهر والساقطات فليس الذي طير هذا الحديث في حقها إلّا أمر راهن له قسطه الوافر من القيمة والأهمية ﴿ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي دعتهن إلى منزلها دعوة رسمية ولا شبهة انّ الدعوات الرسمية في كل وقت يعتد لها صاحبها بما يتناسب هو وشأنه من طعام وفاكهة وتجهيزات لازمة ﴿ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً ﴾ أي مساند يتروحن عليها وقيل انّ هذه المادة تطلق على الطعام في لسان العرب ﴿ وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ سِكِّيناً ﴾ لتقطيع الفاكهة الموضوعة أمامهن طبق المتعارف ولكنها كانت تستهدف من وراء هذه الحركة أمراً آخر

يبرر لها موقفها أمامهن بما يتجلى لهنّ وللغير أيضاً ﴿ وَ ﴾ بعد أن مهدت هذه المقدمات ﴿ قَالَتِ ﴾ ليوسف الذي كان عندها بمنزلة غلام مأمور تستخدمه في حوائجها ﴿ ٱخْرُجْ عَلَيْهِنَّ ﴾ لأداء بعض الوظائف التي كلفته بها وهو لا يدري بما تنوي هذه المرأة من خروجه اليهن ﴿ فَلَمَّا رَأَيْنَهُ ﴾ جميلاً لغاية الجمال بما لم تقع أعينهن على مثله ﴿ أَكْبَرْنَهُ ﴾ أي وقع من نفوسهن وأعينهن موقعاً كبيراً عظيماً ﴿ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالسكاكين التي كانت فيها لأجل تقطيع الفواكه فبانشغال أبصارهن وقلوبهن عن كل شيء سوى تكرار النظر إلى وجه يوسف غفلن عن ملاحظة مواقع سكاكينهن ولذلك أملن لا عن قصد بالشفرات على أيديهن ﴿ وَقُلْنَ ﴾ من باب شدة التعجب ﴿ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ كلمة تقال في مقام التجافي عن الشيء والتنصل منه ﴿ مَا هَٰذَا ﴾ الذي نراه بهذه الصورة التي ملكت قوانا ﴿ بَشَراً ﴾ لأننا لا نرى له نظيراً في هذا النوع ﴿ إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴾ أي موجود خارج عن سلسلة هذا النوع وداخل في سلسلة لا نعرفها إلّا بما نسمع عنها من تجليل وتكريم هنالك أبدت زليخا ما في ضميرها وأبرزت مكنون صدرها وأعربت عن السبب الداعي لها إلى دعوتهن في منزلها .

(آية ٣٢) و ﴿ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِي لُمْتُنَّنِي فِيهِ ﴾ أفلا يستحق أن يحبب ويراود ـ نعم ﴿ وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ ﴾ كما بلغكن ﴿ فَاسْتَعْصَمَ ﴾ أي لكنه طلب العصمة عني وامتنع ومع هذا كله فانني لا أنتهي عنه ﴿ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَا ءَامُرُهُ ﴾ وما أُريد منه ﴿ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُوناً مِنَ ٱلصَّاغِرِينَ ﴾ أي لأُدبرنّ له ما به سجنه وصغاره وذلك بأن أرميه بالموبقات العظائم عند زوجي حتى يؤدي ذلك به إلى سجنه وأذيته فلما رأى يوسف جد النساء به وانهن لا يتركنه بحاله ولا يدعن مراودته وهن ذوات قوة بالنسبة إليه وهو من أضعف الضعفاء بالنسبة اليهن لكونه مملوكاً لا يقدر على شيء وغريباً ليس له في البلد أحد وجميلاً سلبه جماله راحته وضايقه

على نفسه.

(آية ٣٣) ﴿ قَالَ رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ﴾ من مؤاتاة فعل القبيح ومطاوعة المعاصي ﴿ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي ﴾ يا ربّ بلطفك ﴿ كَيْدَهُنَّ ﴾ أي مكرهن وحيلتهن واصرارهن في طلبي واحراجي ﴿ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ ﴾ أي أقع في قبضتهن مرغماً إذ لا مناص لي منهن ولا قوة بي عليهن ﴿ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَاهِلِينَ ﴾ الذين ينقادون إلى المعاصي بجهلهم على انّ يوسف ليس في هذا الوادي لأنّ الرجل ليس له هوى في طلبهن حتى يحشر في صفوف الجهلة والعصاة إذا ارتكب ما لا يرضى الله وإنّما هنّ بقوتهن عليه وضعفه بالنسبة اليهن يطلبنه وفي وسعهن اكراهه على ما يرون ولذلك دعا الله لهيفاً خائفاً من عاقبة أمرهن معه.

(آية ٣٤) ﴿ فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ ﴾ بأن رتّب له أسباباً دخل من أجلها السجن الذي صار مقدمة لتعاليه وانتصابه آمراً على مملكة واسعة فإن قيل وأي لطف حصل من الله ليوسف سوى انّه أودعه السجون المحزنة المؤذية التي ربما أثارت في الإنسان الصبور جزعاً يضيق به الصدر وتتكدر به فواصل العمر؟ قلت: ألطاف الله في هذه الدنيا بعباه المؤمنين الصلحاء لا تكون نوعاً إلّا ببطؤ وطول مدة مع تحمل الشدائد والآلام على طول مسافتها كل ذلك زيادة في الابتلاء وصقلاً للايمان كما ترى ذلك بوضوح من مشي الله مع كافة أنبيائه وأوصيائه وأوليائه ﴿ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ﴾ بالطريق الذي أسلفنا بيناه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الله ﴿ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ﴾ لدعاء عباده ﴿ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بما هم عليه من حال.

(آية ٣٥) ﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُمْ ﴾ أي للذين ابتلى يوسف بكيد نسائهم وشغفهن به ﴿ مِن بَعْدِ مَا رَأَوُا ٱلْآيَاتِ ﴾ الدالة على طهارة هذا الشاب وعظيم عفته ومزيد تمسكه بالايمان والصلاح من قدّ قميصه من دبر وتقطيع أيديهن بالسكاكين عجباً به واستعصامه أمام كل هذه الفتن ﴿ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّىٰ حِينٍ ﴾ أي إلى أمد يبطل

فيه حديث هاته النسوة مع يوسف كل ذلك حذراً من الافتضاح أمام جماهير الناس.

(آية ٣٦) ﴿ وَدَخَلَ مَعَهُ ﴾ أي مع يوسف ﴿ ٱلسِّجْنَ فَتَيَانِ ﴾ أي غلامان للملك حبسهما بتهمة انهما تمالئا على سمّه كما يروى، ولما التقيا بيوسف ظهر لهما منه صفات كريمات منها علمه ومعرفته ومنها أخلاقه الجميلة ومعاشرته الحسنة وفي خلال اقامتهما معه رئيا في نومهما ما قصّه الله بقوله ﴿ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ ﴾ عصيراً يؤول ﴿ خَمْراً وَقَالَ ٱلْآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِنْهُ ﴾ أي تنهشه سباع الطير وهو على رأسي ﴿ نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ يا يوسف ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ إلى كل من عاشرته وباشرته بطلاقة الوجه واجابة المسؤول عند ذلك توجه يوسف اليهما بكله راغباً أن يوقفهما على حقيقة أمره وما أُوتيه من علم وكمال وان ينتقل من هذا الحديث إلى اقناعهما بوجوب وجود صانع للكون جامع لما يجب أن يكون له من وصف بعيد عما لا يلائم ذاته من معنى علماً يتوفق في ضمن هذا التبليغ من ارشادهما وانقاذهما من الكفر إلى الايمان:

(آية ٣٧) فـ﴿ قَالَ ﴾ لهما انّ الله آتاني من العلم شيئاً كثيراً فمن ذاك انّه ﴿ لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِ ﴾ أي يقدر لكما ﴿ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِ ﴾ أي أخبرتكما به ووقفت بكما على علمه ﴿ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَا ﴾ ويصل اليكما عياناً ﴿ ذَٰلِكُمَا ﴾ أي هذا العلم الذي أُوتيت ﴿ مِمَّا عَلَّمَنِي رَبِّي إِنِّي ﴾ لوقوفي على الحقيقة الناصعة بطلبي لها ﴿ تَرَكْتُ مِلَّةَ ﴾ أي دين ﴿ قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ أي لا يعتبرونه صانع الكون ومصدر الكائنات والمقدرات بأسرها ﴿ وَهُم بِالْآخِرَةِ ﴾ أي بعالم المعاد الجسماني والرجوع إلى الله والوقوف بين يدي حكمه العادل فاما إلى نعيم وامّا إلى الجحيم ﴿ هُمْ كَافِرُونَ ﴾ أي منكرون ويعدون الحياة منحصرة بهذه الحياة

الدنيوية فقط.

(آية ٣٨) ﴿ وَاتَّبَعْتُ مِلَّةَ آبَائي إبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ ﴾ أي أنا متدين بشرائع رسل الله وفي ذلك اظهار لجلالة شخصيته بأنّه من أبناء الأنبياء ﴿ مَا كَانَ لَنَا ﴾ عقلاً وتشريعاً ﴿ أن نُّشْرِكَ بِاللَّهِ مِن شَيْءٍ ﴾ ونجعل له شركاء لأنّ الصانع للكون بما وجب له من صفات طارد لكل شريك ﴿ ذٰلِكَ ﴾ أي توحيدنا لله وايماننا به ﴿ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ عَلَيْنَا ﴾ نحن آل ابراهيم ﴿ وَعَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ جميعاً، ولا ريب انّ الايمان بالله وتنزيهه عن الأنداد والشركاء فضل من الله إذا توفق له العبد لأنّ معناه ان حامل هذه العقيدة عالم بطريق التدليل الصحيح بعيد عن الأوهام والخرافات راض عن نفسه في دنياه بوقوفها على الحقائق الراهنة راج للسعادة في اُخراه طبق ما وعد به المولى الكريم من الفوز بجنات النعيم والثواب الجسيم ﴿ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لاَ يَشْكُرُونَ ﴾ نعمة المنعم فإنّ الكافر بالله كالمؤمن به من ناحية انّ كل ما عندهم من فضل يتمتعون به هو من فيض الله سبحانه لكنهما يفترقان في انّ المؤمن يشكر والكافر يجحد.

(آية ٣٩) ﴿ يَا صَاحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ ﴾ فهذا إله الظلمة وذاك إله النور وذاك إله الخير وهذا إله الشر وهذا صنم وذاك وثن وهلم دواليك ﴿ خَيْرٌ ﴾ ان صححنا لها الربوبية وانها من مظان الخير ﴿ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَاحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴾ المتفرد في سيطرته القاهر فوق عباده القائم على كل ذرة في الوجود يا صاحبي السجن أنتما ومن هو نظيركما في ما يحمل من هذه العقائد الوثنية.

(آية ٤٠) ﴿ مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِ ﴾ أي من دون الله ﴿ إِلَّا أَسْمَاءً ﴾ خالية عن كل مسمى حقيقي ووجود ذي أثر خارجي ﴿ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ قبلكم ﴿ مَّا أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا ﴾ أي بجواز عبادتها واتخاذها وتصحيح الاعتقاد بها ﴿ مِن سُلْطَانٍ ﴾ أي من بيان يدل على ذلك ﴿ إِنِ ٱلْحُكْمُ ﴾ أي التشريع والقضاء والتقدير

والمحو والاثبات ﴿ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ وحده ﴿ أَمَرَ ﴾ أمراً تشريعياً الزامياً ﴿ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ﴾ أي لا يجوز لكم الاشراك به لا في قليل ولا في كثير مما يختص به ولا يجوز إلّا له ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي العقيدة التي تكون على هذا البرنامج هو ﴿ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ ﴾ الذي لا زيغ فيه ولا عوج ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ما هو وظيفتهم أمام خالقهم وهذا التعبير والتوبيخ قاض بأنّ الجهل الذي معهم عن تقصير لا قصور حتى يكونوا معذورين عقلاً وشرعاً وعرفاً .

ثمّ بعد أن قام بوظيفته التبليغية وما هو محول على عاتقه من الله سبحانه أجاب الفتيين عن سؤالهما ايّاه بقوله :

(آية ٤١) ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا ﴾ وهو الذي قال له اني أراني أعصر خمراً ﴿ فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا ﴾ أي يخرج من السجن ويعود إلى ما كان عليه من خدمته لمالك أمره وهو الملك ﴿ وَأَمَّا ٱلْآخَرُ ﴾ وهو الذي قال له اني أراني أحمل فوق رأسي خبزاً تأكل الطير منه ﴿ فَيُصْلَبُ ﴾ أي يدعو به الملك ويحكم عليه بالصلب جزاءً لما ثبت في نفسه انّه أراد به سوءً ﴿ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ﴾ بعدما يصلب ويبقى مصلوباً ﴿ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴾ أي قدر الله ما قلت لكما به ولا مرد لقضاءه فذلك أمر كائن لا محالة .

(آية ٤٢) ﴿ وَ ﴾ بعد أن بيّن يوسف حال الرجلين وانّ أحدهما يصلب والآخر يخرج من السجن ويعود لما كان عليه ﴿ قَالَ لِلَّذِي ظَنَّ ﴾ حسبما ألهمه الله في تفسير هذا المنام ﴿ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ﴾ أي من الرجلين المذكورين وعائد إلى شغله الأوّل من سقي ربه ﴿ ٱذْكُرْنِي ﴾ إذا خرجت من السجن واتصلت بالملك ﴿ عِندَ رَبِّكَ ﴾ ويريد به الملك الذي هو صاحب أمره وقل له اني خلفت في السجن انساناً فيه آيات النبوغ والفضيلة وقد سجن ظلماً ومضى عليه في السجن مدة لا يعرف فيها مصيره ﴿ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ ﴾ أي أنسى الشيطان ذلك

الخارج منهما العائد إلى خدمة الملك فلم يذكر يوسف عند ربه كما أوصاه وترجاه ﴿ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴾ بعد خروج ذلك الناجي وبقي مهمل الأمر منسي الذكر لا سائل عنه ولا مخبر بحقه إلى أن اتفق للملك أن رأى في منامه رؤيا أهالته فلما أصبح طرح صورة الرؤيا على حاضري مجلسه الذين ينتابونه في الأغلب:

(آية ٤٣) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ ﴾ في منامي ﴿ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ ﴾ حتى كأنني أرى البقرات السبع الهزال يبتلعن البقرات السمان ولا يزول من هزالهن شيء ﴿ وَ ﴾ أرى في منامي أيضاً ﴿ سَبْعَ سُنْبُلاتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ ﴾ أي سبع سنبلات ﴿ يَابِسَاتٍ ﴾ وقد التفت اليابسات على الخضر فلم تبق عليها ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْمَلأُ ﴾ أي يا أشراف مجلسي ﴿ أَفْتُونِي فِي رُؤيَايَ ﴾ هذه فقد أهالتني جداً ولم أستطع لها تفسيراً فمن منكم يأتي لها بتفسير مناسب ﴿ إِن كُنتُمْ لِلرُّؤْيَا تَعْبُرُونَ ﴾.

(آية ٤٤) ﴿ قَالُوا ﴾ ليست رؤياك مما تستحق التفسير والتأويل ولا تهتم لها فإنّما هي ﴿ أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ ﴾ أي أحلام باطلة وخرافات وهمية ﴿ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَامِ ﴾ التي تكون مثل هذه ﴿ بِعَالِمِينَ ﴾ لأننا لا نستبين لها وجهاً ولما لم يقع جواب هؤلاء القوم في قلب الملك موقعه وبقيت نفسه تنازعه في تحليله وتفسيره ووجد ساقيه هذه الحالة مؤثرة فيه حينذاك تذكر يوسف وما أوصاه به عند خروجه من السجن فالتفت إلى الملك:

(آية ٤٥) ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا ﴾ أي من الرجلين السالفي الذكر ﴿ وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾ وتذكر ما أوصاه به يوسف بعد مدة من الزمان ﴿ أَنَا أُنَبِّئُكُم ﴾ أيّها الجمع ﴿ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ ﴾ إلى يوسف لاستعبره الرؤيا فأرسلوه إليه فجاءه فقال له:

(آية ٤٦) ﴿ يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ ﴾ أي الكثير الصدق فيما يخبر ويحكي عن

الواقع ﴿ أَفْتِنَا ﴾ ـ إلى قوله ﴿ لَعَلِّي أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ ﴾ الذين هم بانتظاري ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ تأويل رؤيا الملك.

(آية ٤٧) ﴿ قَالَ ﴾ يوسف قل لهم ﴿ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَباً ﴾ أي متصلة الخصب لا جدب فيها وفي كل هذه السنين السبع التي تزرعون يؤتى الزرع أحسن ما يرجى منه ﴿ فَمَا حَصَدتُّم ﴾ في هذه السنين السبع ﴿ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ ﴾ ولا تدوسوه واحرزوه بسنبله فإنّه أبقى له وأبعد عن التلف ﴿ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تَأْكُلُونَ ﴾ وهو حاجتكم اللازمة ثمّ علّل هذه الفتوى التي أصدرها بقوله:

(آية ٤٨) ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذٰلِكَ ﴾ أي من بعد السنين السبع المخصبات ﴿ سَبْعٌ ﴾ سنين ﴿ شِدَادٌ ﴾ أي مجدبات للغاية بحيث لا يكون فيها زرع أصلاً ﴿ يَأْكُلْنَ ﴾ لجدبهن ﴿ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ من ذخيرة تيك السبع المخصبات ﴿ إِلَّا قَلِيلاً مِمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ يعني ما تدخرونه أي فضلاً عن كونه يفي بحاجة هذه السبع الشداد يفضل منه قليل وتبقى منه باقية.

(آية ٤٩) ﴿ ثُمَّ يَأْتِي مِن بَعْدِ ذٰلِكَ ﴾ أي من بعد السبع الشداد ﴿ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ ﴾ أي ينزل عليهم الغيث أو يفرج عنهم بعد الشدة ﴿ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ الثمار والأشجار فيستفيدون من عصارتها كدهن السمسم والزيتون ونظير ذلك أو ينجون من الجدب. وهذا الرأي الذي أبداه يوسف في تنظيم شؤونهم الاقتصادية من أنضج الآراء العلمية العملية اليوم في الحواضر المتمدنة. فعاد الرسول إلى الملك بهذا التفسير الشافي فأكبره الملك ووجده تفسيراً عامراً بالحقائق فأحب أن يقف على شخص المفسر علّما يجد فيه عوناً على مشكلات سياسته.

(آية ٥٠) ﴿ وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِ فَلَمَّا جَاءَهُ ﴾ أي جاء يوسف ﴿ ٱلرَّسُولُ ﴾ من ناحية الملك يريد اشخاصه ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْأَلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ

﴿ ٱللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ﴾ بالسكاكين عند ما طلعت عليهن بأمر زليخا ﴿ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ ﴾ بي ﴿ عَلِيمٌ ﴾ وهدف يوسف من هذا الاستفسار كمال تنزيهه عند الملك وانّ الاشاعات التي طيرتها النسوة في حقه تزويرات مالها في الواقع من مقيل ومع ذلك استوجب بها السجن نزولاً على رغبات هاته الناقصات العقول عند ذلك أرسل اليهنّ الملك.

(آية ٥١) ﴿ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ ﴾ لم تكن مراودتنا له عن طلب منه ﴿ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوءٍ ﴾ مذ عرفناه وشاهدناه ﴿ قَالَتِ ٱمْرَأَةُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْآنَ ﴾ أي عندما اعترفت هذه النسوة بمراودتهن ليوسف ﴿ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي ظهر وبان بأنني لم أكن ملومة ولا مفندة عندما راودت يوسف وبلغ خبر مراودتي لهن فأنكرن عليّ ذلك وقلن امرأة العزيز تراود فتاها عن نفسه قد شغفها حباً انّا لنراها في ضلال مبين، نعم ﴿ أَنَا رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ ٱلصَّادِقِينَ ﴾ في دعواه البراءة من مقاربتي بسوء.

(آية ٥٢) ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ أي إنّما أرجعت الرسول الذي جاء باحضاري إلى الملك وطلبت منه أن يسأل النسوة عمّا جرى لي معهن ﴿ لِيَعْلَمَ ﴾ أي لأوقف الملك على ﴿ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ ﴾ في امرأته ولا في أي امرأة من مصره وخارج مصره ﴿ بِٱلْغَيْبِ ﴾ أي في غيابه عن أهله ﴿ وَ ﴾ ليعلم أيضاً ﴿ أَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ﴾ أي لا يوصل ﴿ كَيْدَ ٱلْخَائِنِينَ ﴾ إلى ما يراد له من قرار بل يفتضح الخائن ولو بعد حين.

(آية ٥٣) ﴿ وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي ﴾ أي أنا وإن خرجت من هذه المعركة الغرامية بريئاً طاهر الذيل والضمير إلّا أنّني لا أُبريء نفسي من الارتكابات التي لا أرضاها وان لم اباشر منها شيئاً وحتى الساعة ﴿ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِٱلسُّوءِ ﴾ دائماً تحرك صاحبها وتحثه على ارتكاب ما لا يحل في شرع العقل وسنة الله يقول

يوسف هذه الكلمة خضوعاً واستكانة أمام عظمة ربّه ﴿ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي ﴾ يعني إلّا أن يحول لطف الله بعبده بينه وبين السيئات وذلك بطلب من عبده المؤمن المقبل عليه بجميع ما يملك من قوة وشعور وهذا النوع من اللطف لا يعد جبراً بلا شبهة ﴿ إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ ﴾ لذنوب عباده إذا توجهوا إليه بالطاعة والتوبة في مظانها الصحيحة ﴿ رَّحِيمٌ ﴾ بهم لا يريد بهم إعناتاً ولا جهداً.

(آية ٥٤) ﴿ وَ ﴾ بعد أن وقف الملك على حقيقة يوسف وثبت لديه أمانته وعفافه وابتلاؤه بهاته النسوة اللائي حبس من أجلهنّ ظلماً وعدواناً بضع سنين كما تجلى له علمه وفضله بتحليل منامه تحليلاً قريباً من النفس مأنوساً للذهن ﴿ قَالَ ٱلْمَلِكُ ﴾ لغلمانه اذهبوا إلى السجن و ﴿ ٱئْتُونِي بِهِ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِي ﴾ وأستعين به على مهم أُموري للمزايا الجليلة التي توجد فيه وتفقد في غيره ﴿ فَلَمَّا كَلَّمَهُ ﴾ ووجد في لقياه معاني كبرت في عينه ما كان يعرفه عنه بالسماع الصحيح ﴿ قَالَ إِنَّكَ ﴾ يا يوسف ﴿ ٱلْيَوْمَ ﴾ أي من هذا الحين الذي عرفناك به تمام المعرفة ﴿ لَدَيْنَا مَكِينٌ ﴾ أي ثابت المكانة لا يستطيع أن يدفعك عن مكانك الذي نحلك فيه أهم الأفراد ﴿ أَمِينٌ ﴾ أي ثابت الأمانة وطهارة الضمير لا يتخالجنا فيك شك ولا وهم ثمّ انّ الملك سأل يوسف عمّا يجيب إليه من الوظائف التي تحسن في نظره ويرغب فيها أكثر.

(آية ٥٥) ﴿ قَالَ ﴾ يوسف في جوابه ﴿ ٱجْعَلْنِي ﴾ والياً وناظراً ﴿ عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ﴾ أي أرضك التي تحت سيطرتك وسلطانك والمراد بخزائن أرضه والولاية عليها هي نظارته التامة على اقتصاد المملكة ومالياتها وهما شغلان مهمان انصافاً وعليهما يدور نظام الممالك فإنّ قيامها على الاقتصاديات والماليات ﴿ إِنِّي حَفِيظٌ ﴾ علل يوسف جهة انتخابه لهذه الوظيفة بأنّه حافظ ضابط ﴿ عَلِيمٌ ﴾ عارف بطرق الجباية والمصرف بحيث لا تختلس الأُمور وهو

ناظر على هيئتها العاملة لكماله بشؤون الوظيفة التي تحت يده.

(آية ٥٦) ﴿ وَكَذَٰلِكَ ﴾ أي وبهذا اللون الذي بسطناه من مآل أمر يوسف إلى العزة والرفعة ﴿ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ ﴾ أي يرجع إلى أي نقطة منها أوامر من أُمورها أي هو مخول مسلط لا يضيق به مذهب ولا يعز عليه مطلب ﴿ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ ﴾ بدون أن يزاحمنا عليها أحد وان كانت المؤهلات من الدواعي المهمة لجلب رحمتنا فيوسف إنّما نال ما نال بصبره وتسليمه وابتلاءه واختباره بتوجيه المحن إليه ﴿ وَ ﴾ نحن ﴿ لَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي الذين يحسنون إلى أنفسهم بكسب الفضائل لها وطرد القبائح والرذائل عنها هذا كلّه في مرحلة الدنيا.

(آية ٥٧) ﴿ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ خَيْرٌ ﴾ من أجر الدنيا ﴿ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ بربهم ايماناً صادقاً ﴿ وَكَانُوا ﴾ في دنياهم ﴿ يَتَّقُونَ ﴾ أي يتورعون في اتيان الأشياء وتركها فلما استولى يوسف على أمر وظيفته التي حولت إليه حقق مضمون رؤيا الملك التي شرحها هو له فأمر بجميع الأطعمة فاصلة سبع سنين على النحو الذي وصفه آنفاً بابقاءه في سنبله ابقاءً على صلاحه وبعداً به عن الطوارىء المفسدة فاجتمعت عنده كميات ضخمة وبعد السبع المخصبة ابتدأت السبع السنون المجدبة فسهم للناس تسهيماً قارن فيه بين الكميات الموجودة من الأرزاق والاحتياجات على طول سبع سنين فأخذت الناس تضرب إليه آباط ابلها لتمتار منه ما ليس لها غنى عنه بل هو قوام حياتها وكل معيشتها.

وبالجملة كان آل يعقوب أصابهم من الجهد ما أصاب غيرهم من الناس فبعثهم أبوهم ليمتاروا لأهلهم لما بلغه من صلاح هذا الوالي وما عرف به من الاحسان إلى الناس وتموينهم ما فيه سداد عوزهم.

(آية ٥٨) ﴿ وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ ﴾ من الشام إلى مصر للميرة ﴿ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾

أي على يوسف لأجل أن يمونهم بطعام كما يمون غيرهم ﴿ فَعَرَفَهُمْ ﴾ لما دخلوا عليه ﴿ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ ﴾ أي لم يشخصوا انّ هذا المتصدي لادارة هذه الشؤون هو ذاك يوسف الذي ألقوه في غيابت الجب وحق لهم أن ينكروه لانصراف أذهانهم بالكلية عن أن تكون المقدرات وصلت بذاك اليتيم إلى هذه المنزلة المرموقة التي تعنو لها الرؤوس.

من هنا شرع يوسف في تعديل المقدمات الموصلة إلى اجتماعه بأهله وخاصة بأبيه وأخيه من أُمّه ولكن بطور موزون عقلائي المشي والنتيجة.

(آية ٥٩) ﴿ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ ﴾ أي مونهم بتعبية أحمالهم زاداً لأهلهم بعدما سألهم عند ما دخلوا عليه وطلبوا منه الميرة من أنتم وما شأنكم ومن أين جئتم وما الذي جاء بكم قالوا نحن قوم شاميون نرعى البهم وقد أصابنا الجهد من قحط هذه السنين كما أصاب غيرنا وبلغنا خبرك واحسانك فجئنا اليك نمتار لأهلنا ما به حياتهم، قال لهم: لعلكم عيون جئتم تجسسون وتحيطون بأمر بلادي خبراً بسمة الامتيار، قالوا ما نحن بجواسيس وإنّما نحن اخوة بنواب واحد وهو يعقوب بن اسحاق بن ابراهيم نبي وابن أنبياء عظام ولو كنت تعرفه حق معرفته لأكرمتنا لأجله أكثر مما رأيناه منك على انّ هذا النبي المحترم لا يزال محزوناً كئيباً فمن الرفق به التسهيل علينا، قال: وما الذي أوجب حزنه واكتئابه لعلكم تسيئون إليه ولا تقومون بوظيفة احترامه واحتشامه، قالوا: لا يا أيّها الملك نحن لم نخرج عن طاعته ولكن كان له ابن أصغر منّا سنّاً فخرج معنا يوماً من الأيّام للتنزه واللعب فأكله الذئب ونحن عنه غافلون فمن ذاك اليوم لم يقر قراره على ولده، قال: فهل كلكم أنتم الاخوة جئتم للامتيار أو بقي أحد منكم عند أهله ؟ قالوا: بل بقي واحد منّا وهو أصغرنا سنّاً، قال لهم: وما جهة بقاءه عند أبيكم دونكم أنتم قالوا لأنّه أخو الذي هلك من أُمّه فأبونا لا يفارقه تسلياً به، قال

لهم: وما دليل صدقكم في حديثكم هذا ائتوني بضامن يتعهد بكم، قالوا: أيّها الملك نحن في ديار غربة لا نعرف أحداً ولا يعرفنا أحد ﴿ قَالَ ٱئْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ ﴾ وهو الذي تدعون انّه بقي عند والده يتسلى به عن أخيه الذي فقده قبل حين وأنا أرضى عنكم وأوسع لكم الطريق في بلادي ﴿ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي ٱلْكَيْلَ ﴾ ولا أنقصه في هذه الأزمة الحرجة والمجاعة الشديدة ﴿ وَأَنَا خَيْرُ ٱلْمُنْزِلِينَ ﴾ للواردين عليّ لا يلقون في بلادي إلّا الرحب والسعة وحسن المعاملة.

(آية ٦٠) ﴿ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴾.

(آية ٦١) ﴿ قَالُوا ﴾ أيّها الملك ﴿ سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴾ أي مصممون على الاتيان به اليك، قال لهم فدعوا عندي رهينة على وعودكم هذه واحداً منكم، فاقترعوا على من يبقى منهم عنده.

(آية ٦٢) ﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف ﴿ لِفِتْيَانِهِ ﴾ أي الغلماء الذين يعملون بين يديه بأمره ﴿ ٱجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ أي الأثمان التي جاءوا بها عوضاً عن الطعام الذي يمتارونه ﴿ فِي رِحَالِهِمْ ﴾ أي ردّوها إلى رحلهم ﴿ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا ﴾ انها بضاعتهم ردّت اليهم ﴿ إِذَا ٱنقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ ﴾ راجعين ﴿ لَعَلَّهُمْ ﴾ بعد أن يروا هذا الاحسان منّا ﴿ يَرْجِعُونَ ﴾ الينا ويفون بما وعدونا به أو لعلهم لا يملكون غير هذا الثمن الذي امتاروا به فيبطؤا علينا بالمجيء مرة أُخرى أو انّه رأى قبيحاً أن يأخذ من أهله ثمناً على طعام يقيمون به أصلابهم من الجوع.

(آية ٦٣) ﴿ فَلَمَّا ﴾ انفصلوا من مصر و ﴿ رَجَعُوا إِلَىٰ أَبِيهِمْ ﴾ يعقوب ﴿ قَالُوا يَا أَبَانَا مُنِعَ مِنَّا ٱلْكَيْلُ ﴾ أي انّ الملك اتهمنا على دخول مملكته خوفاً منه أن نكون جواسيس عليه واختبر صدقنا بما حكيناه له من واقع أمرنا أن نعود عليه بأخينا الذي خلّفناه عندك وأخذ على هذا الموعد أحد اخوتنا رهناً فهو الآن تحت

قبضته ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا أَخَانَا نَكْتَلْ ﴾ مرّة ثانية ﴿ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ولا نكون معه على غفلة كما كنا مع أخيه آنفاً .

(آية ٦٤) ﴿ قَالَ ﴾ لهم أبوهم ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ حيث التزمتم بحفظه وجئتموني عشاءً تبكون تقولون انّ الذئب أكله على حين غفلة منّا ﴿ فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظاً ﴾ لولدي الذي أخاف عليه ولا آمنكم وان تعهدتم لي بحفظه ﴿ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴾ ولا يعزب عنه ضناي وابتلاي بعزيزي الأوّل يوسف وأخيه هذا الذي تحاولونني عليه منذ اليوم .

(آية ٦٥) ﴿ وَلَمَّا فَتَحُوا مَتَاعَهُمْ وَجَدُوا بِضَاعَتَهُمْ ﴾ التي أخذوها معهم من الشام إلى مصر ليشتروا بها وأعطوها عوضاً عن طعامهم الذي جاءوا به إلى أهلهم ﴿ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ﴾ فحسبوا ذلك من الملك لطفاً بهم عند ذلك ﴿ قَالُوا يَاأَبَانَا مَا نَبْغِي ﴾ أي ما نريد من هذا الإنسان المحسن مارنا بطعام وافر وردّ علينا ثمنه بلا معرفة بيننا وبينه فهل نطلب انساناً سواه أو نتعلل عليه بما يريد منا وهو أن نأتيه بأخينا الذي خلّفناه عندك ﴿ هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ﴾ فنحن الآن في سعة من تهيأة بضاعة جديدة لسفرنا الجديد إلى مصر ﴿ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا ﴾ بالطعام ﴿ وَنَحْفَظُ أَخَانَا ﴾ الذي نأخذه معنا ﴿ وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ﴾ لهذا الأخ الزائد على عدتنا الآنفة فإنّ يوسف كان لا يعطي الإنسان الواحد أكثر من حمل واحد ﴿ ذَٰلِكَ ﴾ الكيل الذي جئنا به أوّلاً ﴿ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴾ لا يفي بحاجتنا .

(آية ٦٦) ﴿ قَالَ ﴾ لهم يعقوب بعد اصرارهم الزائد عليه ﴿ لَنْ أُرْسِلَهُ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقاً ﴾ أي أمراً أتوثق به وتطمئن إليه نفسي ﴿ مِنَ اللَّهِ ﴾ أي من يمين برّة أو عهد مؤكد من الله أي تحلفون به حلفاً صادقاً مبروراً ﴿ لَتَأْتُنَّنِي بِهِ ﴾ سالماً مأنوساً ﴿ إِلَّا أَن يُحَاطَ بِكُمْ ﴾ أي تموتوا بأجمعكم وتحيط بكم الحوادث عن آخركم ﴿ فَلَمَّا ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ ﴾ على ما أراد منهم ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب ﴿ اللَّهُ عَلَىٰ

مَا نَقُولُ ﴾ في هذه المعاهدة ﴿ **وَكِيلٌ** ﴾ أي شاهد وناظر .

(آية ٦٧) ﴿ **وَقَالَ** ﴾ لهم بعد أن عزموا على المسير ومعهم أخوهم الصغير موصياً لهم شفقة عليهم ﴿ **يَا بَنِيَّ لاَ تَدْخُلُوا** ﴾ مصر إن وردتموها ﴿ **مِن بَابٍ وَاحِدٍ** ﴾ لئلا تصيبكم الأعين لكثرتكم وحسن هيئتكم وجمال طلعتكم وما أنتم عليه من زي ووقار خلاف أعراب هذه الوادي ﴿ **وَادْخُلُوا مِنْ أَبْوَابٍ مُّتَفَرِّقَةٍ** ﴾ حتى لا تجلبوا الأنظار إلى حسن مطالعكم المجتمعة في موكب واحد ﴿ **وَمَا أُغْنِي عَنكُم مِنَ اللَّهِ مِن شَيْءٍ** ﴾ أي اني أُوصيكم بهذه الوصية وأنا جد عالم انّ وصيتي هذه لا أثر لها مع قضاء الله إذا أراد بكم حادثاً ﴿ **إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ** ﴾ لا يشركه فيه أحد ولا ينجع مع حكمه وقضاءه أعظم الأشياء وأخطرها ﴿ **عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ** ﴾ أنا ﴿ **وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ** ﴾ أي بعد أن انحصر الحكم به فمن الضروري حصر التوجه به والتوكل عليه .

(آية ٦٨) ﴿ **وَلَمَّا دَخَلُوا** ﴾ أي أولاد يعقوب إلى مصر ﴿ **مِنْ حَيْثُ أَمَرَهُمْ أَبُوهُم** ﴾ أي من أبواب متفرقة ﴿ **مَّا كَانَ يُغْنِي عَنْهُم** ﴾ دخولهم متفرقين ﴿ **مِنَ** ﴾ قضاء ﴿ **اللَّهِ** ﴾ لو أراده بهم ﴿ **مِن شَيْءٍ** ﴾ وانّ يعقوب جد عالم بذاك ﴿ **إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا** ﴾ أي إلّا انّ وصيته لأولاده بذلك أوجب له اطمئناناً في قلبه وراحة في خاطره فإنّ بواعث النفس كثيرة ولو لم تكن منبعثة عن مدرك صحيح بل ولو كان الإنسان قاطعاً بفقدانها للمدرك ويعقوب كان بخوالجه النفسية من هذا الرعيل كما شهد الله بحقه فقال ﴿ **وَإِنَّهُ** ﴾ أي انّ يعقوب ﴿ **لَذُو عِلْمٍ** ﴾ لا انّه عار عن المعارف ﴿ **لِمَا عَلَّمْنَاهُ** ﴾ أي علمه لأجل تعليمنا إيّاه ﴿ **وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ** ﴾ حقيقة أنبيائه وما تضطم عليه جوانحهم من علم وحلم وكريم خلال لاصطفاء الله لهم وقربهم منه .

(آية ٦٩) ﴿ **وَلَمَّا** ﴾ انفصل هؤلاء الاخوة ومعهم أخو يوسف قاصدين مصر

للامتيار من ناحية ولاجابة ماكان ألزمهم به عزيز مصر من ناحية ثانية ﴿ **دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ** ﴾ فأضافهم وقال ليجلس كل بني أُمّ منكم على مائدة فجلس كل أبناء أُمّ على ما وصف لهم وبقي أخوه وحيداً فقال له ما بالك لم تجلس إلى أحد من هؤلاء ؟ قال : ليس لي فيهم ابن أُم ، قال : ألم يولد لأُمّك غيرك ؟ قال : بلى ، قال : فما فعل ؟ قال : يزعم هؤلاء انّ الذئب أكله وهم عنه غافلون ، قال : فاجلس معي على مائدتي ، فذاك قوله سبحانه ﴿ **آوَىٰ إِلَيْهِ أَخَاهُ** ﴾ أي قرّبه إليه و ﴿ **قَالَ إِنِّي أَنَا أَخُوكَ** ﴾ يحتمل أن يكون صارحه بذلك في غياب اخوته الباقين وعرّفه بنفسه وبما يقدم عليه من طريقة لأجل ابقاءه عنده كما يحتمل أن يكون قال له أنا بمنزلة أخيك من أُمّك في كلّ ما تريد منه ويريد الأخ من أخيه لأُمّه ﴿ **فَلَا تَبْتَئِسْ** ﴾ أي فلا تحزن ولا تتأثر ﴿ **بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ هؤلاء الاخوة معك ومع أخيك من أُمّك .

(آية ٧٠) ﴿ **فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ** ﴾ أي جهز اخوته بالطعام الذي امتاروه منه أخذ في اعمال الوسيلة التي يستبقي بها أخاه عنده فـ ﴿ **جَعَلَ السِّقَايَةَ** ﴾ وهي الآنية التي يسقى بها واتخذت مكيالاً في هذه العهود التي أجدبت فيها السنون أو انها سميت سقاية وصاعاً بصلاحيتها لذلك ﴿ **فِي رَحْلِ أَخِيهِ** ﴾ من أُمّه ﴿ **ثُمَّ** ﴾ بعد أن استعدت القافلة للانصراف من أرض مصر وشدوا أحمالهم وأرادوا أن يسوقوا دوابهم ﴿ **أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ** ﴾ أي نادى مناد من وزعة العزيز ﴿ **أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ** ﴾ .

(آية ٧١) ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي أهل القافلة بعدما سمعوا نداء المنادي ﴿ **وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِم** ﴾ أي تركوا قافلتهم وتوجهوا إلى وزعة العزيز ﴿ **مَّاذَا تَفْقِدُونَ** ﴾ يا أصحاب العزيز .

(آية ٧٢) ﴿ **قَالُوا** ﴾ في جوابهم ﴿ **نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ** ﴾ أي مكياله الذي يكيل

به للناس ﴿ وَلِمَن جَاءَ بِهِ ﴾ منكم ومن غيركم ﴿ حِمْلُ بَعِيرٍ ﴾ طعاماً اثابة له ﴿ وَأَنَا ﴾ الذي أُكلمكم من جملة الوزعة ﴿ بِهِ ﴾ أي بحمل البعير ﴿ زَعِيمٌ ﴾ أي ضامن كافل.

(آية ٧٣) ﴿ قَالُوا ﴾ أي أهل القافلة أو خاصة آل يعقوب ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم ﴾ أيّها الوزعة ﴿ مَّا جِئْنَا ﴾ من أرضنا ﴿ لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ ﴾ بالسرقة والخيانة ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ فيما سلف لنا ﴿ سَارِقِينَ ﴾ ولا آكلين أموال الناس بالباطل فإنّ هذا السفر ليس بأوّل سفر لنا اليكم فقد امترنا منكم آنفاً فلم تجدوا علينا خلّة في هيئة ولا معاملة ولا معاشرة.

(آية ٧٤) ﴿ قَالُوا ﴾ أي الوزعة في جوابهم ﴿ فَمَا جَزَاؤُهُ ﴾ أي جزاء السارق منكم ﴿ إِن كُنتُمْ كَاذِبِينَ ﴾ في التبري من السرقة.

(آية ٧٥) ﴿ قَالُوا ﴾ أي آل يعقوب بضرس قاطع لعلمهم بطهارة‌ت أنفسهم ﴿ جَزَاؤُهُ مَن وُجِدَ ﴾ المكيال ﴿ فِي رَحْلِهِ فَهُوَ جَزَاؤُهُ ﴾ يسترقه الملك ازاء خيانته له وهذا الحكم قد يكون آل يعقوب قرروه من أنفسهم لا لسابقة كانت له في عناصرهم السالفة وقد يكونون فيه حاكين عن سنة جارية بينهم ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي بهذا الجزاء الثقيل ﴿ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴾ المتجاوزين عن حدود الأمانة.

(آية ٧٦) ﴿ فَبَدَأَ ﴾ في مقام التفتيش ﴿ بِأَوْعِيَتِهِمْ ﴾ أي أوعية اخوته ما سوى أخيه الصغير ليدفع بذلك تهمة المواطئة على جعل السقاية في رحل أخيه عمداً لغاية توخاها به ﴿ قَبْلَ وِعَاءِ أَخِيهِ ثُمَّ ﴾ بعد أن اختبرهم واحداً واحداً انتهى إلى وعاء أخيه ﴿ اسْتَخْرَجَهَا ﴾ أي السقاية ﴿ مِن وِعَاءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ ﴾ أي بالصورة المارة الذكر ﴿ كِدْنَا لِيُوسُفَ ﴾ أي علّمناه وسيلة يستطيع بالتسبب بها أن يتصل بما يرومه وهو اقتطاع أخيه عنده ومن بعد ذلك جلب أهله إليه ﴿ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ ﴾ يوسف ﴿ أَخَاهُ ﴾ ويقتطعه من اخوته ﴿ فِي دِينِ الْمَلِكِ ﴾ القائم على العدل، فإن

أخذه منهم غصباً ما كان ليجوز له ﴿ إِلَّا أَن يَشَاءَ ٱللَّهُ ﴾ تدبير هذه الوسيلة له في ضم أخيه إليه ﴿ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ ﴾ لمؤهلات تستوجب ذلك منّا في حقه مثل يوسف بن يعقوب ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ فإنّ هذه البراعة التي أبداها يوسف في استلحاق أخيه به مستمدة من علمنا.

(آية ٧٧) ﴿ قَالُوا ﴾ أي آل يعقوب بعد أن رأوا كيف استخرج الوزعة السقاية من وعاء بنيامين ﴿ إِن يَسْرِقْ ﴾ هذا الإنسان الآن ﴿ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ وهو يوسف بزعمهم انّه سرق فيما سلف ومنشأ تهمتهم هذه ليوسف ما يروى انّ عمة يوسف كانت تحضنه بعد وفاة أُمّه وتحبه حباً شديداً فلما ترعرع أراد أبوه أن يأخذه منها وكانت أكبر ولد اسحاق ابن ابراهيم وكانت عندها منطقة اسحاق وكانوا يتوارثونها بكبر السن فاحتالت بشد المنطقة على وسط يوسف وادعت انّه سرقها منها وكان من سنتهم استرقاق السارق فاستبقته عندها بهذه الوسيلة ﴿ فَأَسَرَّهَا ﴾ أي أسرّ هذه الكلمة التي جوبه بها من اخوته ﴿ يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ ﴾ أي لم يكلمهم في شأنها بالتكذيب و ﴿ قَالَ ﴾ في نفسه أيضاً أو تكلم بكلام خفي بحيث لا يسمعه اخوته ﴿ أَنتُمْ شَرٌّ مَّكَاناً ﴾ أي أنتم أقرب إلى هذه التهم مني فانكم قد سرقتم يوسف من أبيه بتدليسكم عليه وألقيتموه في غيابت الجب وادعيتم انّ الذئب أكله ﴿ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ ﴾ من انّ يوسف سرق من قبل.

(آية ٧٨) ﴿ قَالُوا ﴾ أي آل يعقوب بعد أن حكمهم العزيز بأخذ أخيهم لما استخرج السقاية من وعائه ﴿ يَا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ ﴾ لا تأخذه وإن ثبت لك الحق عليه ﴿ إِنَّ لَهُ أَباً شَيْخاً كَبِيراً ﴾ وهو مأنوس به ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُ ﴾ إن كنت غير عاف عن هذه الجريمة ﴿ إِنَّا نَرَاكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ أي تحب الاحسان وتفعله وردك هذا الإنسان علينا احسان وجميل فافعله معنا.

(آية ٧٩) ﴿ قَالَ ﴾ يوسف بصفة كونه عزيز مصر ﴿ مَعَاذَ ٱللَّهِ ﴾ كلمة تقال عند التبري ﴿ أَن نَّأْخُذَ ﴾ أحداً ﴿ إِلَّا مَن وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِندَهُ إِنَّا إِذاً ﴾ أي إذا أخذنا غير المتهم مكان المتهم ﴿ لَظَالِمُونَ ﴾ في الحكم والعمل ولا نقرب الظلم ما دام لنا منفذ من غيره.

(آية ٨٠) ﴿ فَلَمَّا ٱسْتَيْأَسُوا ﴾ أي الاخوة ﴿ مِنْهُ ﴾ أي من عزيز مصر في اجابة ملتمسهم أو أيسوا من خلاص أخيهم بعد أخذ الملك له ﴿ خَلَصُوا نَجِيّاً ﴾ أي خلصوا بأنفسهم عن كل انسان سواهم يتناجون ويتشاورون في جريهم مع هذه الحادثة التي صعبت عليهم من جهة تأكيد والدهم بحفظ هذا الولد وايتائهم المواثيق المؤكدة في ردّه إليه فما عسى والحال هذه يفعلون ﴿ قَالَ كَبِيرُهُم ﴾ في مضمار هذه المحاورة لبقية اخوته ﴿ أَلَمْ تَعْلَمُوا أَنَّ أَبَاكُمْ قَدْ أَخَذَ عَلَيْكُم مَوْثِقاً مِنَ ٱللَّهِ ﴾ لتردنه إليه سالماً ﴿ وَمِن قَبْلُ ﴾ يا اخوة ﴿ مَا فَرَّطْتُمْ فِي يُوسُفَ ﴾ وقد كنتم أعطيتم أباه العهود الشديدة التأكيد بحفظه، أمّا أنا ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ ٱلْأَرْضَ ﴾ أرض مصر ولا أُفارق مكاني هذا ﴿ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ بالرجوع إليه ﴿ أَوْ يَحْكُمَ ٱللَّهُ لِي ﴾ بوجه من وجوه الفرج حتى لا أعود في خجل من ملاقاة أحد أُواجهه ويواجهني ﴿ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَاكِمِينَ ﴾ في مثل هذه القضايا الوعرة المسالك القليلة الحيل.

(آية ٨١) ﴿ ٱرْجِعُوا ﴾ هذا من تتمة مقال الأخ الكبير ﴿ إِلَىٰ أَبِيكُمْ فَقُولُوا يَاأَبَانَا إِنَّ ٱبْنَكَ ﴾ العزيز عندك الذي أخذت علينا في سبيل حفظه وردّه اليك أشد المواثيق ﴿ سَرَقَ ﴾ صواع الملك ﴿ وَمَا شَهِدْنَا ﴾ عليه بشهادتنا هذه ﴿ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا ﴾ من ظاهر الحال وانّ الملك استخرج السقاية من وعاءه ﴿ وَمَا كُنَّا ﴾ عندما آتيناك موثقنا بحفظه ورده ﴿ لِلْغَيْبِ حَافِظِينَ ﴾ انّ هذا الإنسان لا يصدر منه شيء يوجب القبض عليه وان أخذ الملك له بتهمة السرقة خارج عن موضوع

توثقنا برده اليك لعجزنا عن مقاومة الملك أوّلاً وجهلنا بما يجيء من هذا الإنسان من فعل ثانياً.

(آية ٨٢) ﴿ **وَاسْأَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِي كُنَّا فِيهَا** ﴾ أي مزيداً على ما آتيناك من حجة ندعم بها صدق دعوانا اسأل أهل مصر عن هذه الحادثة بأن يوجه قصاداً من عنده فيسألوا حاضري الوقعة هناك ﴿ **وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا** ﴾ أي وهكذا اسأل أهل القافلة الذين كنا معهم فإنّهم شهدوا الواقعة عياناً ﴿ **وَإِنَّا لَصَادِقُونَ** ﴾ فيما قصصناه عليك من حديث ولدك عند ذلك:

(آية ٨٣) ﴿ **قَالَ** ﴾ لهم أبوهم يعقوب لا أجدني أطمئن إلى ما تقولون ﴿ **بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً** ﴾ أي دفعتكم أنفسكم إلى الأمر الذي دفعتكم لمثله آنفاً في حق أخ هذا الولد يوسف وانني لظنين بكم بالنسبة إلى الأخوين جميعاً ﴿ **فَصَبْرٌ جَمِيلٌ** ﴾ استشعر به أجمل بي من مخاطبتكم واطالة الكلام معكم في هذا الشأن ﴿ **عَسَى ٱللَّهُ** ﴾ أي أرجو من الله ﴿ **أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعاً** ﴾ أي بيوسف وشقيقه وبأخيكم الأكبر الذي بقي في مصر ولم يرض أن يجيء معكم خجلاً من مواجهتي ﴿ **إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ** ﴾ بضري ﴿ **ٱلْحَكِيمُ** ﴾ بما قضاه عليّ.

(آية ٨٤) ﴿ **وَتَوَلَّىٰ** ﴾ يعقوب ﴿ **عَنْهُمْ** ﴾ بوجهه لمزيد ما دخل عليه من حزن وألم لفقده يوسف وأخاه بوسيلتهم ﴿ **وَقَالَ** ﴾ لما طغى عليه حزنه وهاج به اكتئابه ﴿ **يَا أَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيناهُ** ﴾ يقال للذي تجهده الهموم والمصائب فيبكي بكاءً كثيراً ابيضت عيناه أي انّ لون حدقتيه استحال إلى البياض فهو أعمى أو قريب منه ﴿ **مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيم** ﴾ أي ماسك لأذيته لا يشكوها إلى أحد.

(آية ٨٥) ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي أولاد يعقوب لأبيهم ﴿ **تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ** ﴾ أي لا يزول من خاطرك ولا تزال تلهج بذكره ﴿ **حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضاً** ﴾ أي سقيماً متعباً قريباً من التلف ﴿ **أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَالِكِينَ** ﴾ أي التالفين.

(آية ٨٦) ﴿ قَالَ ﴾ يعقوب لهم عقيب مقالتهم تلك أنا لا أشكو اليكم ما أجده بنفسي ﴿ إِنَّمَا أَشْكُوا بَثِّي ﴾ أي ما أُريد بثّه والاجهار به ﴿ وَ ﴾ كذلك ﴿ حُزْنِي إِلَى ٱللَّهِ ﴾ القادر على تبديل حالي من الحزن إلى الفرح ومن الشدة إلى الفرج ﴿ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ أي أدرك من كنهه وحقيقته وما هو عليه من الرحمة والرأفة واللطف ما لا تدركونه أنتم لبعدكم عن هذه الدقائق ثمّ اصحر بحسن ظنه بالله وباستشعاره ان ولديه يوسف وشقيقه لا يزالان في الأحياء وان تطلس عليه أثرهما خصوصاً الأوّل منهما فقال لهم:

(آية ٨٧) ﴿ يَا بَنِيَّ ٱذْهَبُوا ﴾ في سفركم هذا للامتيار ﴿ فَتَحَسَّسُوا ﴾ وتقصدوا التفتيش ودققوا في التنقير ﴿ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ ﴾ فظني انكم بعد الفحص تقفون منهما على أثر ﴿ وَلاَ تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ﴾ وحسن التفاته ﴿ إِنَّهُ لاَ يَيْأَسُ مِن رَوْحِ ٱللَّهِ ﴾ ولطفه ﴿ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَافِرُونَ ﴾ الذين ينكرون الصانع ويعدون الوقوف على مثل هذه الضائعات من المتعسر بل المتعذر خصوصاً إذا تخلفت الأسباب الظاهرية عن لون مجراها العادي فلبى أولاد يعقوب طلب أبيهم بالسفر إلى مصر ممتارين وفاحصين عن أخويهم.

(آية ٨٨) ﴿ فَلَمَّا ﴾ وردوا إلى مصر و ﴿ دَخَلُوا عَلَيْهِ ﴾ أي على يوسف وهم لا يعرفونه انّه يوسف بل إنّما يعرفون من شخصه انّه عزيز مصر ﴿ قَالُوا يا أَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ ﴾ من قحط السنين وقلّة الحبوب وغلائها وتعسر الأُمور المادية علينا من جميع نواحيها ﴿ وَجِئْنَا ﴾ ك هذه المرّة ﴿ بِبِضَاعَةٍ مُّزْجَاةٍ ﴾ أي قليلة طفيفة لا تقوم بواجبنا فيما نحتاج إليه من الطعام ﴿ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ ﴾ على عادتك معنا في السالف وان كانت دراهمنا هذه المرّة أقل من السفرتين السابقتين ﴿ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ﴾ أي احتسب ما تعطيه من الطعام زائداً على ما نستحقه عليك ببضاعتنا التي دفعناها اليك صدقة علينا ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِي ٱلْمُتَصَدِّقِينَ ﴾ بالجزاء

الحسن ، هنا أخذ يوسف يحطم قيود تخفيه بنفسه وتيقنه بلفظه ويتبسط بالقول رافعاً حجاب التستر نوعاً ما .

(آية ٨٩) فـ ﴿ **قَالَ هَلْ عَلِمْتُم** ﴾ يا أولاد يعقوب ﴿ **مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ** ﴾ أي زمان أنتم ﴿ **جَاهِلُونَ** ﴾ بما يجب عليكم من حفظ الرحم والبر بالوالد ، هنا استشعر الاخوة بجلاء انّ المتكلم بهذا الكلام ليس انساناً أجنبياً عنهم وليس من أهل مصر أيضاً بل يجب أن يكون من آل يعقوب حتماً لأنّه لا يعلم علم هذا الحديث إلّا يعقوبي ولذلك . . .

(آية ٩٠) ﴿ **قَالُوا** ﴾ له ﴿ **أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ** ﴾ بسمة الاستفهام فأجابهم كاشفاً لثام الشبهة ﴿ **قَالَ** ﴾ نعم ﴿ **أَنَا يُوسُفُ** ﴾ الذي صنعتم به ما صنعتم وارتكبتم منه ما آذيتم به أخوين من اخوتكم وأباكم الواجب الاحترام عليكم ﴿ **وَهَٰذَا أَخِي** ﴾ من أُمّي وشقيقي ﴿ **قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ امّا أنا فمنّ عليّ بالنجاة والسلامة والملك وأمّا أخي فبلقاء أخيه الحفي به ﴿ **إِنَّهُ** ﴾ الضمير للشأن ﴿ **مَن يَتَّقِ** ﴾ ربّه ﴿ **وَيَصْبِرْ** ﴾ على بلائه ﴿ **فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ** ﴾ بالتقوى والصبر والتسليم إليه في كلّ ما يقضيه .

(آية ٩١) ﴿ **قَالُوا** ﴾ بعد أن شاهدوا عاقبة هذين الأخوين اللذين حاولوا بهما كل محاولة سيئة ﴿ **تَاللَّهِ** ﴾ قسم أكدوا به مضمون مقالتهم الآتية ﴿ **لَقَدْ آثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا** ﴾ أي فضّلك ورفعك علينا بالرغم مما كنا نريده بك من حط وخفض ﴿ **وَإِن كُنَّا** ﴾ فيما فعلناه بك ﴿ **لَخَاطِئِينَ** ﴾ أي حائدين عن طريق الحق والصواب .

(آية ٩٢) ﴿ **قَالَ** ﴾ لهم يوسف بعد أن اعترفوا بجريمتهم أمامه وتنصلوا من سيئتهم إليه ﴿ **لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ** ﴾ أي لا بأس عليكم ولا تكونوا من ناحيتي في وجل وريب ﴿ **يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ** ﴾ دعا لهم بالمغفرة تكرماً وتفضلاً منه واشفاقاً عليهم ﴿ **وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّاحِمِينَ** ﴾ بعباده يقبل من تائبهم ويعفو عن خاطئهم ثمّ بعد

أن تعارف الفريقان وارتفع ما بينهما من ستار التحاشي سألهم عن حال أبيه وكيف قضى أيّامه من بعده فأجابوه بعين الواقع من شدة حزنه وتلهفه على فراقه وعماه من كثرة بكائه عليه وعلى أخيه من اُمّه قال لهم:

(آية ٩٣) ﴿ **ٱذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَٰذَا** ﴾ اشارة إلى قميص له مزيد اختصاص به من بين سائر ألبسته طبعاً ﴿ **فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيراً** ﴾ أي يعود بصيراً ذا نظر وهو نوع من الاعجاز قطعاً آتاه الله ليوسف وأبيه يعقوب ﴿ **وَأْتُونِي بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ** ﴾ أي لا تبقوا أحداً ممن هو في عائلتكم.

(آية ٩٤) ﴿ **وَلَمَّا فَصَلَتِ ٱلْعِيرُ** ﴾ أي القافلة من مصر حاملة قميص يوسف وقاربت مواطن آل يعقوب ﴿ **قَالَ أَبُوهُمْ** ﴾ أي أب الأُسرة اليعقوبية لحاضريه من أفراد بيته من ذراريه وأحفاده ﴿ **إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ** ﴾ أي أحسّ به ﴿ **لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ** ﴾ أي ترموني بالمزاعم الباطلة وتقولون انّ الرجل ليهجر أين يكون يوسف حتى تشم رائحته يا هذا الشيخ وصدق يعقوب في ظنّه انهم يفندونه على مقاله هذا فإنّهم...

(آية ٩٥) ﴿ **قَالُوا** ﴾ له ﴿ **تَٱللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ ٱلْقَدِيمِ** ﴾ أي انّ حبّ يوسف وأخيه قد أخذ عليك منافذ عقلك وشعورك فلا تكاد لمزيد ما تداخلك من أمرهما تكون كغيرك من عقلاء البشر الذين لا تلوى بهم المحبة إلى هذا التطرف الفاحش.

(آية ٩٦) ﴿ **فَلَمَّا أَن جَاءَ ٱلْبَشِيرُ** ﴾ حاملاً قميص يوسف ﴿ **أَلْقَاهُ عَلَىٰ وَجْهِهِ فَٱرْتَدَّ** ﴾ باذن الله وقضاءه ﴿ **بَصِيراً** ﴾ ذا نظر وبصر ﴿ **قَالَ** ﴾ حينئذ لحاضريه وأولاده ﴿ **أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ** ﴾ آنفاً ﴿ **إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ** ﴾.

(آية ٩٧) ﴿ **قَالُوا** ﴾ أي أولاد يعقوب بعد أن انكشف الواقع عمّا فعلوه بأبيهم وأخيهم وانّ المقدرات جرت معاكسة لما راموه ودبروا له من الحيل ما عقلوه

﴿ يَا أَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴾ فيما ارتكبناه معك من ايذاءك بعزيزك يوسف وايذائه هو أيضاً .

(آية ٩٨) ﴿ قَالَ ﴾ لهم أبوهم بعد أن وجد فيهم النزوع التام مما كانوا عليه والندامة الصادقة فيما ارتكبوه من الجرائم ﴿ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي ﴾ وإنّما أخّر إجابتهم بالاستغفار انتظاراً للأوقات الشريفة التي تكون مظنة للاجابة من الله سبحانه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي الله ﴿ هُوَ ٱلْغَفُورُ ﴾ لذنوب عباده ﴿ ٱلرَّحِيمُ ﴾ بهم بشرط أن لا يكون رجاء المغفرة فيه والرحمة منه مغرياً بارتكاب المعاصي ومقارفة الآثام .

(آية ٩٩) ﴿ فَلَمَّا ﴾ احتملوا من أرض الشام ووصلوا إلى مصر ﴿ دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ و ﴿ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ ﴾ أي يعقوب وخالته التي هي زوجة أبيه وبمنزلة والدته لأنّ والدته قد توفيت من قبل ﴿ وَقَالَ ﴾ لأهله جميعاً ﴿ ٱدْخُلُوا مِصْرَ إِن شَاءَ ٱللَّهُ آمِنِينَ ﴾ لا تخافون أحداً من أهلها كما كنتم قبل هذا تدخلونها على تحفظ لكونكم غرباء فيها لا تأمنون غوائل أهلها أمّا اليوم وأنا فيها عزيز فلا ضير عليكم ولا بأس .

(آية ١٠٠) ﴿ وَرَفَعَ ﴾ يوسف ﴿ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ ﴾ أي على مسند زعامته ﴿ وَخَرُّوا لَهُ ﴾ أي لأجل الاتصال به بعد اليأس منه ﴿ سُجَّداً ﴾ لله شكراً على نعمه التي أسبغها عليهم ﴿ وَقَالَ ﴾ يوسف لأبيه ﴿ يَا أَبَتِ هٰذَا ﴾ الذي تراه عياناً من رفعة مكاني ومكانتي وما آتانيه الله سبحانه ﴿ تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ حيث اني رأيت في المنام قبل أن تحدث هذه الحوادث المستطيلة أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين ﴿ قَدْ جَعَلَهَا ﴾ الآن ﴿ رَبِّي حَقّاً ﴾ وأبرزها إلى العيان المكشوف كما نرى ذلك بأعيننا جميعاً ﴿ وَقَدْ أَحْسَنَ بِي ﴾ ربي ﴿ إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجْنِ ﴾ الذي طال على مكثه واشتدت بي محنته كما أحسن بي

وبكم إذ أنعم عليكم ﴿ وَجَاءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ ﴾ إلى الحضر ﴿ مِن بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ أي أحدث ﴿ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي ﴾ ما لم نحمد وقعه ﴿ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ ﴾ اللطف به والاشفاق عليه ﴿ إِنَّهُ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ﴾ بحقائق الأشياء لا يعزب عن علمه ذرّة ﴿ ٱلْحَكِيمُ ﴾ في ايقاعه الأشياء مواقعها اللائقة بها.

ثمّ انّ يوسف بعد أن جمع في خاطرته ما هيّأ الله له من نعم الدين والدنيا توجه بكله إلى ربّه معبراً عن صميم شكره وواقع اخلاصه.

(آية ١٠١) ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ ﴾ بعد أن لم أكن ملكاً ﴿ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ﴾ بعد أن لم أكن أعرفها يا ﴿ فَاطِرَ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ ومبدعهما بعد العدم ﴿ أَنتَ وَلِيِّ ﴾ والقائم على أُموري ﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً ﴾ لك معترفاً بك ﴿ وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ من عبادك فيما هيأته لهم عندك من عظيم الأجر وطيب الذخر.

(آية ١٠٢) ﴿ ذَلِكَ ﴾ الذي قصصناه عليك يا محمّد ﴿ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ لتكون منه على عبرة وافية وتتعلم منه دروساً عالية ﴿ وَمَا كُنتَ ﴾ يا محمّد ﴿ لَدَيْهِمْ ﴾ أي حاضر أولاد يعقوب ﴿ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ ﴾ في ازاحة وجه يوسف عن أبيهم ﴿ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴾ به ويدبرون في هلاكه بصورة لا يعدون قتلة له ولا يبقون في ألم من توجه أبيه إليه أكثر من توجهه اليهم.

❊ ❊ ❊

وقال سبحانه في شأن موسى من سورة طه (آية ٩) وما بعدها: ﴿ وَهَلْ أَتَاكَ ﴾ أي وصل اليك يا محمّد ﴿ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴾ وما لقي في سبيل تبليغ دين الله من المتاعب والآلام حتى تتسلى بذلك في سبيل ما تلقاه من أذية قومك لك وشدة ازعاجهم ايّاك في طريق تبليغك لدين ربك وتعليمك جهال قومك.

(آية ١٠) ﴿ إِذْ رَأَىٰ نَاراً فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوْا ﴾ أي بعد انصرافه من مدين قاصداً ديار أهله ومعه زوجته وغنمه وما يملكون من أثاث وكانت زوجته حاملاً وهاج بها الطلق في الطريق في ليل مظلم وهواء بارد فلمع في وجهه ضوء على بعد فحسبه ناراً أوقدها أهلها للاصطلاء وكان ذلك الضوء في الواقع نوراً خلقه الله في شجرة خضراء هناك ليبتدأ منها حديث انبعاث موسى إلى جامعة عصره فقال موسى عليه السلام لأهله عندما استشف الضوء تريثوا مكانكم ساعة ﴿ إِنِّي آنَسْتُ نَاراً لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ ﴾ أي بشيء تصطلون عليه ﴿ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدىً ﴾ أي أحداً أستهديه فعلما يركبني على سنن الطريق الذي ضللنا عنه فإنّه من المستبعد أن تكون نار بلا أهل.

(آية ١١) ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا ﴾ وجدها شجرة خضراء تتصبب ماءً من طراوتها فتعجب لذلك موسى عجباً شديداً ولا شك انّه حسبه معجزاً من فعل الله سبحانه وبينا هو في هذه الحالة إذ ﴿ نُودِيَ ﴾ من الشجرة ﴿ يَامُوسَىٰ ﴾ وكأنّه دار بطرفه ليرى موضع التكلم ومن هو المتكلم فأسمع من جميع جوانبه...

(آية ١٢) ﴿ إِنِّي أَنَا ﴾ المتكلم بخلقي اللفظ والصوت في جسم هذه الشجرة ﴿ رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ ﴾ من رجليك تأدباً وتواضعاً ﴿ إِنَّكَ بِالْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ ﴾ الذي طهرته باختياري له مكان مناجاة بيني وبين أوليائي ﴿ طُوىً ﴾ أي طوي بالخيرات والبركات.

(آية ١٣) ﴿ وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ ﴾ للرسالة والسفارة ﴿ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴾ اليك من ربّك.

(آية ١٤) ﴿ إِنَّنِي أَنَا ﴾ الذي أُكلمك ﴿ ٱللَّهُ ﴾ أي الذات المستجمعة لكل صفات الكمال التي لا يليق بغيرها عبادة العابدين ﴿ لاَ إِلٰهَ إِلَّا أَنَا ﴾ فأنا المتوحد بالايجاد والاعدام والاحياء والاماتة والتصرف بكافة أُمور الكون لا يشركني في

ذلك أحد إذاً ﴿ فَاعْبُدْنِي ﴾ إذ لا يستحق العبادة غيري ﴿ وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي ﴾ أي متى ذكرت انّ لي عليك فرضاً لم تؤده أو متى ذكرتني فأقم الصلاة عبودية لي وطلباً من مرضاتي.

(آية ١٥) ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ ﴾ التي هي مجمع المكلفين بأسرهم ومبدأ نعيم الطائعين وجحيم العاصين وموعد المقربين والمبعدين ﴿ آتِيَةٌ ﴾ لا محالة وفيها يسعد المتقي القريب من ربّه ويشقى البائس اللصيق بذنبه ﴿ أَكَادُ أُخْفِيهَا ﴾ أي من شدة ما عميت على الناس علمها كدت اخفيها حتى على نفسي تقال هذه المقالة مبالغة تبعاً لعرف المتكلمين في مثل هذا المقام وإنّما عميت خبرها على الناس ليحسب كل انسان انها قريبة منه حتى ليجوز أن تكون في الساعة التي يستقبلها من عمره فيطيع ربّه ويستعظم ذنبه ويكون على وجل يفيده الورع فيما يأخذ ويذر وإنّما قدرت الساعة وقيامها على المكلفين ﴿ لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ فتحصل من وراء فعل الخير نتيجة الخير ومن عمل الشر ما يثمر الشر.

(آية ١٦) ﴿ فَلاَ يَصُدَّنَّكَ ﴾ يا موسى ﴿ عَنْهَا ﴾ أي عن الساعة وما يلزم لها من عمل ﴿ مَن لاَّ يُؤْمِنُ بِهَا ﴾ ويعدها ارجافاً لا يشف عن حقيقة صادقة ﴿ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ﴾ أي تسويلات نفسه الجاهلة التي أضلته عن واضح المحجة فحسب حديث القيامة حديثاً مزوراً ﴿ فَتَرْدَىٰ ﴾ يا موسى وتهلك إذا ركنت إلى مثل هذه العقيدة الخاطئة وفي هذا من البعث لسائر أفراد المكلفين ما لا يخفى فإنّ الذي ينذر رسوله وبعيثه بمثل هذا الانذار لا يرضى من الناس بدون ما حذر عليه وليه وأنذره.

ثمّ انّ الله سبحانه أراد أن يشرع من هذه النقطة بما يفيد يقين موسى بعظمة ربه واقتداره أكثر من اللازم وبصورة محسوسة مكبرة لا يعتريها شك ولا ترديد ويخوله معجزات ضخمة العيار تصديقاً لما يدعيه في تبليغه وتأييداً لدعوته إلى

ربّه فألفت نظر موسى إلى ما كان يعتاده في أغلب أزمانه ليجلب توجهه الكامل إلى ما هو مبتذل عنده عادي في نظره وفي نظر كل أحد سواه كيف تحوره قدرة الباري بما يجيء من أعجب الأشياء وأبدعها وأهمها في النظر وأروعها فقال سبحانه:

(آية ١٧) ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَامُوسَىٰ ﴾.

(آية ١٨) ﴿ قَالَ ﴾ موسى في الجواب على ما يعرف من خصائصها عنده وما اعتاد عليه منها ﴿ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا ﴾ أي أستعين بها في قيامي وقعودي ومسيري ﴿ وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي ﴾ وإذا رعيت بغنمي انكت بها أغصان الشجر ليتساقط منها الورق فتعتلفه هذه العجم ﴿ وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ ﴾ غير ما ذكرت فاعلق عليها زادي وأجعلها سناداً لما استظل به وأعدها سلاحاً أحمي به نفسي وما إلى ذلك.

(آية ١٩) ﴿ قَالَ ﴾ سبحانه عند ذاك ﴿ أَلْقِهَا يَا مُوسَىٰ ﴾ أي اطرح يا موسى هذا الموجود الهامد الفاقد للحياة من يدك.

(آية ٢٠) ﴿ فَأَلْقَاهَا ﴾ موسى غير عالم بما يراد بها ولم تكن منه إلّا التفاتة ﴿ فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ ﴾ كأعظم الحيات ﴿ تَسْعَىٰ ﴾ أي تدب على الأرض بصورة مفزعة فأفزعه ما رأى وحق له.

(آية ٢١) فـ﴿ قَالَ ﴾ له سبحانه ﴿ خُذْهَا ﴾ يا موسى بيدك كما كنت تأخذها في سائر أوقاتك ﴿ وَلَا تَخَفْ ﴾ فاننا ﴿ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ ﴾ من كونها عصا هامدة ميتة لا حراك بها وليست محلاً للخوف فأخذها بيده متهيباً فعادت كما كانت.

(آية ٢٢) ﴿ وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ ﴾ أي اسلك يدك في جيب شقك ﴿ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ ﴾ تنشق نوراً شفافاً ﴿ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ ﴾ أي انّ البياض المذكور ليس من

برص بها بل لنورانية ابداعية لجهة الاعجاز فيها ففعل موسى ما أمره به ربه فكانت يده بالوصف الذي ذكره سبحانه فكانت آية اليد ﴿ آيَةً أُخْرَىٰ ﴾ غير آية العصا، وإنّما فعلنا ذلك معك يا موسى ...

(آية ٢٣) ﴿ لِنُرِيَكَ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ أي معجزاتنا البعيدة التناول على كل أحد كائناً ما كان ﴿ الْكُبْرَىٰ ﴾ أي العظيمة الآخذة من النظر مأخذاً واسعاً فلما كشف لموسى عن نموذج من آياته العظيمة التي يخولها ايّاه في مواقع الاحتياج أمره أن يصدع بالرسالة ناهضاً بأعباء النبوة والسفارة مبارزاً أعداء الله والانسانية مناجزاً في هذه الميادين الشائكة مناجزة حازم يقظ غير مبال بما تأخذ منه المتاعب وما تعطيه فقال:

(آية ٢٤) ﴿ اذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي خرج عمّا يليق به من خطة فإنّه أنكر الصانع الحقيقي والمعبود الواقعي وادعى الربوبية لنفسه والمعبودية لذاته وأوقع بالناس قتلاً وفي النفوس نهباً احرازاً لأوهامه وتمديداً لمدة أيّامه وعاث وعبث في الأرض والابقاء على مثل هذا الحيوان الضاري أكثر مما أدرج له ليس من المصلحة فلما وجد موسى نفسه أمام مسؤولية خطيرة ووظيفة كبيرة طلب من ربه أن يؤتيه أتم سلاح يبارز به وأكمل عدة ينحدر بها إلى قرن تام اللامة محتاط لنفسه أشد الاحتياط سأل ربّه:

(آية ٢٥) فـ﴿ قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴾ واجعلني بمكانة من الحلم والتحمل وسعة الصدر بحيث لا أتأثر بالمؤثرات الروحية كما يتأثر الإنسان السائر ونعم ما طلب فإنّ الداعية الروحي يجب أن يكون في أعلا درجات الحلم حتى تستميل إليه العواطف لسماحته ولا ينكص عن ملاقاة الناس بما يلاقيه منهم من المزعجات.

(آية ٢٦) ﴿ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴾ أي ولا تكلني في جدي ونشاطي فيما أرومه

من تبليغ دينك إلى ما أملك من مؤونة وأنا فرد من أفراد البشر جهد مقدوري ما اولتهم الطبيعة من مقدور محدود الغاية ومهما عظم فانني إن أكن أنا وما أملك من جهد مقدور لا أصل إلى ما أتوخاه من غاية بطور قاطع فإنّ الطرف المقابل قد أُوتي من معدات المبارزة لي ولنظرائي ما لم تؤته الفيالق المنظمة واللسان والبيان وحدهما لا يبلغان في التأثير ما يرام منهما في مثل هذه الدعايات العظيمة الموجبة لانقلاب واسع في السياسة والعقيدة جميعاً.

(آية ٢٧) ﴿ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِن لِسَانِي ﴾ أي اجعل لي ملكة بيان وطلاقة لسان أكثر مما أملكه حالياً حتى يكون شافي بياني وطلاقة لساني من أهم الأعوان على تبليغ مرامي وقهر خصمي بالحجة القاطعة.

(آية ٢٨) ﴿ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴾ ببسطي الكلام على أوضح وجوهه وأجمعه لخصائصه اللائقة بالمقام الذي تطرد فيه الحجج مني ومنهم ويدور الحديث بيني وبينهم فإنّ القدرة على التعبير بما يستطاع معها إفهام أقل العوام درجة في التفهم من أعظم ملكات البيان ولا تحصل لأكثر الناس.

(آية ٢٩) ﴿ وَاجْعَل لِي وَزِيراً مِنْ أَهْلِي ﴾ يرفع عني وحشة الوحدة أوّلاً وأستعين بقوته ولسانه ومتنوع مساعداته ثانياً ويمحضني النصح بحيث لا أتهمه على نفسي ودعوتي وأتحصن بتيقظه في الذب عني وذلك لا يكون إلّا من أهلي وأقرب الناس اليّ وشيجة ثالثاً وهو...

(آية ٣٠) ﴿ هَارُونَ ﴾ بن عمران ﴿ أَخِي ﴾ من أُمي وأبي.

(آية ٣١) ﴿ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴾ أي ازود به قوتي زاد المساندة والمساعدة.

(آية ٣٢) ﴿ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي ﴾ أي اجعله شريكاً لي في دعوتي فيكون مثلي نبيّاً كما انني نبي؛ وفي طلبات موسى هذه ما يدل على انّ الرجل في وقته ذاك وفي جيله البعيد عن أُفق المعارف من أنبغ الرجال عقلاً وأوسعهم دراية في

الحياة وأهلها وأسلمهم صدراً حيث لم يترفع بنفسه عن مشاركة أخيه له في هذه الزعامة العظيمة الشأن بل هو الذي سألها له من ربه ثمّ علل عليه السلام انّ النتيجة من هذه الطلبات لم يستدفها ليكون ذا شأن وحديث بين الناس تنقل أقواله وتكثر رجاله وتتحقق آماله بل هدفه أن يحقق هو وأخوه شكر الله عملاً بين أفراد الناس بتسبيحه وتهليله وذكره والعبادة له كما قال:

(آية ٣٣) ﴿ كَيْ نُسَبِّحَكَ ﴾ أي نقدسك ﴿ كَثِيراً ﴾.

(آية ٣٤) ﴿ وَنَذْكُرَكَ كَثِيراً ﴾.

(آية ٣٥) ﴿ إِنَّكَ كُنتَ بِنَا ﴾ وبما احتوت عليه ضمائرنا واتجهت إليه قلوبنا ﴿ بَصِيراً ﴾ تعلم حقائقنا واننا أهل عبادة وأذكار وأوراد لا رجال سياسة وطلاب رياسة.

(آية ٣٦) ﴿ قَالَ ﴾ سبحانه بعد كل تلك الطلبات التي أرادها منه موسى ﴿ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَامُوسَىٰ ﴾ بابداع الساعة فانهض منشرح الصدر متيسر الأمر وافي البيان طلق اللسان مشفوعاً بوزير من أهلك تقوى به على تحقيق ما تروم ولنعم ما يروى عن أمير المؤمنين عليه السلام في هذا المقام انّه قال: «كن لما لا ترجو أرجى منك لما ترجو فإنّ موسى بن عمران خرج يقتبس لأهله ناراً فكلمه الله عزوجل فرجع نبيّاً وخرجت ملكة سبأ كافرة فأسلمت مع سليمان وخرج سحرة فرعون يطلبون العزّة لفرعون فرجعوا مؤمنين». ثمّ أخذ سبحانه بعد أن أنعم على موسى بهذه النعم الجسيمة الغالية الثمن انصافاً يشرح لموسى سوابق نعمه عليه فقال:

(آية ٣٧) ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ غير هذه المنن التي أفضنا بها عليك الآن.

(آية ٣٨) ﴿ إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾ لمثلها بالالهام وذلك عندما أخذ فرعون يقتل الأبناء ويستحي النساء من بني اسرائيل فحفظناك من هذا الطاغية

بالهامنا لأُمّك .

(آية ٣٩) ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾ أي ضعيه في تابوت من خشب ﴿ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ ﴾ نيل مصر ﴿ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ ﴾ امّا أن تكون صورة الأمر هذا بمعنى الخبر أي فيلقيه اليم على ساحله وامّا أمراً واقعياً تكوينياً للبحثر بقذف التابوت على ساحله ابقاءً على حياة موسى فتلقيك أُمّك بتابوتك في نيل مصر فيقذفه الماء على مقربة من منتزه فرعون وزوجته آسية بنت مزاحم فـ﴿ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِّي ﴾ لالحاده بي وادعائه الربوبية لنفسه دوني ﴿ وَعَدُوٌّ لَهُ ﴾ لأنّه لم يستأصل أبناء الاسرائيليين إلّا حذراً من وجوده وبقاء حياته ويتبناه لاعجابه به ﴿ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي ﴾ بأنّ فرعون وآله بل كلّ من رآك أحبك ومال اليك فعلت هذا بك ابقاءً عليك وادخاراً لك لتقوم بهذه المهمات والخدمات النافعة ﴿ وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾ معناه انّ كلّ ما يجري عليك وأنت في هذا الصغر الذي هو أحوج ما يكون إلى حسن التغذية والتربية قدرته أن يكون تحت عنايتي الخاصة بحيث لا تفتر عنك افاضاتي وألطافي آناً قصيراً كل ذلك ابقاءً عليك وشفقة بك ثمّ بيّن سبحانه مفاد كونه مصنوعاً على عينه فقال سبحانه :

(آية ٤٠) ﴿ إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ ﴾ وراء تابوتك تقص أثرك لترجع بعلمك إلى اُمّك فلما قذف اليم تابوتك إلى الساحل وأخذك فرعون وزوجته آسية وطلبوا لك المراضع فلفظت أثداء الجميع بمحضر من اُختك كل هذه الدقائق بالهام وتسخير منّا ﴿ فَتَقُولُ ﴾ أي عند ذلك قالت اُختك من باب ابداء النصح واظهار النظر كأنّها أجنبية وقد شهدت الموقف متفرجة ﴿ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُ ﴾ ويقوم بارضاعة فلعله يسكن إليه فأشارت إلى اُمّك بسمة انها أجنبية تتطلب مظان الارضاع بأُجرة ﴿ فَرَجَعْنَاكَ إِلَىٰ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا ﴾ بولدها ﴿ وَلَا تَحْزَنَ ﴾ لفراقه وما يطرأ عليه في غيابه عنها ﴿ وَقَتَلْتَ نَفْساً ﴾ من القبط ولا شبهة انّ قتله له لم يكن عن

تعد وابتداء جناية لأنّ ذلك يخل بمؤهلات النبوة ولأنّه خلاف اطراء الله له على طول خط حياته ﴿ فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ ﴾ بأن لم نجعل للاقباط عليك طريقاً يمسونك منه بأذى ﴿ وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً ﴾ أي ابتليناك واختبرناك وفحصنا حقيقتك فحصاً وقفنا فيه على وجودك النزيه وهذا من الله سبحانه بمعنى اظهار حقيقته لنفسه هو وللناس أيضاً وإلّا فالله سبحانه جد عالم بما يكن ويظهر من حين خلقته ثمّ فرّع سبحانه على جملة ما ابتلاه به بانتزاحه عن مصر إلى مدين ورعيه لشعيب عليه السلام مدة عشر سنين فقال ﴿ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ ﴾ أي وقت نضجت فيه لتحمل أعباء الرسالة ﴿ يَامُوسَىٰ ﴾.

(آية ٤١) ﴿ وَٱصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي ﴾ أي أخلصتك واقتطعتك من دون الناس لتقوم برسالتي وأداء وظائفي التي احولها اليك ثمّ بيّن الوظيفة التي أراده لها فقال :

(آية ٤٢) ﴿ ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ ﴾ هارون ﴿ بِآيَاتِي ﴾ أي دلائلي ومعجزاتي ﴿ وَلاَ تَنِيَا ﴾ أي لا تتساهلا ولا تفترا ﴿ فِي ﴾ بيان ﴿ ذِكْرِي ﴾ وهو امره الذي حملهما به ودعاهما لتحقيقه ثمّ بيّن لهما المقصد في الذهاب فقال :

(آية ٤٣) ﴿ ٱذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ ﴾ أي خرج عن الجادة التي ربما يغضى عنها وعلا بنفسه علواً فاحشاً لا يصح اقراره عليه ثمّ شرح لهما برنامج الدعوة إذ أتياه بقوله :

(آية ٤٤) ﴿ فَقُولاَ لَهُ قَوْلاً لَّيِّناً ﴾ أي بهدوء ورفق ﴿ لَّعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ ﴾ الحق الذي غفل عنه ويلتفت إلى جهة الصواب التي طاش فكره عنها ﴿ أَوْ يَخْشَىٰ ﴾ ما تحذرانه منه ومن ما تخوفانه به.

(آية ٤٥) ﴿ قَالاَ ﴾ بعد أن أدركا ضعفهما حسب ما يظهر لهما من حال أنفسهما فعلا بالطريق الطبيعي وما يعهدانه من قوة الطرف المقابل قوة سيطرت

على الأدمغة والأفئدة بطور عام ﴿ رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ ﴾ إذا أتيناه لنلويه عن خطته التي هو عليها ونحن بهذا الضعف المعجز لنا عن مقاومة أقل الأقباط حولاً وقوّة فكيف به وهو ذو الجبروت والأيد ﴿ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا ﴾ أي أن يتوحش من أوّل كلمة نلقيها على مسامعه فيعجل علينا بالانتقام ﴿ أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴾ أي تأخذه نخوة الكبر فلا يعيرنا أقل طرف خصوصاً ونحن اسرائيليون خفيفوا الكفة في نظره فضمن لهما الله سبحانه ما خافا منه.

(آية ٤٦) فـ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا ﴾ ناظر لجميع ما يجري منكما وعليكما ﴿ أَسْمَعُ ﴾ ما يحاوركم به فأدلكم على نقاط ضعفه وقوتكما بالنسبة إليه في الخصومة ﴿ وَأَرَىٰ ﴾ ما يريده بكما من سوء فاصرفه عنكما فلا تضطربا من ذهابكما إليه.

(آية ٤٧) ﴿ فَأْتِيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ ﴾ اليك ﴿ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وارفع يدك وسوطك عنهم ﴿ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ ﴾ بالتحقير ومزاولة الأعمال الشاقة اننا ﴿ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ ﴾ تدل على صدق كلّ ما ندعيه وندعوك إليه ﴿ وَالسَّلَامُ ﴾ محكوم به ﴿ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ ﴾ وتجافى عن غير الحق.

(آية ٤٨) ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا ﴾ من ربّنا ﴿ أَنَّ الْعَذَابَ ﴾ في النشأة الثانية ﴿ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ ﴾ بالحق ومن يقوله ﴿ وَتَوَلَّىٰ ﴾ عن الحق وأهله.

(آية ٤٩) ﴿ قَالَ ﴾ فرعون لهما بعد أن أدليا بخطابهما إليه ﴿ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ الذي تشهران باسمه وتعظمان مقامه وتكبران صولته ﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾ إنّما خصّ موسى بالتسمية ولم يذكر هارون معه كأنّه تجلى له تصدر موسى بهذه الدعوة أكثر كما انّ الواقع كذلك بلا غض لمقام هارون عليه السلام.

(آية ٥٠) ﴿ قَالَ ﴾ في جوابه موسى: ﴿ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ من أشياء الوجود ﴿ خَلْقَهُ ﴾ المخصوص به المنفرز بخصوصياته عن كل ما سواه فلا تكاد

تجد مولوداً من مواليد الكون يحكم عليه بالمساواة التامة لمولد آخر منها وهذا من أعظم الأدلّة على انّ أفراد الكائنات لم تتنزل عن أُصول محفوظة في مواليدها فإنّها لو كانت كذلك لتساوت وتقاربت قرباً لاصقاً طبعاً من تسانخها في أصلها الذي أنتجها إذن فربنا هو العلّة التي تباشر شنات هذه المعلولات بأسرها مباشرة قريبة وبلا واسطة وباختيار مطلق غير مربوط إلى حدّ محدود ولذلك ترى لكل شيء من أشياء العالم صورة بحيالها وخلقة مستقلة لا ربط لها بخلقة الشيء الآخر ﴿ ثُمَّ هَدَى ﴾ أي وجّه كل موجود للنهج الذي وجّهه إليه فترى سلاسل الحيوان وهي فصيلة من فصائل الموجودات الكونية من أقل حشرة فيها إلى أعظم فرد منها وهو الإنسان كلا في سبيل مخصوص به أُلهِم به وفطر عليه.

(آية ٥١) ﴿ قَالَ ﴾ فرعون إذا كان ربك يا موسى بهذه المثابة من العظمة والقدرة والنفوذ وانّ عليه مآب الخلق في نشأة ثانية يؤاخذ فيها الكاذب المتولي عن الحق ويثاب في دورها المطيع للحق المطاوع لأهله ﴿ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ لم تؤمن به أو لا تعتقد الرجعة إليه والحساب بين يديه ؟

(آية ٥٢) ﴿ قَالَ ﴾ موسى في جوابه ﴿ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي ﴾ أي علم انها لم انصرفت عن التوجه لله سبحانه والاعتقاد بنشأته الآخرة التي هي مدار الثواب والعقاب والدواعي التي دعتها إلى ذلك عند الله سبحانه ﴿ فِي كِتَابٍ ﴾ محفوظ عنده وهو كتاب علمه الحضوري الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة من المعلومات ﴿ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي ﴾ أي لا يغفل ولا يفوته شيء منها ﴿ وَلاَ يَنسَىٰ ﴾ أي هو دائماً على ذكر من علمه ومعلوماته وامّا أنا فانسان لولا تعليم الله لي ما أنا بحاجة إليه لما تدبرت أقل جواب أُجيبك به عن سؤالاتك هذه ونظائرها.

(آية ٥٣) ﴿ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ﴾ يا بني آدم ﴿ ٱلْأَرْضَ مَهْداً ﴾ أي مكاناً ممهداً مبسوطاً قابلاً للحركة عليه والسكون فيه ﴿ وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً ﴾ أي شقّ لكم

طرقاً تتصلون منها براحة نسبية إلى مقاصدكم وما أنتم بحاجة الوصول إليه ﴿ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّماءِ مَاءً ﴾ ليكون سبب حياة للكثير من الموجودات وهي فصائل النباتات والحيوانات وقوله الذي جعل لكم يحتمل أن يكون مقولا لموسى في وصف ربه كما يحتمل أن يكون لله سبحانه في بيان طرف من هويته العالية المقدار عن التناول ﴿ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ﴾ أي بذلك الماء ﴿ أَزْوَاجاً ﴾ أي فصائل مزدوجة في الاصطفاف الخارجي بعضاً قريباً من بعض ﴿ مِن نَبَاتٍ شَتَّىٰ ﴾ أي متفرق الحقائق والهويات فهذا أزرق وذاك أحمر وذلك أصفر وذياك أبيض والآخر مختلط من ألوان مختلفة ، كما تكون كباراً وصغاراً ينبت بعضها في أرض لا ينبت فيها البعض الآخر ، كما يكون بعضها معطراً والبعض الآخر خالياً من العطرية وبعضها مقوياً منعشاً والبعض الآخر سماً مهلكاً وهذا حامض الطعم وذاك مره والآخر حلوه والثالث مالحه وهلم جرا بلا حساب لدرجات التفاوت في الشكل والهيئة والمنبت والفصل والطعم وطول البقاء ومالى إلى ذلك .

(آية ٥٤) ﴿ كُلُوا ﴾ يا بني آدم لأنفسكم ما هو وفق لكم ﴿ وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ ﴾ ما هو من علفها ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذي فصلنا بعضاً من تفصيلاته ﴿ لَآيَاتٍ ﴾ تدل على وجود البارئ الخالق لهذه الأكوان بجميع ما فيها من حي وميت وهامد ومتحرك وما تحتوي عليه من قوى ومواد ﴿ لِأُولِي ٱلنُّهَىٰ ﴾ أي لأهل العقول الناضجة التي بها التمييز بين الصحيح والسقيم لا مطلق من يدعي انّ له ادراكاً .

(آية ٥٥) ﴿ مِنْهَا ﴾ أي من الأرض ﴿ خَلَقْنَاكُمْ ﴾ أي جعلنا مادتكم الأصلية في ابداعكم هي الأرض فإنّ آدم أبا البشر أبدعه الله من ترابها أو من سنخه ﴿ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ ﴾ أي تقبرون فيها بعد حلول آجالكم ﴿ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ ﴾ لحشركم وحسابكم يوم يعيد الله العالمين خلقاً جديداً .

(آية ٥٦) ﴿ وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ ﴾ أي فرعون ﴿ آيَاتِنَا كُلَّهَا ﴾ أي براهيننا الدالّة على

صدق رسولنا فيما يبلغه والمراد الآيات التي أظهرها الله على يد نبيه موسى لا كل آية له ﴿ فَكَذَّبَ ﴾ فرعون بها وجحدها ولم يخضع لمفادها الالزامي تعنتاً ﴿ وَأَبَىٰ ﴾ تكبراً.

(آية ٥٧) ﴿ قَالَ ﴾ فرعون لموسى بعد أن أعذر إليه بالبيان الوافي والدليل الشافي ﴿ أَجِئْتَنَا ﴾ يا موسى ﴿ لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا ﴾ فانك إنّما تحاول اخضاعنا لك ونزولنا على حكمك وتقتص منا لآل أبيك وقومك بني اسرائيل ﴿ بِسِحْرِكَ ﴾ أي بما أتيت به من الظواهر المعماة بادعاء انها معجزات وحقائق راهنة ففرعون كأنّه ليس ببعيد عما يعمله السوفسطائيون من تدمير الحجج الصحيحة حذراً من الافحام والالزام لهم من خصمهم الذي يحاكمهم على المطلب المتناقش فيه بالتزهيد في أمرها ووسمها بأنّها سفسطة وشبه واهية قد برقعت ببرقع البرهان القاطع ولذلك أظهر فرعون للناس انّ ما جاء به موسى من جنس السحر المتداول بيننا الذي نحسنه ونجيده ولذلك قال له: ﴿ يَا مُوسَىٰ ﴾ ...

(آية ٥٨) ﴿ فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِ ﴾ أي من جنس ما جئت به فلا ميز لك علينا بكل ما جئت به ودعوت إليه ﴿ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِداً لاَّ نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلاَ أَنتَ مَكَاناً سُوىً ﴾ أي يستوي فيه حضورنا وحضورك فلا يتخلف منا ومنك عنه أحد حتى نظهر للجماهير اننا قادرون على مثل ما جئت به.

(آية ٥٩) و ﴿ قَالَ ﴾ موسى بقلب رابط وجأش شديد لفرعون وجموعه: ﴿ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ ﴾ اليوم المخصوص الذي كانوا يعدونه عيداً ويزينون أسواقهم ومجامعهم العامة ويظهرون بأسرهم للتفرج والمعاينة ﴿ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحىً ﴾ اخبار عن عادتهم في ذلك اليوم بانهم كانوا يشهدون عيدهم وقت الضحى وإنّما اتخذ موسى عليه السلام هذا الموعد ليخزي فرعون وجموعه ويظهر للجموع المتراصة صدق ما يدعيه وواقعية ما جاء به وانّه ليس من جنس السحر

ولا من طراز الشعبذة.

(آية ٦٠) ﴿ فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ ﴾ عن موسى بعد أن انعقد القرار بينهما على الموعد المذكور ﴿ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ﴾ وكلما يراه مؤيداً له من سحر وساحر ﴿ ثُمَّ أَتَىٰ ﴾ الموعد كما أتاه موسى أيضاً وفاءً بالمعاهدة.

(آية ٦١) ﴿ قَالَ لَهُمْ ﴾ أي لسحرة فرعون ﴿ مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ ﴾ كلمة تعيير وتوبيخ ﴿ لاَ تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِباً ﴾ بادعاء الشركة له أو بادعاء انّ ما تأتونه من السحر والشعبذة أمر واقعي له حقيقته الراهنة مع علمكم انّه تلبيس وتعمية ﴿ فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ ﴾ أي فيستأصلكم بعذابه ولا يبقي عليكم بقهره وغلبته ﴿ وَقَدْ خَابَ مَنِ افْتَرَىٰ ﴾ أي تخف كفته عند الله ويفد عليه مأيوساً من رحمته.

(آية ٦٢) ﴿ فَتَنَازَعُوا ﴾ أي سحرة فرعون ﴿ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ ﴾ وتشاوروا لخاصة أنفسهم فيما يعملونه في هذا الموقف ﴿ وَأَسَرُّوا النَّجْوَىٰ ﴾ بحيث لم يسمع كلامهم غير أفراد المتناجين منهم وكان مضمون نجواهم فيما بينهم أن...

(آية ٦٣) ﴿ قَالُوا ﴾ أي بعضهم لبعض ﴿ إِنْ هَٰذَانِ ﴾ موسى وهارون ﴿ لَسَاحِرَانِ ﴾ أي ليس لدعواهما حقيقة ﴿ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِنْ أَرْضِكُم ﴾ مصر ﴿ بِسِحْرِهِمَا ﴾ أي بسبب سحرهما ﴿ وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ ﴾ أي الفاضلة البعيدة عن العيوب والنقائص بما جاءا به من نبذ الوهية فرعون والاعتصام بحبل الله وحده وتبديل نظام اجتماعكم إلى نظام آخر.

(آية ٦٤) ﴿ فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ﴾ أي تهيأوا بجميع ما تستطيعونه من وسائل المبارزة والمقابلة ﴿ ثُمَّ ائْتُوا صَفّاً ﴾ أي متصامدين فإنّ ذلك أهيب لعدوكم وأشد لأمركم ﴿ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ ﴾ حيث احتشدت جماهير المصريين تحد النظر لترى الغالب من المغلوب ﴿ مَنِ اسْتَعْلَىٰ ﴾ على خصمه بالمسابقات الموعود بها منا ومن خصمنا.

(آية ٦٥) ﴿ قَالُوا ﴾ أي سحرة فرعون في مقام اعمال الوعد بصورة مجسمة خارجية ﴿ يَامُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ ﴾ ما عندك وما أعددته لهذا الموقف ﴿ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ ﴾ فلك الخيار بذلك بكأنهم أبدوا للناس أوّل صراحتهم في عملهم الذي جاءوا به وذلك بأن خيروه في أن يفتح الموقف بالعمل هو أو هم بلا مزاحمة منهم له لكل ما يختار.

(آية ٦٦) ﴿ قَالَ ﴾ موسى لهم ﴿ بَلْ أَلْقُوا ﴾ حتى يجيئوا بآخر نفس عندهم في هذا المشهد العظيم فإذا انتهوا من أعمالهم جائهم بالطامة التي تأتي عليهم وعلى سحرهم بأيسر وقت حتى يتحقق الناس من انّ ما جاءوا به سحر وشعبذة لا مقيل لهما من الواقع بشيء وانّ ما جاء به هو برهان وحقيقة واعجاز تقف العقول والبصائر دونه خاضعة مسلمة عاجزة عن تفسيره بمفسر عادي أو طبيعي أو من طريق التسبيب بين الأسباب ومسبباتها فلبى القوم طلبة موسى وألقوا ما عندهم ﴿ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ ﴾ التي ألقوها في ساحة المشهد ﴿ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى موسى ﴿ مِن سِحْرِهِمْ ﴾ أي من جهة إعمالهم السحر فيها ﴿ أَنَّهَا تَسْعَىٰ ﴾ وتتحرك.

(آية ٦٧) ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾ أي أحس موسى في نفسه اضطراباً لما عاين من سحرهم ما عاين لأُمور منها انّه بشر والحالة البشرية تتغير عند رؤية الحوادث المدهشة ولا شبهة انّ ما أتوا به كان في غاية الروعة لأنّهم بذلوا في سبيل احراز هذه المسابقة غاية جهدهم ومنها انّه خاف أن يكون انقلاب عصاه ثعباناً بصورة مساوقة لانقلاب عصيهم فلا يظهر التفاوت إلّا بطور الشدة والضعف وهذا قد لا يكون مائزاً قوياً يحرز له أنظار النظار وحكمهم له بالغلبة عليهم ومنها انّه خاف أيضاً أن تتفرق الجموع كلهم أو جلهم أو بعضهم بعد ما شاهدوا أعاجيب ما صنعه سحرة فرعون ولا ينتظرون بموسى ما يكون منه ظناً

منهم طبق مسموعهم عنه انّ آيته التي جاء بها هي انقلاب عصاه حية وقد شاهدوا من سحرة فرعون عين هذا العمل فلم يبق في نفوسهم تعطش إلى ما يأتي من موسى وهذه الاحتمالات تلابس النفس فتزعجها ومهما كانت قوية الجأش رابطة العزيمة لكن الله سبحانه أوحى إليه وشجعه غاية التشجيع فقال:

(آية ٦٨) ﴿ قُلْنَا ﴾ لموسى ﴿ لاَ تَخَفْ ﴾ ولا تضطرب ﴿ إِنَّكَ ﴾ بما معك من براهين قاطعة وآيات ساطعة ﴿ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ ﴾ الغالب.

(آية ٦٩) ﴿ وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ ﴾ وهي عصاك فإنّها فضلاً عن انقلابها ثعباناً عظيماً ﴿ تَلْقَفْ ﴾ وتبتلع جميع ﴿ مَا صَنَعُوا ﴾ ولا قيمة لما صنعوه ﴿ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلاَ يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴾ بسحره لأنّ السحر بما هو سحر خيال باطل وظل زائل وتعمية لا يطول عليها الزمان حتى تنكشف والآية الربانية من سنخ الحقائق الراهنة ليس فيها تغير ولا أُفول ولا تعمية ولا مخادعة فلما ألقى موسى عصاه انقلبت ثعباناً عظيماً اهتز له الجمع الحاضر وأتى على العصي والحبال فابتلعها بأسرها فلما شاهد السحرة وهم أهل الفن والمحك في هذه الأُمور ما جاء من موسى تأثروا في عقولهم وعقائدهم غاية التأثر واعتقدوا بنبوته وانّه رسول ربّ مقتدر واسع النفوذ في الكون والطبائع مهيمن على الهامد والمتحرك وانّ العوالم بأسرها تتسخر لارادته.

(آية ٧٠) ﴿ فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ ﴾ على الأرض ﴿ سُجَّداً ﴾ خاضعين لعظمة الله سبحانه و ﴿ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ ﴾ هؤلاء الذين يدعون إليه ويبلغون دينه وتوحيده إلى كافة الناس.

(آية ٧١) ﴿ قَالَ ﴾ فرعون لسحرته الذين كان يعدهم سلاحه وحربته التي بها يبارز موسى وإذا به يراهم أوّل الناس ايماناً بعدوه ﴿ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ ﴾ باتباعه ﴿ إِنَّهُ ﴾ أي موسى ﴿ لَكَبِيرُكُمُ ﴾ أي كبير السحرة ﴿ ٱلَّذِي عَلَّمَكُمُ

ٱلسِّحْرَ ﴾ وانكم إنّما خضعتم له ولم تبدوا عظيم سحركم الذي تعرفون أمام الناس لتواطئكم على خذلاني قبل حضور الموقف ﴿ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِنْ خِلَافٍ ﴾ وهو عبارة عن قطع اليمين من الأيدي واليسرى من الأرجل ﴿ وَ ﴾ بعد أن اقطع أيديكم وأرجلكم ﴿ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ ﴾ توهيناً بكم وتأديباً لغيركم حتى لا يصدر من الناس مثل فعلكم ﴿ وَلَتَعْلَمُنَّ ﴾ ايتها الجماعة ﴿ أَيُّنَا ﴾ أنا ورب موسى وهارون الذي سجدتم له خضوعاً ﴿ أَشَدُّ عَذَاباً ﴾ من الآخر ﴿ وَأَبْقَىٰ ﴾ وأطول تنكيلاً بمن يريد الايقاع به لداع وسبب.

(آية ٧٢) ﴿ قَالُوا ﴾ أي سحرته له بعد أن ثبتت عقائدهم ورسخت نياتهم بما خضعت نفوسهم له ﴿ لَن نُؤْثِرَكَ ﴾ يا فرعون ولا نقدمك ولو كنت ذا صولة وجولة ودولة ﴿ عَلَىٰ مَا جَاءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَاتِ ﴾ التي شهدناها بأحداقنا وتميزناها بعقولنا ﴿ وَ ﴾ كذلك لا نؤثرك على ﴿ ٱلَّذِي فَطَرَنَا ﴾ وهو الله سبحانه فإنّ العقائد لا يحابي فيها صاحبها ﴿ فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ ﴾ أي اصنع جهد ما تريد بنا من ايقاع توقعه وتعذيب ترتكبه ﴿ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ ٱلْحَيَاةَ ٱلدُّنْيَا ﴾ أي غاية مقدورك أن تقطع ارتباطنا بهذه الدنيا ان سمحت لك المقدرات بذلك وقد يحول الله بيننا وبينك فتكون حتى الأذية المختصرة الدنيوية ليس بك عليها.

(آية ٧٣) ﴿ إِنَّا ﴾ نصارحك مصارحة ﴿ آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا ﴾ التي ارتكبناها آنفاً في مدرجة حياتنا ﴿ وَ ﴾ كذلك ليغفر لنا ﴿ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ﴾ تعلم ﴿ ٱلسِّحْرِ ﴾ والعمل به ﴿ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴾ لنا منك.

(آية ٧٤) ﴿ إِنَّهُ ﴾ الضمير للشأن يجوز أن يكون هذا الكلام للسحرة كما يجوز أن يكون ابتداء كلام الله اعترضه لأجل بيان ما يلزم ايضاحه عند هذه المناسبات ﴿ مَن يَأْتِ رَبَّهُ ﴾ أي يفد على ربّه يوم القيامة ﴿ مُجْرِماً ﴾ أي مرتكب جناية وجرم ﴿ فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴾ أي يعذب بنار جهنم التي

أعدها خالقها للعاصي عذاباً مستمراً مقلقاً لا ينقطع بالموت فيستريح المعذب لفقدانهِ لوسائل الاحساس ولا يحيى معه حياة هادئة بحيث يبطل معها أثر التعذيب.

(آية ٧٥) ﴿ وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِناً ﴾ به معتقداً بربوبيته ﴿ قَدْ عَمِلَ ٱلصَّالِحَاتِ ﴾ من واجبات أدّاها وسنن تطوّع بها ﴿ فَأُولَٰئِكَ لَهُمُ ٱلدَّرَجَاتُ ٱلْعُلَىٰ ﴾ أي العالية بالحس والرفعة جميعاً، تلك الدرجات العلى هي...

(آية ٧٦) ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ ﴾ أي لبث واقامة واستمرار ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَارُ ﴾ مزيداً في ترفها وزخرفتها وتزيينها ﴿ خَالِدِينَ فِيهَا ﴾ لا أمد لنعيمهم فينقضي ﴿ وَذَٰلِكَ ﴾ أي هذا النوع من النعيم العظيم ﴿ جَزَاءُ مَن تَزَكَّىٰ ﴾ أي طهر أخلاقه وقلبه وعمله.

(آية ٧٧) ﴿ وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي ﴾ بني اسرائيل من أرض مصر ليلاً فإنّ الليل ومهما كان أبعد عن المزاحمة ﴿ فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقاً ﴾ لأجل عبورهم لفقد الجسور يومذاك وعزة السفن على موسى وكثرة اتباعه الخارجين معه فإنّهم يقدرون بما يزيد على النصف مليون وقد كانوا لما ارتحلوا إلى يوسف لا يزيدون على ثمانين نفساً كما يروى ﴿ فِي ٱلْبَحْرِ ﴾ وهو نيل مصر ﴿ يَبَساً ﴾ أي طريقاً يابساً لا يبتل به سالكه في حال انّه طريق في البحر وهذه معجزة أُخرى لبني اسرائيل شاهدوها في طريق خروجهم من مصر لما احتاجوا إلى عبور النيل فإنّ الله أمر أن يضرب بعصاه البحر في اثنى عشر مكاناً فيتكون منها اثنا عشر شارعاً واسعاً في بطن البحر والماء واقف بقدرة الله مطل على هذه الشوارع كالجدار الشاهق المرصوص البناء لا تقطر منه دمعة واحدة وأرض هذه الشوارع الاثنى عشر يابسة كالأرض الجرز وكان كل طريق من هذه الاثنى عشر مختصاً بفريق منهم ومع انهم وقفوا على هذه المشاهد العجيبة التي تولد الايمان

في أقصى القلوب لعظمتها الفائتة عن مقدور كل البشر طلبوا من موسى أن يفتح في جدران الماء بين جميع هذه الاثنى عشر طريقاً كوى يشاهد منها بعضهم بعضاً في وقت عبورهم لزعمهم ان أهل كل طريق لا يأمنون من تطبق الماء على رفقتهم عندما يعبرون فتثبيتاً لقلوبهم طلبوا هذه الطلبة من موسى ﴿ **لاَّ تَخَافُ دَرَكاً** ﴾ من فرعون إذا طلبك يريد منك فصل بني اسرائيل من ناحيتك إلى ناحيته كما كانوا بادئاً ﴿ **وَلاَ تَخْشَىٰ** ﴾ تطبق البحر عليك وعلى أفرادك فإنّ ذلك مصنوع بعنايتنا.

(آية ٧٨) ﴿ **فَـ** ﴾ لما بلغ فرعون مسير موسى ببني اسرائيل ﴿ **أَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ** ﴾ ليردهم ﴿ **فَـ** ﴾ لما سلك الطرق الشارعة في البحر التي سلكها بنو اسرائيل قبله تطبق عليهم الماء و ﴿ **غَشِيَهُم مِنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ** ﴾ أي وقع عليهم من ضغط الماء وتدافعه ما تهول له اربط القلوب وأقواها.

(آية ٧٩) ﴿ **وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ** ﴾ قديماً وحديثاً عن شوارع النجاة والسلامة ﴿ **وَمَا هَدَىٰ** ﴾ تعنتاً بنفسه.

(آية ٨٠) ﴿ **يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنجَيْنَاكُم مِنْ عَدُوِّكُمْ** ﴾ فرعون ومنعناه من التوثب عليكم وايصال الأذى اليكم ﴿ **وَوَاعَدْناكُمْ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلْأَيْمَنَ** ﴾ بعد عبوركم البحر وتخلصكم من تسلط فرعون لنؤتيكم التوراة الكافلة بأحكام الشريعة ونظام الجمعية ﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ** ﴾ في التيه ﴿ **ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ** ﴾ ليكونا طعاماً لكم في تيهكم.

(آية ٨١) ﴿ **كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ** ﴾ أي استمتعوا بالطيب الكثير الذي هيأناه لكم فإنّه ليس في وسع الإنسان أن يتناول الأرزاق كلها لسعة مادتها وخروجها عن مسافة احتياجه وترفهه بل وسرفه أيضاً ﴿ **وَلاَ تَطْغَوْا فِيهِ** ﴾ أي ولا تحملكم النعمة على التجبر والطغيان فإنّ السعة طالما أفسدت أخلاق

الأقوام ﴿ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي ﴾ إذا طغيتم وتجبرتم وخرجتم عن الموازين المحدودة لكم ﴿ وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴾ أي هلك لأنّه ليس في وسع الإنسان مدافعة بلاء الله وقضاءه إذا برمه لعجزه أمام قدرة الرب في كلّ ما يأخذ ويذر.

(آية ٨٢) ﴿ وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَن تَابَ ﴾ من ذنبه بشرائط مفصلة في محلها ﴿ وَآمَنَ ﴾ أي أحدث ايماناً بعد كفر ﴿ وَعَمِلَ صَالِحاً ﴾ بعد الايمان بالله ﴿ ثُمَّ اهْتَدَىٰ ﴾ أي استمر على طريق السلامة والهداية.

(آية ٨٣) ﴿ وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَامُوسَىٰ ﴾ فإنّ القرار أن تجيء أنت ووجوه قومك لميعادنا في أخذ التوراة فما الذي دعاك إلى أن تسبقهم في المجيء.

(آية ٨٤) ﴿ قَالَ ﴾ موسى ﴿ هُمْ أُولاَءِ عَلَىٰ أَثَرِي ﴾ يلحقون بي عن قريب ﴿ وَ ﴾ إنّما ﴿ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ ﴾ دونهم ﴿ لِتَرْضَىٰ ﴾ أي لأزداد من جلب مرضاتك لشدة شوقي اليك.

(آية ٨٥) ﴿ قَالَ ﴾ سبحانه يا موسى انّه قد حدث من بعدك حدث مهم ﴿ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِن بَعْدِكَ ﴾ واختبرناهم لتنكشف لهم وللناس هوية عقائدهم وانهم في عقيدتهم بي إلى أي درجة وصلوا خصوصاً مع مشاهدتهم للآيات البينات التي دمرنا بها فرعون وحزبه وأبطلنا بها قواه ووسائله ﴿ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ ﴾ بعجل صنعه لهم ودعاهم إلى عبادته فأجابوه أسرع ما يكونون.

(آية ٨٦) ﴿ فَرَجَعَ مُوسَىٰ ﴾ بعد أن سمع بهذا الخبر ﴿ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ ﴾ مما فعلوه وأتوه ﴿ أَسِفاً ﴾ على ما بذل في سبيل انجاحهم وتخلبصهم من فرعون ووثنيته ﴿ قَالَ ﴾ لما وصل إلى قومه وملؤه أسف وتأثر ﴿ يَاقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْداً حَسَناً ﴾ بايتائكم التوراة ميزاناً لأعمالكم ﴿ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ ﴾ منذ فارقتكم إلى أن دعاكم السامري إلى عبادة عجله وما هي إلّا أيّام قلائل ﴿ أَمْ

أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِن رَّبِّكُمْ ﴾ بعبادة العجل دونه ﴿ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِي ﴾ وهو رجوعي اليكم بالألواح.

(آية ٨٧) ﴿ قَالُوا ﴾ أي الذين بقوا على رسلهم الأوّل ولم يعبدوا العجل وهم في جانب الأقلية ﴿ مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ ﴾ يا موسى ﴿ بِمَلْكِنَا ﴾ أي بما نملكه من أمر وما نستطيعه وما هو داخل تحت اختيارنا وواقع تحت تأثيرنا فاننا مغلوبون أمام تلك الكثرة الساحقة التي اتبعت السامري وكلّ ما نهيناهم عن ايجاد هذا الخرق الواسع أبوا علينا ولا نقوى على مبارزتهم حتى نبارزهم ثمّ انهم شرحوا له أسباب هذه الحادثة ومبادئها فقالوا: ﴿ وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِن زِينَةِ الْقَوْمِ ﴾ أي مثل فعلنا فعل السامري بما معه من حلي وذهب ﴿ فَقَذَفْنَاهَا ﴾ فيها قصداً لاتلافها ﴿ فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ ﴾ أي مثل فعلنا فعل السامري بما معه من حلي وذهب.

(آية ٨٨) ﴿ فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً ﴾ أي مجسمة بصورة العجل ﴿ جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ ﴾ أي ذا جسد وصوت وهذا هو الذي مال بهم إلى جانبه وإلّا فصورة العجل من الذهب لا تميل بهم كل الميل لأنّه نوع من أنواع المصاغات وليس له كبير أهمية ﴿ فَقَالُوا ﴾ أي أتباع السامري المتابعون له من بدو امره أخذوا يبلغون بني اسرائيل بأنّ ﴿ هَٰذَا ﴾ العجل الذي كشف عنه السامري ﴿ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ ﴾ أيضاً وإنّما خصصوا موسى بالذكر ليكون ذكره عوناً على جلب قلوبهم وأهوائهم نحو عبادة عجلهم هذا ﴿ فَنَسِيَ ﴾ موسى قبل اليوم أن يكشفه لكم حتى تعبدوه ثمّ فند مزاعمهم الله سبحانه بقوله:

(آية ٨٩) ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ ﴾ هؤلاء الطغام عند ما دعوا إلى عبادته من ناحية السامري ﴿ أَلَّا يَرْجِعُ ﴾ هذا العجل ﴿ إِلَيْهِمْ قَوْلاً ﴾ عند ما يكلمونه ﴿ وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرّاً وَلَا نَفْعاً ﴾ أي ليس باستطاعته ايقاع الضرر بهم ولا ايصال النفع اليهم وألا

يتدبرون انّ عجل السامري ومهما بلغ من كافة حيثياته لا يزيد على عجل سائر طالما اقتنوه في ضمن البقر هم ومواطنوهم من موحدين وملحدين فما الذي ميز عجل السامري على العجل المتعارف.

(آية ٩٠) ﴿ **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ** ﴾ أن يعود موسى اليهم من الميقات ﴿ **يَاقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِ** ﴾ أي بهذا العجل واختبرتم بهذه الفتنة فلازموا متانتكم والزموا جانب خالقكم ﴿ **وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِي** ﴾ فيما أقول لكم ﴿ **وَأَطِيعُوا أَمْرِي** ﴾ فيما أدعوكم إليه من رفض السامري وعجله والالتزام بركن الله الحصين.

(آية ٩١) ﴿ **قَالُوا** ﴾ لهارون لاجّين معه في القول ﴿ **لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ** ﴾ أي على هذا العجل وعبادته ﴿ **عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ** ﴾ لنرى رأيه فيما ارتكبناه فإن نهانا عنه انتهينا وان أقرنا عليه مضينا فلما رجع موسى من ميقات ربه واستقبله هارون وجه موسى خطابه إلى أخيه هارون في حال انّ عاطفته مملوءة بالتأثيرات العميقة من هذه الحادثة المؤلمة.

(آية ٩٢) ﴿ **قَالَ يَاهَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا** ﴾ عن الطريقة الصائبة واتبعوا السامري...

(آية ٩٣) ﴿ **أَلَّا تَتَّبِعَنِ** ﴾ معجلاً في قصدك اياي لأتلافى هذا الحادث الجلل قبل أن يستفحل بهذه الصورة ﴿ **أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي** ﴾ الذي أديته اليك عند مصيري إلى ميقات ربي بالمواظبة التامة على وضع هؤلاء القوم والمراعاة لدقائق حركاتهم فإنّهم أُناس لا يزالون في جهل وتوحش وانتباذ عن شوارع المعرفة وكأنّ موسى عليه السلام من شديد ما أحرقه التغيظ والتأثر أخذ بلحية أخيه ورأسه كالمعنف له...

(آية ٩٤) فـ﴿ **قَالَ** ﴾ له هارون عليه السلام ﴿ **يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي** ﴾

فانني لست بمقصر ولا مستنكف عن اجراء أمرك ولكن الظروف أبت عليّ إلّا أن أكون راصداً لموقف الجميع محذراً ومبشراً ولم يكن باستطاعتي مفارقتهم والتوجه اليك لأنني كنت أخاف أن ينقلب الناس عن دينهم أشد مما طرء عليهم وان يفلت من يدي هؤلاء الباقون معي كما كنت أحذر أن ابارز الضالين بهاته البقية المؤمنة فلا أوثر بمبارزتي شيئاً ومع ذلك قد أكون موضع ملامة لك ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ ﴾ يا هارون ﴿ قَوْلِي ﴾ في صونهم وحفظهم ومعاملتهم معاملة ائتلاف والتئام وبعد أن أنهى موسى عليه السلام كلامه مع أخيه توجه إلى السامري الذي أثار فتنة العجل بين بني اسرائيل...

(آية ٩٥) فـ﴿ قَالَ ﴾ له ﴿ فَمَا خَطْبُكَ يَا سامِرِيُّ ﴾ وما الذي دعاك إلى ما فعلت.

(آية ٩٦) ﴿ قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ ﴾ أي بنو اسرائيل ﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ ﴾ جبرئيل ﴿ فَنَبَذْتُهَا ﴾ في جوف هذا المصاغ على صورة العجل فتجسد وصوت كما يكون عجل البقر بلا أدنى ميز ﴿ وَكَذٰلِكَ ﴾ أي وبهذه الصورة التي ارتكبتها ﴿ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي ﴾...

(آية ٩٧) ﴿ قَالَ ﴾ موسى له ﴿ فَاذْهَبْ ﴾ يا سامري مشرداً مبعداً عن جوامع الناس ﴿ فَإِنَّ لَكَ ﴾ أي حكم عليك ﴿ فِي ٱلْحَيَاةِ أَن تَقُولَ ﴾ لكل من يلاقيك وتلاقيه ﴿ لاَ مِسَاسَ ﴾ أي لا تمسني ولا أمسك بمعنى لا تقربني ولا أقربك حتى لا تبتلي بما ابتليت به أنا من هذا الهيام الذي ألزمني به الله تعالى عقوبة لي ونكالاً على ما فرط مني في جنبه من الشرك به واغواء خلقه ﴿ وَإِنَّ لَكَ ﴾ يا سامري ﴿ مَوْعِداً ﴾ وهو يوم حشرك إلى ربك ﴿ لَّن تُخْلَفَهُ ﴾ فتلاقي جزاء مثلك ﴿ وَٱنظُرْ إِلَىٰ إِلٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً ﴾ وأضللت به أقواماً كثيرين ﴿ لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي ٱلْيَمِّ نَسْفاً ﴾ وكذلك فعل فإنّه أحرق عجل السامري وأذراه في الماء والهواء

حتى تبطل الفتنة به .

(آية ٩٨) ﴿ إِنَّمَا إِلٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي ﴾ من وصفه الممتاز به عن كل من سواه وما عداه أنّه ﴿ لاَ إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْماً ﴾ أي أحاط علمه بكل شيء على سبيل الحقيقة لا المبالغة وهذا الوصف لا يكون للممكنات قطعاً .

❊ ❊ ❊

وقال سبحانه في شأن عيسى عليه السلام من سورة آل عمران (آية ٤٢) وما بعدها : ﴿ وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ ﴾ بايعاز من الله لهم أن يأتوا مريم ويبينون لها رضا المولى عنها وتقبله لها ففعلوا فقالوا ﴿ يَـا مَـرْيَمُ إِنَّ ٱللّـهَ ٱصْـطَفَاكِ ﴾ أي بـعد أ، وجـدك مخلصة النفس صادقة العبودية له انتجبك وعدك في حزبه الأخيار ﴿ وَطَهَّرَكِ ﴾ أي حكم لك بالطهر من الأدناس والعيوب ﴿ وَٱصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ ٱلْعَالَمِينَ ﴾ أي قدمك عليهن لفضلك على سائرهن وهذا لا ينافي أن تكون فاطمة سيدة نسـاء العالمين بنحو مطلق فإنّ مريم حكم لها بسيادة نساء عصرها وان ترقينا فما قبل عصرها أيضاً وفاطمة حكم لها عـلى العـموم وان صـحّ ورود افـعلي التـفضيل تتزاحم ظواهرهما إذا روعيا بنحو الإطلاق جاز للانسان أن يوقع التفاوت بـين مراتبهما في الفضيلة فيكون أحدهما أقل والآخر أكمل وأكثر طبقاً لمـقتضيات المقام الذي دعى إلى ذلك . . .

(آية ٤٣) و ﴿ يَا مَرْيَمُ ٱقْنُتِي لِـرَبِّكِ ﴾ أي اظهري له مزيد الخضوع والعبودية ﴿ وَٱسْجُدِي وَٱرْكَعِي مَعَ ٱلرَّاكِعِينَ ﴾ أي في جملة من يسجد لله ويـركع عـبودية ورقاً ولا يستلزم هذا المعنى أن تكون عبادتها في جماعة فإنّ المنظور عدها في زمرة عباد الله الأخيار ولو كانوا متشتتين في المنازل والأجيال .

(آية ٤٤) ﴿ ذَٰلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ ٱلْغَيْبِ ﴾ يا محمّد ﴿ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ﴾ لتقف على علم سلفك الماضين من عباد الله الصلحاء ولتوقف عليه أهل ملتك ليعتبروا بأخلاق أسلافهم الماضين وما كانوا عليه من روحيات راجحة في قبال عظمة الرب سبحانه ﴿ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ ﴾ يا محمّد أي حاضر محفل الصلحاء من بني اسرائيل وهم يتراجعون في أمر كفالة مريم عندما قدمتها أُمّها لدير الراهبات ﴿ إِذْ يُلْقُونَ أَقلاَمَهُمْ ﴾ للاقتراع بها بعلامات وسموها بها فكل من طلعت القرعة باسمه كان كفيل مريم من غير نزاع ﴿ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ ﴾ ويقوم بحضانتها وتأديبها وتدريبها على السنن اللاهوتية ﴿ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ ﴾ يا محمّد ﴿ إِذْ يَخْتَصِمُونَ ﴾ ويتشاحون في كفالتها وهذه الآية تنص على انهم كانوا متشاحين في القيام على حفظها لما وجدوا في أنفسهم من عظيم قدرها وتفرسوا في عميم بركاتها .

(آية ٤٥) ﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلاَئِكَةُ ﴾ بعد أن نضجت مريم عقلاً وجسداً وأراد الله بها تمام الخير وأن تكون مصدر البركات فأوعز الله سبحانه إلى ملائكته أن يشعروها بأنّ الباري جلّ وعلا يريد أن يبدع منها نشؤ آدمي يكون آخر رسل بني اسرائيل ومن أعظمهم درجة وأوسعهم دعوة فامتثل الملائكة أمر ربهم فجاؤوها فقالوا ﴿ يَا مَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ ﴾ أي بنتيجة عظيمة تتضمنها كلمة منه وهي التعبير عن ارادته لابداع عيسى بقول ـ كن ـ ﴿ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ ﴾ أي من سماته انّه مسح عنه كل رجس وقذر وتلبس بكل خير وبركة ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ إنّما أضافه إلى مريم مع انها هي المخاطبة تنبيهاً ورداً على النصارى انّه ابنها لا ابن الله كما يدعون ﴿ وَجِيهاً ﴾ عند الله ﴿ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلآخِرَةِ ﴾ أي يقبل رجائه وشفاعته فيما يرجو ربه به ومن يشفع به عنده ﴿ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴾ عند الله سبحانه .

(آية ٤٦) ﴿ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلاً ﴾ أي ومن سماته أيضاً انّه يكلم الناس في تنزيه أُمّه من كل عاب ترمى به كما ينزه نفسه بتنزيه الله له ويعلم العباد

معالم دينهم ودنياهم ويشعرهم بعظمة الخالق وآياته العظام ومن جملتها ابداعه وتكلمه رضيعاً في المهد وفي جميع فواصل عمره إلى سن كهولته التي اختار فيها أن يرفعه ربه إليه ﴿ وَمِنَ ﴾ سماته أيضاً انّه معدود في زمرة ﴿ ٱلصَّالِحِينَ ﴾ من عباده وهي سمة عظيمة وان لاكتها الأشداق بسهولة .

(آية ٤٧) ﴿ قَالَتْ ﴾ مريم في جواب الملائكة متعجبة من مضمون ما قالوه لها لأنّ الوضع الذي حدثوها عنه وضع يثير استغراب كل بشر لخرقه العادات والمجاري العامة وإن كان هذا الاستغراب مقروناً بايمان فإنّ الإنسان ينظر الغرائب بحدقة بصره ومع ذلك يطيل التعجب منها وهي واقعة في قبضة الوجود ﴿ رَبِّ ﴾ إنّما صرفت بخطابها إلى الله مع انّ المتكلم معها رسوله لأنّه هو سبحانه هدف الحديث كله سؤاله وجوابه ﴿ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ ﴾ أي كيف يكون هذا الأمر في مجرى العادة ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ ﴾ المتكلم معها باحداث الله فيه كلامه ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي بمثل هذه الصورة الابداعية ﴿ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْراً ﴾ وقدره فلا مؤونة عليه في ايجاده وابداعه ﴿ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن ﴾ وهذه اللفظة أقصى ما يمكن التعبير به عن انبعاث ارادته نحو المراد ﴿ فَيَكُونُ ﴾ بلا تأمل لاتساع نطاق قدرته على كل مقدور .

(آية ٤٨) ﴿ وَيُعَلِّمُهُ ﴾ أي يعلم الله سبحانه ذلك الولد الذي يكون من مريم بصورة بديعة عجيبة ﴿ ٱلْكِتَابَ ﴾ يحتمل أن يراد به جنس الكتاب السماوي ويكون ذكر التوراة والانجيل بعده من باب التنصيص بعد الارسال كما يحتمل أن يراد به بعض الكتب المنزلة من لدنه سوى ما نص عليه بالتعيين ﴿ وَٱلْحِكْمَةَ ﴾ وهي التي تقف بمعتنقها على حقائق الأشياء وهوياتها الواقعية وهي أشرف الوسائل العلمية طريقاً إلى الواقع ﴿ وَٱلتَّوْرَاةَ ﴾ كتاب موسى ﴿ وَٱلْإِنْجِيلَ ﴾ وهو الكتاب الذي تفضل به سبحانه على هذا الولد الذي أبدعه من مريم ابنة عمران

على خلاف المجاري العامة في التناسل.

(آية ٤٩) ﴿ وَ ﴾ يجعله ﴿ رَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾ وبعد أن طوى المراحل واندفعت به القابليات الجامعة لخلاصة الفضائل والفواضل صدع بالرسالة التبليغية وقال لقومه ﴿ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ ﴾ تدل على صدق دعواي وهي ﴿ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْئَةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً ﴾ كهذه الطيور وإنّما يكون طيراً ذا روح وحياة يحس ويتحرك بارادته ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ الذي أبدع قبل هذه القضية الجزئية كليات العالم وجزئياته الغير القابلة للاحصاء نبههم بقوله باذن الله ان تخطيطه للطين على أي صورة أرادوا النفخ فيه من دون وجود الروح والحياة والتجسد اللحمي والعظمي والعصبي على أثر النفخ المذكور لا قيمة له فإنّ الحجارين الممتازين يقدرون على نحت الصور العجيبة ومع ذلك لا يملكون الأنظار بصنائعهم هذه إذن فالقيمة كل القيمة في التنقل بهذا الوجود الهامد الفاقد لكل خواص الحياة وآثارها إلى لون جديد في جوهره وعرضه وخاصياته وآثاره وهو أن يعود بأقصر من اللحظة مصطفاً في صفوف الحيوانات أي الوجودات الحية الحساسة فنقطة الاعجاز والابداع هنا هذه النقطة ملك طلق لله لا يشركه فيها أعظم الذوات وأشدها خطراً ﴿ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ ﴾ أي الأعمى خلقة أو مطلق العميان ﴿ وَٱلْأَبْرَصَ ﴾ وهو ذو الوضح المعروف ﴿ وَأُحْيِي ٱلْمَوْتَىٰ ﴾ أي أعطيهم لون الحياة بعد أن يفقدوها كل ذلك ﴿ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ﴾ وقدرته بل ومباشرته التامة في التأثير وان عيسى وأمثاله آلات صرفة تستخدم في اعطاء النتائج من ذات المنتج نفسه ﴿ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ ﴾ بما يدل على علمي بغيبكم كذلك هذا باذن الله ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ ﴾ الذي عددته عليكم من اني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير وأُبريء الأكمه والأبرص وأُحيي الموتى وأُنبأكم بما تأكلون وما تدخرون في بيوتكم ﴿ لَآيَةً لَكُمْ ﴾ عظيمة بل آيات تودع الرهبة،

وتنص على اعجازها القاطع ﴿ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ أي تطلبون الايمان من طريق البرهان وامّا إذا كنتم مصرين على الاعتقاد بما تدينون به فعلاً واياما كان دينكم فلا تؤثر في قلب عقائدكم هذه الآيات التي ما ورائها مظنة للتعجيز فانكم لا ترون ما سوى عقيدتكم وان كانت من أسخف العقائد وأسفهها عقيدة يليق بها الاعتناق وهذا التصوير من ضروريات المطالب العلمية.

(آية ٥٠) ﴿ وَمُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ ﴾ كل من يستعرض الأجيال الغابرة والأزمان المتصرمة يكون مستقبلاً لها بوجهه حتماً لهذا كانت التوراة والصحف السماوية الأُخرى السابقة على عيسى وزمانه بين يديه لأنّه مكلف باستعراضها لاشتراك الجميع في التبليغ إلى الله وتثبيت كلمته بين عباده ﴿ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ ﴾ فيما سبق لكم ولأسلافكم لا شبهة ان من ينظر الدين من وجهته الجوهرية يعود قاطعاً بأنّ الأديان لا تتناسخ فإنّ هدفها من ناحية المعبود تعريفه لخلقه بما يسعه كل زمان ومكان من حيث روحيات أهلها وعقولهم وظرفية أذهانهم وافهامهم ومن ناحية النظام الاجتماعي حفظ الاجتماع من التلويثات وتأمين المعاش وحياة الأفراد كذلك حسب الظروف الملائمة وهذه الأهداف واحدة المنزع لا يتصور فيها اثنان، نعم لا شبهة انّ ذات الواجب الذي هو على طول سلسلة دوامه وبقائه اللانهائي جامع لكل كمال وجمال بما تحتهما من انشعابات عظيمة كمالية وجمالية بحيث لا تفاوت في كماله وجماله على تفاوت الأزمان والأجيال والظروف لا يصح منه أن يزن مواليد الكون بما يزن به كماله وجماله وسائر صفاته المنطوية تحت هذين الجامعين فتكون أحكامه الملقاة على عواتق البشر وسننه المترتبة عليهم في آدابهم ونظمهم واحدة بالنسبة إلى كل الأفراد في كل الأزمان في عامة الظروف والمناسبات والاحتفافات الخارجة عن حدود الاحصاء اللازمة للفرد دون

الآخر وللزمان سوى الزمان وللمكان خلا المكان فإنّ ذلك مما يشعر بقبحه سائر الناس لاعترافهم بتفاوت القابليات تفاوتاً لا يضبط ولا يسوغ لنا أن نتكلم في الأسباب المؤدية لهذا التفاوت لأنّ ذلك مما يخرج بنا عن اصل خطة الكتاب، إذاً فكيف بالله المحيط علمه بالدقائق والنقاط التي يضعف عن دركها أقوياء البشر لهذا وجب على الله سبحانه أن تكون أحكامه غير مطبوعة بطابع واحد ما دامت القابليات غير ناضجة تمام النضج كما ان العيان أوقفنا على نتيجة هذا الوجوب في الخارج عملاً فنجد في بعض الشرائع تحليلاً لما هو حرام في الشريعة الآنفة وهكذا وهذا هو الذي يقال له النسخ أو البداء الصحيح وسيأتي البحث عن دقائقه في محله من هذا الكتاب، ومن هنا قال عيسى لبني اسرائيل المعاصرين له ولأُحلّ لكم بعض الذي حرم عليكم لمصلحة اقتضت التحريم آنفاً واقتضت التحليل لاحقاً ﴿ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِن رَبِّكُمْ ﴾ وهي التي أشار إلى بعض مصاديقها فيما سلف من الآيات ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ ﴾ أي خافوا من صاحب هذه الآيات التي تدل على عظيم قدرته وبطشه ﴿ وَأَطِيعُونِ ﴾ فيما آمركم به وأنهاكم عنه.

(آية ٥١) ﴿ إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ ﴾ أي أنا مربوب مثلكم لا مزية لي عليكم من هذه الجهة وفي هذا تعريض بالنصارى الذين ينسبون عيسى إلى غير نسبته فيقولون انّه ابن الله أو اتحد بالله أو حلّ فيه الله ﴿ فَاعْبُدُوهُ ﴾ أي أظهروا له العبودية ﴿ هَٰذَا ﴾ الذي ذكرته لكم من وجوب خوفكم من الله واطاعتي فيما أدعوكم به إلى الله وان الله ربكم وانني مثلكم مربوب له ﴿ صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴾ لا عوج فيه فاستقيموا عليه.

(آية ٥٢) ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ ﴾ أي استشعر ﴿ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ﴾ أي من أغلب مواطنيه ومعاصريه ﴿ الْكُفْرَ ﴾ بالله والبغض لأوليائه والمناواة الشديدة لأنبيائه ﴿ قَالَ ﴾ متعرفاً حال المتظاهرين بالايمان به والتصديق لدعوته ﴿ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ ﴾

منكم ايتها الجماعة ومن يساعدني على تبليغ دين الله بشتى ألوان المساعدة ﴿ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾ وهم خاصته الذين يلتزمونه أكثر من غيرهم لمزيد اعتقادهم به ونصحهم له وطهارة ضمائرهم معه وخلوص نيتهم فيه ﴿ نَحْنُ أَنْصَارُ ٱللّهِ ﴾ أي الذين ينتصرون لله بالثبات معك والمحاماة عنك ونجد في تبليغ ما تريد تبليغه إلى العباد ﴿ آمَنَّا بِاللّهِ ﴾ هذه جملة تعليلية معناها إنّما نفعل ذلك لأننا معتقدون عقيدة ثابتة بالله وهكذا قولهم ﴿ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ لله ولك في دعوتك إليه ثمّ انهم توجهوا بعد أن أتموا خطابهم مع عيسى إلى ربهم وصارحوه بما يعتقدون مباشرة.

(آية ٥٣) ﴿ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ ﴾ إلى أنبيائك ومن جملتهم نبينا الحاضر عيسى ﴿ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ ﴾ وهو عيسى بن مريم ﴿ فَاكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ ﴾ بالايمان بك والتصديق بآياتك والمتبعين لرسلك.

(آية ٥٤) ﴿ وَمَكَرُوا ﴾ أي أعداء عيسى بأن دبروا له وسائل الاتلاف والهلكة ﴿ وَمَكَرَ ٱللّهُ ﴾ في دفع مكرهم فإنّ الله سبحانه غيّب عيسى عن أنظارهم وألقى شبهه على واحد من أعدائه المؤتمرين به فصلب القوم صاحبهم ظناً منهم انّه عيسى وسلم عليس ولم يخدش بشيء ﴿ وَٱللّهُ خَيْرُ ٱلْـمَاكِرِينَ ﴾ أي الدافعين لمكر من يريد دعاته وأوليائه بسوء.

(آية ٥٥) ﴿ إِذْ قَالَ ٱللّهُ يَا عِيسَىٰ ﴾ انني لا أدع القوم يصلون اليك بأقل سوء فـ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ ﴾ أي مغيبك عنهم ﴿ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ أي إلى جهة السماء التي هي أشرف من الأرض لبعدها عن الخبائث والأرجاس ولذلك جعل النسبة اليها نسبة إليه تشريفاً لها بمزيد الاختصاص الروحاني والقرب المعنوي ﴿ وَمُطَهِّرُكَ ﴾ أي منزهك عن الانحشار مع هاته النفوس اللاجة في عتو والحاد ﴿ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ بي وبك ﴿ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ ﴾ تشريفاً لايمانهم وتعظيماً لمقامهم

﴿ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ فوقية محسوسة المـادة والمعنى ﴿ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَامَةِ ﴾ وشرفهم بعد القيامة باختيار أحسن منازل الجنة لهم لا يقاس به شيء ﴿ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ ﴾ جميعاً الموحد والملحد والامام والمأموم ﴿ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾ فأحكم بالتعذيب للعاتي اللجوج والتنعيم للمؤمن المخلص الذي لا ينفك عن الدعوة إلى الحق والمصارحة بالحقائق.

❊ ❊ ❊

بحث جامع عن النبوات الخاصة والعامة

إلى هنا نكتفي بما لخصناه عن حياة الرسل العظام من ناحية التشريع والتبليغ تيمناً بذكرهم واعظاماً لشأنهم وبياناً لما كانوا عليه من لون الدعوة وجميل النزعة ومقدمة لما نريد الافاضة فيه من حقيقة الشريعة الاسلامية وما كان عليه زعماؤها فلنبدأ الآن بمقدمات ذلك ونتائجه:

ليعلم كل باحث يريد الافاضة في أي موضوع يختاره لنفسه انّ أهم الوسائل الفنية التي يستخدمها في تحرير موضوعه هو أخذه الحذر التام من كل متصل بهذا الموضوع وكاتب فيه وانحيازه بعقله جانباً عن كل العقول والأفكار واختياره الحرية التامة لنفسه بحيث يرد في البحث غير خاضع قبل وروده وبعده لنزعة يحملها على عاطفته تحميلاً ولو خضع لها ملايين الناس وعشرات الأجيال ولا يفترق عند هذا الحكم الصارم موضوع تمحض للبحث عنه العقل وحده وموضوع لا يجري فيه غير التوقيف والنقل فإنّ المنقول مرجعه إلى المعقول وبالعقل واعتباراته الصادقة يعرف الموهون فيه من الموزون وأغلب الباحثين الجدد يعترفون بهذه القضية ويعتبرونها من القضايا التي يلزم أن تكون بديهية ولكن الكثير منهم لا يلتزمون بشرطها وان اشترطوها في مقدمات كتبهم تهاوناً منهم بالحق وتساهلاً في حفظ أمانات العلم.

وامّا الباحثون الأقدمون فمكاييلهم مترعة بالتعصب الفارغ والتدليس الكثير وما برحوا مرتهنين لسياسات الوقت الجاهلة من ناحية والمستبدة من ناحية ثانية وسنقف بك على توضيح هذه النقطة والاصحار بها وان تأثر لمكاشفتنا أقوام كثيرون.

ونرى كثيراً من كتاب هذه العصور على اختلاف نزعاتهم الاعتقادية يوالون

بصرخاتهم على رجال الملل والأديان والمذاهب ان قربوا الخطى في كتاباتكم بعضاً من بعض ليكون الناس امة واحدة والنزعات عقيدة واحدة أيضاً ولكننا نحسب هؤلاء لم يدققوا النظر فيما دعوا إليه فإنّ العيان المحسوس لا يزال يرينا في قديمه وفي حديثه التشتت في كل شيء حتى في الحواس الظاهرية التي هي أقرب الوسائل للادراك وأكثرها دركاً ومدركاتها ضرورية بديهية لا تحتاج إلى درس وتدقيق واراني عاجزاً عن سرد النقاط الاختلافية في درك الحواس الظاهرية لها لطول صفوفها وانتشار جزئياتها فكم رأينا متخاصمين في جمال موجود يثبت جماله أحدهما وينكره الآخر ومدرك كل منهما على ما يدعيه حدقة بصره واحداق البشر كلها من ناحية جوهر الحس البصري واحدة بلا ريب ويستحسن احدهما لوناً من الألوان ويعده الآخر لوناً تافهاً وكلاهما وسيلتهما في هذه المغايرة الأحداق.

وهكذا يتخاصم الاثنان في رائحة مشموم فيدعي أحدهما انّه ذو رائحة طيبة والآخر ينكرها وطريقهما جميعاً حاسة الشم المتحدة الجوهر فيهما معاً وهلم التحديث في المسموع والمذوق والملموس بعين ما تحدثنا عنه في المرئي والمشموم وهذا الاختلاف سيبقى ما دام لهذه الحواس بهذا الجوهر الذي نلمسه بشهودنا وجود وليس في طاقة أي نابغة من نوابغ الدنيا رفع هذا الاختلاف بأي وسيلة يفرضها المفترض فإذا تمركز البحث الدقيق على هذه النقطة في الحواس الظاهرة التي هي المأوى الأخير لنوع بني الإنسان فاجدر بالادراكات الباطنية أن تكون محطاً للاختلاف وطبع هذه الغرائز والخواص في خلقة البشر على هذه الكيفية لا يستطيع كشف سره أعظم العقول والحواس لابتلائه بعين هذا الداء الذي نتحدث عنه وهو برمزه القهار يعطي ان موجد هذه التكوينات مطلق الاختيار في قهره وتصريفه وتصرفه وليس بمقدور العلم أن يربطه إلى مسير

مخصوص وينفي أن تكون الطبيعة والأصل الاولي عند الطبيعيين هو المؤثر لهذه الآثار لأنّ الأصل الأولي عندهم فضلاً عن كونه معمى اللفظ والمفهوم بحيث لم يستطع اتباعه التعبير عنه والتوصيف له حتى يفهمه قراء بحوثهم فتارة يعبرون عنه بالأثير وأُخرى بالحلقات الزوبعية وثالثة بالجواهر الفردة ورابعة بالطبيعة وخامسة بالمادة والقوة المطلقتين محدود الفعالية لمحدودية جوهره فلا يستطاع ان تعلل به هذه الكثرات الفائتة حد الاحصاء المنفرز بعضها عن بعض في ذات الجوهر فضلاً عن الاعراض والمزايا الطارئة أو الخفيفة الوزن في النظر.

لهذا لا نرى طالب اتحاد الأصوات وجمع النزعات والتوارد في التفكير والتطابق في الأفكار إلّا كمن يطلب المحال، نعم لا شبهة ان الدقة في التفكير والانتباذ عن المؤثرات الخارجية لهما الأثر التام في تقليل شقق الاختلاف فإنّ كثيراً من هذا الاختلاف وليد جهل في كثير من الملل التي كانت آنفاً وتكون الآن ونتيجة مؤثرات خارجية في كثيرين آخرين ربما أدركوا الشيء وأعرضوا عنه كشحاً للمؤثر الخارجي الذي زواهم في زاويته على انا نحمد الله سبحانه إذ قدر وجودنا في هذه الظروف التي اطلق عنها كثير من القيود التي كانت توثق الأقلام والألسنة كتافاً ولا تدعها تنبعث إلّا بما يوافق طور الوقت الغاشم بجهله ووحشيته واستبداده فإنّ من ينظر السجون مملوءة بأفاضل الوقت لأنّهم لا يقولون ان القرآن مخلوق والسيوف تنطف دماً عبيطاً لأنّ المهدور الدم لا يرى عائشة في خروجها إلى علي وشق عصا جماعته إلّا مخطأة مذنبة وهلم دواليك لا يعود يعترف بأنّ أهل تلك العصور الذين كانوا يديرون شؤون اهلها في العلم والعمل إلّا وحوشاً كاسرة فضلاً عن كونهم لا يملكون من مواهب العقول والأفكار شيئاً وان سودوا وجه الورق بمرويات أبي هريرة وسمرة بن جندب والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص وكعب الأحبار والوف من نظرائهم من كل

أعرابي لم يتذوق وجدانه طعم الرحمة والرأفة والحنان العاطفي ولذة المصارحة بالحق ان كانت فيه قابلية ادراك ذلك لاغراقه في التوحش وظلمة الجـهل ـ ولا يعدهم البشر ـ في سلسلتهم الواقعية التي تزن الرحـمة فـي كـثير مـن أوقـاتها بميزانها الراجح ـ فيا بقيا ـ على أهل العقول الذين كانوا يـتضورون تـحت ذلك الرهج السائد ويتوقعون البوائق ـ على تخفيهم ـ من يحيى بن أكثم وأحمد بن أبي داود ومئات من أمثالهم وان كانوا بغير سماتهم صباح مساء على طول سـلاسل أيّامهم والحمد لله على ما نحن فيه من حرية كلما اهابت بنا الذكريات إلى تـلك العصور الغاشمة الجانية البعيدة إلّا عن القسوة والتحميل وقد تصرمت على ذلك قرون وتهافت أجيال وتمزقت أعمار وخنقت أفكـار وعـطلت مـعالم للـعقول والآراء الحرة ولم نر غيوراً وحتى من هؤلاء الباحثين الجدد من نعى على تـلك العهود فظاظتها وصارح بعيوبها وانتقد رجالها ولعن الظالم فـيها ـ وهـم كـثير ـ وتأسى بلعن الله لهم حيث يقول: ﴿ألا لعنة الله على الظالمين﴾ الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا وهل يكون صد وابتغاء عوج كصد العقول عن تحررها والأفكار عن تفكرها، وبالعقل الحر عبد الله وبنتائج الأفكار السليمة عـرف لا باسرائيليات التوراة والأناجيل وروايات أبي هريرة وسمرة وعمرو بـن العـاص ومعاوية بن أبي سفيان والمغيرة بن شعبة وآلاف من أمثالهم، فإنّ هـذه الكـتل اللفظية هي التي أبعدت كثيراً من عقلاء الجامعة عن التدين بأي دين يفرض بعد أن وجدتها تقل في ألفاظها وسبك تراكيبها وجوهر معانيها واسترذال مضامينها عن أسخف كتب الخيال والترهات ولهم الحق من ناحية وعـليهم المـلامة مـن ناحية ثانية إذ لم يتريثوا في التجسس والتفتيش فإنّ الجوهر الثـمين لا يـوجد بكثرة في المتاع الكثير فكان من واجبهم التمهل حتى يكسـبوا شـرف البـحث والتنقيب والفوز بوجدان الحقائق الضائعة وسط تل من القـمامات وقـد يـرانـا

الباحث فيما نسوق له من بحوث عامرة ان شاء الله جد مواظبين على تحري مظان الحرية معرضين عن كل عصبية لا نهاب ملكاً ولا سوقة ولا موحداً ولا ملحداً فيما نصحر به من رأي وهذه موهبة نعدها خالصة لأنفسنا من دون كثير من الناس فلنحمد الله شاكرين على ما آتانا.

أقل نظرة يشع بها الباحث على محيط الجزيرة العربية عند مبعث النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقبله يلقف منها صوراً للتوحش والاغراق في الحيونة بما لا تحديد له فلا يرى لسكان الجزيرة يومئذ ـ إلّا ما شذّ ـ مطعوماً ولا مشروباً ولا ملبوساً ولا مكناً ولا مكاناً ولا حرمة ولا احتراماً ولا سنة حق مأخوذة ولا نظاماً ولا غيره ولا ناموساً ولا وفاءً ولا ذماماً ولا علماً ولا معرفة ولا رياسة ولا سياسة ولا أي خلق فاضل وسنة حميدة على الإطلاق ـ إلّا ما قل كما أسلفنا ـ وتعزيز هذه المدعيات بالشواهد المبسوطة مما يوجب تحرير سلسلة تاريخ لا تأتي عليها إلّا مجلدات عديدة ونقل بعض الشوارد شاهداً لكرم شخص بخصوصه وغيرة الآخر بخاصته ووفاء الثالث بنفسه وتنعم الرابع بمأكله ومشربه وما إلى ذلك لا يصلح تاريخ امة عريضة المنازل وفيرة الأفراد مديدة الأيّام في التاريخ.

قال ابن خلدون في مقدمة تاريخه ونحن نستعرض أقواله بما انها صورة مأخوذة عن واقع لا غبار عليه ـ انّ العرب لا يتغلبون إلّا على البسائط وذلك انهم بطبيعة التوحش الذي فيهم أهل انتهاب وعيث ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون إلى منتجعهم بالقفر ولا يذهبون إلى المزاحفة والمحاربة إلّا إذا دفعوا بذلك عن أنفسهم فكل معقل أو مستصعب عليهم فهم تاركوه، وامّا البسائط متى اقتدروا عليها بفقدان الحامية وضعف الدولة فهي نهب لهم وطعمة لأكلهم يرددون عليها الغارة والنهب والزحف لسهولتها عليهم.

وغاية الأحوال العادية كلها عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون

الذي به العمران ومناف له فالحجر مثلاً إنّما حاجتهم إليه لنصبه اثـافي للـقدور فينقلونه من المباني ويخربونها عليه ويعدونه لذلك والخشب أيضاً إنّما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك فصارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران [١].

وفي المعتصر من مختصر مشكل الآثار للطحاوي [٢] روى عـن عـائشة انّ نكاح الجاهلية كان على أربعة أنحاء نكاح كمثل الأنكحة في شرعنا ونكاح كان يقول الزوج لزوجته إذا طهرت من الحيض أرسلي إلى فـلان فـاستبضعي مـنه ويعتزلها زوجها حتى يتبين حملها منه رغبة في نجابة الولد ونكاح يجتمع الرهط دون العشرة على اصابتها فإذا حملت ووضعت أرسلت اليهم فلا يستطيع أحد أن يمتنع فيجتمعون عندها فتقول لهم قد ولدت منك يا فلان فتعين من أحبت منهم فتلحق به ولدها البتة ونكاح يجتمع جماعة فيدخلون على المرأة فلا تمتنع ممن جاءها وهن البغايا فإذا حملت ووضعت دعوا لها القافة فالحقوا ولدهـا بـالذي يرون انّه منه فلا يمتنع من ذلك.

ولا شبهة انّ الأُمّة التي تكون على مثل هذه الحالة لا تفترق عن الحيوانـات الهاملة التي تتسافد في الشوارع فأي ناموس وأي نسب يعرف لها.

ولهذه العصابة الخاطئة يخاطب الله بقوله: ﴿وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ * بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ﴾ [٣] حين سنوا فيما بينهم اهلاك الاناث وابقاء الذكور.

وما أكثر الحروب فيما بينهم والأيّام تنسب اليهم والغارات تكون منهم ولكن لا عن محصل ولا عن داع يتعقل سوى التوحش والضراوة الحيوانية ولا أرانـي

---

(١) ملخصاً، ص ١٢٥.

(٢) جلد ٢، باب الحكم بالقافة.

(٣) سورة التكوير، آية ٨ و ٩.

بحاجة إلى الاكثار من سرد الشواهد ففيما نقلناه نموذج يعرب عن كثير مما ورائه ونظير ما حكيناه كثير لا تلمه الموسوعات الضخمة على انّه حديث مسترذل من ناحية مادته فالاكثار منه هذر.

ولا ريب انّ هذه الجامعة الشتات من ناحية آدابها وسننها وبرامج نظامها على ما تعد من كثرة في العدد وتستولي استيلاء تجول وتردد وسكنى على مسافات بعيدة ما بين الطول والعرض لا يجوز في شرعة اللطف الرباني اهمالها على ما هي عليه من خسة التوحش وتنزل الوضع كما لم تهمل أقل من هؤلاء الأقوام عدداً وأشد حيونة في سالف الأجيال وغابر الأزمنة فانك قد قرأت عن قوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ما يزيدك انساً ببحثنا الحالي لهذا نرى الله سبحانه يكلف واحداً من هاته الجامعة بتكليف السفارة والدعاية وقلب روحيات هؤلاء الأقوام رأساً على عقب حتى تجيء الجزيرة بعد فاصلة من الزمان تنكر نفسها وماكانت عليه قبيل أعوام، تنكر الصدق، والوفاء، وحفظ الناموس، وتصر على معاقرة الخمر ومزاولة السرقة كما تنكر العلم والفضل والصلاح والتهجد ومعارف الانسانية واللاهوتية جميعاً.

ولعمر الحق هذا تكليف شاق عظيم المقدمات صعب النتائج في حدود هذا المحيط وأهله. فهل بمقدور واحد من أهل الجزيرة أن يقوم به وينهيه إلى أقصى مراميه وهل فيه قابلية توطد له أساس ما يراد منه؛ وما يقضي له التحكيم الصحيح إذا أدى مهمته هذه في بضع سنين أفلا يعده في أعلا طبقات بني الإنسان في كل شيء يعود للانسانية ويراه من أعظم رجالات اللاهوت على طول سلاسل الأجيال. نعم يعده ويراه كما وصفت، إذاً فلنقرأ عن سير هذا الإنسان روحاً في اطباق تلك الظلمات المتراصة بعد أن نقدم للبحث مقدمات يتوقف عليها الترسل فيه توقفاً لازماً.

ما هي شرائط النبي وهل تتفاوت أفراد الأنبياء في اشتراط الشروط المأخوذة

يشترط كثير من المتكلمين أن لا يكون النبي قبل بعثته من جانب الله كافراً به وأن تكون سلاسل آبائه الذين تنزل منهم بواسطة وبلا واسطة مرتبطة بالايمان بعيدة عن الالحاد وأن يكون نسبه محترماً بين الناس لشرفه وأن يكون كامل الخلقة جميل الطلعة لا مغمز في سماته ولا طعن عليه في جميع خلقته وأن يكون معروفاً بين معاصريه بأحسن الخلال وأزكى الأخلاق منذ كان إلى زمان بعثته فضلاً عن الخصائص التي يخص بها بعد اختياره رسولاً وسفيراً.

وهذه الشروط يبحث فيها تارة من ناحية اعتبار العقل وثانية من جهة التطابق الخارجي بينها وبين من ادعيت له:

أمّا اشتراط كون البعيث مؤمناً بالصانع قبل أن يختاره رسولاً فذاك ما لا محيص عنه من تدبر العقل فإنّ صرف اختيار الله لانسان وطبعه بالقسر على ما يريده له من أمر وشأن وإن كان ممكناً على الله كما يمكن في حقه أن يبدع الرسول ابداعاً من أوّل الأمر واجداً بقهر التكوين لما يراه الخالق لازماً فيه لكن ذلك خارج عن الوضع الاعتيادي الذي الزم الله به كافة مخلوقاته خصوصاً في الأُمور الكسبية التي بكسبها الاختياري يحوز صاحبها الحمد والتمجيد فإنّ الأُمور القسرية ليست موضعاً للتفاضل وكسب المحامد طبعاً فإذا راض الإنسان نفسه من أوّل تميزه رياضة حسنة يمشي بها على برامج العقلاء والمشرعين حتى يصل بها إلى غايتها التي قدر على الاتصال بها كان موضع ثناء الناس ومحل تمجيدهم وهكذا ارانا الخارج هذا المطلب جلياً في عامة أنبياء الله ما سوى الذين أبدعهم من بدئهم على ما يريد كعيسى بن مريم.

وأمّا إذا مشى بقابلياته الخاضعة بالانقياد لتسيير اختياره على ضفة السيئات من شريعة الأخلاق وطبعها بهذا الطابع المرذول فلا يكاد يرجى فيه الخير أو الانقلاب من ضفة المساوي إلى ضفة المحاسن بطور اختياري فإنّ القابليات إذا تلونت بلون اغذ في اعماقها صبغه صعب بل كاد يستحيل كشط هذا اللوان وتبديله بلون آخر والخارج بجميع خصوصياته يؤيد هذا التصوير العقلي وما تراه في شتات الأفراد من سارق تاب وزان عف وملحد بالله وحده وعلى مثل هذا إنّما يكون في الأفراد الغير الغارقين نزعاً في هذه الذمائم التي كانوا يرتكبونها والعيان لا ينحرف عن هذا التأييد.

وأمّا اشتراط كون سلاسل آبائه كذلك أي مرتبطة بالايمان فذاك أمر يصعب على العقل الاعتراف به إذ لا دخل له بالجهة المبحوث عنها إلّا دخالة استحسان محض وان الشيء يزداد حسنه بحسن حواشيه وأطرافه وما يحتف به طبعاً ولكن هذا الاستحسان لا يبلغ به درجة الاشتراط الذي يؤثر انهدامه الانهدام فيما شرط به وعلق عليه.

وأمّا لزوم كون نسبه محترماً بين الناس لشرفه فذلك لا دخل له بتصوير العقول ومرجعه إلى العرفيات ولا شبهة انّ الشرف مؤثر في اقبال النفوس السائرة وعواطف أغلب الناس؛ وأمّا اشتراط كمال الخلقة فذلك ضروري فيما يرتبط منها بمعدات التعقل والادراك فإنّ ذلك شرط أساسي في توطيد القابليات للافاضة وما لا يرتبط بالمعدات فشرط استحساني مرجعه الذوق العرفي. وأمّا اشتراطه بحسن الخلال وكرم الأخلاق فذلك من لوازم ايمانه المشترط فإنّ المؤمن الذي اخذ ايمانه عن العقلاء والمشرعين لا يكون مرذول الأخلاق طبعاً.

وأمّا الخصائص التي يخص بها بعد اختياره رسولاً وسفيراً :

فأوّلها : العصمة ، ونريد بها ان يقهره الله قسراً على كل صفة موجبة أو سالبة لها تمام الربط بصون دعوته وتحقيق ثبوتها في قلوب الناس بحيث لا يعتريهم شك من مطابقتها بكل شراشرها للواقع وإذا تخلفت هذه الشريطة تطرقت اليها الاحتمالات من كل جانب ومكان بالضرورة فلا تثبت معها عقيدة في قلب معتقد وإذا تزلزلت العقائد لدواعي عقلائية واحتمالات معقولة فليس هناك دين ولا شريعة بالضرورة وينكشف وجود العصمة في من تدعى له بأمرين :

١ ـ سيره الظاهري المطابق لكل ما يأمر به وينهى عنه من جانب الله من دون أن يوجد فيه أقل انحراف في سيره العملي من مبتداه إلى ختامه بالمعاشرة والممارسة .

٢ ـ والمعجز الذي يؤيده والذي قد ينص بمادة مخصوصة على عصمته .

ثانيها : المعجزة وهي الظاهرة التي يقرنها الله بالرسول بما تعود العقول والحواس معها خاضعة لكونها من الأُمور الخارجة عن مقدور البشر حتى تدل على كون مدعي الرسالة مبعوثاً من جانب الله بطور قاطع .

ثالثها : أن يكون معلومه متصلاً بالواقع مباشرة وان يكون اتصاله بالواقع سهلاً عليه بتسهيل الله ليجيب كل سائل ومستفهم .

رابعها : أن يساعده الله خارجاً عن أخذ التدبرات الظاهرية المرتبطة بسير الأسباب بمسبباتها من طريق العادة فإنّ الاقتصار به على هذه الوسائل قد لا يصادف نجاحاً كما يتفق في كثير من المحاولات التي يحاولها البشر فيفشلون فيها وذلك خلاف المقصود من الارسال وتطوير الوضع .

هذا جهد ما تعطيه التدبرات العقلية في هذا الموضوع .

وأمّا من ناحية التطابق الخارجي بينها وبين من ادعيت له فانا نرى الكتب

السماوية ونخص من بينها القرآن لتأخره عن الجميع واحتوائه على عدة من الأنبياء تطريهم بجميل الذكر من بدو أمرهم إلى بعثتهم إلى ما بعدها ونرى القرآن من بينها يزكيهم تمام التزكية ويثني عليهم بمجامع الثناء وما نرى فيه من بعض النسب لبعضهم لابد من تأويله إلى ما يجوز عليه الارتباط بهم لأُمور :

١ ـ انّ تزكيتهم كما مرّ عليك في ضمن الآيات السالفة عند ذكر الأنبياء تنافي وصمهم بأقل العيوب تمام المنافاة.

٢ ـ اللسان الذي يطريهم من الآيات صريح في معناه والذي يصمهم مجمل ذو احتمال.

٣ ـ كونهم أنبياء قاض بضرس قاطع من طريق العقول بانهم لابد من عصمتهم كما أسلفنا ووصمهم بالعيوب يهدم عصمتهم فتنهدم نبوتهم وما يلزم من وجوده عدمه مستحيل فكونهم أنبياء ومذنبين مستحيل وما تقرأه في الاسرائيليات وكتب الحديث خصوصاً ما حبرته أقلام كثيرين من أبناء التسنن في نسبتهم إلى كثير من العيوب والذنوب فذاك من التزويرات التي أفرغها الدجالون في مصب الالهيات امّا جهلاً بما تؤثر هذه النسب فيمن تنسب إليه والجهل في المحدثين يزيد في الوزن على محفوظاتهم وتحريراتهم وامّا فتكاً بالتوحيد وقلعاً للدين وما أكثر أعدائهما في كل زمان ومكان ولو انك تقرأ أحاديث تجسيم الله والجائه للعباد على المعاصي ثمّ تعذيبهم عليها وما يتحدثون به عن أصل الخلقة ووصف الأرض وطبقاتها والسموات وأطباقها والجنة والنار وما فيهما في كتب الحديث وبالأخص الحديث السني لوجدت في مضامينها ما يهدم وجود واجب الوجود وما يلزمه به العقل ويحيله عليه وما يكذبه الاعتبار الصادق والنظر الصحيح وقد كتبنا في الحلقة الأُولى من هذه السلسلة في تكلمنا على اثبات الصانع ما يغني عن الاعادة هنا ولو تلويحاً لبسطنا القول هناك بما لا مزيد عليه.

ولابد إذا احتوت كتب الحديث على ذلك ـ فإنّ نصف ما في صحيح البخاري تقريباً بل تحقيقاً مأخوذ عن أبي هريرة ومن أين يعقل أبو هريرة انّ واجب الوجود يستحيل عليه أن يكون مادياً وان الالجاء إلى فعل القبيح في نفسه قبيح فضلاً عن العقاب عليه وهل يزيد هذا ونظراؤه في العقلية على معاصريه ومواطنيه الذين كانوا ينحتون من الحجارة صنماً ثمّ يقعون له ساجدين ويطلبون منه النفع ودفع الضر فإنّ هذه البحوث المنطقية لم تنضج تمام نضجها إلّا بعد الدقة فيها وأنبياء كل وقت مجبورون على مراعات القابليات وتفاوتها في الناس في تبليغهم فإنّ هذه المراعات من اللوازم الضرورية لهم ولكل مبلغ ومدرس ولا يغرك اسم الصحابي من نفسه فإنّه عنوان فارغ في أكثر معنونيه وسيأتيك ان آية: ﴿ **وإذا رأوا تجارة أو لهواً انفضوا اليها وتركوك قائماً** ﴾ نزلت فيهم كما يدل صريحها على ذلك كما انّ الآثار الشاخصة بعد صاحبها من أعظم المدارك على مقدار هويته وهؤلاء بآثارهم هذه التي نلمسها والتي أغلبها جزاف وهراء يعرفون أنفسهم لنا أتم تعريف فلا يجوز لنا أن نتهم عقولنا ونصدق صرف المدعيات اللفظية تقال في حقهم واننا لفي مجال من هذا الميدان وسيع وسوف نشهر به في مناسباته من الحلقات الحاضرة واللاحقة.

وأمّا انّ الأنبياء لسعة دعوة بعضهم واختصار دعوة بعض آخرين يتفاوتون في كمية أو كيفية من تلك الشروط المأخوذة ـ فلا ـ لأنّ الملاك العقلي لا يتخصص فيما قام عليه وكل الأنبياء يجمعهم عنوان واقعي واحد فالملاك يكون فيهم واحداً، نعم لا مانع من تفاوتهم بالفضيلة حسب تفاوتهم في المشاق التي يعانونها والخدمات التي يقومون بها والآثار التي يؤثرونها.

وبعد أن أثبتنا فيما سلف من مبحث اثبات الصانع انّه تعالى مختار في قبضه وبسطه تمام الاختيار ومتصل مباشرة بكل مقدور كونه وان كافة الموجودات

بشراشرها مصنوعة له بالمباشرة ابداعاً في بعضها وتطويراً في البعض الآخر فلا تجدنا في حاجة إلى التكلم في أنّ خرق ناموس الطبيعة كيف يعقل؛ والمعجزة كما اشعرنا سابقاً هو احداث صانع الكون ما هو خارج عن مقدور البشر يعزز به مدعى الرسالة منه ولا يشترط في المعجزة بعد أن عرفت هويتها انّ تكون على لون مخصوص.

وقد تحدث الله سبحانه عن معجزات أنبيائه السابقين عند ما قص علينا طرفاً من حديثهم الشريف في القرآن الكريم كما قص علينا ان معجزاتهم مشت بهم إلى آخر شوط من بقائهم بين ظهراني قومهم؛ والمعجزة شرط لازم الاقتران على طول عمر الرسالة لأنّها هي وحدها ملاك الاقناع وخالقة العقيدة في القلوب ولا تجوز الحوالة عليها وهي مفقودة حال الاحالة لأنّ الدعوة حينئذ تكون دعوى خالية عن المدرك وبما اننا فعلاً موظفون بالبحث عن الدين الحاضر لاقتراننا معه في الزمان وابتلائنا به والشرائع المدعاة الوجود سابقاً منقطعة الحجة حالا لا لأنّ دين الإسلام يدعي انقضاء أمدها بظهوره بل لأنّها لولا القرآن لما عرفناها إلّا بالسماع الفارغ عن الحجة فإن كتب العهد القديم والجديد وهكذا كلما يدعى من كتاب سماوي سوى القرآن لا تعطى أقل حجة قاطعة بأنّها كتب سماوية لأنّها فضلاً عن كونها فاقدة لجنبة الاعجاز منحطة المادة واللفظ جميعاً وأقل كتب التاريخ والأدب أحسن منها تأدية عن المقاصد وتعبيراً عن المراد ولم نشهد عصا موسى ولا يده البيضاء ولا آياته التسع ولا ما يخلقه عيسى من الطين كهيئة الطير ورديف ذلك مما يذكر له حتى نقتنع بها والسماع بها مجرداً دعوى فارغة لا قيمة لها وإن يثبت بالتواتر من ذلك شيء فمجمل مبهم لا يستفاد منه شيء يعتد به ولا يملك أرباب الديانات دليلاً يقنعون به أنفسهم فضلاً عن الزامنا بدياناتهم ـ لهذا نجد أنفسنا ملجأين إلى البحث عن مدرك الدين الاسلامي حتى نجدنا بعد بحثنا

عنه ملزمين بالاعتناق له أو بريئين من عهدته ومن عهدة كل دين يفرض سوى التعبد لله بما تدركه العقول وما استقر في النفوس من مجمل ما ثبت عندها بالتواترات من وجود شرائع هناك نصت على وجود الله ولزوم عبادته وامّا كم ذلك وكيفه فلم يثبت إلّا من مدرك الدين الاسلامي وهو القرآن.

تنقل لنبي الإسلام معجزات سوى القرآن لكن هذه النقول لا تثير في النفس عقيدة جازمة بوقوعها فلا نهتم لها فيبقى القرآن وحده هدفاً للتحدث عنه من بين جميع المعجزات:

❊ ❊ ❊

كيف كانت جزيرة العرب

كل من يقرأ عن عرب الجزيرة أي كتاب أدب أو تاريخ أو سيرة أراد وأيّاً كان باحثه شرقياً أم غربياً مسلماً أو غير مسلم يحصل له علم قاطع لا يتخالجه فيه ريب ولا شك ان العنصر المزبور في جزيرته تلك عار من كل ما وفق الله البشر له من مطعم ومشرب ومسكن ولباس وأثاث وزروع وثمار ومهن لائقة وصناعات شريفة وعلوم نظرية وآداب محمودة وسنن مرضية وكل شيء يتم به النظام ويقوم به الاقتصاد وتبتنى عليه الحضارة وتتقدم به العادات وتنضج به العقول وتعمر به الديار وتفخم به السلطات وترقى به الاجتماعات وقد لا يحتاج إلى كتاب درسي يطالعه للالمام بهذه المنظرة فإنّ الأقطار العربية التي بقيت على عهودها الأُولى ولم تغيرها الحضارات الطارئة قد احتفظت بعد أربعة عشر قرناً تمر عليها من بزوغ الإسلام فيها بأكثر التراث الذي كان عند أجدادها القدماء وها نحن في القرن العشرين الذي ملأ العالم بكمالياته من جميع نواحيه من جميع نواحيه نشاهد من قرب ونلمس مباشرة نسخة مصغرة في العرب المجاورين لنا مما كان عليه اولئك من جشوبة المطعم ورنق المشرب وخشونة الملبس واضطراب المسكن وفقدان لكافة الوسائل ووجدان للعامية الصرفة واعتقاد حتى بالشجر والحجر انّه يضر وينفع وانشعاث في الجماعة وتفكك في الروابط وكثرة في التلصص وشن للغارات حسبما تسنح لها الفرص من ضغط الحكومات الشاملة لها باسم المملكة وإذا تركت على وضعها هذا بقيت آلاف القرون لا تشعر في أنفسها بميل للتقدم والتخطي عما هي عليه ولكن الدنيا التي أصبحت معمورة حتى في صحاريها وقلل جبالها ومتحضرة حتى في سودانها واوحش القبائل فيها لا تدع زاوية من الأرض إلّا وتسلك فيها بالقهر والقسر فلا تكاد تفلت هذه

الفصائل الصغيرة من قبضتها.

هذا وانّ الفرس والرومان المعاصرين المجاورين لذاك العنصر الفاقد لكل كمال واجدون لأهم الكمالات التي يمكن الحصول عليها يومئذ ففيها الوان الطعوم التي يكبرها النظر قبل الذوق والماء الزلال المثلج في فصل الصيف والمساكن العالية المشيدة الضخمة التي تناطح بقاياها اليوم عواصف الحوادث فلا تستطيع لها نسفاً والفرش الراقية في جنسها ونقوشها واحكامها والثمار اليانعة اشكالا اشكالا والمهن الشريفة والصناعات الفخمة في يومها ذاك وتملك كثيراً من العلوم النظرية الموجودة اليوم فعندها فلسفة ومنطق وحساب وهندسة وتنجيم وطب وشعر راقي الخيال وقصص ممتعة وفنون سوى ذلك وتشملها حضارة ذات روعة ونظام جميل وحاكمية يعتد بها التاريخ وقد تكون واجدة لموازين العدل أكثر منها اليوم ويكفي تفاوتاً بين الأُمتين انّ العرب لما تقدم بهم الإسلام إلى ديار الفرس والرومان لم يكونوا يفرقون بين الملح والكافور وفصوص الجواهر اليتيمة وسائر الذخائر وكماليات المنزل لعدم سبقهم بها لا عياناً ولا خبراً.

نعم غاية ما يحتفظ التاريخ لعرب الجزيرة شعر يقل فيه المأنوس الجيد ويكثر فيه الوحشي المرذول ونثر يفقد المعاني الشريفة وان احتوى على الألفاظ المتينة ومن الطبيعي أن يكونوا كذلك فإنّ الشعر والنثر لا يشرفان إلّا بشرف المادة؛ والإنسان البعيد عن الفن الفاقد لملكات الفضل المنتبذ عن الحضارة لا مادة عنده حتى يكبسها في قوالب الألفاظ ولذلك ترى كل أشعارهم لا تعرف غير الدمن والاطلال ووصف الراحلة والسيف والرمح والمفاوز والقفار والذئاب والضباع والأُسود وتحريك الحميات وإثارة الفتن بتعيير بعضهم لبعض ومفاخرة قوم لقوم بالمفاخرات التافهة الباردة بأنا شننا عليكم الغارة فاستقنا ابلكم وسبينا حريمكم

وقتلنا رجالكم ووردنا مياهكم وعلى مثل هذه الماجريات وامّا نثرهم الجيد فهو لا يتجاوز المقطعات والكلمات القصار وان جاء بلون الخطبة لكنه غير متصل السلسلة ولا مربوط الفقر بمادة سائلة على طول سلسلة اللفظ وهذه مأثوراتهم بين يديك كوفادتهم إلى كسرى ونطفهم أمامه وغير ذلك من متشتت ما ينقل عنهم فانك لا تكاد تجد الشوط من خطبهم يتناول موضوعاً واحداً يتكلم عنه وهذا من قلة بضاعتهم وضيق ذات أيديهم من المعاني وحق لهم ذلك بعد أن فقدوا الفن والحضارة وإذا رأيت شاعر الفرس أو الرومان يصيب المعاني الشريفة في نظمه وكاتبهم لا ينقطع نفسه من طول ما أُوتي من سلسلة معاني فذلك لما عندهم من ثروة مادية لا تعجزهم في طول المسير واعتبر ذلك بشاعر عصور الدولة العباسية فنازلا وهكذا بكاتبها ومؤلفها فانك تراه يتناول معاني القرآن والسنة والمنطق والحكمة والفقه والأُصول والطب وقواعد النحو والصرف وهلم جرا على سعة العلوم فلا تمتنع عليه مادة القول إذا أراد أن ينظم القصيدة ذات المأة بيت والكتاب ذا المجلدات العديدة وهذا المعنى من الوضوح بما لا يحتاج معه إلى أكثر من هذا البرهان المحسوس.

وعلى كل فهم إذا كان عندهم متاع قابل لأن يعرض في أسواق الجوامع فهو النطق صرفاً كما رأيت ولذلك كانوا يهابون مادة القول والقائل وتفخر القبيلة على طولها إذا كان فيها شاعر أو ناثر ومن هنا تحداهم الله سبحانه بفن البلاغة فكسر شوكتهم بضخامة تراكيبه واصابته المعاني الشريفة واختياره الألفاظ المتينة المأنوسة الاستعمال البعيدة عن التوحش بمراحل شاسعة.

وأمّا من ناحية مقاصده فتركهم تتقطع أنفساهم ولا يدركونها دركاً سادجاً إلّا بمعلم لاحتوائه على ألوان كثيرة من المعاني الدقيقة بما لا يعرفها دورهم ولا عصرهم وجاءت القرون تتناسل إلى أن تم له لحد هذا العصر أربعة عشر قرناً

وهي لم تستنزف مادته مع انّه كان لكل مفسر مشرب مخصوص فهذا فيلسوف يتكلم فيه بما يرتبط بفنه وذاك متكلم والآخر لغوي أديب والرابع قصصي محدث والخامس فقيه والسادس عارف متصوف وهلم دواليك وقد أخطأ من المؤلفين في عظمة القرآن من استعرض كلمات الجاهليين فعارضه بها ورجحه بعد تفنن في الكلام عليها وأوّل حجر يلقمون به في قبال عظمته بل في قبال سائر الكتب المستحدثة الجامعة لفن اللفظ واستهداف المعنى انهم كما أسلفنا يفقدون المادة التي يكبسونها في ألفاظهم شأن عوام عصورنا هذه بلا اقل ميز بل قد ترجح كفة عوامنا عليهم بأنّ عوامنا قد يحضرون المجالس المعمورة بالأفاضل المزدانة بالخطيب والواعظ والمحدث والشاعر والناثر إلى غير اولاء وعرب الجزيرة لا يشمون في جزيرتهم على عرضها وطولها رائحة من ذلك ، فنجوم القرآن وبروزه من بطنان الجزيرة في عصرها ذاك مع انّ الجائي به انسان منهم في عنصره ومناخه وعاميته وفقره واستأصاله وبعده عن كل حضارة ونشوئه ما بين ظهرانيهم إلى أن مات من أعظم الأدلّة الملزمة لجيله بالخضوع له من دون حاجة إلى بسط في الكلام .



اعجاز القرآن

كما انّ هذه النقطة الاعجازية بوصف زمانها ومكانها لا تعطي عنوانها هذا من يدها بالنسبة إلى القرن العشرين وما قبله وما بعده فإنّ ابن أي قرن يفرض يعترف بهذا الاعجاز وبصدق مدعيه لصدوره في زمان ومكان لا يختصم اثنان في كونه خارقاً للعادة فيهما وإذا ثبت صدق الرسول بشاهد الاعجاز سرى صدقه بالضرورة إلى أن ينسخ بناسخ قاطع وهو مفقود.

هذا مع انّ القرآن لم يتحد بألفاظه ومعانيه وطرز تركيبه وبراعة اسلوبه وايجازه الغير المخل وكشفه عن الحقائق الراهنة بصورة فاتنة وتناوله لأُمهات الفنون عصراً بخصوصه وامة بحيالها ففيه من المنطق والحكمة وطرق الاستدلال الفنية ومن الأدب والقوانين الصائبة والتشريع الراهن الذي لا يحتاج إلى تحوير وتطوير لانطباقه على كل العصور والمقتضيات والاحتفافات التي تقترن بالموضوع حسب المناسبات الطارئة والعناوين السانحة بما قرر لها من أحكام أولية وثانوية ومن الأخلاق والعرفان ورياضة النفوس وسياسة البلاد والعباد والوعد والوعيد شيء كثير واستعراضه ضمان هذه الدعوى على انا سوف نقوم بدرس كلياته في قسم الدروس من سلسلة هذا الكتاب إن شاء الله.

وهذه الجامعية بصورة فاتنة واسلوب قريب التناول واختصار محدود المبدأ والغاية مع محافظة على جمال التراكيب والألفاظ وصدور قبل عشرات القرون وملائمة لظروفها جميعاً وانتباذ عن كل عصبية واغراض خاصة واستهداف لكل خير يرجى لبني الإنسان بلا تفاوت بين عناصرهم ولغاتهم وبيئاتهم فلا يعتز بفريق دون فريق ولا بزمان دون آخر ولا بمكان سوى مكان ـ مما تجعله متشعب النواحي غير محدود بهدف يختص به ـ بل منظوره زرع الانسانية في كل

تربة وفي قلب كل انسان وحث الجوامع على العمل الصادق وترك الغش والتدليس والنميمة والاغتياب والقذف والتزاحم وهذه الأهداف ما لا تكون في نظر أكبر زعماء جوامعنا اليومية في مادتها وفي معناها فإنّ العقول الأمريكية لا تخدم سوى سياستها وتجارتها ومد سلطتها فتكثر فيها لهذه المنظورات المدلسة المداهنة والرضائخ والسياسات المكذوبة وعلى وتيرتها العقول الانجليزية والفرنسوية والروسية.

وأمّا الشعوب الصغار فساقطة عن مداد القلم لسقوطها عن كل سمو وشخوصها الخارجي بما هو محتو عليه من تقهقر واندحار كاف في التكلف عن حالها؛ فالقرآن معجزة في أوّله وفي وسطه وفي منتهاه واللاج فيه معاند صرف والكلام لا يكون معه ما دام مستعصياً بعقيدته معتزاً بنفسه غير حاضر للتفهم الصحيح [١].

---

(١) وعلى هامش ما أسلفناه نقول: لا شبهة انّ قيمة البحث مرتهنة بقيمة موضوعه ولا يكون البحث عالياً في النظر دقيقاً في مجاري الفكر إلّا إذا كان موضوعه الذي يتحدث عنه ضخم المادة يشف عن معنى كبير وحقيقة ذات روعة من ناحية وغموض من ناحية ثانية، ولهذا كانت الأبحاث النظرية لها التفوق المحسوس على الأبحاث السمعية الصرفة فالفيلسوف اعلا كعبا من اللغوي ولو كان يحفظ ملايين الكلمات والشواهد عليها والفقيه الفنان أعظم روعة في القلوب من المحدث العاري عن النظر ولو كان يملي في كل يوم مئات الأحاديث بعشرات من الطرق وما ذاك إلّا لأنّ الفيلسوف والفقيه الفنان يواصلان البحث عن أشعة عقليهما والعقل هو أبعد المدارك من الخطأ وأقواها في دقة الحس ولهذا لا يستطيع أن يقف الناقص في مشاعره في مصاف الفلاسفة والفقهاء في حال انّه يجوز أن يكون من أعظم اللغويين تتبعاً وأحفظ المحدثين للآثار وطرقها بواضح الضرورة والأبحاث النظرية وان كانت ذات عهد في التاريخ قديم وارتهان الوجود للعقول بمسافات أقدم ولكن مقولة التشكيك كانت ولا تزال مسايرة لها من قلة إلى كثرة إلى أكثرية ومن ضعف إلى شدة إلى أشدية وهذا السير التدريجي من النقص إلى الكمال إلى الأكملية طبيعي لكل موجود ارتهن كماله وتمام نشوءه بمستقبله في كافة

الفنون وان تكن بقيت في هذا العهد نقاط استعصت على العقول أن تدركها فعسى أن تجيء هذه المستعصيات اليوم خواضع غدا لمشاريط العقول مقهورة تحت اشعتها القاهرة ومما اجلبت عليه العلوم النظرية من قديم وحديث كتاب الله المنزل على سيد الرسل محمّد ﷺ وهو نعم الموضوع لقيامه بثقل الحياتين المادية والمعنوية بما لهما من شؤون وخواص ولا اريد أن اطريه تعنتا واوفيه اطراف الثناء تعصباً وأجمع له كل محمدة يصح أن تقال فيه تقية فإنّ هذه العهود ولله الشكر الوافر عليها خففت كثيراً من ويلات الخوف والاضطهاد القاهرين لدرك العقول وحتى في مرحلة التصور مخافة أن ينزل بأهلها البلاء الطويل المدة كما كان الأمر سالفاً على هذه الصفة وكما هو الآن في بعض المجامع المتوحشة ولا شبهة ان تحديد العقول كتحديد الاقتصاديات من الاحتكار الممقوت عند كل ذي حاسة إلّا عند صاحبه الذي ينتفع به سياسياً أو مادياً ولا يجوز بحكم الانسانية العامة خنق الجامعة للترفيه عن الفرد الواحد.

حكم القرآن لنفسه بما فيه من ثروة معان وجوهر مادة انّه معجز لا لفصاحته فقط ولا لرصانته في الألفاظ واصابته للمعاني الشريفة بما هي معاني وألفاظ كانت تتداولها بلغاء العرب المعاصرون لنزوله في مادتها المنزورة الثمن من ذكر الدمن والآثار وديار الأحبة واستعراض السيف والسنان وسوح القتال وبعض العرفيات السائرة كما يعرب عنها أمثالها المضروبة وكلماتها المنثورة وشعرها المتفكك البعيد التناسب وفي قراءة المأثور عنها في فنى المنثور والمنظوم بلاغ لمن يريد التحقق من هذه الدعوى بل لا نحيلك على هذا الدليل فربما تشعبت بك أطرافه عن الاستقصاء له والالمام بما نريد منه ونلمسك الطبيعة نفسها في عنصر العرب الذين نزل بلغتهم القرآن في جيلهم ذاك فانك إذا وقفت عليهم في جزيرتهم المحدودة يومذاك عن الصادر والوارد تيقنت انهم كانوا لا يملكون مأكولاً ولا مشروباً ولا ملبوساً ولا رياشا ولا سعة معاش ولا يعرفون من الطبيعة إلّا مشاهدها العامة سباب جرداء وآفاقا تدوى بها الأصداء وشتاتاً متقطعاً من حيوانات كاسرة وشرذمة اُخرى أهلية ـ هذا وليس غير ـ في حال انّ الاُمّة الفارسية والرومانية كانت تتمتع بصنوف المتع بما لا يعرف البعض منها عرب الجزيرة وحتى سماعا ولهذا كانت معارفهم مقصورة على حواضرهم وامّا باديتهم فشاغرة من كل شيء قابل للذكر.

وما هي معارفهم التي نومىء اليها هي ان فرسي أسبق وسيفي أقطع وجاري مصون وحماي

محترم، وأمّا حديث الفلسفة والرياضيات والطبيعيات والصنائع فهو لا يدور في حاستهم سماعاً فضلا عن عقولهم دركا وتحليلاً، كيف والشيء ما لم يكن له منشأ في الذهن لا يمكن أن يتصور والمنشأ عندهم معدوم فالتصور بالتبع له معدوم أيضاً، بخلاف الفرس والرومان فقد كانوا يكثر فيهم الفن والفنان والنظر وأهله وتراثهم إلى الآن موجود باتساع فإذا تميزت الطرف المقاس عليه كتاب الله في مقام التحدث عن تعجيزه لمعاصري نزوله تيقنت ان لا طرف قياس أصلاً وان المنظور من القرآن لمعاصريه طرف من ظواهره لا جملة ما تحدث به فإنّهم بعقولهم تيك عاجزون عن دركه طبيعة وحق لهم ذلك ومن أين لهم المعدات التي يتوسلون بها إلى درك البراهين والحجج وهي اليوم بعد على نضوج القرائح والافهام وتدوين مباحث العقول في طريق النقد والرد.

فاعجاز القرآن إذاً تختلف مراتبه باختلاف الأدوار والأجيال ولكل عصر طرف منه بل لكل عقل لون من اعجازه حسب اختلاف العقول في التذوق وان اقترنت وجوداً في الزمان الواحد والمحيط الواحد.

ومن هنا تكثرت طرق الدراسة النظرية للقرآن فضلاً عن السمعية فمن كاتب تخصص لدراسته بما ينطبق على الفلسفة وآخر على فن الكلام بما تنطبق موازينه مع ظواهر شريعة الإسلام وثالث خصص الكلام حوله بالمباحث الطبيعية وعلى هذا المنوال ومن الواضح الجلي انّ دراسة القرآن من كافة نواحيه السمعية والنظرية تحتاج إلى مادة غزرة ونفس طويل في البحث لا يجتمعان لانسان واحد ومهما ضخمت مادته العلمية لهذا نجد الدارسين له متوزعين في البحث عنه فمن باحث عنه بالأثر المجرد وآخر بالبحث الأدبي وحده وثالث من ناحية أحكامه وفقهه ورابع من جهة أخلاقه وعرفانه وهلم جرا على تشعب الفنون المرتبطة به وجاء فريق آخر في العصور المتأخرة ورام باحثوه في تفسيره الاقتصار صرفاً في مقام شرحه على مقارنة آياته بعضها ببعض فيفسرون المختصر منه في محل بالمفصل منه في محل آخر والمجمل بالمبين ويستأنسون لحديث منه بما يستشمونه من حديث آخر وعلى هذه الموازنة في المقارنة وهذا المعنى جيد من ناحية عرض القرآن بعضه على بعض فلا يمس تفسيره حينئذ صرف الادعاء ومجرد التشهي في الحديث الذي يساق عنه إلّا انّ هذه المقارنة لا تقوم بكل بحوثه السمعية والنظرية بالبداهة فما فيه من ناسخ ومنسوخ ومتشابه وأحكام دينية وأسباب نزول آياته في نجومها المتكثرة تستحيل معرفته من غير طريق السنة بواضح

هل التبليغ وحده كاف في جلب توجه الأفراد

لا شبهة انّ الناس حسب قابلياتهم وبيئاتهم وما فطر عليه كل واحد من ذوق وسليقة مختلفون في قضية كسب الكمال وطريق الوصول إليه والتحلي به فإنّ كثيراً من ماديبي العالم في كل عصر لا يرون وراء تأمين مادياتهم وتهيأة وسائل عيشهم ورغدهم وترفيههم مطلوباً آخر فلا تهمهم كماليات الأخلاق حصلت أم لم تحصل لأنّهم ليسوا بصددها ولا هي مما تدور في أدمغتهم آناً ما ووحوش كل امة في كل حصر على هذا اللون من الروية ومن جملتهم عرب الجزيرة فإنّ ترسلهم في قتل الناس وازهاق النفوس وشحذ الأموال وغصب الواجدين لما يجدون ووأد الاناث واثارة الفتن والحميات وعدم ركودهم في مكان فذلعيثهم وافسادهم وتخوفهم جميعاً من تنكيل بعضهم ببعض لاشتراكهم في الجرائم

الضرورة وظواهر الكتاب وحدها لا تقوم بجميع ما أُريد به طبعاً وكل من قال حسب المسلم لدينه كتاب الله وحده منحرف عن جادة الصواب مخالف لما يحس به من وجدانه المكشوف.

وأوّل من سنّ هذه السنة وقال حسبنا كتاب الله الخليفة الثاني عمر بن الخطاب حين حال بين النبي وبين ما أراد بيانه مما لا ضلال للأمّة معه ومن باب الصدف ان أكثر المراجع الدينية ابتلاءً بغموض الأحكام عليه هو عمر نفسه فكم ضاق بجملة من الأحكام الطارئة عليه ذرعاً فأفتى فيها برأيه ثمّ نقض رأيه الأوّل برأيه الأخير في جملة من فتاواه وفي جملة أُخرى منها رجع إلى أمير المؤمنين علي عليه السلام وإلى غيره ممن علم علم القضية من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فابتلاه الله سبحانه بعين ما حال بينه وبين الناس وجعلهم محرومين من فيض واسع وعلى هذه المحرومية العظيمة طال تأسف ابن عباس وامتلاء تأثراً من المسبب لذلك فاقرب الطرق اتصالاً بالواقع في تفسير الكتاب العزيز هو عرض القرآن بعضه على بعض والوقوف على صحيح السنة الشارحة له ثمّ بعد ذلك لو أراد المتعقب أن يجمع الفصل في نهايته ببحث فلسفي أو اجتماعي أو اقتصادي أو ما شابه ذلك لما كان له مانع شرعي ولجاء بمزيد فضل يشكر عليه.

عموماً مما حرمهم التوجه إلى تصور ما هو الكمال ومن أي طريق توصلت إليه الأُمم الراقية المجاورة لهم كالفرس والرومان الذين ما انفكوا مستعمرين لهم إلى أن خلصهم الإسلام من هذه الموبقات جميعاً.

وهناك فريق آخر يؤمن بكمال الأخلاق وحسن النظام ويعدهما الثروة الأُولى لتقدم الحضارات وترقي الأُمم لأنّ بهما تنمية الأموال والنعم ووسائل الراحة العامة وإذا تبعثر النظام بفساد الأخلاق روحياً تقل النعمة وتتفكك اواصر الارتباطات بين امو وامة وفريق وآخر والفرد وأخيه وبذلك تتلاشى الأوضاع العامرة وتعود الديار بلاقع خالية وهذا نقيض المقصود من الحياة طبعاً ومع هذا الايمان الجازم لا نراه يلوي بنفسه اختياراً إلى جانب الكمال ونجده مع هذا الايمان فيه يرتكب خلاف ما يؤمن به فيرشي ويرتشي ويغش ويدلس ويقتل النفس المحترمة لأدنى واهمة تحدو به إلى الفتك بها وهلم على هذا نظيره.

وفريق من البشر غير هؤلاء يواصل علمه بعمله وإنّما يعقم به بعض الأحيان جهله مبؤديات العقول فهو إذا حصل له معلم حضر للتفهم عنده وشكره على ذلك وامتثلت أعضاؤه وحواسه ما القي اليها من علم فنشطت للعمل به.

ولا ريب انّ نوع البشر إنّما يراد دياراً لهذا الوجود لتمتعه بقابليات ضخمة في نوعه ومعدات مهمة في أكثر أفراده باستطاعة هذه المعدات والقابليات التوسع والتبسط في كل شيء يقع عليه شعاع القدرة البشرية وهذان التوسع والتبسيط لا يكونان في الماديات إلّا تبعاً لاحراز الكماليات فلا تنشط الحركة الزراعية والتجارية والصناعية إلّا إذا تم النظام الاقتصادي الاجتماعي السياسي الدولي ولا يتم النظام المذكور إلّا إذا تصدى لادراة شؤون الملة والدولة العقول المصلحة التي لا تسعى السعي كله إلّا لتقدم البلاد التي هو من جملة أهلها ويصيبه القسط الوافر من نفعها ولا يكون العقل مدركاً ولا مصلحاً إلّا إذا خرج من مرحلته

الاستعدادية إلى حيز الفعلية ولا تحصل فعليته إلّا بالدربة والاحتكاك والتعلم والحضور التام للاستفادة من العارفين فالكمال المطلق المعنوي هو الملاك الوحيد للكمال المطلق المادي ولا يكون الكمال الثاني إلّا بعد توطيد الكمال الأوّل بالتجربة والشهود الحسي فالأمم الفاقدة للكمال المعنوي ميتة المادة مكدية تسترفد الأغيار فيما عندهم من خير والأُمم الواجدة لكمال المعنويات مزدهرة بكلتا حسنتي الدنيا العلم والعمل ففي قواعدها الكليات العامرة بالفن والصناعات الجبارة المحصول وبعد هذا كله فالكمال اخو الوجود وما لا كمال عنده لا وجود له لهذا استنت تعاليم الله واشعاعات العقول في قرن واحد منذ نشوء الخليقة إلى رفع مستوى المحيط والجماعات بالتربية والتعليم وحكمت المحاكم العادلة بتأديب كل من يعاكس هذه السنة فالله سبحانه فضلاً عما توعد به المتمردين على تكاليفه بعذاب الآخرة الذي هو له أشد تهويل فيما نذرنا نحن والعموم به أوقع بكثير من الأمم التي استمرت بطغيانها فهؤلاء قوم نوح وهود وصالح وشعيب وموسى قد قص الله علينا شديد تنكيله بهم بحيث مسح الوجود منهم مسحاً كأن لم يغنوا فيه وعلى هذه السنة جرى كافة عقلاء الكون في تعديل النظام وحفظ الحقوق فلا جرم أن جاء الإسلام على هذه الروية وجرى على هذه المحجة مشرعة ومن له حق القيام بحاكمية من بعده فما ينتقد به المسيحيون داعية الإسلام بأنّه شرع مع لسانه سنانه وذلك خلاف مجاري الانسانية العامة غلط أوضحه الله نفسه في كتابه وجرى عليه العقلاء كما أسلفنا قديماً وحديثاً كما انّه من الأُمور الضرورية اللازمة التحتم والوقع لحفظ الحي والحياة بوصف الكمال.

ولا أعتقد انّ سابقاً سبق الإسلام في تشديد النكير على التأديب قبل التدريب وعلى العذاب قبل اتمام الحجة والانذار وفي ترغيبه لطلب العلم والكمال حتى

مع تحمل المصاعب لأجله وفي سبيله وقد دارى رسول الله ﷺ معاصريه ومواطنيه في تبليغهم الدعوة اللاهوتية مداراة ترك حيثيته وحقوق شرفه في سبيلها فكم اوذي في ذات نفسه واتباعه اذايا لا يحتملها أحط أفراد البشر مكانة ومع ذلك لم يثر به الجزع إلى ان يسأل ربه الايقاع بهم وقد كان سلفه الصالح من أنبياء الأجيال السالفة على هذه الروية فما أوقع الله بأقوامهم إلّا بعد أن حصل لهم اليأس من خيرهم على كثير ما تحملوا منهم توهيناً وتحقيراً كما مر طرف من ذلك.

ونحن في تحديثنا عن السيرة النبوية لا نستهدف التاريخ إلّا بمقدار ما نحتاجه شاهداً لبحثنا أو تحليلاً لنقطة تخاصم فيها فريقان احقاقاً للحق وغاية ما نستهدفه منها هي الأبحاث الروحية وتحرير المطالب الكمالية فحسب ولا يهمنا وراء قصدنا أمر آخر فإنّ البلاغ والكفاية فيما نقصد.

❊ ❊ ❊

المعدات الروحية لحياة محمّد ﷺ

الوسائل المهمة التي مهدت الحياة الروحية للنبي أُمور:

منها: لطف جده عبد المطلب به بما زرع له هذه الروح العاطفية في كثير من أفراد اسرته يذكر [١] المؤرخون ان أُم النبي لما توفيت قبضه إليه جده عبد المطلب وضمه ورق عليه رقة لم يرقها على ولده وكان يقربه منه ويدنيه ويدخل عليه إذا خلا وإذا نام وكان يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب إذا رأى ذلك دعوا ابني انّه ليؤنس ملكاً [٢].

وقيل لعبد المطلب احتفظ به فانا لم نر قدماً أشبه بالقدم التي في المقام منه فقال عبد المطلب لأبي طالب اسمع ما يقال فكان أبو طالب يحتفظ به وقال عبد المطلب لأُم أيمن وكانت تحضن رسول الله يا بركة لا تغفلي عن ابني فاني وجدته مع غلماء قريباً من السدرة وان أهل الكتاب يزعمون انّ ابني هذا نبي هذه الأُمّة وكان عبد المطلب لا يأكل طعاماً إلّا قال علي بابني فيؤتى به إليه فلما حضرت عبد المطلب الوفاة أوصى أبا طالب بحفظ رسول الله وحياطته وسئل رسول الله أتذكر موت عبد المطلب قال: نعم أنا يومئذ ابن ثماني سنين. قالت أُم أيمن: رأيت رسول الله يومئذ يبكي خلف سرير عبد المطلب.

ومنها: قيام أبي طالب بحقه ورعايته له أتم رعاية ودفاعه عنه أشد دفاع وسيأتي الكلام على هذا الفصل بطوله في التحديث عن انّه مات مسلماً أو كافراً فإنّه من النقاط الحساسة في روح الإسلام ومعناه وقد شوشها التعصب وشوه

---

(١) من جملتهم ابن سعد في الطبقات الكبرى ج ١: ص٩٩.

(٢) أي تعطى مخائله انّه سيكون ذا شأن عظيم.

منظرتها كما شوه كثيراً من المناظر المبهجة حتى أحالها إلى معارك دموية ونحن بحول الله سنميط عن وجوه هذه الحقائق الراهنة حجاب التعمية والتدليس.

ومنها: اقترانه بخديجة بنت خويلد؛ ترينا منظرة الربيع الزاهية الخضراء في مشنتت خمائلها الوردة اليانعة الطرية بين شتى النباتات العاطلة من الرائحة الطيبة والتلوين الجالب والزهر الضاحك؛ كما أوقفتنا المقارنات الخارجية على وجود امرأة كاملة العيار من وجهة الروح والمعنى وهي خديجة بنت خويلد بين نساء عواطل لا يملكن من الأخلاق إلّا ما ورثته من رجالهن وقد حدثناك عن عرب الجزيرة بما أغنانا عن اعادة طرف منه هنا.

انّ امرأة ثرية في محيط بائس وتتخطبها الأشراف ليكسبوا منها في بيوتهم امرأة كاملة من وجهتيها المادية والمعنوية فتمتنع عليهم وتهى الاقتران بانسان يتيم مملق يعمل لها بسهم من الربح أو بأُجرة محدودة لأنّه عرف بخلال يزنها العقل بميزان راجح وان كانت الجزيرة العربية لا تقيم لها أقل وزن وإلّا لكثر في هذا الجنس قطعاً وهي خلال الصدق والأمانة والمصونية من كل تلوث بما أحرزته له التجارب المتكررة، لوجود حساس يقدر الروح ويحسب لها حسَاباً يقوم بشأنها ومن يكن في روحياته بهذه الدرجة ومن ثروته بتلك خليق أن يستفاد من بركاته كل خير وبهذه الروح قامت خديجة في تأييد النبي وموازرته وتسهيل المطالب عليه واشتغلت بعد البعثة بتنمية الثروة الروحية ممدة لها بثروتها المادية.

يذكر التاريخ[١] عن نفيسة بنت منية قالت: كانت خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي امرأة حازمة جلدة شريفة مع ما أراد الله بها من

---

(١) هذه المادة كتبها مؤلفوا السيرة بأجمعهم لا يختلفون منها إلّا في نقاط جزئية لا تغير جوهر البحث.

الكرامة والخير وهي يومئذ أوسط قريش نسباً وأعظمهم شرفاً وأكثرهم مالاً وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدروا على ذلك قد طلبوها وبذلوا لها الأموال فأرسلتني دسيساً إلى محمّد بعد أن رجع في عيرها من الشام فقلت: يا محمّد ما يمنعك أن تزوج فقال: ما بيدي ما أتزوج به، قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى الجمال والمال والشرف والكفاءة ألا تجيب، قال: فمن هي؟ قلت: خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ قالت: قلت علي، قال: فأنا أفعل فذهبت فأخبرتها فأرسلت إليه ان ائت لساعة كذا وكذا وأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها فحضر ودخل رسول الله في عمومته فزوجه أبو طالب وقد خطب هذه الخطبة: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية ابراهيم وزرع اسماعيل وضضيء[1] معد وعنصر مضر وجعلنا حضنة بيته وسواس حرمه وجعله لنا بيتاً محجوجاً وحرماً آمناً وجعلنا حكام الناس ثمّ ان ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله لا يوزن به رجل شرفاً ونبلاً وفضلاً وإن كان في المال قل فإنّ المال ظل زائل وأمر حائل وعارية مستردة وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم وخطر جليل وقد خطب اليكم رغبة في كريمتكم خديجة وقد بذل لها من الصداق كذا، فقال عمرو بن أسد هذا البضع لا يقرع أنفه[2].

وتزوجها رسول الله وهو ابن خمس وعشرين سنة وخديجة يومئذ بنت أربعين سنة وكانت تزوجت قبله بزوجين وولدت من النبي ﷺ القاسم وهو أكبر ولده ثمّ زينب ثمّ عبد الله وكان يوصف بالطيب والطاهر أيضاً ثمّ ام كلثوم ثمّ فاطمة ثمّ رقية مات القاسم بمكة وهو أوّل ميت مات من ولده ثمّ مات عبد الله

---

(١) هو الأصل لغة.

(٢) أي هو انسان منا لا نرده.

أيضاً بمكة فقال العاص بن وائل السهمي قد انقطع ولده فهو أبـتر فأنـزل الله انّ شانئك هو الابتر ؛ وأمّا بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن معه ﷺ ولم يتزوج رسول الله في الجاهلية غير خديجة كما لم يتزوج عليها في حـياتها وكل نساءه كن بعد وفاتها وكان النبي يحفظ لها هذه اليد البيضاء ويحتفظ بحقوق عشرتها المحمودة .

فعن عائشة [١] قالت : ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة وما بـي أن أكون أدركتها ولكن ذلك لكثرة ذكر رسول الله ﷺ اياها وإن كان ليذبح الشاة فيتتبع بذلك صدائق خديجة يهديها لهن .

وعنها أيضاً [٢] قالت : كان رسول الله ﷺ لا يكاد يخرج من البـيت حـتى يذكر خديجة فيحسن الثناء عليها فذكرها يوماً من الأيّام فأدركتني الغيرة فقلت هل كانت إلّا عجوزاً فقد أبدلك الله خيراً منها ، فغضب حتى اهتز مقدم شعره من الغضب ثمّ قال لا والله ما أبدلني الله خيراً منها آمنت بي إذ كفر الناس وصدقتني إذ كذبني الناس وواستني في مالها إذ حرمني النـاس ورزقـني الله مـنها أولاداً إذ حرمني أولاد النساء .

❊ ❊ ❊

(١) ابن عبد البر في ترجمة خديجة.

(٢) ابن عبد البر في ترجمة خديجة.

الحالة الاعتيادية للعقلاء في قبال الصانع جلّ وعلا

الإنسان السوي الصحيح الفطرة البعيد عن كل المؤثرات الاعتقادية ان يكن له موقف من الله بعد التدبر في محوطة الكون والنظر المتمهل فيما يحيط به وتوقفه الاتفاقات عليه من مناظر العالم فهو اعتقاده بغاية البساطة ان هذه الكوائن لابد من نسبتها إلى قاهر غالب ليس هو الصنم ولا الوثن ولا أي شيء من الأشياء شاهده وعرفه وامّا ما يلزم هذه العقيدة من لوازم ضرورية الثبوت له أو الانتفاء عنه فهي أُمور لا تدور بخلده طبعاً فضلاً عن تسبيحه وتقديسه بالأدعية والأذكار اللائقة بشأنه المناسبة لمقامه فإنّ ذلك لم يتصل به العقلاء إلّا بعد طول تفكير واستعراض للآراء بعضها من بعض وقد أسلفنا انّ جزيرة العرب كانت في دورها ذاك فاقدة لمطلق الكمال وان يكن فيها يهودي أو نصراني أو مترفع عن عبادة الأوثان معروفين بمعرفة العقائد نوعاً ما فذلك في غاية القلة وفي بعد شاحط عن مستوى العامة لانصراف الأكثرية روحاً عن هذه المرحلة انصرافاً أدّى بهم إلى أن يكونوا لا شيء من الوجهة الكمالية بالنسبة إلى أي شيء كمالي وإذا كان مجاوروا مكة والملتزمون للبيت والكعبة لا يرون الطواف ببيت الله والصلاة عنده إلّا بالصفير والتصفيق كما قال سبحانه: ﴿ **وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً** ﴾[1] (والمكاء هو الصفير والتصدية هي التصفيق) قال ابن عباس كانت قريش تطوف بالبيت عراة يصفرون ويصفقون؛ فاجدر بأعراب البوادي والقصبات الاخر من الجزيرة أن لا يعرفوا وحتى طفائف الأعمال التي تنسب للديانات السماوية اذاً فلا يتصور انّ النبي ﷺ كان قبل مبعثه واتصال تسديد

---

(١) سورة الأنفال: آية ٣٥.

الله الخاص به يعرف وراء معرفة الله بأنّه خالق الوجود والموجود كيفية التعبد له حتى يعبده وعليه فلا يعرف معنى لخلوته بغار حراء يتحنث إلّا العزلة عن محيطه الوثني للاتصال بروحه وعقله وهكذا كل من لا يهوى أخلاق محيطه ينعزل بنفسه مناجياً لها وباثاً عندها ما يجده.

بقي الكلام على ان اتصال معارف الله من الطريق المخصوص بعبده على أي كيفية يكون وهل يشترط في ايجاد هذه الوصلة بين العبد والمعبود توسط الملك ونحن هنا لا نريد أن نبحث عن الجنبة العامة لكيفية اتصال العلل بمعلولاتها خصوصاً بالنسبة إلى العلة الموجودة الحية العالمة المختارة الأزلية الأبدية القادرة المجردة المتصلة بكل ما صدر إلى الوجود اتصالاً مباشرياً في الخلق والتكوين والتغيير والتبديل فاننا قد أسلفنا البحث عن ذلك في محله من الحلقة الأُولى من هذا الكتاب؛ ولكننا نريد البحث عن الخصوصيات الدائرة بين الخالق وواحد ممن يختاره من عباده وبما ان الله سبحانه لا يعجزه مقدور ـ بما هو مقدور ـ يمكن أن يخلق في وجود من يختاره علماً قاطعاً بالنسبة إلى الأمر الذي يريده له بحيث يعود هذا الموجود غير مرتاب بأنّ معلومه هذا القي إليه من صفحة الواقع وان الملقى له هو الله صرفاً بلا دخل لتصورات عقله ولا تعليم أهل الفن له وهذا أمر بعد الفراغ من صحة تصويره وجداني لا يتخالجه الشك والذي يشهد له عند الناس انّه لعم الله الخاص تفضل به على هذا الإنسان ليكون واسطة تبليغ مثلا مضامينه المصادفة للواقع المحجوبة عن هذا المخبر من شتى الطرق أو اعجازه من ناحية شرف المادة التي تجسمت به بحيث العقول بأنفسها تدرك انّ هذا المتاع الروحي ليس من جنس مدركاتها بالصورة التي هو عليها قطعاً.

كما يمكن أن يفيده هذا العلم بوسيلة كائن غير نفسه من أي أنواع المخلوقات يكون ولا يرى العقل خصوصية في هذا التوسيط لكائن على آخر فكما يجوز

التوسيط في الافاضة إلى الشجرة يجوزه بعين الملاك لجبرئيل ولغيره من الملائكة وغيرهم فالميزان في الوحي والالهام الربوبي الخاص تجسيم العلم المراد كشفه في الخارج بما يشهد له انّه من الله صرفاً لانسداد طرق الادراك عنه امّا في زمان الكشف وحده وامّا مطلقاً ان جاز لنا أن نصور اعجازاً وقتياً وبعد أن أصلحنا الجهة المعقولة لكيفية وحي الله والهامه الخاص للأنبياء والائمة الذين يقومون مقامهم لبسط شرائعهم والتعريف بما غفل عنه من أحكام شريعتهم نفيض في بيان المأثور الوارد في ذلك.

❊ ❊ ❊

كيف كان يتصل الوحي بالرسول

١ ـ الزهري عن عروة عن عائشة انها قالت: كان أوّل ما ابتدىء به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة كانت تجيء مثل فلق الصبح ثمّ حبب إليه الخلاء فكان بغار حراء يتحنث فيه الليالي ذوات العدد قبل أن يرجع إلى أهله ثمّ يرجع إلى أهله فيتزود لمثلها حتى فجأه الحق فأتاه فقال: يا محمّد أنت رسول الله، قال رسول الله ﷺ فجثوت لركبتي وأنا قائم ثمّ زحفت ترجف بوادري ثمّ دخلت على خديجة فقلت زملوني زملوني حتى ذهب عني الروع ثمّ أتاني فقال: يا محمّد أنت رسول الله قال فلقد هممت أن أطرح نفسي من حالق من جبل فتبدى لي حين هممت بذلك فقال: يا محمّد أنا جبرئيل وأنت رسول الله ثمّ قال: اقرأ قلت ما أقرأ قال فأخذني فغتني [١] ثلاث مرات حتى بلغ مني الجهد ثمّ قال اقرأ باسم ربك الذي خلق فقرأت فأتيت خديجة فقلت لقد أشفقت على نفسي فأخبرتها خبري فقالت: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً ووالله انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتحمل الكل وتقري الضيف وتعين على نوائب الحق ثمّ انطلقت بي إلى ورقة بن نوفل بن أسد قالت: اسمع من ابن أخيك فسألني فأخبرته خبري فقال هذا الناموس الذي أُنزل على موسى بن عمران ليتني فيها جذع ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، قلت أمخرجي هم؟ قال: نعم انّه لم يجيء رجل قط بما جئت به الا عودي ولئن أدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً لم ثمّ كان أوّل ما نزل علي من القرآن بعد اقرأ: ن والقلم وما يسطرون

---

(١) في حديث المبعث فأخذني جبريل فغتني حتى بلغ مني الجهد الغت والغط سواء كأنّه أراد عصرني عصراً شديداً حتى وجدت منه المشقة. النهاية الأثيرية.

ما أنت بنعمة ربك بمجنون وان لك لأجراً غير ممنون وانك لعلى خلق عظيم فستبصر ويبصرون ويا أيّها المدثر قم فأنذر والضحى والليل إذا سجى [١].

٢ ـ عن عكرمة عن ابن عباس قال: فبينا رسول الله على ذلك وهو بأجياد إذ رأى ملكاً واضعاً احدى رجليه على الأخرى في أُفق السماء يصيح يا محمّد أنا جبريل يا محمّد أنا جبريل فذعر رسول الله ﷺ من ذلك وجعل يراه كلما رفع رأسه إلى السماء فرجع سريعاً إلى خديجة فأخبرها خبره وقال يا خديجة والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ولا الكهان واني لأخشى أن أكون كاهناً قالت: كلا يابن عم لا تقل ذلك فإنّ الله لا يفعل ذلك بك أبداً انك لتصل الرحم وتصدق الحديث وتؤدي الأمانة وان خلقك لكريم ثمّ انطلقت إلى ورقة بن نوفل وهي أوّل مرة أتته فأخبرته ما أخبرها به رسول الله ﷺ فقال ورقة: والله انّ ابن عمك لصادق وان هذا لبدء نبوة وانّه ليأتيه الناموس الأكبر فمريه أن لا يجعل في نفسه إلّا خيراً.

وعن هشام بن عروة عن عروة انّ رسول الله ﷺ قال: يا خديجة اني أرى ضوءً وأسمع صوتاً لقد خشيت أن أكون كاهناً فقالت: انّ الله لا يفعل بك ذلك يابن عبد الله انك تصدق الحديث وتؤدي الأمانة وتصل الرحم.

عن عبادة بن الصامت انّ النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرب له وتربد وجهه [٢].

عن عكرمة قال: كان إذا أُوحي إلى رسول الله ﷺ وقذ [٣] لذلك ساعة

---

(١) الطبري ج ٢: ص ٢٠٥ و ٢٠٦.

(٢) أي أصابه الكرب وتغير لونه إلى الغبرة.

(٣) أي استولى عليه سكون تام.

كهيئة السكران.

عن أبي اروى الدوسي قال: رأيت الوحي ينزل على النبي ﷺ وانّه على راحلته فترغو وتفتل يديها حتى أظن انّ ذراعها ينقصم فربما بركت وربما قامت موتدة يديها حتى يسرى عنه من ثقل الوحي وانّه ليتحدر منه مثل الجمان (١).

عن عائشة انّ الحارث بن هشام قال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله: أحياناً يأتيني في مثل صلصلة الجرس وهو أشده علي فيفصم عني وقد وعيت ما قال وأحياناً يتمثل لي الملك فيكلمني فأعي ما يقول، قالت عائشة: ولقيد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقاً (٢).

عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به انّ علينا جمعه وقرآنه** ﴾ قال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل شدة ويحرك به شفتيه فأنزل الله تبارك وتعالى: ﴿ **لا تحرك به لسانك لتعجل به انّ علينا جمعه وقرآنه** ﴾، علينا جمعه في صدرك ثمّ تقرؤه، قال: فإذا قرأناه فاتبع قرآنه، قال: استمع له وانصت، قال: ثمّ انّ علينا بيانه؛ قال: ثمّ علينا أن تقرأه قال: فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل استمع له فإذا انطلق جبريل قرأه كما قرأه (٣).

٣ ـ قال الواحدي: قال المفسرون: لما بدىء رسول الله بالوحي أتاه جبريل فرآه رسول الله على سرير بين السماء والأرض كالنور المتلالىء ففزع ووقع مغشياً عليه فلما أفاق دخل على خديجة ودعا بماء فصبه عليه وقال دثروني

---

(١) الرغاء صوت الابل وتفتل يديها تلويهما والموتد المثبت والجمان اللؤلؤ الصغار.

(٢) يفصم عني أي يقلع وينكشف والوعي الحفظ.

(٣) من أوّل رقم ٢ إلى هنا عن طبقات ابن سعد ج ١، ص ١٧٩ إلى ص ١٨٣.

دثروني فدثروه فقال ـ يا أيّها المدثر قم فأنذر ـ وقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن جابر بن عبد الله ان أبا سلمة بن عبد الرحمن قال: ان أوّل ما نزل من القرآن: يا أيّها المدثر، فقال له يحيى بن أبي كثير يقولون ان أوّل ما نزل: اقرأ باسم ربك الذي خلق، فقال أبو سلمة: سألت جابر بن عبد الله عن ذلك قلت له مثل ما قلت فقال جابر لا أحدثك إلّا ما حدثنا رسول الله قال: جاورت بحراء فلما قضيت جواري هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً ونظرت عن شمالي فلم أر شيئاً ونظرت خلفي فلم أر شيئاً فرفعت رأسي فإذا الملك الذي جائني بحراء جالس على كرسي بين السماء والأرض فملئت منه رعباً فرجعت فقلت دثروني فدثروني فنزلت يا أيّها المدثر قم فأنذر [١].

٤ ـ أكثر المفسرين على انّ سورة العلق أوّل ما نزل من القرآن وأوّل يوم نزل فيه جبرئيل على رسول الله علمه خمس آيات من أوّل هذه السورة وقيل أوّل ما نزل من القرآن قوله يا أيّها المدثر وقيل أوّل سورة نزلت على رسول الله ﷺ فاتحة الكتاب رواه الحاكم أبو عبد الله باسناده عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل انّ رسول الله ﷺ قال لخديجة: اني إذا خلوت وحدي سمعت نداءً فقالت ما يفعل الله بك إلّا خيراً فوالله انك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم وتصدق الحديث قالت خديجة: فانطلقنا إلى ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى وهو ابن عم خديجة فأخبره رسول الله بما رأى فقال له ورقة إذا أتاك فاثبت له حتى تسمع ما يقول ثمّ ائتني فأخبرني فلما خلا ناداه يا محمّد قل بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله ربّ العالمين حتى بلغ ولا الضالين قل لا اله إلّا الله فأتي ورقة فذكر له ذلك فقال له: أبشر فأنا أشهد انك الذي بشر به ابن مريم وانك على مثل ناموس

(١) تفسير الشوكاني في سورة المدثر.

موسى وانك نبي مرسل وانك سوف تؤمر بالجهاد بعد يومك هذا ولئن أدركني ذلك لأُجاهدن معك فلما توفي ورقة قال رسول الله لقد رأيت القس في الجنة عليه ثياب الحرير لأنّه آمن بي وصدقني يعني ورقة (١).

٥ ـ قال الزمخشري في تفسير سورة المدثر من الكشاف قيل هي أوّل سورة نزلت وروى جابر بن عبد الله عن رسول الله ﷺ قال كنت على جبل حراء فنوديت يا محمّد انك رسول الله فنظرت عن يميني ويساري فلم أر شيئاً فنظرت فوقي فرأيت شيئاً. وفي رواية عائشة فنظرت فوقي فإذا به قاعد على عرش بين السماء والأرض يعني الملك الذي ناداه فرعبت ورجعت إلى خديجة فقلت دثروني دثروني فنزل جبرئيل وقال: يا أيّها المدثر.

وعن الزهري أوّل ما نزل سورة اقرأ باسم ربك إلى قوله ما لم يعلم فحزن رسول الله ﷺ وجعل يعلو شواق الجبال فأتاه جبريل فقال انك نبي الله فرجع إلى خديجة وقال دثروني وصبوا علي ماءً بارداً فنزل يا أيّها المدثر.

٦ ـ في سادس البحار في فصل مبعثه ﷺ انّ العامة قد اختلفوا في زمان بعثته على خمسة أقوال:

الأوّل: لسبع عشرة خلت من شهر رمضان.

الثاني: لثماني عشر خلت من شهر رمضان.

الثالث: لأربع وعشرين خلت من شهر رمضان.

الرابع: للثاني عشر من شهر ربيع الأوّل.

الخامس: لسبع وعشرين من رجب.

والأخير اتفاق الامامية.

وقال أيضاً: أرسله الله تعالى بعد أربعين سنة من عمره ولبعثته درجات اولها

---

(١) تفسير الطبرسي في سورة العلق.

الرؤيا الصادقة والثانية ما رواه الشعبي وداود بن عامر ان الله قرن جبرئيل بـنبوة رسوله ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه ويعلمه الشيء بعد الشيء ولا ينزل عليه القرآن فكان في هذه المدة مـبشراً غـير مـبعوث إلى الأُمّـة والثـالثة حديث خديجة وورقة بن نوفل الرابعة بتحديث النعم فـاذن له فـي ذكـره دون انذاره بقوله وامّا بنعمة ربك فحدث أي بما جائك من النبوة. والخامسة حين نزل عليه القرآن بالامر والنهي فصار به مبعوثاً ولم يؤمر بالجهر ونزل يا أيّها المـدثر فأسلم علي وخديجة ثمّ زيد ثمّ جعفر. والسادسة أمـر بأن يـعم بـالانذار بـعد خصوصه ويجهر بذلك ونزل فاصدع بما تؤمر. قال ابن اسحاق وذلك بعد ثلاث سنين من مبعثه ونزل وأنذر عشيرتك الأقربين، فنادى يـا صـباحاه. والسـابعة العبادات لم يشرع منها مدة مقامه بمكة إلّا الطهارة والصلاة كانت فـرضاً عـليه وسنة لأُمته ثمّ فرضت الصلوات الخمس بعد اسرائه وذلك في السنة التاسعة من نبوته فلما تحول إلى المدينة فرض صيام شهر رمضان في السنة الثانية من الهجرة في شعبان وحولت القبلة وفرضت زكوة الفطر وشرع فيها صلاة العيد وكان فرض الجمعة في أوّل الهجرة بدلا من صلاة الظهر ثمّ فرضت زكوة الأموال ثـمّ الحـج والعمرة والتحليل والتحريم والحظر والاباحة والاستحباب والكراهة ثمّ فـرض الجهاد ثمّ ولاية أمير المؤمنين.

٧ ـ أنس بن مالك يقول: بعث رسول الله ﷺ على رأس أربعين سنة يعني من مولده؛ اسحاق بن عبد الله بن أبي فروة عن أبي جعفر قال: نزل الملك على رسول الله ﷺ بحراء يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ورسول الله يومئذ ابن أربعين سنة وجبريل الذي كان ينزل عليه بالوحي [١].

(١) طبقات ابن سعد ج ١ ص ١٧٥ و ص ١٧٨.

٨ ـ أبو قتادة الأنصاري انّ رسول الله ﷺ سئل عن صوم الاثنين فقال ذلك يوم ولدت فيه ويوم بعثت ؛ أو أنزل عليه فيه : عن ابن عباس قال ولد النبي ﷺ يوم الاثنين واستنبىء يوم الاثنين ؛ عن أبي قلابة عبد الله بن زيد الجرمي انّه كان يقول فيما بلغه وانتهى إليه من العلم أُنزل الفرقان على رسول الله ﷺ لثماني عشرة ليلة خلت من رمضان ؛ وعن قتادة بن دعامة السدوسي عن أبي الجلد قال : نزل الفرقان لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان ؛ وقال آخرون بل نزل لسبع عشرة خلت من شهر رمضان [١].

٩ ـ عن عكرمة عن ابن عباس قال : بعث رسول الله وأُنزل عليه القرآن وهو ابن أربعين سنة فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة وبالمدينة عشر سنين ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ؛ وقيل : انّ الاثنين الذي ولد فيه رسول الله ونبىء فيه كان في شهر ربيع الأوّل كما تقدم ؛ عن ابن عباس وجابر انّه ولد عليه السلام في الثاني عشر من ربيع الأوّل يوم الاثنين وفيه بعث وفيه عرج به إلى السماء [٢].

١٠ ـ قال الكليني في باب تاريخ مولد النبي ﷺ ووفاته من أُصول الكافي : ولد النبي لاثنتي عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأوّل في عام الفيل يوم الجمعة مع الزوال وروى أيضاً قبل طلوع الفجر قبل أن يبعث بأربعين سنة وحملت به امه في أيّام التشريق وبقي بمكة بعد مبعثه ثلاث عشرة سنة ثمّ هاجر إلى المدينة ومكث بها عشر سنين ثمّ قبض لاثنتي عشرة ليلة مضت من ربيع الأوّل يوم الاثنين وهو ابن ثلاث وستين ـ اهـ ـ وفي كل هذه النقول التاريخية اختلاف وان كنا لم نذكر الشاذ منها وعلى كل حال فليس ذلك مما يهتم له .

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢٠٣.

(٢) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٤ و ص ٦.

من كان ألصق الناس بالنبي حين بعثته

تنقيح هذا العنوان ضروري في فهم السابقين إلى الإسلام وفي تفنيد كثير من المزاعم وفي الكشف عن كثير من الحقائق الراهنة والأوهام المصنوعة ؛ انك قد درست من قرب ان خديجة بنت خويلد تزوجها رسول الله عن تحاب من الطرفين قبل أن يبعث بخمسة عشر عاماً أو ما هو في حدود ذلك ونصت البحوث الصادقة على اخلاصها لهذا الزوج منذ تزوجته إلى أن توفيت عنه واصحر التاريخ انها كانت خير معوان له في حوادث أوّل البعثة ومزيد تروعه منها حتى كاد أن يلقي بنفسه من على شواهق الجبال لولا تسليتها له وربطها لجأشه وتثبيته بأنّ الله لا يريد به إلّا خيرا ووصفها له بالصدق والوفاء وصلة الرحم والأمانة وعرضها له على ورقة بن نوفل لترى اطلاعه في مثل هذا الموضوع ونظره في هذه القضية لأنّه كان من الواردين في ميدان الديانات فسرها بمقاله فازداد الطرفان خديجة ومحمّد ايماناً بربهما وان ما يراه زوجها مما تروع له مقدمة خير تراد به وهي لا شبهة تريد الخير له.

هذه حال خديجة مع محمّد قبل البعثة وحالها عند البعثة ثمّ نتسائل فنقول: هل كان مع خديجة في بيت محمّد غيرهما يعيش معهما في هذا البيت ويشاركهما في كافة الطوارئ الحادثة وينال من حلوه ومره كما ينالان ويعد واحداً من الاسرة كما يتجسم لنا هذا التصوير في كثير من العوائل التي تعيش في منزل واحد تحت قيمومة كبيرها وزعيمها ؛ نعم كان معهما غيرهما ، ثمّ نعود إلى مرحلة ثانية في السؤال فنستفسر ونقول من هو هذا الغير فنجيب أنفسنا بهذا الجواب الجملي تزوج محمّد بخديجة قبل خمسة عشر عاماً من بعثته وكل أولاده من خديجة سوى ابراهيم فهل صار له في هذه الفاصلة شيء من هؤلاء ؛

وكان علي بن أبي طالب في كفالته قبل أن يبتعث بفاصلة ؛ وكان زيد بن حارثة مولى خديجة قبل أن يبتعث النبي أيضاً ؛ فقد كان بيت خديجة ومحمّد يحتوي على هؤلاء جميعاً ومن لازمنا أن نبحث هنا عن نقاط ثلاثة :

١ ـ أولاد محمّد من خديجة وانهم ولدوا له قبل بعثته أو بعدها أو متفاوتين فبعضهم قبلها وبعضهم بعدها والسابق منهم في الولادة كم كان له من العمر حين بعثة أبيه .

٢ ـ انّ علياً كيف صار في كفالة ابن عمه وكيف كان سلوكه معه .

٣ ـ انّ زيد بن حارثة ما هي منزلته من خديجة وكيف وقع اليها ومتى وقع وكيف كان له النبي منذ عرفه فالجواب عن هذه الأسئلة بشروح مبسوطة هو الحل النهائي لطلاسم التاريخ في هذا الموضوع والكاشف الذي لا حجاب يكون وراءه عن معميات التعصب أعاذنا الله منه فالكلام أوّلاً على النقطة الأُولى :

أولاد محمّد من خديجة

١ ـ امّا القاسم وعبد الله الذي كان يوصف بالطيب والطاهر فقد ماتا صغيرين بلا خلاف فهما على هذه الحالة خارجان عما بأيدينا من موضوع بقيت البنات ولا خلاف يعتد به في ان زينب اكبر الأخوات قال ابن عبد البر في الاستيعاب قال محمّد بن اسحاق السراج سمعت عبد الله بن محمّد بن سليمان الهاشمي يقول : ولدت زينب بنت رسول الله في سنة ثلاثين من عمر النبي وماتت في سنة ثمان من الهجرة ؛ وقال ابن حجر هي أكبر بناته وأوّل من تزوج منهم ولدت قبل البعثة بمدة قيل انها عشر سنين . فعلى هذا يكون عمر زينب عند مبعث أبيها عشر سنين وهذا العمر محل للتكليف بالنسبة إلى جنسية النساء .

وقال ابن عبد البر في جملة كلامة ذكر أبو العباس محمّد بن اسحاق السراج

قال : سمعت عبد الله بن محمّد بن سليمان بن جعفر بن سليمان الهاشمي قال : ولدت زينب بنت رسول الله ورسول الله ابن ثلاثين وولدت رقية بنت رسول الله ورسول الله ابن ثلاث وثلاثين سنة ؛ فعلى هذا يكون عمرها عند مبعث النبي سبع سنين .

وقال ابن حجر في ترجمة فاطمة : واختلف في سنة مولدها فروى الواقدي من طريق أبي جعفر الباقر قال: قال العباس ولدت فاطمة والكعبة تبنى والنبي ابن خمس وثلاثين سنة وبهذا جزم المدائني .

وقال ابن عبد البر في ترجمة فاطمة كانت هي وأُختها ام كلثوم أصغر بنات رسول الله واختلف في الصغرى منها وقد قيل ان رقية أصغر منهما وليس ذلك عندي بصحيح إلى أن يقول: والذي تسكن إليه النفس على ما تواترت به الأخبار في ترتيب بنات رسول الله ان زينب الأُولى ثمّ الثانية رقية ثمّ الثالثة ام كلثوم ثمّ الرابعة فاطمة الزهراء .

قال ابن السراج : سمعت عبد الله بن محمّد بن سليمان بن جعفر الهاشمي يقول : ولدت فاطمة سنة احدى وأربعين من مولد النبي ؛ ولم يذكر ابن عبد البر ولا ابن حجر تقديراً لمولد ام كلثوم بنت محمّد ﷺ ولكن بعد ما تبين عمر الكبرى من هاته الأخوات فالسكوت في تقدير عمر أُم كلثوم هين فتلخص انّ من ذرية النبي ﷺ ان يكن انسان محلا للتكليف وجواز المخاطبة أوّلاً أقل في سن التمييز فذاك زينب دون بقية أخواتها بالاعتبار الصحيح .

٢ ـ زيد بن حارثة : قال ابن عبد البر في ترجمته من جملة كلام له يرتبط بموضوعنا كان زيد هذا قد أصابه سباء في الجاهلية فاشتراه حكيم بن حزام من سوق حباشة وهو سوق بناحية مكة كان مجمعاً للعرب يتسوقون به في كل سنة اشتراه حكيم لخديجة بنت خويلد فوهبته خديجة لرسول الله فتبناه رسول الله

بمكة قبل النبوة وهو ابن ثمان سنين وقال ابن عمر ما كانا ندعو زيد بن حارثة إلّا زيد بن محمّد حتى نزلت ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ .

وقال ابن حجر : أغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية على أبيان بني معن فاحتملوا زيداً وهو غلام يفعة فأتوا به في سوق عكاظ فعرضوه للبيع فاشتراه حكيم بن حزام لعمته خديجة بأربعمائة درهم فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له ؛ ويثبت من هذه الترجمة انّ زيداً كان عند مبعث النبي رجلاً أحرز عند البلوغ وهو في بيت خديجة ومحمّد حسب الظاهر .

٣ – علي بن أبي طالب : قال ابن حجر في الاصابة ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح فربى في حجر النبي ﷺ ولم يفارقه ؛ وقال ابن كثير [١] قال ابن اسحاق حدثني ابن أبي نجيح عن مجاهد قال : وكان مما أنعم الله به على علي انّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال رسول الله لعمه العباس وكان من أيسر بني هاشم يا عباس انّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق حتى نخفف عنه من عياله ، فأخذ رسول الله علياً فضمه إليه فلم يزل مع رسول الله حتى بعثه الله نبياً .

وقال الدكتور هيكل [٢] : وكان يقيم معهما ـ أي مع محمّد وخديجة غير بناتهما علي بن أبي طالب الذي كان صبياً لم يبلغ الحلم ، ذلك انّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب كثير العيال فقال محمّد لعمه العباس وكان من أكثر بني هاشم يساراً انّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف عن عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً

---

(١) البداية والنهاية : ج ٣ ص ٣٥.

(٢) حياة محمّد ﷺ : ص ١٣٧.

فنكفلهما عنه وكفل العباس جعفراً وكفل محمّد علياً فلم يزل معه حتى بعثه الله.

والكلمات المأثورة في هذا المضمون كثيرة جداً فالبلاغ بما ذكرنا.

وعلي عليه السلام ان لم يكن بالغاً عند البعثة فهو انسان تام التمييز بطور قاطع لمتابعته النبي في حركاته وسكناته وقيامه معه في صلاته حيث لا مصلي غير محمّد وزوجته خديجة كما سيجيء ولا نجد في التاريخ ذكراً لزينب بنت محمّد ولا لمن قاربها في العمر من أخواتها في حديث اسلامهن حين البعثة (١).

ولعل ذلك كان لقصورهن عن هذا المرام على ان التاريخ ذكر لزينب من العمر عشراً من السنين عند بعثة أبيها ولا يحتمل فيهن أقل تعلل عن الإسلام وهن في حضن امهن خديجة وأبيهن محمّد أصلاً.

ويحتمل بوضوح اسلام المميز منهن ولطفولتهن ولزومهن المنزل لم يشخص بذكرهن التاريخ والتسابق بين علي وخديجة إلى اعتناق هذا الدين الجديد بعيد جداً لوقوفهما على حقيقة هذه الدعوة في صف واحد ولا مانع من اقترانهما في التدين بهذه العقيدة من أوّل بزوغها ولا ريب ان علياً أمكن في قلب محمّد من زيد لأنّه هو الذي نقله من بيت أبيه أبي طالب إلى بيته ولأنّه ابن عمه لأبيه وامه ولأنّ خدمة أبي طالب في حق محمّد لا تشكر بصرف أخذه علياً تخفيفاً من ثقل عياله ولأنّ عاطفة علي على محمّد عاطفة واشجة بخلاف زيد فإنّه رجل أجنبي وان تبناه النبي فهذا القرب اللاصق مع اتحاد المنزل والمأوى والأكل والشرب والقيام والقعود قاض باتصال علي بدعوة ابن عمه أكثر من غيره لولا خديجة التي عرفك التاريخ ببعض حقها في خدمة الإسلام والمواظبة على حال محمّد وعلى هذا الاستيناس المتوارد الأطراف من شم الاحتفافات الخارجية

---

(١) وإنّما المذكور انهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن.

والمضامين التاريخية جاءت الروايات في اسلام علي وخديجة بالنسبة إلى غيرهما كما يستبعد أيضاً أن تتعدى الدعوة زيداً وهو في منزل الوحي إلى أبي بكر وهو البعيد مكاناً ومكانة عن محمّد بالنسبة إلى غلامه المعتز به في بيته أبان بزوغ الدعوة حيث محمّد بعد لم يجاهر بدعوته ولم يتصل بهذا ولا ذاك لشديد الروعة الداخلة عليه مما كلف به كما قرأت وعلى هذا وردت الروايات أيضاً مقدمة لاسلام زيد على أبي بكر وغيره من سبق الصحابة ونحن لا يتخالجنا الشك في ايمان خديجة بدعوة محمّد من أوّل بزوغها حيث لا سابق عليها بطور قاطع كما لا يتخالجنا الشك ان علياً لم يفنه آن من آنات الدعوة وهو متخلف عن الداعي الذي هو معه في منزل واحد يقف فيه على كل حركة وسكون يكونان من هذا الإنسان مضافاً إلى واشج العلقة وقرب المنزلة ولصوق التربية ولتأييد اعتبار العقل بالنقل نذكر ما يلي:

من أوّل الناس اسلاماً

١) قال ابن حجر في اصابته علي بن أبي طالب أوّل الناس اسلاماً في قول كثير من أهل العلم ولد قبل البعثة بعشر سنين على الصحيح فربى في حجر النبي ولم يفارقه.

٢) قال ابن عبد البر في الاستيعاب: روي عن سلمان وأبي ذر والمقداد وخباب وجابر وأبي سعيد الخدري وزيد بن أرقم ان علي بن أبي طالب أوّل من أسلم وفضله هؤلاء على غيره. وقال اسحاق: أوّل من آمن بالله وبرسوله محمّد ﷺ من الرجال علي بن أبي طالب وهو قول ابن شهاب إلّا انّه قال من الرجال بعد خديجة وهو قول الجميع في خديجة. وعن عكرمة عن ابن عباس قال لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره: هو أوّل عربي وعجمي صلّى مع رسول

الله وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف وهو الذي صبر معه يوم فرعنه غـيره وهو الذي غلسه وأدخله قبره.

وروي عن سلمان انّه قال: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نـبيها الحـوض اولهـا اسلاماً علي بن أبي طالب، وقد روى هذا الحديث مـرفوعاً عـن سـلمان عـن النبي ﷺ انّه قال: أوّل هذه الأمّة وروداً على الحوض اولها اسلاماً علي بن أبي طالب.

عن خنيس بن المعتمر عن عليم الكندي عن سلمان الفارسي قال: قال رسول الله: اولكم وروداً علي الحوض اولكم اسلاماً علي بن أبي طـالب. وعـن ابـن عباس قال: أوّل من صلى مع النبي بعد خديجة علي بن أبي طالب.

أبو عوانة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: كان علي بن أبي طالب أو من آمن من الناس بعد خديجة. وقال ابن شهاب وعبد الله بن محمّد بن عقيل وقتادة وابن اسحاق أوّل من أسلم من الرجال عـلي واتـفقوا عـلى انّ خديجة أوّل من آمن بالله ورسوله وصدقه فيما جاء به ثمّ علي بعدها وروى في ذلك عن أبي رافع مثل ذلك. وعن عمرو مولى عفرة قال سئل محمّد بـن كـعب القرظي عن أوّل من أسلم أعلي أم أبو بكر قال: سبحان الله علي أولهما اسلاماً وإنّما شبه على الناس لأنّ علياً أخفى اسلامه من أبي طالب وأسلم أبو بكر فأظهر اسلامه ولا شك انّ علياً عندنا أولهما اسلاماً.

معمر عن قتادة عن الحسن قال: أسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة. محمّد بن مسعود عن عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن قال: أسلم علي وهو أوّل من أسلم وهو ابن خمس أو ست عشرة سنة قال: أبو وضاح ما رأيت قـط أعلم بالحديث من محمّد بن مسعود. وقال ابن اسحاق أوّل ذكر آمن بالله ورسوله علي بن أبي طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين، قال أبو عمر وقيل اسلم علي وهو

ابن ثلاث عشرة سنة وقيل ابن اثنتي عشرة وقيل ابن خمس عشرة وقيل ابن ست عشرة وقيل ابن عشر وقيل ابن ثمان.

وذكر عبد الرزاق عن معمر في جامعه عن قتادة عن الحسن وغيره قالوا أوّل من أسلم بعد خديجة علي بن أبي طالب وهو ابن خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة.

عن مقسم عن ابن عباس قال أوّل من أسلم علي. عن ابن عمر قال: أسلم علي بن أبي طالب وهو ابن ثلاث عشرة سنة وتوفي وهو ابن ثلاث وستين سنة. عن سلمة بن كهيل عن حبة بن جرير العرني قال سمعت علياً يقول: لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمّة خمس سنين، وروى شعبة عن سلمة بن كهيل عن حبة العرني قال: سمعت علياً يقول: أنا أوّل من صلى مع رسول الله.

عن أنس بن مالك قال: استنبىء النبي يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء. وقال زيد ابن أرقم: أوّل من آمن بالله بعد رسول الله علي بن أبي طالب. وروى حديث زيد بن أرقم من وجوه ذكرها النسائي واسد بن موسى وغيرهما منها ما عن أبي حمزة الأنصاري قال سمعت زيد بن أرقم يقول: أوّل من صلى مع رسول الله علي بن أبي طالب.

وعن اسماعيل بن أياس بن عفيف الكندي عن أبيه عن جده قال لي: كنت امرءاً تاجراً فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة وكان امرءاً تاجراً فوالله اني لعنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه فنظر إلى الشمس فلما رآها قد مالت قام يصلي قال ثمّ خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تصلي ثمّ خرج غلام قد راهق الحلم من ذلك الخباء فقام معهما يصلي فقلت للعباس من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي. قلت: من هذه المرأة قال: هذه

امرأته خديجة بنت خويلد. قلت: من هذا الفتى؟ قال: علي بن أبي طالب ابن عمه قلت: ما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي وهو يزعم انّه نبي ولم يتبعه فيما ادعى إلّا امرأته وابن عمه هذا الغلام وهو يزعم انّه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر وكان عفيف يقول وانّه قد أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه لو كان الله رزقني الإسلام يومئذٍ فأكون ثانياً مع علي.

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب في ترجمة عفيف الكندي هذا بعد ما ساق عين الحديث الذي ذكرناه عنه آنفاً وحدثني خلف بن قاسم قراءة مني عليه قال: حدثنا أبو أحمد عبد الله بن محمّد بن ناصح بن المغيرة بمصر قال: حدثنا أحمد بن علي بن سعيد القاضي الدمشقي قال: حدثنا يحيى بن معين قال: حدثنا يعقوب بن ابراهيم بن سعد قال: حدثني أبي عن ابن اسحاق قال: حدثنا يحي ابن أبي الاشعث قال: حدثنا اسماعيل بن اياس بن عفيف الكندي عن أبيه عن جده عفيف الكندي؛ وقد روى هذا الحديث أيضاً من وجه آخر عن عفيف الكندي رواه عن سعيد بن خثيم جماعة منهم عبد الرحمن بن صالح الأزدي وأبو غسان مالك بن اسماعيل قال: قرأت على عبد الله بن محمّد بن يوسف ان أبا يعقوب بن يوسف بن أحمد حدثهم بمكة.

وأخبرنا محمّد بن يحيى بن أحمد قال: حدثنا محمّد بن أحمد بن ابراهيم البلخي قالا حدثنا أبو جعفر محمّد بن عمرو بن موسى العقيلي قال حدثنا محمّد بن عبيد بن اسباط قال حدثنا أبو غسان مالك بن اسماعيل قال حدثنا سعيد بن خثيم الهلالي عن أسد بن عبد الله البجلي عن ابن يحيى بن عفيف عن أبيه عن جده قال جئت في الجاهلية إلى مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب فبينا انا عنده وأنا انظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس وارتفعت إذ جاء شاب حتى دنا من الكعبة فرفع رأسه وانتصب قائماً مستقبلها إذ جاء غلام حتى قام عن يمينه ثمّ لم

ألبث إلّا يسيراً حتى جاءت امرأة فقامت من خلفهما ثمّ ركع الشاب وركع الغلام وركعت المرأة ثمّ رفع الشاب رأسه ورفع الغلام ورفعت المرأة ثمّ خرّ الشاب ساجداً وخر الغلام وخرّت المرأة فقال العباس أتدري من هذا؟ قلت: لا، قال: هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن اخي وهذا علي بن أبي طالب وهذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن اخي ان ابن اخي هذا حدثنا ان ربه رب السموات والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه ولا والله ما أسلم على وجه الأرض أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة. قال عفيف: فتمنيت أن أكون رابعهم. وقال ابن عبد البر في صدر ترجمة عفيف هذا ولا يختلفون ان عفيفاً الكندي له صحبة روى عنه ابناه يحيى واياس أحاديث منها نزوله على العباس في أوّل الإسلام حديث حسن جداً. وقال ابن عبد البر في سياق ما سقناه عنه آنفاً في ترجمة علي عليه السلام وقال علي رضي الله عنه صليت مع رسول الله كذا وكذا لا يصلي معه غيري إلّا خديجة.

٣) وقال ابن حجر في ترجمة عفيف الكندي من أصابته انّه ابن عم الأشعث بن قيس وقيل عمه وبه جزم الطبري وقيل أخوه والأكثر على انّه ابن عمه واخوه لامه وبه جزم أبو نعيم قال ابن حبان له صحبة. وقال الطبري اسمه شرحبيل وعفيف لقب وقال الجاحظ اسمه شراحيل ولقب عفيفاً.

وروى البغوي وأبو يعلى والنسائي في الخصائص والعقيلي في الضعفاء من طريق أسد بن وداعة عن ابن يحيى بن عفيف عن أبيه عن جده قال: جئت في الجاهلية إلى مكة وأنا أُريد أن أبتاع لأهلي فأتيت العباس فانا عنده جالس أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء إذ جاء شاب فاستقبل الكعبة ثمّ لم ألبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه ثمّ جائت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام والمرأة ثمّ رفعوا ثمّ سجدوا فقلت يا عباس أمر عظيم؟ قال: أجل

قلت: من هذا؟ قال: هذا محمّد بن عبد الله ابن اخي وهذا الغلام علي ابن أخي وهذه المرأة خديجة، وقد أخبرني ان رب السماوات والأرض أمره بهذا الدين ولا والله ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة. قال عفيف: فتمنيت أن أكون رابعهم، قال ابن عبد البر هذا حديث حسن جداً قلت وله طريق أُخرى أخرجها البخاري في تاريخه والبغوي وابن أبي خيثمة وابن منده وصاحب الغيلانيات كلهم من طريق يعقوب بن ابراهيم بن سعد عن أبيه عن محمّد بن اسحاق حدثني يحيى بن أبي الاشعث عن اسماعيل بن اياس بن عفيف عن أبيه عن جده فذكر نحوه وقال في آخره ولم يتبعه على امره إلّا امرأته وابن عمه وهو يزعم انّه ستفتح عليه كنوز كسرى وقيصر فكان عفيف يقول وقد اسلم بعد لو كان الله يرزقني الإسلام يومئذ كنت ثانياً مع علي ـ قال البخاري لا يتابع في هذا ـ اقول البخاري محجوج ببعض هؤلاء المحدثين فضلاً عنهم جميعاً وهؤلاء يزيد على كونه واحداً من مئات حفاظ المحدثين والذي يدعوه إلى القاء الشبه المجردة على مثل هذه النقاط انحرافه عن علي وآل علي بصورة مجسمة كما سيوافيك منّا في رده تحقيقات ثقيلة العيار في الفن؛ ثمّ قال ابن حجر ورواه الحاكم في المستدرك من هذا الوجه.

٤) وقال الطبري [١] عن شعبة عن أبي بلج عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس قال: أوّل من صلى علي؛ عن عبد الله بن محمّد بن عقيل عن جابر قال: بعث النبي يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء؛ شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة عن زيد بن أرقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله علي بن أبي طالب؛ قال: فذكرته للنخعي فأنكره وقال أبو بكر أوّل من أسلم ـ أقول انكار النخعي لا قيمة

---

(١) تاريخ الطبري ج ٢ ص ٢١١ وما بعدها.

له ما دام انكاراً مجرداً عن الحجة وهو محجوج بما مر وبما سيجيء مما يطابق هذا ويزيد بأضعاف مضاعفة على ما روي في ان أوّل من أسلم أبو بكر.

أبو كريب قال: حدثنا وكيع عن شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة مولى الانصار عن زيد بن ارقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله علي بن أبي طالب؛ أبو كريب قال: حدثنا عبيد بن سعيد عن شعبة عن عمرو بن مرة قال: سمعت أبا حمزة رجلا من الانصار يقول سمعت علياً يقول أنا عبد الله وأخو رسوله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كاذب مفتري صليت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين.

حدثني محمّد بن عبيد المحاربي قال حدثنا سعيد بن خثيم عن اسد بن عبدة البجلي عن يحيى بن عفيف عن عفيف قال جئت في الجاهلية إلى مكة فنزلت على العباس بن عبد المطلب قال فلما طلعت الشمس وحلقت في السماء وأنا انظر إلى الكعبة أقبل شاب فرمى ببصره إلى السماء ثمّ استقبل الكعبة فقام مستقبلها فلم يلبث حتى جاء غلام فقام عن يمينه قال فلم يلبث حتى جاءت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب فركع الغلام والمرأة فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة فخر الشاب ساجداً فسجدا معه فقلت يا عباس أمر عظيم فقال أمر عظيم أتدري من هذا فقلت لا قال: هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن اخي أتدري من هذا معه قلت لا قال: هذا علي بن أبي طالب ابن عبد المطلب ابن اخي أتدري من هذه المرأة التي خلفهما قلت لا قال: هذه خديجة بنت خويلد زوجة ابن أخي وهذا حدثني ان ربك رب السماء امرهم بهذا الذي تراهم عليه وايم الله ما اعلم على ظهر الأرض كلها أحداً على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة.

حدثنا أبو كريب قال: حدثنا يونس بن بكير قال حدثنا محمّد بن اسحاق قال حدثني يحيى بن أبي الأشعث الكندي من أهل الكوفة قال حدثني اسماعيل بن

اياس بن عفيف عن أبيه عن جده قال كنت امراءً تاجراً فقدمت أيّام الحج فأتيت العباس فبينا نحن عنده إذ خرج يصلي فقام تجاه الكعبة ثمّ خرجت امرأة فقامت معه تصلي وخرج غلام فقام يصلي معه فقلت يا عباس ما هذا الدين ان هذا الدين ما أدري ما هو قال: هذا محمّد بن عبد الله يزعم ان الله أرسله به وان كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه وهذه امرأته خديجة بنت خويلد آمنت به وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب آمن به قال عفيف فليتني كنت آمنت يومئذ فكنت أكون ثالثاً.

حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة بن الفضل وعلي بن مجاهد قال سلمة حدثني محمّد بن اسحاق عن يحيى بن أبي الاشعث قال أبو جعفر وهو في موضع آخر من كتابي عن يحيى بن الاشعث عن اسماعيل بن اياس بن عفيف الكندي وكان عفيف اخا الاشعث بن قيس الكندي لامه وكان ابن عمه عن جده عفيف قال كان العباس بن عبد المطلب لي صديقاً وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر فيبيعه أيّام الموسم فبينا انا عند العباس بن عبد المطلب بمنى فأتاه رجل مجتمع فتوضأ فأسبغ الوضوء ثمّ قام يصلي فخرجت امرأة فتوضأت وقامت تصلي ثمّ خرج غلام قد راهق فتوضأ ثمّ قام إلى جنبه يصلي فقلت ويحك يا عباس ما هذا قال هذا ابن أخي محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب يزعم ان الله بعثه رسولاً وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه وهذه امرأته خديجة ابنة خويلد قد تابعته على دينه قال عفيف بعدما أسلم ورسخ الإسلام في قلبه ياليتني كنت رابعاً.

حدثنا ابن حميد قال حدثنا عيسى ابن سوادة بن الجعد قال حدثنا محمّد بن المنكدر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وأبو حازم المدني والكلبي قالوا علي أوّل من أسلم قال الكلبي اسلم وهو ابن تسع سنين.

حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة عن ابن اسحاق قال كان أوّل ذكر آمن برسول الله وصلى معه وصدقه بما جائه من عند الله علي بن أبي طالب وهو يومئذ ابن عشر سنين وكان مما أنعم الله به على علي بن أبي طالب انّه كان في حجر رسول الله قبل الإسلام.

حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثني محمّد بن اسحاق قال فحدثني عبد بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج قال كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب وما صنع الله له واراده به من الخير انّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله للعباس عمه وكان من أيسر بني هاشم يا عباس انّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا فلنخفف عنه من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ من بنيه رجلاً فنكفهما عنه قال العباس نعم فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا انا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله علياً فضمه إليه وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه فلم يزل علي بن أبي طالب مع رسول الله حتى بعثه الله نبياً فاتبعه علي فآمن به وصدقه ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

حدثنا ابن حميد قال حدثنا سلمة قال فحدثني محمّد بن اسحاق قال وذكر بعض أهل العلم ان رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من عمه أبي طالب وجميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا ثمّ ان أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به قال أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم أو كما قال بعثني الله به رسولاً إلى العباد وأنت يا عم

أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى واحق من أجابني إليـه وأعـانني عليه أو كما قال فقال أبو طالب يا ابن أخي اني لا أستطيع أن افارق ديني ودين آبائي وماكانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك بشيء تكرهه ما حييت.

أقول: ما يرجع من ذيل هذا الخبر لشأن أبي طالب سوف نـتكلم عـليه فـي اسلام أبي طالب إن شاء الله.

٥) وقال ابن الأثير(١) اختلف العلماء في أوّل من اسلم مع الاتفاق على ان خديجة أوّل خلق الله اسلاماً ـ فقال قوم أوّل ذكر آمن علي ـ روي عن علي عليه السلام انّه قال: أنا عبد الله واخو رسوله وانا الصديق الأكبر لا يقولها بـعدي إلّا كـاذب مفتري صليت مع رسول الله قبل الناس بسبع سنين. وقال ابن عـباس أوّل مـن صلى علي. وقال جابر بن عبد الله بعث النبي يـوم الاثـنين وصـلى عـلي يـوم الثلاثاء. وقال زيد بن أرقم أوّل من أسلم مع النبي علي. وقال عفيف الكـندي: كنت امرءً تاجراً فقدمت مكة أيّام الحج فأتيت العباس فبينما نحن عنده إذ خرج رجل فقام تجاه الكعبة يصلي ثمّ خرجت امرأة تصلي معه ثمّ خرج غـلام فـقام يصلي معه فقلت يا عباس ما هذا الدين فقال هذا محمّد بن عبد الله ابن أخي زعم ان الله أرسله وان كنوز كسرى وقيصر ستفتح عليه وهذه امرأته خديجة آمنت به وهذا الغلام علي بن أبي طالب آمن به وأيم الله ما أعلم على ظهر الأرض أحداً على هذا الدين إلّا هؤلاء الثلاثة، قال عفيف: ليتني كنت رابعاً.

وقال محمّد بن المنذر وربيعة بن أبي عبد الرحمن وأبو حازم المدني والكلبي أوّل من أسلم علي، قال الكلبي كان عمره تسع سنين وقيل احدى عشرة سـنة وقال ابن اسحاق أوّل من أسلم علي وعمره احدى عشرة سنة. وكان من نـعمة

(١) تاريخ ابن الأثير: ج ٢ ص ٣٧ و ٣٨.

الله عليه ان قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثيرة فقال يوماً رسول الله لعمه العباس يا عم ان أبا طالب كثير العيال فانطلق بنا نخفف عن عيال أبي طالب فانطلقا إليه وأعلماه ما أرادا فقال أبو طالب اتركا لي عقيلاً واصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله علياً وأخذ العباس جعفراً فلم يزل علي عند النبي حتى أرسله الله فاتبعه وكان النبي إذا أراد الصلاة انطلق هو وعلي إلى بعض الشعاب بمكة فيصليان ويعودان فعثر عليهما أبو طالب فقال يا ابن أخي ما هذا الدين قال دين الله وملائكته ورسله ودين أبينا ابراهيم بعثني الله تعالى به إلى العباد وأنت أحق من دعوته إلى الهدى وأحق من أجابني قال لا استطيع ان افارق ديني ودين آبائي ولكن والله لا تخلص قريش اليك بشيء تكرهه ما حييت. وكما أسلفنا سنتكلم على ذيل هذا الحديث المربوط بأبي طالب.

٦) وقال المسعودي [١]: وقد تنوزع في علي بن أبي طالب كرم الله وجهه واسلامه فذهب كثير من الناس إلى انّه لم يشرك بالله شيئاً فيستأنف الإسلام بل كان تابعاً للنبي في جميع أفعاله مقتدياً به وبلغ وهو على ذلك وان الله عصمه وسدده ووفقه لتبعيته لنبيه ﷺ لأنّهما كانا غير مضطرين ولا مجبورين على فعل الطاعات بل مختارين قادرين فاختار طاعة الرب وموافقة أمره واجتناب منهياته. ومنهم من رأى انّه أوّل من آمن وان الرسول دعاه وهو موضع التكليف بظاهر قوله جدل وعز وأنذر عشيرتك الأقربين وكان بدؤه بعلي إذ كان أقرب الناس إليه وأتبعهم له.

٧) وفي المعتصر [٢] عن عمرو بن ميمون قال اني لجالس إلى ابن عباس إذ

---

(١) مروج الذهب: ج ٢ ص٢٨٣.

(٢) المعتصر للقاضي أبي المحاسن يوسف بن موسى الحنفي والمختصر للقاضي أبي الوليد الباجي ومشكل الآثار للطحاوي راسم الكتاب المنوه عنه المعتصر من المختصر من مشكل الآثار.

أتاه سبعة رهط فسألوه عن علي فقال كان أوّل من أسلم من الناس بعد خديجة.

٨) قال الماتن والشارح في كتاب شرح السير الكبير [١] بلغنا ان علي بن أبي طالب أسلم مع رسول الله وهو ابن تسع سنين فلو حضر قتالاً لقاتل. قال الشارح ولا خلاف في انّه أسلم في أوّل مبعث رسول الله ولا خلاف انّه لم يكن بالغاً حين أسلم وعليه دل قوله رضي الله عنه:

سبقتكم إلى الإسلام طراً غلاماً ما بلغت أوان حلم

أقول: ما استدل به من قول علي كما يشهد بعدم بلوغه حين اسلامه يشهد بأنّه أوّل الناس اسلاماً بلا تردد ونحن نفند قوله أخيراً ولا خلاف انّه لم يكن بالغاً حين أسلم بما مر من النقول الدالة على انّه أسلم وله من العمر خمس عشرة سنة أو ست عشرة سنة وما دل على ما دونهما من التحديدات فكيف صح له ان يقول ولا خلاف.

٩) قال السيوطي في ديباجه اللئالئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة من طبعتها الأُولى بمصر: فإنّ من مهمات الدين التنبيه على ما وضع من الحديث واختلق على سيد المرسلين وقد جمع في ذلك الحافظ أبو الفرج ابن الجوزي كتاباً فأكثر فيه من اخراج الضعيف الذي لم ينحط إلى رتبة الوضع بل ومن الحسن ومن الصحيح كما نبه على ذلك الأئمة الحفاظ. ونحن في التقاطنا من هذا الكتاب ما يرتبط بالموضع لا نذكر إلّا ما يتعقبه السيوطي على ابن الجوزي وينفي عنه تهمة الوضع بقوله قلت إلى آخر ما يذكره فتدبر ذلك.

---

(١) السير الكبير والصغير كتابانّ في الفقه لمحمد بن الحسن الشيباني من ائمة الحنفية وشرح السير لابن أبي سهل السرخسي الفقيه الحنفي المشهور والنقل المزبور (ج ١ ص ١٣٥).

أبو الفرج ابن الجوزي: عن محمّد بن عبيد الله بن أبي رافع عن عبد الله بن عبد الرحمن الجرمي عن أبيه عن أبي أيّوب الأنصاري مرفوعاً لقد صلت الملائكة عليَّ وعلى علي سبع سنين وذلك انّه لم يصل معي رجل غيره. محمّد بن عبيد الله ليس بشيء منكر الحديث جداً. قال السيوطي: هو من رجال ابن ماجة؛ أي لو كان ساقطاً عن درجة الاعتبار لما روي عنه وهو من أئمة المحدثين عند العامة ومن معارفيهم.

قال السيوطي: قال ابن عساكر أنبأنا أبو الحسن الفرضي إلى ان انهى سنده إلى الأعمش عن أبي ظبيان عن أبي ذر قال: قال رسول الله ان الملائكة صلت علي وعلى علي سبع سنين قبل ان يسلم بشر.

قال السيوطي: الحديث عن علي انا عبد الله واخو رسوله وانا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كاذب صليت قبل الناس سبع سنين أخرجه الحاكم في المستدرك وقال صحيح على شرط الشيخين وتعقبه الذهبي في تلخيصه بأنّ عباداً ـ أحد رواة هذا الحديث ـ ضعيف وقال السيوطي ذكره ابن حبان في الثقات.

أبو الفرج ابن الجوزي: عن شعيب بن صفوان عن أجلح عن سلمة بن كهيل عن حبة بن جوين عن علي قال عبدت الله مع رسوله قبل أن يعبده رجل من هذه الأُمّة خمس سنين أو سبع سنين. موضوع الأجلح منكر الحديث وحبة واه في الحديث غال في التشيع. قال السيوطي: الاجلح روى له الاربعة ووثقه ابن معين والعجلي وقال أبو حاتم ليس بالقوي وقال النسائي ضعيف وقال ابن عدي شيعي صدوق.

أقول: رواية هؤلاء المحدثين عنه وعدم اسقاطهم له عن الاعتبار في أكثرهم قاض بعدم البأس به وبمروياته. قال السيوطي وحبة ضعفه الأكثر وقال العجلي

تابعي ثقة وقال الطبراني يقال له رؤية وقال ابن عدي ما رأيت له منكراً قد جاوز الحد.

أقول: وهذا التوصيف من هؤلاء جابر له، قال السيوطي والحديث أخرجه الحاكم حدثنا أبو عمر الزاهد حدثنا محمّد بن هشام المروزي حدثنا أبو ابراهيم الترجماني حدثنا شعيب بن صفوان به، أي بالحديث الآنف وهذا السند خال عن الاجلح وعن حبة فلا غمز في سنده. قال السيوطي وتعقبه الذهبي في تلخيص المستدرك بأنّ خديجة وأبا بكر وبلالا وزيداً آمنوا أوّل ما بعث النبي وعبدوا الله معه ولعل السمع أخطأ ويكون علي قال عبدت الله مع رسوله ولي سبع سنين ولم يضبط الراوي ما سمع.

أقول: ما تعقب به الذهبي باطل فإنّ الخلاف في الاولية ان يكن فهو بين أبي بكر وعلي وبين زيد على قول نادر كما يظهر للمتتبع ظهوراً بينا على ان الآثار الواردة في تقدم اسلام علي أكثر مما ورد في أبي بكر كما تجده في بحثنا هذا وأما بلال فهو ليس من نقاط هذا البحث وقد اغفل ذكره في هذه المسابقة كل من كتب فيها حسبما اطلعنا عليه وامّا خديجة فقد أبدينا رأينا في حقها سالفاً وليس منظور علي عليه السلام من قوله عبدت الله قبل ان يعبده احد من الناس خمس سنين أو سبع سنين ان مبتدأ هذه الخمس أو السبع أوّل البعثة فإنّ ذلك مما لا يصح تزويره فضلاً عن ثبوته الواقعي فإنّ الدعوة الإسلامية بزغت بين الناس على ما كانت عليه من ضيق وشدة على مقربة في الزمان من أوّل أيّام البعثة بل منظوره انّه كان يعبد الله بالتحنث كما كان يعبده النبي قبل بعثته واتصل ذلك بالبعثة فاشترك المسلمون معهما في العبادة التي كانا يأتيان بها منفرزين عن عامة الناس وهذا المعنى يؤيده التاريخ تأييداً قوياً لأنّ علياً كان في كنف النبي منذ أزمان قبل البعثة وكان له من التوجه نحوه ما سنوافيك بنقوله والتاريخ الوارد في ان عمره

حين البعثة كان ست عشرة سنة أو خمس عشرة أو اقل من ذلك بشيء يسير أكثر من الوارد بأنّ عمره كان حينذاك تسع سنين أو ثماني أو سبعة والتقديرات الاولى وافية بمضمون الحديث الذي رواه الحاكم وتعقبه الذهبي فإنّ ابن السابعة أو الثامنة قابل لأن يكون فطناً رشيداً مميزاً مفككاً بين الحسن والقبح متمرناً بوظائف العبادة قائماً بما يقوم به كبار الإنسان وهذا مما يوجد في كل زمان وبين متشتت الطبقات والأفراد وليس علي في قابلياته أقل مما صورناه. فهذا هو مراد علي عليه السلام لا غيره وقد أخفق الذهبي في نظره اخفاقاً بيناً.

قال السيوطي: وقال الطبراني في الاوسط حدثنا أحمد إلى ان ينهي سنده إلى حبة بن جوين العرني عن علي انّه قال: اللهم انك تعلم انّه لم يعبدك أحد من هذه الأُمّة قبلي ولقد عبدتك قبل أن يعبدك أحد من هذه الأمّة ست سنين. وقال أحمد في مسنده: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم إلى ان أنهى سنده إلى حبة العرني قال: رأيت علياً على المنبر قال: اللهم ما اعترف ان لك عبداً من هذه الأُمّة عبدك قبلي غير نبيك لقد صليت قبل أن يصلي الناس سبعاً.

قال السيوطي: قال أبو نعيم: حدثنا محمّد بن المظفر إلى ان انهى سنده إلى أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لعلي وضرب بين كتفيه يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيهن أحد يوم القيامة أنت أوّل المؤمنين بالله ايماناً وأوفاهم بعهد الله وأقومهم بأمر الله وأرفقهم بالرعية وأقسمهم بالسوية وأعلمهم بالقضية وأعظمهم مزية يوم القيامة.

قال السيوطي ـ حديث ـ اولكم وروداً علي الحوض أولكم اسلاماً علي بن أبي طالب ـ أخرجه الخطيب أنبأنا أحمد بن محمّد إلى ان يقول حدثنا يوسف بن محمّد عن سفيان به ـ أي بالحديث المزبور ـ وأخرجه الحاكم في المستدرك حدثنا أبو بكر بن اسحاق إلى ان يقول حدثنا سفيان الثوري به، أي بالحديث

الآنف. وقال أبو بكر بن أبي عاصم حدثنا أبو مسعود حدثنا عبد الرزاق عن سفيان عن سلمة بن كهيل عن أبي صادق عن عليم الكندي عن سلمان قال: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيها اولها اسلاماً علي بن أبي طالب وهذه متابعة قوية جداً ولا يضر ايراده بصيغة الوقف لأنّ له حكم الرفع؛ وقال الحافظ عبد الغني بن سعيد في ايضاح الاشكال حدثنا علي بن عبد الله إلى أن يقول: عن أبي صادق الأسدي قال: سمعت علياً قال: قال سلمان ان أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيها الحوض اولها ايماناً علي بن أبي طالب.

١٠) قال النسائي في الخصائص: أخبرنا محمّد بن المثنى قال انبأنا عبد الرحمن أعني ابن المهدي قال حدثنا شعيب عن سلمة بن كهيل قال سمعت حبة العرني قال سمعت علياً يقول أنا أوّل من صلى مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ أخبرنا محمّد بن المثنى قال حدثنا عبد الرحمن قال حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي عمرة عن زيد بن أرقم قال: أوّل من صلّى مع رسول الله علي. أخبرنا محمّد بن المثنى قال اخبرنا محمّد بن جعفر عن غندر قال حدثنا شعبة عن عمرو بن مرة عن أبي حمزة عن زيد بن أرقم قال: أوّل من أسلم مع رسول الله علي بن أبي طالب. أخبرنا عبد الله بن سعيد قال حدثنا ابن ادريس قال سمعت أبا حمزة مولى الانصار قال سمعت زيد بن أرقم يقول أوّل من صلى مع رسول الله علي بن أبي طالب. أخبرنا محمّد بن عبيد بن محمّد الكوفي قال حدثنا سعيد بن خثيم عن اسد بن وداعة عن ابن يحيى بن عفيف عن أبيه عن جده عفيف قال: جئت في الجاهلية إلى مكة وأنا أريد أن أبتاع لأهلي من ثيابها وعطرها فأتيت العباس بن عبد المطلب وكان رجلاً تاجراً فأنا عنده جالس حيث أنظر إلى الكعبة وقد حلقت الشمس في السماء فارتفعت وذهبت إذ جاء شاب فرمى ببصره إلى السماء ثمّ قام مستقبل الكعبة ثمّ لم ألبث إلّا يسيراً حتى جاء غلام فقام على

يمينه ثمّ لم البث إلّا يسيراً حتى جائت امرأة فقامت خلفهما فركع الشاب فـركع الغلام والمرأة فرفع الشاب فرفع الغلام والمرأة فسـجد الشـاب فسـجد الغـلام والمرأة فقلت يا عباس أمر عظيم قال العباس تدري من هذا الشاب قلت لا قال هذا محمّد بن عبد الله بن أخي أتدري من هذا الغلام هذا علي ابن أخي أتدري من هذه المرأة هذه خديجة بنت خويلد زوجته ان ابن أخي هذا أخبرني ان ربه رب السماء والأرض أمره بهذا الدين الذي هو عليه ولا والله ما على الأرض كلها أحد على هذا الدين غير هؤلاء الثلاثة .

حدثنا أحمد بن سليمان الرهاوي قال حدثنا عبد الله بن موسى قال حـدثنا العلاء بن صالح عن المنهال عن عمرو بن عباد بن عبد الله قال قال علي : أنا عبد الله وأخو رسول الله وأنا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كاذب آمنت قبل الناس سبع سنين .

١١) وقال الحافظ محب الدين الطبري في ذخائر العقبى : قال ابن اسحاق : أسلم علي بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين وقيل ابن ثلاث عشرة وقيل أربع عشرة وقيل خمس عشرة أو ست عشرة . وعن مجاهد بن جبير قال كان من نعمة الله تعالى على علي بن أبي طالب أن قريشاً أصابتهم شدة وكان أبو طالب ذا عيال فقال رسول الله للعباس ان أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا فلنخفف من عياله فقال العباس نعم فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له انا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله ﷺ علياً فضمه إليه وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه فلم يزل علي مع النبي حتى بعثه الله عزوجل فتابعه وآمن به وصدقه ولم يزل جعفر مع العباس .

عن زيد بن ارقم قال : كان أوّل من أسلم علي بن أبي طالب . وعن ابن عباس

قال: علي أوّل من أسلم بعد خديجة. وعن عمر قال: كنت انا وأبو عبيدة وأبو بكر وجماعة إذ ضرب رسول الله منكب علي بن أبي طالب فقال: يا علي أنت أوّل المؤمنين ايماناً وأنت أوّل المسلمين اسلاماً وأنت مني بمنزلة هارون من موسى. وعن أبي ذر قال: سمعت رسول الله يقول لعلي أنت أوّل من آمن بي وصدق. وعن معاذة العدوية قالت: سمعت علياً على المنبر يقول: أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر. وعن سلمان قال: أوّل هذه الأُمّة وروداً على نبيها الحوض اولها اسلاماً علي بن أبي طالب. عن ابن عباس انّه قال: لعلي أربع خصال ليست لأحد غيره وذكر منها انّه أوّل عربي وعجمي صلى مع النبي. وعنه قال: أوّل من صلى علي بن أبي طالب. وعن انس قال: استنبئ النبي يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء. أخرجه الترمذي. وفي بعض الطرق بعث النبي يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء.

وعن الحكم بن عيينة قال: خديجة أوّل من صدق وعلي أوّل من صلى إلى القبلة. وعن رافع قال: صلى النبي يوم الاثنين وصلت خديجة آخر يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء من الغد قبل أن يصلي مع رسول الله أحد.

وعن عفيف الكندي قال: كنت تاجراً فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لابتاع منه بعض التجارة وكان امرءً تاجراً قال فوالله اني عنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه فنظر إلى السماء فلما رآها قام يصلي ثمّ خرجت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفه فصلت ثمّ خرج غلام قد راهق فقام معه يصلي قال فقلت للعباس يا عباس من هذا قال هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي قال فقلت من هذه المرأة قال هذه امرأته خديجة بنت خويلد قال فقلت من هذا الفتى قال هذا ابن عمه علي بن أبي طالب قال قلت ما الذي يصنع قال يصلي وهو يزعم انّه نبي ولم يتبعه احد على أمره إلّا امرأته وابن عمه هذا الفتى وهو

يزعم انّه ستفتح له كنوز كسرى وقيصر، قال: فكان عفيف بن قيس يقول: وقد أسلم بعد ذلك وحسن اسلامه: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثانياً مع علي بن أبي طالب، أخرجه أحمد.

وعن علي عليه السلام قال: عبدت الله من قبل أن يعبده احد من هذه الأُمّة خمس سنين، أخرجه أبو عمر. وعنه عليه السلام قال: صليت قبل أن يصلي الناس سبع سنين، وفي رواية: أسلمت قبل أن يسلم الناس بسبع سنين ـ أخرجهما أحمد ـ. وعنه انّه كان يقول انا عبد الله واخو رسوله وانا الصديق الأكبر لقد صليت قبل الناس بسبع سنين، أخرجه الخلعي.

وعن حبة العرني قال: رأيت علياً على المنبر يقول: اللهم لا أعرف لك عبداً من هذه الأُمّة عبدك قبلي غير نبيك لقد صليت قبل أن يصلي الناس. قال ابن اسحاق ذكر بعض أهل العلم ان رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً عن عمه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا فمكثا على ذلك ما شاء الله أن يمكثا ثمّ ان أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله يا ابن أخي ما هذا الذي أراك تدين به قال أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله بعثني الله عزوجل به رسولاً إلى العباد وأنت يا عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه فقال أبو طالب: أي ابن أخي اني والله لا أستطيع أن أُفارق دين آبائي وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك شيء تكرهه ما بقيت وذكر انّه قال لعلي أي بني ما هذا الذي أنت عليه قال يا أبت آمنت برسول الله وصدقت بما جاء به وصليت معه واتبعته فزعموا انّه قال له امّا انّه لم يدعك إلّا إلى خير فالزمه، أخرجه ابن اسحاق.

١٢) وقال الدكتور هيكل [١]: وعلّم الله نبيه الصلاة فصلى وصلت خديجة معه وكان يقيم معهما غير بناتهما علي بن أبي طالب الذي كان صبياً لم يبلغ الحلم، ذلك ان قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب كثير العيال فقال محمّد لعمه العباس وكان من أكثر بني هاشم يساراً ان اخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الازمة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه وكفل العباس جعفراً وكفل محمّد علياً فلم يزل معه حتى بعثه الله وفيما محمّد وخديجة يصليان يوماً دخل عليهما على مفاجئة فرآهما يركعان ويسجدان ويتلوان مما تيسر مما أوحاه الله يومئذ من القرآن فوقف الشاب دهشاً حتى اتما صلاتهما ثمّ سأل لمن تسجدان فأجابه محمّد أو كما قال إنّما نسجد لله الذي بعثني نبياً وأمرني أن أدعو الناس إليه ودعا محمّد ابن عمه إلى عبادة الله وحده لا شريك له وإلى دينه الذي بعث به نبيه وإلى انكار الأصنام من أمثال اللات والعزى وتلا محمّد ما تيسر من القرآن فأخذ علي عن نفسه وسحره جمال الآيات واعجازها واستمهل ابن عمه حتى يشاور أباه ثمّ قضى ليله مضطرباً حتى إذا أصبح أعلن اليهما انّه اتبعهما من غير حاجة لرأي أبي طالب وقال لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب فما حاجتي أنا إلى مشاورته لأعبد الله وكذلك كان علي أوّل رجل أسلم ومن بعده أسلم زيد بن حارثة مولى النبي وبذلك بقي الإسلام محصوراً في بيت محمّد فيه وفي زوجته وابن عمه ومولا.

١٣) وقال ابن واضح اليعقوبي [٢]: وكان أوّل ما افترض عليه من

---

(١) في كتابه حياة محمّد: ص ١٣٧.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ١٦ و ١٧.

الصلاة [١] الظهر أتاه جبريل فأراه الوضوء فتوضأ رسول الله كما توضأ جبريل ثمّ صلى ليريه كيف يصلي فصلى رسول الله وروى بعضهم ان الظهر ـ الصلاة الوسطى ـ أوّل صلاة صلاها رسول الله وكان يوم جمعة ثمّ اتى خديجة ابنة خويلد فأخبرها فتوضأت وصلت ثمّ رآه علي بن أبي طالب ففل كما رآه يفعل، وكان أوّل من اسم خديجة بنت خويلد من النساء وعلي بن أبي طالب من الرجال ثمّ زيد بن حارثة ثمّ أبو ذر وقيل أبو بكر قبل أبي ذر ثمّ عمرو بن عبسة السلمي ثمّ خالد بن سعيد بن العاص ثمّ سعد بن أبي وقاص ثمّ عتبة بن غزوان ثمّ خباب بن الارت ثمّ مصعب بن عمير، وروي عن عمرو بن عبسة [٢] السلمي قال أتيت رسول الله أوّل ما بعث وبلغني أمره فقلت صف لي أمرك فوصف لي أمره وما بعثه الله به فقلت هل يتبعك على هذا أحد قال: نعم امرأة وصبي وعبد؛ يريد خديجة بنت خويلد وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة.

١٤) وقال السيوطي في تاريخ الخلفاء في ترجمة علي قال ابن عباس وانس وزيد بن ارقم وسلمان الفارسي وجماعة انّه أوّل من أسلم ونقل بعضهم الإجماع عليه واخرج أبو يعلى عن علي قال بعث رسول الله يوم الاثنين وأسلمت يوم الثلاثاء.

١٥) وقال الخطيب [٣]: أخبرنا أبو الحسن علي بن القاسم إلى أن قال عن أنس قال استنبىء النبي ﷺ يوم الاثنين وأسلم علي يوم الثلاثاء.

١٦) أبو نعيم [٤] في الفصل الذي عقده لعلي عليه السلام قال سيد القوم محب

---

(١) سيجيء البحث عن أوّل زمن لايجاب الصلاة عليه ﷺ وعلى المسلمين.

(٢) بالعين المهملة والباء الموحدة من تحت والسين المهملة.

(٣) تاريخ بغداد: ج ١ ص ١٣٤.

(٤) ج ١ ص ٦١ وما بعدها من الحلية.

المشهو ومحبوب المعبود باب مدينة العلم والعلوم ورأس المخاطبات ومستنبط الاشارات راية المهتدين ونور المطيعين وولي المتقين وامام العادلين أقدمهم اجابة وايماناً وأقومهم قضية وايقاناً وأعظمهم حلماً وأوفرهم علما علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ثمّ قال حدثنا محمّد بن المظفر إلى ان أنهى سنده إلى أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله لعلي ـ وضرب بين كتفيه ـ يا علي لك سبع خصال لا يحاجك فيهن احد يوم القيامة أنت أوّل المؤمنين بالله وايماناً وأوفاهم بعهد الله وأقومهم بامر الله وأرأفهم بالرعية وأقسمهم بالسوية وأعلمهم بالقضية وأعظمهم مزية يوم القيامة.

١٧) واورد أبو جعفر الاسكافي في رد الجاحظ [١] ما هذا نصه: روى يحيى بن حماد عن أبي عوانة وسعيد بن عيسى عن أبي داود الطيالسي عن عمرو بن ميمون عن ابن عباس انّه قال: أوّل من صلى من الرجال علي عليه السلام.

وروى الحسن البصري قال حدثنا عيسى بن راشد عن أبي بصير عن عكرمة عن ابن عباس قال: فرض الله تعالى الاستغفار لعلي في القرآن على كل مسلم بقوله تعالى: ﴿ **ربنا اغفر لنا ولاخواننا الذين سبقونا بالايمان** ﴾ فكل من أسلم بعد علي فهو يستغفر لعلي.

وروى سفيان بن عيينة عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال: السباق ثلاثة سبع يوشف بن نون إلى موسى وسبق صاحب يس إلى عيسى وسبق علي بن أبي طالب إلى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم.

وروي عن الشعبي من حديث أبي بكر الهذلي وداود بن أبي هند الشعبي قال: قال رسول الله لعلي عليه السلام: هذا أوّل من آمن بي وصدقني وصلى معي. وروى

---

(١) على ما نقله عنه بلفظه ابن أبي الحديد في ج ٣ ص ٢٥٦ وما بعدها من شرح النهج.

شريك بن عبد الله عن سليمان بن المغيرة عن زيد بن وهب عن عبد الله بن مسعود انّه قال: أوّل شيء علمته من أمر رسول الله اني قدمت مكة مع عمومة لي وناس من قومي وكان من أنفسنا شراء عطر فأرشدنا إلى العباس بن عبد المطلب فانتهينا إليه وهو جالس إلى زمزم فبينا نحن عنده جلوساً إذ أقبل رجل من باب الصفا وعليه ثوبان أبيضان وله وفرة إلى انصاف اذنيه جعدة أشم أقنى أدعج العينين كث اللحية براق الثنايا أبيض تعلوه حمرة كأنّه القمر ليلة البدر وعلى يمينه غلام مراهق أو محتلم حسن الوجه تقفوهم امرأة قد سترت محاسنها حتى قصدوا نحو الحجر فاستلمه واستلمه الغلام ثمّ استلمته المرأة ثمّ طاف بالبيت سبعاً والغلام والمرأة يطوفانِ معه ثمّ استقبل الحجر فقام ورفع يديه وكبر وقام الغلام إلى جانبه وقامت المرأة خلفهما فرفعت يديها وكبرت فأطال القنوت ثمّ ركع وركع الغلام والمرأة ثمّ رفع رأسه فأطال ورفع الغلام والمرأة معه يصنعان مثلما يصنع فلما رأينا شيئاً ننكره ولا نعرفه بمكة أقبلنا على العباس فقلنا يا أبا الفضل ان هذا الدين ما كنا نعرفه فيكم قال أجل والله قلنا فمن هذا قال هذا ابن أخي هذا محمّد بن عبد الله وهذا الغلام ابن أخي أيضاً هذا علي بن أبي طالب وهذه المرأة زوجة محمّد خديجة بنت خويلد والله ما على وجه الأرض أحد يدين بهذا الدين إلّا هؤلاء الثلاثة .

ومن حديث موسى بن داود عن خالد بن نافع عن عفيف بن قيس الكندي وقد رواه عن عفيف أيضاً مالك بن اسماعيل النهدي والحسن بن عنبسة الوراق وابراهيم بن محمّد بن ميمونة ؛ ثمّ ساق خبر عفيف بنحو مما سقناه آنفاً .

وروى عبيد الله بن موسى والفضل بن دكين والحسن بن عطية قالوا: حدثنا خالد بن طهمان عن نافع بن أبي نافع عن معقل بن يسار قال: كنت اوصل النبي ﷺ فقال لي هل لك أن تعود فاطمة قلت نعم يا رسول الله فقام يمشي

متوكئاً علي وقال أما انّه سيحمل ثقلها غيرك ويكون أجرها لك قال فوالله كأنّه لم يكن علي من ثقل النبي شيء فدخلنا على فاطمة عليها السلام فقال صلى الله عليه وآله وسلم لها كيف تجدينك قالت لقد طال اسفي واشتد حزني وقال لي النساء زوجك أبوك فقيراً لا مال له فقال لها أما ترضين اني زوجتك أقدم امتي سلماً وأكثرهم علماً وأفضلهم حلماً قالت بلى رضيت يا رسول الله.

وقد روى هذا الخبر يحيى بن عبد الحميد وعبد السلام بن صالح عن قيس بن الربيع عن أبي أيّوب الأنصاري بألفاظه أو نحوها.

وروى عبد السلام بن صالح عن اسحاق الأزرق عن جعفر بن محمّد عن آبائه ان رسول الله لما زوج فاطمة دخل النساء عليها فقلن يا بنت رسول الله خطبك فلان وفلان فردهم عنك وزوجك فقيراً لا مال له فلما دخل عليها أبوها صلى الله عليه وآله وسلم رأى ذلك في وجهها فسألها فذكرت له ذلك فقال يا فاطمة ان الله أمرني فأنكحتك أقدمهم سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً وما زوجتك إلّا بأمر من السماء أما علمت انّه أخي في الدنيا والآخرة.

وروى عثمان بن سعيد عن الحكم بن ظهير عن السدي ان أبا بكر وعمر خطبا فاطمة عليها السلام فردهما رسول الله وقال لم اؤمر بذلك فخطبها علي فزوجه اياها وقال لها زوجتك أقدم الأُمّة اسلاماً وذكر تمام الحديث. قال وقد روى هذا الخبر جماعة من الصحابة منهم أسماء بنت عميس وام أيمن وابن عباس وجابر بن عبد الله.

قال وقد روى محمّد بن عبد الله بن أبي رافع عن أبيه عن جده أبي رافع قال: أتيت أبا ذر بالربذة اودعه فلما أردت الانصراف قال لي ولأُناس معي ستكون فتنة فاتقوا الله وعليكم بالشيخ علي بن أبي طالب فاتبعوه فاني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول له أنت أوّل من آمن بي وأوّل من يصافحني يوم القيامة وانت

الصديق الأكبر وانت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وأنت يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الكافرين وأنت أخي ووزيري وخير من أترك بعدي تقضي ديني وتنجز موعودي .

قال : وقد روى ابن أبي شيبة عن عبد الله بن نمير عن العلاء بن صالح عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الأسدي قال : سمعت علي بن أبي طالب يقول أنا عبد الله وأخو رسوله وانا الصديق الأكبر لا يقولها غيري إلّا كذاب ولقد صليت قبل الناس سبع سنين .

وروت معاذة بنت عبد الله العدوية قالت سمعت علياً يخطب على منبر البصرة ويقول : أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم .

وروى حبة بن جوين العرني انّه سمع علياً يقول : انا أوّل رجل أسلم مع رسول الله . رواه أبو داود الطيالسي عن شعبة عن سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن حبة بن جوين . وقد روي بروايات مختلفة كثيرة متعددة عن زيد بن أرقم وسلمان الفارسي وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك ان علياً أوّل من أسلم . وساق أبو جعفر الاسكافي كثيراً من الأخبار والأحاديث الناصة على ذلك وقد قدمنا جملة منها عن غيره من المحدثين .

وقال في رد الجاحظ حيث استدل باشعار تؤيد سابقية أبي بكر ؛ وامّا الاشعار المروية فمعروفة كثيرة منتشرة فمنها قول عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب مجيباً للوليد بن عقبة بن أبي معيط :

وان ولي الأمر بعد محمّد ... علي وفي كل المواطن صاحبه

وصي رسول الله حقاً وصنوه ... وأوّل من صلّى ومن لانَ جانبه

وقال خزيمة بن ثابت في هذا:

وصي رسـول الله مـن دون أهـله وفارسه مذ كان في سالف الزمن
وأوّل من صلى من النـاس كـلهم سوى خيرة النسوان والله ذو منن

وقال أبو سليمان بن حرب بن امية بن عبد شمس حين بويع أبو بكر:

ما كنت أحسب ان الأمر منصرف عن هاشم ثمّ منها عن أبي حسن
أليس أوّل مـن صـلى لقبلتهم وأعلم الناس بالأحكام والسـنن

وقال أبو الأسود الدئلي يهدد طلحة والزبير:

وان علياً لكم مصحر يماثله الأسد الاسود
امّا انّه أوّل العـابدين بـمكة والله لا يـعبد

وقال سعيد بن قيس الهمداني يرتجز بصفين:

هذا علي وابن عم المـصطفى أوّل مـن أجـابه فـيما روى
هو الامام لا يبالي من غوى

وقال زفر بن يزيد بن حذيفة الأسدي:

فـحوطوا عـلياً وانـصروه فـإنّه وصـي وفـي الإسـلام أوّل أوّل
وان تخذلوه والحـوادث جـمة فليس لكم عن أرضكم متحول

قال والأشعار كالأخبار إذا امتنع في مجيء القبيلين التواطؤ والاتـفاق كـان ورودهما حجة؛ ثمّ انتقل أبو جعفر الاسكافي بعد شوط من البحث إلى موضوع سن علي عليه السلام حين أسلم فقال في رده على الجاحظ فاما قوله ان المقلل يزعم انه أسلم وهو ابن خمس سنين والمكثر يزعم انّه أسلم وهو ابن تسع سنين فأول ما

يقال في ذلك ان الأخبار جاءت في سنة يوم أسلم علي خمسة أقسام :

القسم الأوّل : الذين قالوا أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة حدثنا بذلك أحمد بن سعيد الأسدي عن اسحاق بن بشر القرشي عن الأوزاعي عن زمرة بن حبيب عن شداد بن اوس قال : سألت خباب بن الارت عن اسلام علي فقال : أسلم وهو ابن خمس عشرة سنة ولقد رأيته يصلي قبل الناس مع النبي وهو يومئذ بالغ مستحكم البلوغ وروى عبد الرزاق عن معمر عن قتادة عن الحسن ان أوّل من أسلم علي بن أبي طالب وهو ابن خمس عشرة سنة .

القسم الثاني : الذين قالوا انّه أسلم وهو ابن أربع عشرة سنة رواه أبو قتادة الحراني عن أبي حازم الأعرج عن حذيفة بن اليمان قال : كنا نعبد الحجارة ونشرب الخمر وعلي من أبناء أربع عشرة سنة قائم يصلي مع النبي ليلاً ونهاراً وقريش يومئذ تسافه رسول الله ﷺ ما يذب عنه إلّا علي . وروى ابن أبي شيبة عن جرير بن عبد الحميد قال : أسلم علي وهو ابن أربع عشرة سنة .

القسم الثالث : الذين قالوا أسلم وهو ابن احدى عشرة سنة رواه اسماعيل بن عبد الله الرقي عن محمّد بن عمر عن عبد الله بن سمعان عن جعفر بن محمّد عن أبيه محمّد بن علي ان علياً حين أسلم كان ابن احدى عشرة سنة وروى عبد الله بن زياد المدني عن محمّد بن علي الباقر قال : أوّل من آمن بالله علي بن أبي طالب وهو ابن احدى عشرة سنة وهاجر إلى المدينة وهو ابن أربعة وعشرين سنة .

القسم الرابع : الذين قالوا انّه أسلم وهو ابن عشر سنين رواه نوح بن دراج عن محمّد بن اسحاق قال : أوّل ذكر آمن وصدق بالنبوة علي بن أبي طالب وهو ابن عشر سنين ثمّ أسلم زيد بن حارثة ثمّ أسلم أبو بكر وهو ابن ست وثلاثين سنة فيما بلغنا .

القسم الخامس: الذين قالوا انّه أسلم وهو ابن تسع سنين رواه الحسن بن عنبسة الوراق عن سليم مولى الشعبي عن الشعبي قال: أوّل من أسلم من الرجال علي بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين وكان له يوم قبض رسول الله تسع وعشرون سنة ـ ا هـ ـ محل الحاجة.

أقول: ونحن اتماماً للأقوال في عمره نقول ـ وان كنا أسلفنا جملة من ذلك فراجع ـ قال ابن عبد البر في الاستيعاب وذكر الحسن بن علي الحلواني في كتاب المعرفة له قال حدثنا عبد الله بن صالح قال حدثنا الليث بن سعد عن أبي الأسود محمّد بن عبد الرحمن انّه بلغه ان علي بن أبي طالب والزبير أسلما وهما ابنا ثمان سنين هكذا كان يقول أبو الأسود يتيم عروة، وذكره أيضاً ابن أبي خيثمة عن قتيبة بن سعيد عن الليث بن سعد عن أبي الأسود وذكره عمر بن شبة عن الخزاعي عن ابن وهب عن الليث عن أبي الأسود قال الليث: وهاجرا وهما ابنا ثمان عشرة سنة ولا أعلم أحداً قال بقول أبي الأسود هذا ـ أقول ـ لازم هذا القول ان يكون عمره حين أسلم خمس سنين بناء على ما عليه الأكثر من ان مكث النبي بمكة كان ثلاث عشرة سنة وعليه تتنافى فقرات هذا التاريخ فإنّ اوله ينص ان علياً والزبير اسلما وهما ابنا ثمان سنين وآخره يحكم بالخمس دون الثمان اللهم إلّا أن يقال بقول من يحدد المسافة بين البعثة والهجرة بعشر سنين.

ثمّ ذكر عن قتادة عن الحسن قال: أسلم علي وهو ابن خمس عشرة سنة وفي رواية عن الحسن أيضاً انّه ابن ست عشرة سنة. وقال ابن اسحاق انّه ابن عشر سنين وقيل ابن اثنتي عشرة سنة وقيل ابن ثمان سنين. ثمّ ذكر عن ابن عمر انّه قال أسلم علي بن أبي طالب وهو ابن ثلاث عشرة سنة وتوفى وهو ابن ثلاث وستين، قال أبو عمر هذا أصح ما قيل في ذلك وقد روى عن ابن عمر من وجهين جيدين ـ ا هـ ـ ما عن الاستيعاب بتلخيص. وقال السرخسي في شرح السير

الكبير [١] وفي رواية انّه أسلم وهو ابن سبع سنين.

أقول: وينفى القول بالخمس والسبع والثمان بل والتسع أُمور:

الأوّل: انها قليلة القائل في قبال ما فوقها من التحديدات.

الثاني: ما أسلفناه من النقول المستفيضة على انّ قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب كثير العيال فقال محمّد للعباس انّ أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه وكفل العباس جعفراً وكفل محمّد علياً فلم يزل معه حتى بعثه الله. ومن يقال في حقه هذا القول لا يجوز أن يكون ابن خمس أو ست بل أو سبع حين أخذه للكفالة فضلاً عن زمان البعثة المنفصل تاريخه عن تاريخ الأخذ المذكور بمدة غير يسيرة من الزمان لأنّ مثل هذا العمر لا ينفصل به الإنسان عن حضانة امه غالباً كما لا يسع امه أن تفارقه في الأعم الأغلب نعم يجوز أن يكون حين أخذه ابن تسع أو ابن عشر.

الثالث: الروايات الكثيرة الناصة على كونه صلى قبل الناس بسبع أو بست أو بخمس وحديث عفيف الكندي على تكثر طرقه الصريح في انّه كان غلاماً مراهقاً وهذه الروايات بعد تكثر طرقها وذكر أهل الحديث لها بتوسع لا ريب في صدورها وهي لا تلائم الخمس ولا السبع ولا الثمان ولا التسع ولا العشر بل لا تنطبق إلّا على الثلاث عشرة إلى الخمس أو الست عشرة سنة بوضوح.

ثمّ اننا نجد التطابق الواضح في المؤرخين والمحدثين وكتاب السيرة ومترجمي الصحابة عندما يذكرون حديث البعثة فلا يفصلون بين ذكر النبي وعلي وخديجة في الإسلام والصلاة ان في البيت أو في منى أو في شعاب مكة

---

(١) ج ١ ص ١٣٥.

على طول الخط من حديثهم حول بعثة النبي وأوّل ما أُوحي إليه وتعليم جبرئيل اياه الوضوء والصلاة فإن يكن علي في هذه الأحوال بالغاً ويعد رجلاً من الرجال فذاك وإن كان مع كونه ابن خمس سنين أو سبع أو تسع أو عشر لا تخلو منه هذه الجامعة المنتظمة به وبالنبي وبخديجة ولم يخفه صغر سنه عن نبوغه وظهوره وعده في عداد الكمل من المكلفين الفائتين حد البلوغ بمراحل بحيث كان ضلعاً بارزاً في هؤلاء المسلمين الذين لا يزيدون في العد على اثنين وهو ثالثهم وكان احد المأمومين بالنبي ـ خديجة وعلي ـ وفي روايات صلاتهما في شعاب مكة ـ انّه المأموم الوحيد ـ فذاك أعظم لشخصه وادل على نبوغه وأكرم لمقامه حيث دلت دعوة النبي له واصطحابه اياه وهو بهذا العمر القليل على كفايته لما دعى له ولياقته لما أُريد منه ومزيد عناية الله ورسوله به حتى وقع من لطفهما هذا الموقع الناص على طهارة ظرفه وعظم مواهبه الروحية وبمثل ذلك جل قدر عيسى بن مريم حيث أظهر الله نبوغه وهو في المهد صبي حين ﴿ **قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً * وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلاَةِ وَٱلزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً * وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيّاً * وَٱلسَّلاَمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً** ﴾ (١) وبهذا أيضاً ترغم انوف كثيرين ممن تصدوا من أوّل وقائع السقيفة إلى ويمنا هذا لدك علي واخفاء صوته وتضعيف مقامه وضليل كل من روى في حقه مكرمة أو شاد له فضيلة وعند تمام نقولنا على تقدم اسلام علي نجول جولة معززة حول تعصب هؤلاء الناقمين.

١٨) وقال ابن قتيبة في المعارف في فصل عقده لتقدم اسلام أبي بكر والاختلاف في ذلك ص ٧٣: قال ابن اسحاق كان أوّل من اتبع رسول الله وآمن به

(١) سورة مريم: آية ٣٠ ـ ٣٣.

من أصحابه علي بن أبي طالب وهو ابن تسع سنين [١] ثمّ زيد بن حارثة ثمّ أبو بكر بن أبي قحافة ثمّ اسلم رهط من المسلمين منهم عثمان بن عفان والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص وطلحة بن عبيد الله، قال حدثني أبو الخطاب قال حدثني نوح بن قيس قال حدثنا سليمان أبو فاطمة عن معاذة بنت عبد الله العدوية قال: سمعت علي بن أبي طالب على منبر رسول الله ﷺ يقول: أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم أبو بكر. قال وحدثني أبو الخطاب قال حدثنا أبو داود قال حدثنا شعبة عن سلمة بن كهيل قال سمعت حبة العرني يقول: سمعت علياً يقول: انا أوّل من صلى مع رسول الله ﷺ ـ ا هـ ـ ولم يذكر ابن قتيبة في تقدم اسلام أبي بكر إلّا حديثاً واحداً في قبال ما ذكر في حق علي عليه السلام.

١٩) وقال ابن هشام في سيرته [٢]: قال ابن اسحاق: ثمّ كان أوّل ذكر من الناس آمن برسول الله وصلى معه وصدق بما جائه من الله تعالى علي بن أبي طالب ابن عبد المطلب بن هاشم وهو ابن عشر سنين يومئذ وكان مما أنعم الله على علي بن أبي طالب انّه كان في حجر رسول الله قبل الإسلام.

قال ابن اسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي نجيح عن مجاهد بن جبر أبي الحجاج قال: كان من نعمة الله على علي بن أبي طالب ومما صنع الله له وأراده به من الخير ان قريشاً أصابتهم أزمة شديدة وكان أبو طالب ذا عيال كثير فقال رسول الله للعباس عمه وكان من أيسر بني هاشم يا عباس ان أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من

---

(١) المعروف عن ابن اسحاق انّه ابن عشر سنين كما تقدم وكما سيجيء.

(٢) ج ١ ص ٢٦٤ وما بعدها.

عياله آخذ من بنيه رجلاً وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه فقال العباس نعم فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا له انا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب إذا تركتما لي عقيلاً فاصنعا ما شئتما . قال ابن هشام ويقال عقيلاً وطالباً . فأخذ رسول الله علياً فضمه إليه وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه فلم يزل علي مع رسول الله حتى بعثه الله تبارك وتعالى نبياً فاتبعه علي وآمن به وصدقه ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه .

قال ابن اسحاق وذكر بعض أهل العلم انّ رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي بن أبي طالب مستخفياً من أبيه أبي طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله ان يمكثا ثمّ ان أبا طالب عثر عليهما يوماً وهما يصليان فقال لرسول الله يا ابن أخي ما هذا الدين الذي أراك تدين به قال : أي عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم أو كما قال بعثني الله به رسولاً إلى العباد وأنت أي عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابني إليه وأعانني عليه أو كما قال فقال أبو طالب أي ابن أخي اني لا أستطيع أن أُفارق دين آبائي وما كانوا عليه ولكن والله لا يخلص اليك بشيء تكرهه ما بقيت وذكروا انّه قال لعلي أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه فقال يا ابت آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته فزعموا انّه قال له امّا انّه لم يدعك إلّا إلى خير فالزمه ـ اهـ.

٢٠) وفي السيرة الحلبية [١] عن ابن اسحاق ان خديجة كانت أوّل من آمن

---

(١) ج ١ ص ٣٠٣ وما بعدها.

بالله ورسوله وصدقت ما جاء به عن الله تعالى وكان لا يسمع شيئاً يكـرهه مـن قومه إلّا فرج الله عنه بها إذا رجع اليها وأخبرها به. ثمّ علي بن أبي طالب فـفي المرفوع عن سلمان ان النبي ﷺ قال: أوّل هذه الأمّة وروداً عـلي الحـوض أولهما اسلاماً علي بن أبي طالب. وجاء انّه لما زوجه فاطمة قال لهـا زوجـتك سيداً في الدنيا والآخرة وانّه لأوّل أصحابي اسلاماً وأكـثرهم عـلماً وأعـظمهم حلماً وكان لم يبلغ الحلم كما سيأتي حكاية الإجماع عليه كان سنه ثمان سنين وكان عند النبي قبل أن يوحى إليه يطعمه ويقوم بأمره لأنّ قريشاً كـان أصـابهم قحط شديد وكان أبو طالب كثير العيال فقال رسول الله لعمه العباس انّ أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله تأخذ واحداً وآخذ أنا واحداً فجاءا إليه وقالا انا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب إذا تركتما لي عقيلاً قيل وطالباً فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله علياً فضمه إليه وأخذ العـباس جـعفراً فضمه إليه وتركا له عقيلا وطالباً فلم يزل علي مع رسول الله.

وفي خصائص العشرة للزمخشري ان النبي تولى تسميته بعلي وتغذيته اياماً من ريقه المبارك يمصه لسانه فعن فاطمة بنت أسد أم علي انها قالت لما ولدتـه سماه علياً وبصق في فيه ثمّ انّه ألقمه لسانه فما زال يمصه حتى نام قالت فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدي أحد فدعونا له محمّداً فألقمه لسانه فنام فكان كذلك ما شاء الله هذا كلامه.

وعنها رضي الله عنها انها في الجاهلية أرادت أن تسجد لهبل وهي حامل بعلي فتقوس في بطنها فمنعها من ذلك ـ إلى أن يقول ـ وسبب اسلام علي انّه دخل على النبي ومعه خديجة وهما يصليان سراً فقال ما هذا فقال رسول الله دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسله فادعوك إلى الله وحده لا شـريك له وإلى عـبادته

وإلى الكفر باللات والعزى فقال علي هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فلست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب وكره رسول الله أن يفشي عليه سره قبل أن يعلن أمره فقال له يا علي إذا لم تسلم فاكتم هذا فمكث ليلته ثمّ انّ الله تبارك وتعالى هداه للاسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله فأسلم وذلك في اليوم الثاني من صلاته هو وخديجة وهو يوم الثلاثاء كما في سيرة الدمياطي لأنّه تقدم ان صلاته مع خديجة كانت آخر يوم الاثنين.

أقول: من التناقض الصريح ما حكم به الحلبي في ان سنه يوم اسلم ثمان سنين وما ساق له من هذه الرواية المتضمنة لسؤاله الرسول لما رآه يصلي هو وخديجة بقوله ما هذا وجواب الرسول له بتلك العبارات الطويلة الوسية المضامين التي لا يخاطب بها ابن عشر فضلاً عن ابن ثمان وتوقف علي في ذلك حتى يراجع أباه ومكثه ليلة بطولها يراجع نفسه حتى هداه عقله للاسلام فأصبح غادياً إلى رسول الله مظهراً اسلامه فهل يجوز عاقل لنفسه ان يجعل موضوع قضيته هذه طفلاً ابن ثمان سنين ومحمولها ما سبق لك مما لا يساق إلّا للكمل من الرجال ضرورة ـ لا ـ وللقوم من هذه الشطحات شيء كثير.

وفي أُسد الغابة ان أبا طالب رأى النبي وعلياً يصليان وعلي على يمينه فقال لجعفر صل جناح ابن عمك فصلى عن يساره وكان اسلام جعفر بعد اسلام أخيه علي بقليل ـ ثمّ يقول ـ وامّا علي بن أبي طالب فلم يكن مشركاً بالله أبداً لأنّه كان مع رسول الله في كفالته كأحد أولاده يتبعه في جميع اموره فلم يحتج ان يدعى للاسلام فيقال أسلم؛ ويقول: ثلاثة ما كفروا بالله قط مؤمن آل يس وعلي بن أبي طالب وآسية امرأة فرعون.

وفي العرائس روي عن النبي انّه قال: سباق الأُمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين حزقيل مؤمن آل فرعون وحبيب النجار صاحب يس وعلي بن أبي طالب.

٢١) وذكر في السيرة الدحلانية جميع ما ذكره الحلبي في سيرته الحلبية حرفاً حرفاً فنحن إذن في غنى عن الاعادة راجع السيرة الدحلانية على هامش سيرة الحلبي (١).

٢٢) وقال الحاكم في المستدرك (٢): حدثني أبو عمرو محمّد بن عبد الواحد الزاهد إلى أن انهى سنده إلى عكرمة عن ابن عباس قال لعلي أربع خصال ليست لأحد هو أوّل عربي وعجمي صلى مع رسول الله وهو الذي كان لواؤه معه في كل زحف والذي صبر معه يوم المهراس (٣) وهو الذي غسله وأدخله قبره.

حدثنا أبو العباس محمّد بن يعقوب إلى أن أنهى سنده إلى أبي اسحاق عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الأسدي عن علي رضي الله عنه قال: اني عبد الله واخو رسوله وانا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كاذب صليت قبل الناس بسبع سنين قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمّة.

أقول: تعقب الذهبي ما قاله الحاكم فقال: قلت وهذا باطل لأنّ النبي من أوّل ما اوحي إليه آمن به خديجة وأبو بكر وبلال وزيد مع علي قبله بساعات أو بعده بساعات وعبدوا الله مع نبيه فيان السبع سنين إلى ان قال ثمّ حبة شيعي.

أقول أنا: من أين أحرز الذهبي ان تقدم أبي بكر في الإسلام على علي أو تقدم علي باسلامه على أبي بكر كان بساعات ولم يكن بايام فهذا هو عين التخرص. ثمّ من أين أحرز ان عبادة علي مع النبي قبل ان يعبد الله أحد من الناس بسبع

---

(١) ج ١ ص ١٧٥ و ١٧٦ و ١٧٧ و ١٧٨.

(٢) المستدرك ج ٣ في كتاب معرفة الصحابة ص ١١١ وما بعدها في ذكر اسلام أمير المؤمنين علي.

(٣) قال ابن الأثير في النهاية: انّه عطش يوم احد فجاء علي بماء من المهراس فعافه وغسل به الدم عن وجهه. المهراس صخرة منقورة تسع كثيراً من الماء وقد يعمل منها حياض للماء. وقيل المهراس في هذا الحديث اسم ماء بأُحد. قال: وقتيلاً بجانب المهراس.

سنين كانت من البعثة فلاحقاً ولم تكن سابقة على البعثة عندما كان النبي يتحنث بغار حراء مدة مديدة من الزمن إلى أن بعث وعلي كان في كفالة محمّد قبل البعثة بفاصلة غير قليلة رباه فيها بحجره باجماع من أهل السيرة وقد أسلفنا انّه لا يعقل من طريق العادة الغالبة أن يكون النبي أخذ علياً من أهله وهو طفل ابن خمس أو ست أو سبع سنين لأنّ الطفل في هذه الفاصلة لا يستغني عن حضانة امه فيكون أخذه له في ظرف يجوز فيه الاستغناء التام عن الأمّ وذلك إنّما يكون من السبع فصاعداً وكان علي في طول الفاصلة بين انتقاله من اهله إلى بيت محمّد وبين البعثة ملازماً لمحمد وفي كفالته وحضانته وتربيته فما يمنعه من متابعة محمّد في التحنث فأي نكران على هذه الصورة وهي التي يريدها علي بلا ريب ثمّ حبة ان يكن شيعياً فمن واجب كل مسلم أن يكون شيعياً أي محباً لعلي مقتفياً فيه اثر الله والرسول فقد كان يحبانه ويحبهما وينوهان بفضله بما لم يذكر لأحد سواه.

فهذا الحاكم في المستدرك [١] يقول: سمعت القاضي أبا الحسن علي بن الحسن الجراحي إلى أن ينهي سنده إلى محمّد بن منصور الطوسي يقول سمعت أحمد بن حنبل يقول ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب. وها انت أيّها الذهبي تقرر ذلك في التلخيص فتقول قال محمّد بن منصور الطوسي سمعت أحمد بن حنبل يقول: ما جاء لأحد من الصحابة من الفضائل ما جاء لعلي. وما حطم من مقام علي أيّها الذهبي إلّا أنت وكل شيخ يقدمه أبناء التسنن فانكم بالصراحة تقدمون الرواية تأتي عن الخوارج وتصححونها وتضعفون الرواية تأتي عن الشيعي ولا شبهة ان الخوارج باجماع الفريقين ممن يجب قتلهم لتحرفيهم الدين تحريفاً بيناً كما سيجيء فكيف جاز

---

(١) المستدرك ج ٣ ص ١٠٧.

لكم الرواية عنهم في أصح مسانيدكم فهذا البخاري وهو شيخ المحدثين وامامهم عند أبنا التسنن على الإطلاق وصحيحه ثاني القرآن بزعمهم يروي عن عمران بن حطان احد مردة الخوارج ومادح عبد الرحمن بن ملجم لقتله أمير المؤمنين علياً ـ وسنجول حول هذا الموضوع عند ختام هذه النقول كما وعدنا فانتظر ـ ويغفل الرواية عن الشيعة بل عن أئمتهم الذين لا يختلف اثنان في علمهم وورعهم بل عن علي بن أبي طالب نفسه إلّا في قليل لا يهتم له.

قال الحاكم حدثنا أبو العباس محمّد بن يعقوب إلى ان يقول عن عبد الله بن بريدة عن أبيه قال انطلق أبو ذر ونعيم ابن عم أبي ذر وانا معهم نطلب رسول الله وهو بالجبل مكتتم فقال أبو ذر يا محمّد اتيناك نسمع ما تقلو وإلى ما تدعو فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اقول: لا اله إلّا الله واني رسول الله فآمن به أبو ذر وصاحبه وآمنت به وكان وكان علي في حاجة لرسول الله أرسله فيها وأوحي إلى رسول الله يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء.

حدثنا أبو سعيد أحمد بن عمرو إلى ان يقول عن أنس قال نبيء النبي يوم الاثنين واسلم علي يوم الثلاثاء.

قال الحاكم: أخبرنا أبو بكر أحمد بن جعفر بن حمدان القطيعي ببغداد من اصل كتابه إلى ان يقول حدثنا عمرو بن ميمون قال: اني لجالس عند ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا يا ابن عباس امّا ان تقوم معنا وامّا أن تخلو بنا من بين هؤلاء قال: فقال ابن عباس بل أنا أقوم معكم قال وهو يومئذ صحيح قبل أن يعمى قال فابتدأوا فتحدثوا فلا ندري ما قالو قال فجاء ينفض ثوبه ويقول اف وتف وقعوا في رجل له بضع عشرة فضائل ليست لأحد غيره وقعوا في رجل قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فاستشرف لها مستشرف فقال أين علي فقالوا انّه في الرحى يطحن وما كان

أحدهم ليطحن قال فجاء وهو أرمد لا يكاد أن يبصر قال فنفث في عينه ثمّ هزّ الراية ثلاثاً فأعطاها اياه فجاء علي بصفية بنت حي قال ابن عباث ثمّ بعث رسول الله فلاناً بسورة التوبة فبعث علياً خلفه فأخذها منه وقال لا يذهب بها إلّا رجل هو مني وأنا منه فقال ابن عباس وقال النبي لبني عمه ايكم يواليني في الدنيا والآخرة فأبوا فقال لعلي أنت وليي في الدنيا والآخرة قال ابن عباس وكان علي أوّل من آمن من الناس بعد خديجة رضي الله عنها قال وأخذ رسول الله ثوبه فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين وقال: ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ .

قال ابن عباس: وشرى علي نفسه فلبس ثوب النبي ثمّ نام مكانه قال ابن عباس وكان المشركون يرمون رسول الله فجاء أبو بكر وعلي نائم قال وأبو بكر يحسب انّه رسول الله قال فقال يا نبي الله فقال له علي ان نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فادركه قال فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار قال وجعل علي يرمي بالحجارة كما كان يرمى نبي الله وهو يتضور وقد لف رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح ثمّ كشف عن رأسه فقالوا انك للئيم وكان صاحبك لا يتضور ونحن نرميه وأنت تتضور وقد استنكرنا ذلك فقال ابن عباس: وخرج رسول الله في غزوة تبوك وخرج بالناس معه قال فقال له علي أخرج معك قال فقال النبي لا فبكى علي فقال له أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا انّه ليس بعدي نبي انّه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي .

قال ابن عباس: وقال له رسول الله أنت ولي كل مؤمن بعدي ومؤمنة . قال ابن عباس: وسد رسول الله أبواب المسجد غير باب علي فكان يدخل المسجد جنباً وهو طريقه ليس له طريق غيره . قال ابن عباس: وقال رسول الله من كنت مولاه فإنّ مولاه علي . قال ابن عباس: وقد أخبرنا الله عزوجل في القرآن انّه رضي عن

أصحاب الشجرة فعلم ما في قلوبهم فهل أخبرنا انّه سخط عليهم بعد ذلك . قال ابن عباس : وقال نبي الله لعمر حين قال ائذن لي فأضرب عنقه [١] قال وكنت فاعلاً وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم . هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه بهذه السياقة .

أقول : وأقره الذهبي في جميع مواده ولم ينتقده ومورد الاستشهاد من هذا الحديث في هذا الباب قوله : وكان علي أوّل من آمن من الناس بعد خديجة رضي الله عنها .

قال الحاكم حدثنا أبو بكر بن اسحاق إلى ان ينهي سنده إلى سلمان ﷺ قال : قال رسول الله اولكم وارداً علي الحوض أولكم اسلاماً علي بن أبي طالب . قال الحاكم : أخبرنا أحمد بن جعفر القطيعي إلى أن ينهي سنده إلى زيد بن أرقم قال : ان أوّل من أسلم مع رسول الله علي بن أبي طالب ؛ هذا حديث صحيح الاسناد .

وقال الحاكم [٢] : عن محمّد بن اسحاق عن يحيى بن أبي الأشعث عن اسماعيل بن اياس بن عفيف عن أبيه عن جده عفيف بن عمرو قال : كنت امرءاً تاجراً وكنت صديقاً للعباس بن عبد المطلب في الجاهلية فقدمت لتجارة فنزلت على العباس بن عبد المطلب بمنى فجاء رجل فنظر إلى الشمس حين مالت فقام يصلي ثمّ جاءت امرأة فقامت تصلي ثمّ جاء غلام حين راهق الحلم فقام يصلي فقلت للعباس من هذا فقال : هذا محمّد بن عبد الله بن عب المطلب ابن أخي يزعم انّه نبي ولم يتابعه على امره غير هذه المرأة وهذا الغلام وهذه المرأة خديجة بنت

(١) يعني حاطب بن أبي بلتعة كما ورد في الصحيحين انّه كان أخبر مشركي مكة ببعض أُمور المسلمين .

(٢) المستدرك ج ٣ ص ١٨٣ من مستدركه في الباب الذي عقده لخديجة بنت خويلد .

خويلد امرأته وهذا الغلام ابن عمه علي بن أبي طالب قال عفيف الكندي واسلم وحسن اسلامه لوددت اني كنت أسلمت يومئذ فيكون لي ربع الإسلام. هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه وله شاهد معتبر من أولاد عفيف بن عمرو؛ أقره الذهبي في تلخيصه كما هو. وقال الحاكم[١]: حدثنا أبو العباس محمّد بن يعقوب حدثنا الحسن بن علي بن عفان العامرى حدثنا حسين بن عطية حدثنا يحيى بن سلمة بن كهيل عن أبيه عن محمّد بن علي عن ابن عباس قال: قال أبو موسى الأشعري ان علياً أوّل من أسلم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؛ هذا حديث صحيح الاسنان ولم يخرجاه؛ ولم أر الذهبي تعرض له بسوء ولا تعقبه.

٢٣) التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول تأليف الشيخ منصور علي ناصف جمع في كتابه احاديث الصحاح بحذف مكرراتها وجمع مشتركاتها واختصار أسانيدها[٢] عن زيد بن أرقم انّه كان يقول: أوّل من أسلم علي.

٢٤) في قوله تعالى: ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله لا يستوون عند الله والله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ ذكر السيوطي في كتابه لباب النقول في أسباب النزول فقال: أخرج ابن جرير عن محمّد بن كعب القرظي قال افتخر طلبح بن شيبة والعباس وعلي بن أبي طالب فقال طلحة أنا صاحب البيت معي مفتاحه وقال العباس أنا صحب السقاية والقائم عليها فقال علي لقد صليت إلى القبلة قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج** ﴾؛ الآية كلها[٣].

---

(١) المستدرك ج ٣ ص ٤٦٥ من مستدركه في ترجمة أبي موسى الأشعري.

(٢) ج ٣ ص ٣٣٠.

(٣) لباب النقول: ص ١١٥ من طبع مصر.

وقال الشيخ علاء الدين الصوفي في تفسيره المعروف بتفسير الخازن طبع مصر [١] ﴿ **أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام** ﴾ الآية قال الحسن والشعبي ومحمّد بن كعب القرضي نزلت في علي بن أبي طالب والعباس بن عبد المطلب وطلحة بن شيبة افتخروا قال طلحة أنا صاحب البيت بيدي مفاتيحه وقال العباس وأنا صاحب السقاية والقيام عليها وقال علي ما أدري ما تقولون لقد صليت إلى القبلة ستة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله هذه الآية.

٢٥) الفصول المهمة في معرفة أحوال الأئمة لابن الصباغ المالكي وهو من شيوخ اجازة صاحب الضوء اللامع وذكر كتابه هذا في ترجمته من الكتاب المزبور قال ابن الصباغ فصل في تربية النبي ﷺ له وذلك انّه لما نشأ علي بن أبي طالب وبلغ سن التمييز أصاب أهل مكة جدب شديد وقحط أجحف بذوي المروة وأضر بذوي العيال إلى الغاية فقال رسول الله ﷺ لعمه العباس وكان من أيسر بني هاشم يا عم انّ أخاك أبا طالب كثير العيال وقد أصاب الناس ما ترى فانطلق بنا إلى بيته لنخفف من عياله فتأخذ أنت رجلاً وآخذ أنا رجلاً فنكفلهما عنه، قال العباس افعل فانطلقا حتى أتيا أبا طالب فقالا انا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه فقال لهما أبو طالب إذا تركتما لي عقيلاً وطالباً فاصنعا ما شئتما فأخذ رسول الله علياً وضمه إليه وأخذ العباس جعفراً فضمه إليه فلم يزل علي مع رسول الله حتى بعث الله عزوجل محمداً نبياً فاتبعه علي وآمن به وصدقه وكان عمره إذ ذاك في السنة الثالثة عشرة من عمره لم يبلغ الحلم وقيل غير ذلك وأكثر الأقوال وأشهرها انّه لم يبلغ الحلم وانّه أوّل من أسلم وآمن برسول الله من الذكور بعد خديجة قاله الثعلبي في تفسير قوله تعالى:

---

(١) ج ٢ ص ٢٨٤.

﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والانصار** ﴾ ، وهو قول ابن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري وزيد بن أرقم ومحمّد بن المنكدر وربيعة المرائي.

٢٦) وقال الشيخ محمّد الصبان في اسعاف الراغبين : امّا علي فقد أسلم وهو ابن ثمان سنين وقيل غير ذلك قديماً بل قال ابن عباس وأنس بن مالك وزيد بن أرقم وسلمان الفارسي وجماعة آخرون انّه أوّل من أسلم ونقل بعضهم الإجماع عليه.

٢٧) وقال ابن العماد الحنبلي عند تعرضه لسنة وفات أمير المؤمنين علي وهي سنة أربعين من كتابه شذرات الذهب وهو أوّل من أسلم عند كثيرين بعد خديجة.

٢٨) وقال علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي في كتابه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال : موضوع على هامش مسند أحمد المطبوع في مصر على المسانيد (ج ٥ ص ٣٠) السبق ثلاثة فالسابق إلى موسى يوشع بن نون والسابق إلى عيسى صاحب يس والسابق إلى محمّد علي بن أبي طالب.

الطبراني في الكبير : وابن مردويه عن ابن عباس (ج ٥ ص ٣١) : امّا ترضين اني زوجتك أقدم امتي سلماً وأكثرهم علماً وأعظمهم حلماً ـ قاله لفاطمة ـ أحمد في المسند والطبراني في الكبير عن معقل بن يسار ـ و (ج ٥ ص ٣٣) ان هذا أوّل من آمن وأوّل من يصافحني يوم القيامة وهذا الصديق الأكبر وهذا فاروق هذه الأُمّة يفرق بين الحق والباطل وهذا يعسوب المؤمنين والمال يعسوب الظالمين ـ قاله لعلي ـ الطبراني في الكبير عن سلمان وأبي ذر معاً والبيهقي في السنن وأبو عدي في الكامل عن حذيفة : اولكم وارداً علي الحوض أولكم اسلاماً علي بن أبي طالب. الحاكم في المستدرك ولم يصحح والخطيب عن سلمان : أوّل من

صلى معي علي. الحاكم في تاريخه والديلمي عن ابن عباس: و (ج ٥ ص ٣٤) يا علي اخصمك بالنبوة ولا نبوة بعدي وتخصم بسبع ولا يحاجك فيها أحد من قريش أنت أولهم ايماناً بالله وأوفاهم بعهد الله وأقومهم بأمر الله وأقسمهم بالسوية وأعدلهم في الرعية وأبصرهم بالقضية وأعظمهم عند الله مزية.

أبو نعيم في الحلية عن معاذ: و (ج ٥ ص ٣٨) عن علي قال: خطب أبو بكر وعمر فاطمة إلى رسول الله فأبى رسول الله عليهما فقال أنت لها يا علي قال ما لي من شيء إلّا درعي وجملي وسيفي فتعرض ذات يوم لرسول الله فقال يا علي هل لك من شيء قال جملي ودرعي قال أرينهما فزوجني رسول الله فاطمة فلما بلغ فاطمة ذلك بكت فدخل عليها رسول الله فقال مالك تبكين يا فاطمة والله لقد أنكحتك أكثرهم علماً وأفضلهم حلماً وأقدمهم سلماً.

ابن جرير وصححه والدولابي في الذرية الطاهرة: و (ج ٥ ص ٤٠) عن عباد بن عبد سمعت علياً يقول: انا عبد الله واخو رسول الله وانا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كذاب مفتري ولقد صليت قبل الناس سبع سنين.

ابن أبي شيبة والنسائي في الخصائص وابن أبي عاصم في السنة والعقيلي في الضعفاء والحاكم في المستدرك وأبو نعيم في المعرفة. عن حبة ان علياً قال: اللهم انك تعلم انّه لم يعبدك أحد من هذه الأُمّة قبلي ولقد عبدتك قبل أن يعبدك أحد من هذه الأُمّة ست سنين.

الطبراني في الأوسط: عن علي قال: بعث رسول الله يوم الاثنين وأسلمت يوم الثلاثاء. أبو يعلى في مسنده وأبو القاسم بن الجراح في أماليه: عن سليمان بن عبد الله بن معاذة العدوية قالت: سمعت علياً وهو يطب على منبر البصرة يقول: أنا الصديق الأكبر آمنت قبل أن يؤمن أبو بكر وأسلمت قبل أن يسلم. محمّد بن أيّوب الرازي في جزئه ،العقيلي في الضعفاء وقال قال البخاري: لا يتابع عليه

ولا يعرف سماعه عن معاذة.

أقول: ليست هذه أوّل حزازة يبديها البخاري أمام قدس أهل البيت وبخاصة علي بن أبي طالب وأنت قد قرأت مادة هذا الحديث بتكرار واسع عن محدثين كثيرين وما القول بتقدم اسلام أبي بكر إلّا قول مختلق بشهادة النقول المتواترة والاعتبارات التي ما عنها محيص وقول البخاري لا يتابع عليه من سقط المتاع انصافاً بشهادة ما أسلفناه وما يأتي.

٢٩) وقال أحمد بن حنبل في مسنده المطبوع في مصر في ست مجلدات (ج ١ ص ٩٩) عن علي انّه قال: اللهم لا اعترف ان عبداً لك من هذه الأُمّة عبدك قبلي غير نبيك لقد صليت قبل ان يصلي الناس سبعاً.

عن اسماعيل بن اياس بن عفيف الكندي عن أبيه عن جده قال: كنت امرءً تاجراً فقدمت الحج فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة وكان امرءً تاجراً فوالله اني لعنده بمنى إذ خرج رجل من خباء قريب منه فنظر إلى الشمس فلما رآها مالت قام يصلي قال ثمّ خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل فقامت خلفه تصلي ثمّ خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلي قال: فقلت للعباس من هذا يا عباس قال: هذا محمّد بن عبد الله بن عبد المطلب ابن أخي قال فقلت من هذه المرأة قال هذه امراته خديجة ابنة خويلد قال قلت من هذا الفتى قال هذا علي بن أبي طالب ابن عمه قال فقلت فما هذا الذي يصنع قال يصلي وهو يزعم انّه نبي ولم يتبعه على أمره إلّا امرأته وابن عمه هذا الفتى وهو يزعم انّه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر، قال فكان عفيف وهو ابن عم الأشعث بن قيس يقول وأسلم بعد ذلك وحسن اسلامه لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ فأكون ثالثاً مع علي بن أبي طالب (المصدر نفسه ص ٢٠٩).

عن عمرو بن ميمون قال: اني لجالس إلى ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا: يا ابن عباس امّا أن تقوم معنا وامّا أن تخلو بنا قال فقال ابن عباس بل أقوم معكم قال وهو يومئذ صحيح قبل أن يعمى قال فابتدأوا فتحدثوا فلا ندري ما قالوا قال فجاء ينفض ثوبه ويقول اف وتف وقعوا في رجل له عشر وقعوا في رجل قال له النبي لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله فاستشرف لها من استشرف قال أين علي قالوا هو في الرحل يطحن قال وما كان أحدكم ليطحن قال فجاء وهو أرمد لا يكاد يبصر قال فنفث في عينيه ثمّ هز الراية ثلاثاً فأعطاها اياه فجاء بصفية بنت حي قال ثمّ بعث فلاناً بسورة التوبة فبعث علياً خلفه فأخذها منه قال لا يذهب بها إلّا رجل مني وأنا منه قال وقال لبني عمه ايكم يواليني في الدنيا والآخرة قال وعلي معه جالس فأبوا فقال علي أنا أُواليك في الدنيا والآخرة قال أنت وليي في الدنيا والآخرة قال فتركه ثمّ أقبل على رجل منهم فقال أيكم يواليني في الدنيا والآخرة فأبوا قال فقال علي أنا اواليك في الدنيا والآخرة فقال أنت وليي في الدنيا والآخرة قال وكان أوّل من أسلم من الناس بعد خديجة قال وأخذ رسول الله ثوبه فوضعه على علي وفاطمة وحسن وحسين فقال: ﴿ **إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً** ﴾ قال: وشرى علي نفسه لبس ثوب النبي ثمّ نام مكانه قال وكان المشركون يرمون رسول الله فجاء أبو بكر وعلي نائم قال وأبو بكر يحسب انّه نبي الله قال فقال يا نبي الله قال فقال له علي ان نبي الله قد انطلق نحو بئر ميمون فأدركه قال فانطلق أبو بكر فدخل معه الغار قال وجعل علي يرمي بالحجارة كما كان يرمي نبي الله وهو يتضور وقد لف رأسه في الثوب لا يخرجه حتى أصبح ثمّ كشف عن رأسه فقالوا انك للئيم كان صاحبك نرميه فلا يتضور وأنت تتضور وقد استنكرنا ذلك قال وخرج بالناس في غزوة تبوك قال فقال له علي اخرج معك قال فقال له نبي

الله ـ لا ـ فبكى علي فقال له أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا انك لست بنبي انّه لا ينبغي أن أذهب إلّا وأنت خليفتي قال وقال له رسول الله أنت وليي في كل مؤمن بعدي وقال سدوا أبواب المسجد غير باب علي فقال فيدخل المسجد جنباً وهو طريقه ليس له طريق غيره قال وقال من كنت مولاه فإنّ مولاه علي قال وأخبرنا الله عزوجل في القرآن انّه قد رضي عن أصحاب الشجرة قال وقال ﷺ وما يدريك لعل الله اطلع إلى أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم (المصدر نفسه ص ٣٣٠).

٣٠) وقال القندوزي في الباب الثاني عشر الذي عقده لسبق اسلام علي من كتابه ينابيع المودة ص ٦٠ من طبعة اسلامبول: الترمذي بسنده عن أنس بن مالك قال: بعث النبي يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء ـ هذا حديث غريب. أيضاً أخرجه الحمويني عن انس؛ وقال الترمذي وقد روى هذا عن مسلم عن حبة عن علي نحوه. ابن ماجة القزويني وأحمد في مسنده وأبو نعيم الحافظ والثعلبي والحمويني أخرجوا جميعاً بأسانيدهم عن عباد بن عبد الله قال: قال علي: أنا عبد الله واخو رسول الله وانا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كذاب ولقد صليت قبل الناس سبع سنين.

ابن المغازلي والحمويني أخرجا بسنديهما عن أبي أيّوب الأنصاري قال: قال رسول الله: صلت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين لأنّه لم يكن من الرجال غيره. أيضاً موفق بن أحمد أخرج هذا الحديث بسنده عن عكرمة عن ابن عباس وأيضاً عن أنس؛ موفق بن أحمد والحمويني أخرجا بسنديهما عن أبي رافع مولى النبي قال: قال رسول الله: صليت أنا أوّل يوم الاثنين وصلت خديجة آخر يوم الاثنين وصلى علي يوم الثلاثاء من الغد وصلينا مستخفين قبل أن يصلي معنا احد سبع سنين وأشهراً. موفق بن أحمد بسنده عن عمرو بن ميمون عن ابن

عباس قال: أوّل من أسلم من الناس بعد خديجة علي بن أبي طالب قال: أنشد بعض أهل الكوفة أيّام صفين في مدحه شعراً:

أنت الامام الذي نرجو بطاعته   يوم النشور من الرحمن غفرانا
أوضحت من ديننا ما كان مشتبهاً   جزاك ربك منا فيه احسانا
نفسي الفداء لأولى الناس كلهم   بعد النبي علي الحبر مولانا
أخ النبي ومولى المؤمنين معاً   وأوّل الناس تصديقاً وايمانا

عبد الله بن أحمد بن حنبل بسنده عن مقسم عن ابن عباس قال: انّ علياً أوّل من أسلم. عبد الله بسنده عن الحسن البصري وغيره قال: انّ علياً أوّل من أسلم بعد خديجة. عبد الله وموفق بن أحمد بسنده عن زيد بن أرقم قال: أوّل من صلى مع النبي علي. عبد الله بسنده عن عبد الله بن يحيى عن علي قال: صليت مع النبي ثلاث سنين قبل أن يصلي معه أحد. عبد الله عن حبة العرني قال علي: اللهم اني لا أعرف ان عبداً لك من هذه الأُمّة عبدك قبل نبيك قال ذلك ثلاث مرات ثمّ قال لقد صليت قبل أن يصلي أحد.

ابن المغازلي بسنده عن مجاهد عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿ **والسابقون السابقون** ﴾ قال سبق يوشع بن نون وسبق مؤمن آل فرعون إلى موسى وسبق صاحب يس إلى عيسى وسبق علي إلى محمّد. أيضاً موفق بن أحمد أخرجه عن مجاهد عن ابن عباس: ابن المغازلي بسنده عن عبد الرحمن مولى أبي أيّوب الأنصاري قال: قال رسول الله: صلت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين وذلك انّه لم يصل معي أحد غيره.

ابن المغازلي بسنده عن سلمان قال: قال رسول الله: أوّل الناس وروداً علي الحوض اولهم اسلاماً علي بن أبي طالب. أيضاً أخرج هذا الحديث يعني حديث

سلمان موفق بن أحمد.

الثعلبي بسنده عن عبادة بن عبد الله قال: سمعت علياً يقول: أنا عبد الله واخو رسوله وانا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كذاب مفتري صليت قبل الناس سبع سنين.

موفق بن أحمد بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال: قال رسول الله: صلت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين لأنّه لم يكن معي من الرجال غيره. موفق بن أحمد بسنده عن أبي معمر قال: سمعت أنس بن مالك يقول: قال رسول الله: صلت الملائكة علي وعلى علي سبع سنين وذلك انّه لم ترفع شهادة أن لا اله إلّا الله إلى السماء إلّا مني ومن علي. موفق بن أحمد بسنده عن سلمة بن كهيل عن حبة العرني قال: سمعت علياً يقول: انا أوّل من أسلم.

الحمويني بسنده عن أبي رافع عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله يقول لعلي أنت أوّل من آمن بي وأنت أوّل من يصافحني يوم القيامة وأنت الصديق الأكبر وأنت الفاروق الذي يفرق بين الحق والباطل وأنت يعسوب المسلمين والمال يعسوب الكفار.

وفي المناقب عن أبي الزبير المكي عن جابر بن عبد الله قال: كنا عند النبي فأقبل علي فقال قد أتاكم أخي ثمّ التفت إلى الكعبة فمسها بيده ثمّ قال والذي نفسي بيده ان هذا وشيعته هم الفائزون يوم القيامة ثمّ قال: انّه أولكم ايماناً معي وأوفاكم بعهد الله وأقومكم بأمر الله وأعدلكم في الرعية وأقسمكم بالسوية وأعظمكم عند الله مزية قال: فنزلت: ﴿ **انّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات أُولئك هم خير البرية** ﴾ قال فكان الصحابة إذا أقبل علي قالوا جاء خير البرية ـ اهـ ملخصاً ـ.

٣١) وقال ابن كثير في كتاب تاريخه [١] بعد ما ذكر ما نقلناه عن ابن اسحاق وعفيف الكندي والطبري: قال محمّد بن كعب أوّل من أسلم من هذه الأُمّة خديجة وأوّل رجلين أسلما أبو بكر وعلي وأسلم علي قبل أبي بكر وكان علي يكتم ايمانه خوفاً من أبيه حتى لقيه ابوه قال: أسلمت قال نعم قال وازر ابن عمك وانصره. ثمّ قال: أي ابن جرير في التاريخ: حدثنا عبيد الله بن موسى حدثنا العلاء عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله سمعت علياً يقول: أنا عبد الله واخو رسوله وانا الصديق الأكبر لا يقولها بعدي إلّا كاذب مفتري صليت قبل الناس بسبع سنين وهكذا رواه ابن ماجة عن محمّد بن اسماعيل الرازي عن عبيد الله بن موسى الفهمي؛ وهو شيعي من رجال الصحيح عن العلاء بن صالح الأزدي الكوفي؛ وثقوه ولكن قال أبو حاتم كان من عتق الشيعة؛ وقال علي بن المديني روى أحاديث مناكير والمنهال بن عمرو ثقة وامّا شيخه عباد بن عبد الله وهو الأسدي الكوفي فقد قال فيه علي بن المديني هو ضعيف الحديث وقال البخاري فيه نظر وذكره ابن حبان في الثقات وهذا الحديث منكر بكل حال ولا يقوله علي وكيف يمكن أن يصلي قبل الناس بسبع سنين هذا لا يتصور أصلاً.

أقول: قد بينا تصوير هذا المطلب في ردنا على الذهبي فيما سلف فراجعه وهذا الرواية كثيرة الورود في كتب الحديث كما قرأت شطراً من ذلك آنفاً وهو إلى الآن لم يستطع أن يجرح رجال هذا السند بما يسقطه عن الاعتبار كما رأيت في عباراته هذه.

ثمّ قال: وقال آخرون: أوّل من أسلم من هذه الأُمّة أبو بكر الصديق والجمع بين الأقوال كلها ان خديجة أوّل من اسلم من النساء وقيل الرجال أيضاً وأوّل من

---

(١) البداية والنهاية ج ٣ ص ٢٤ وما بعدها.

اسلم من الموالي زيد بن حارثة وأوّل من اسلم من الغلمان علي بن أبي طالب فإنّه كان صغيراً دون البلوغ على المشهور وهؤلاء كانوا إذا ذاك أهل البيت وأوّل من اسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق.

أقول: إلى هنا اقف بالنقول واكتفي بما مر والباحث المتتبع يحصل بتتبعه على اضعاف ما أوردناه بسهولة ونحن قد نذكر بعضاً مما اغفلناه هنا في مبحث الامامة ان شاء الله وبقليل مما ذكرناه يكتفي الباحث الناقد فإنّه يتجلى له بصراحة ان علياً لم يتقدمه رجل في اسلامه للجهات المشروحة ذيلاً ـ السالف بعض من تصويراتها ـ

١ ـ انّه رحمه اللصيق به وابن عمه الشفيق عليه ولم يذكر التاريخ راعياً لأُمور محمّد بعد عبد المطلب من جميع شؤون الرعاية غير أبي طالب والد علي ولم يحتفظ محمّد بحياته وصونه من تناول الايدي له قبل نبوته وبعدها إلّا بأبي طالب صرفاً من دون أدنى مبالغة في ذلك وان تكن خديجة بعدما تزوجها النبي معوان صدق له فهي لا تعدو أن تكون امرأة محدودة النفوذ في الناس من جميع جهات التنفذ وإنّما يشكرها التاريخ لعطفها على زوجها وتمنيها له الخير جهد ما تستطيع وامّا السور القوى الذي حفظ محمّداً من عتاة قريش وطغاتها فهو أبو طالب ليس غير ـ كما سنتحدث به عن قريب عاجل ان شاء الله ـ ولا يسيغ محمّد لنفسه وهو الوفي الأمين ان يتسارع بخيره إلى الاجانب الاغيار الذين لم يكونوا يعرفونه قبل مبعثه وبعد أيضاً بأي يد تفرض يسدونها إليه ويغفل من له اطواق من الجميل في عنقه لا تعد ولا تحد فهل يجوز في حق محمّد ان يعرف خيراً يسدى وعاقبة تحمد ويبتدأ به الاغيار ولا يشعر به اهله ورحمه ومن عاش في كنفهم وتحت رعايتهم وحياطتهم. هذا لا يجوز في حق القاصر من الناس فضلاً عن الكامل مثل محمّد ولا شبهة انّه بطبيعة وجدانّه مسؤول امام المحسنين إليه بمثل

احسانهم حد الاقل ـ وهل جزاء الاحسان إلّا الاحسان ـ فما أبو بكر من جميع شؤونه بالنسبة إلى محمّد في قبال آل أبي طالب لمحمد إلّا كقياس الأجنبي عن الإنسان بالنسبة إلى امه الرؤم ـ وغير أبي بكر مثله في هذا الاعتبار ـ نعم عذر محمّد واضح إذا دعاهم وارشدهم وميز لهم طريق الصواب من الخطأ ثمّ ابوا عليه أن يجتاز منهم إلى من سواهم.

٢ ـ وعلى أسا تلك الرأفة والعواطف المتبادلة بين محمّد وآل أبي طالب لما اشتدت الأزمة بالناس قبل البعثة ـ وكان جد خبير بحالة عمه المادية وقلة ما في يده على كثرة عياله وإن كان شيخ الأباطح في شرفه وعلو شأنه ـ وعا عمه العباس للترفيه عن عميد اسرتهم بتخفيف عياله ولسابقته بعلي من حين تولده وانّه هو الذي سماه علياً وارضعه من ريقه ومص لسانه اختار علياً لنفسه وجعفراً لعمه.

٣ ـ ولا شبهة انّه لما فصله من أبيه وامه ونقله إلى بيته كان له خيراً من أبويه في الحياطة والرعاية والتفقد ومن يكن كذلك بالنسبة إلى وليده لا يكاد يحصد من زرعه هذا إلّا الثمر الطيب فإنّ المعروف ان يضع في نوع البشر فهو محفوظ في طبقة الصغار منهم والسليمي الفطرة الذين لم يحتكوا بالحوادث حتى تزرع فيهم روحاً جديدة تتشعبها الأوهام المتواردة على الدماغ صباح مساء.

٤ ـ لهذا لم يجد محمّد من علي إلّا كل خير يطلب من أحسن فطرة بشرية من أوّل ما عرفه وتميزه إلى ان ادرجه علي في أكفانه كما ان محمّداً لم يقصر في حقه فكم شاد بفضله وعرف باسمه وبين للناس حقيقته حتى ان الظروف القاسية التي احتوشت علياً بعد محمّد والقت عليه بكلكلها وقطعته عن الدنيا بأسرها لم تستطع أن تخفي صوته وتميت شخصه كما تروم بل خلص الينا من بعض خروق تلك الحوادث المتلبدة ما ملأ الطوامير من فضائله ومناقبه ولو لم تكن ذات على

مصفاة من اقل العيوب لوجدت الارجاف به من يوم السقيفة إلى يـومنا هـذا ذا رغوة وازباد وعلي رغم كل المقاومات الاعتصابية جائت السـيرة والتـواريـخ مجسمة لهذا التصوير الصحيح ولم تفكك بين البعثة واسلام علي بطرفة عين كما هو الحق الذي يجب أن يقال.

نعم ايقام المسابقة بين أهل بيت محمّد الذين كانوا معه وكان مـعهم ويـنفرج لهما عما عنده ويقفو على خبره ولا تكون بينه وبينهم سترة ولا حائل ولا تميز في الأحوال الداخلية عسير جداً وحتى على اعتبار العقل لهذا لم أتمكن أن أحكم بالمسابقة بين خديجة وعلي وامّا ادخال حديث أبي بكر في هذه القضية المنزلية الداخلية فذاك اقحام تصدر له من تصدر لالزام الناس بالقهر والغلبة في ان أبا بكر اشجع الصحابة واعلمهم وافضلهم وهلم علي مثل هذا جرا فكما لا ضمان لمثل هذه المدعيات وإنّما هي الفاظ تساق فكذلك لا ضمان لكونه أو الناس اسـلاماً خصوصاً والاعتبار الصادق حاكم عليه.

ولو لم يبرز التاريخ شهادته بأنّ علياً لم ينفك اسلامه عن البعثة طرفة عين أبداً لكان من الغلط ايقاع التفاضل بين صاحب الدار المتمركز فيها والخارج البـعيد عنها فيما يخص الشؤون الداخلية لهذه الدار وشؤون محمّد في أوّل بعثته داخلية صرفة كما قرأت عنها مفصلاً ولم يبرز محمّد بدعوته وحتى في الخفاء إلّا بعد ان اطمئن من نفسه وانّه نبي مرسل.

٥ ـ وليكن كل باحث ضليع بالبحث والتاريخ غواص فـي لجـجه واعـماقه قاطعاً من حيث انعقاد ندوة السقيفة إلى ما يشاء الله بقاءً لهذا الحزب بأنّ المشايخ انفسهم ـ واتباعهم بالطبع لا يقلون عنهم روحاً ـ كان الماضون مـنهم ولا يـزال الحاضرون مجلبين على آل بيت الرسالة للعلم بأنّهم إذا افرجوا لهم قلبوهم عما يعتزون به من رياسة دين ودنيا بكمالاتهم التي تبهر العقول وتميط الحجب عن

وجه الصحيح والمدخول وفي طليعة أهل البيت علي عليه السلام ونحن في هذه الفاصلة لا نستطيع أن نوقفك على الجرائم التي اجترحوها في قبال هذا الإنسان العظيم في عين الله وعين رسوله وعين الانسانية العامة لكننا نقوم بشرحها وتشريحها رويداً رويداً على طول الخط من حلقات هذا الكتاب كلا في مناسبته وللمثال نعرض أمامك هذه الصفحة :

لا يختلف اثنان من ابناء التسنن ان محمّد بن اسماعيل البخاري صاحب الصحيح المشهور من أعظم ائمة الحديث بل يعدونه المحدث الأوّل عندهم تضلعاً ومعرفة ووثاقة وان كتابه الصحيح تلو القرآن في اصابة الواقع وان الحديث يكون فيه من اقطع الحجج وكان البخاري هو بنفسه يقول في حق كتابه (١) ما وضعت في كتابي الصحيح حديثاً إلّا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين وانّه قال صنفت كتابي الصحيح لست عشرة سنة خرجته من ستماءة الف حديث وجعلته حجة فيما بيني وبين الله .

ومع كل هذه التشريفات التي ساقها لنفسه ولكتابه يروي عن عمران بن حطان الخارجي فيقول في المجلد الرابع من كتابه ص ٣٠ باب نقض الصور حدثنا معاذ بن فضالة قال حدثنا هشام بن يحيى عن عمران بن حطان ان عائشة حدثته ان النبي لم يكن يترك في بيته شيئاً فيه تصاليب إلّا نقضه .

قد تكون لا تدري ان عمران بن حطان من أشد الخوارج في مبدأه وأشقاهم في تصلبه وأعظمهم تعنتاً في مشربه وهو الذي اطرى عبد الرحمن بن ملجم في قتله لأمير المؤمنين علي بقوله :

---

(١) ابن خلكان في ترجمته.

يا ضربة من تقي ما أراد بها إلّا ليبلغ من ذي العرش رضواناً
اني لأذكره حيناً فأحسبه أوفى البرية عند الله ميزاناً [١]

ثمّ انك قد تكون لا تدري ان البخاري نفسه يروي في حق الخوارج من صحيحه هذا [٢] ـ باب قتل الخوارج ـ كان ابن عمر يراهم شرار خلق الله وقال انهم انطلقوا إلى آيات نزلت في الكفار فجعلوها على المؤمنين.

حدثنا عمر بن حفص بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمش حدثنا خيثمة حدثنا سويد بن غفلة قال علي إذا حدثتكم عن رسول الله حديثاً فوالله لأن اخر من السماء أحب الي من أن أكذب عليه وإذا حدثتكم فيما بيني وبينكم فإنّ الحرب خدعة واني سمعت رسول الله يقول: سيخرج قوم في آخر الزمان حداث الاسنان سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية لا يجاوز ايمانهم حناجرهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فأينما لقيتموهم فاقتلوهم فإنّ في قتلهم أجراً لمن قتلهم يوم القيامة.

حدثنا محمّد بن المثنى حدثنا عبد الوهاب قال: سمعت يحيى بن سعيد اخبرني محمّد بن ابراهيم عن أبي سلمة وعطاء بن يسار انهما اتيا أبا سعيد الخدري فسألاه عن الحرورية أسمعت النبي ﷺ قال لا ادري ما الحرورية سمعن النبي يقول يخرج في هذه الأُمّة ولم يقل منها قوم تحقرون صلاتكم مع صلاتهم يقرؤون القرآن لا يجاوز حلوقهم أو حناجرهم يمرقون من الدين مروق السهم من الرمية فينظر الرامي إلى سهمه إلى نصله إلى رصافه فيتمارى في الفوقة

---

(١) من جملة الذاكرين لهذا الرثاء من هذا القائل في هذا المقول فيه ابن عبد البر في ترجمة علي من الاستيعاب وهذا من الشهرة بمكان عريض.

(٢) ج ٤ ص ١٢٦ و ١٢٧.

هل علق بها من الدم شيء [١].

حدثنا يحيى بن سليمان حدثني ابن وهب حدثني عمران اباه حدثه عن عبد الله بن عمر وذكر الحرورية فقال قال النبي ﷺ يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية.

حدثنا عبد الله بن محمّد حدثنا هشام أخبرنا معمر عن الزهري عن أبي سلمة عن أبي سعيد قال: بينا النبي ﷺ يقسم جاء عبد الله بن ذي الخويصرة التميمي فقال اعدل يا رسول الله فقال ويلك من يعدل إذا لم أعدل قال عمر بن الخطاب دعني أضرب عنقه قال دعه فإنّ له أصحاباً يحقر أحدكم صلاته مع صلاته وصيامه مع صيامه يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية ينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ثمّ ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء ثمّ ينظر في رصافه فلا يوجد فيه شيء ثمّ ينظر في نضيه فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم [٢] آيتهم رجل احدى يديه أو قال ثدييه مثل ثدي المرأة أو قال مثل البضعة تدردر [٣] يخرجون على حين فرقة من الناس قال أبو سعيد الخدري اشهد سمعت من النبي ﷺ واشهد ان علياً قتلهم وانا معه جيء بالرجل على النعت الذي نعته النبي ﷺ قال فنزلت فيه ومنهم من يلمزك في الصدقات.

حدثنا موسى بن اسماعيل حدثنا عبد الواحد حدثنا الشيباني حدثنا يسير بن عمرو قال قلت لسهل بن حنيف هل سمعت النبي يقول في الخوارج شيئاً قال

---

(١) رصف السهم إذا شده بالرصاف وهو عصب يلوى على مدخل النصل فيه وفوق السهم موضع الوتر منه ـ نهاية ـ.

(٢) النضي نصل السهم وقيل هر السهم قبل ان ينحت إذا كان قدحاً ـ نهاية ـ

(٣) تدر دراى ترجرج تجيء وتذهب ـ نهاية ـ

سمعته يقول واهوى بيده قبل العراق يخرج منه قوم يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم يمرقون من الإسلام مروق السهم من الرمية ـ اهـ.

ثمّ قد تكون لا تدري من هو ابن ملجم وما قال فيه رسول الله: قال الحاكم[١] أخبرنا أبو عبد الله محمّد بن عبد الله الصفار إلى ان انهى سنده إلى عمار بن ياسر قال كنت أنا وعلي رفيقين في غزوة ذي العشيرة فلما نزلها رسول الله واقام بها رأينا ناساً من بني مدلج يعملون في عين لهم من انخل فقال لي علي يا أبا اليقظان هل لك أن تأتي هؤلاء فننظر كيف يعملون فجئناهم فنظرنا إلى عملهم ساعة ثمّ غشينا النوم فانطلقت انا وعلي فاضطجعنا في صور من النخل في دقعاء من التراب فنمنا فوالله ما أيقظنا إلّا رسول الله يحركنا برجله وقد تتربنا من تلك الدقعاء فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يا أبا تراب لما يرى عليه من التراب فقال رسول الله ألا احدثكما بأشقى الناس رجلين قلنا بلى يا رسول الله قال احيمر ثمود الذي عقر الناقة والذي يضربك يا علي على هذه يعني قرنه حتى تبتل هذه من الدم يعني لحيته. هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه بهذه الزيادة إنّما اتفقا على حديث أبي حازم عن سهل بن سعد قم أبا تراب. أقول: ولم يغر الذهبي في تلخيصه على الحاكم في هذه الرواية؛ فهذا الذي هو اشقى الناس بشهادة رسول الله يشهد في حقه عمران بن حطان بأنّه تقي فيقول:

يا ضربة من تقي ما أراد بها ... إلّا ليبلغ من ذي العرش رضواناً

ومع كونه خارجياً خبيثاً ومادحاً لقاتل أمير المؤمنين ومناقضاً لرسول الله بتسمية من يعتبره الرسول شقياً بل من اشقى الناس ـ تقياً ـ يتصدر البخاري هذا

---

(١) مستدرك الحاكم ج ٣ ص ١٤٠ و ١٤١.

الشيخ الذي يزعم انّه لم يضع حديثاً في كتابه إلّا اغتسل وصلى وجعل كتابه هذا حجة بينه وبين ربه إلى الرواية عنه . والبخاري جد عارف بهذه القضايا ـ على شهرتها ـ ولكنها شنشنة اخزمية تطفح به المرة بعد المرة في سحق حقوق علي عليه‌السلام والحط من كرامته ـ ولا شك في نصبه لهذه الاسرة ومتتبع كتابه يعود جد قاطع بذلك .

فمما يقف عليه ساير كتابه ـ انّه لا يجد في اسناد عن آل بيت الرسالة إلّا القليل الذي لا يهتم له في حال ان افراد هذه الاسرة من علي وولديه الحسن الحسين وعلي بن الحسين ومحمّد بن علي وجعفر بن محمّد وجملة آخرين من معاريفها لا يختلف ابناء التسنن في شيوع فضلهم وغزارة علمهم وربانيتهم وهذه الجوامع طافحة بعلومهم ومروياتهم عن جدهم رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ؛ ويجد نصف مروياته في كتابه المزبور على التحقيق من طريق أبي هريرة هذا الدجال المدلس الذي سنقوم لك بدراسة حاله موسعاً فأين التقدس والتورع والغسل والصلاة يا شيخ .

ومن ذلك اغفاله لفضائل علي ـ على انك قد قرأت آنفاً عن الحاكم والذهبي [١] عن محمّد بن منصور الطوسي يقول سمعت أحمد بن حنبل يقول ما جاء لأحد من أصحاب رسول الله من الفضائل ما جاء لعلي بن أبي طالب ؛ ومع ذلك نرى هذا الشيخ المقدس يروي في حق مشايخه الفضائل الجسام حتى إذا جاء إلى علي مر كالعاجل المسرع لا يذكر من فضله إلّا الطفيف الذي لا يهتم له والكتاب بين يديك فتصفحه وها نهن نذكر لك بعضاً مما ذكر في الطرفين .

(ج ٢ ص ١٨٥ باب سدوا الأبواب إلّا باب أبي بكر : من صحيح البخاري)

قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ان من امن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر ولو كنت

---

(١) المستدرك ج ٣ ص ١٠٧ .

متخذاً خليلاً غير ربي لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن اخوة الإسلام ومودته لا يبقين في المسجد باب إلّا سد إلّا باب أبي بكر. اقول سنبطل هذا المعنى فيما يجيء ان شاء الله.

(باب فضل أبي بكر بعد النبي) عن ابن عمر قال كنا نخير بين الناس في زمن النبي فنخير أبا بكر ثمّ عمر بن الخطاب ثمّ عثمان بن عفان؛ انظر واعجب فإنّ علياً لا قيمة له في نظر القوم وحتى بعد ابن عفان (باب قول النبي لو كنت متخذاً خليلاً) قال رسول الله لو كنت متخذاً من هذه الأُمّة خليلاً لاتخذته انزله أبا يعني أبا بكر؛ يريد ان النبي ينزل أبا بكر من نفسه منزلة أبيه الذي ولده اعظاماً واجلالاً له.

(باب) اتت امرأة النبي فأمرها أن ترجع إليه قالت ارأيت ان جئت ولم أجدك كانها تقول الموت قال ﷺ ان لم تجديني فاتي أبا بكر؛ يريد من وراء ذلك انّه خليفة محمّد بعد موت محمّد ولذا ارشد المرأة ان تأتيه إذا لم تصادفه حياً. عن همام قال سمعت عماراً يقول: رأيت رسول الله وما معه إلّا خمسة اعبد وامرأتان وأبو بكر؛ يريد البخاري بهذا أن ينفي سابقية علي في الإسلام وانّه حتى العبيد والنساء سبقوه إلى الايمان بالله ورسوله، انظر إلى هذا التدجيل وامّا هذه الفرية على عمار فهي كشفق الصبح وضوحاً في مخالفتها للواقع فإنّ عماراً ممن لا ينكر مقام علي في كل شيء منذ اتصل عمار بالاسلام وشهد موقف علي من النبي ومن كل فضيلة ولذلك كان من أخص اصحابه الذابين عنه المفضلين له على كل انسان بعد الرسول وسيجيء شرح ذلك مبسوطاً.

قيل لرسول الله: أي الناس أحب اليك قال عائشة فقيل من الرجال فقال أبوها فقيل ثمّ من قال ثمّ عمر بن الخطاب فعد رجالاً. أقول هذا الحديث مكذوب بالصراحة وسنفنده فيما يجيء. عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله يقول بينما

راع في غنمه عدا عليه الذئب فأخذ منها شاة فطلبه الراعي فالتفت إليه الذئب فقال من لها يوم السبع يوم ليس لها راع غيري وبينا رجل يسوق بقرة قد حمل عليها فالتفت إليه فكلمته فقالت اني لم اخلق لهذا ولكني خلقت للحرث قال الناس سبحانه الله فقال النبي اني أو من بذلك وأبو بكر وعمر بن الخطاب.

أقول: خرافة لا قيمة لها ولو نفض كتاب البخاري وغيره من المحدثين من أمثال هذه البدع ومن أحاديث التجسيم واوصاف الجنة والنار والحور العين وأحاديث بدء الخلقة الخارجة عن مضغ الاعتبار لها لنقص من كتب الحديث نصفها تحقيقاً وبذلك كانت خدمة جليلة للاسلام.

ثمّ يروي هذا المقدس [١] عن محمّد بن الحنفية قال: قلت لأبي أي الناس خير بعد رسول الله قال: أبو بكر قلم ثمّ من قال ثمّ عمر وخشيت أن يقول عثمان قلت ثمّ أنت قال ما أنا إلّا رجل من المسلمين. أي لا اعد في هذا العداد ولست من هذا القبيل انظر إلى هذا التدجيل واعجب وستوافيك صرخات علي في تهضمه واظهار مظلوميته بتقدم هذا الجمع عليه وهو لا يراهم طرف قياس له ـ كما هو الحق الصريح ـ فانك ستقف على طوائف من الأخبار المروية من طرق القوم عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في بيان مقام علي وفضله وانّه لم يخلف من بعده رجلاً مثله ولا كان في عصره من هو نظير له.

وعلى هذه الوتيرة أخذ البخاري يسوق في الشيخين تارة وفي الثلاث تارة أُخرى ما يشاء أن يسوقه من دون أن يشرك معهم علياً في الفضل الذي زواه لهم وادعى صدوره عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيهم وذكر في مناقب عمر بن الخطاب صفحتين ص ١٨٨ و ١٨٩ وفي مناقب عثمان بن عفان صفحتين ص ١٩٠ و ١٩١ غير ما

(١) ص ١٨٦ من المصدر الآنف نفسه.

اسلفه لهما وللأول مشتركاً كما ذكرنا نحن نبذة من المشترك من بـاب نـموذج الباب.

ثمّ ساق في مناقب علي نصف صفحة ص ١٩٢ وهذا الذي فيها: قال النـبي لعلي أنت مني وانا منك وقال عمر توفي رسول الله وهو عنه راض وحديث الراية في خيبر مختصراً وقول النبي لعلي أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون مـن موسى؛ هذا جميع ما ذكره في باب مناقب علي وأنت محكم في استعراض هذا الباب فإن وجدت فيه غير ذلك مما يقال فيه انّه منقبة فلك الضـمان عـلي وأي دليل أعظم من هذا على تدجيل هذا الإنسان ونصبه لآل بيت الرسالة وخـاصة علي عليه السلام؛ واننا سنقوم بجولة ذات شأن على هذا الكتاب أوّلاً واستعراض لجملة من مناقب علي مما ورد في حقه من طريق القوم مقبولاً غير مردود باعترافـهم ثانياً والله من وراء القصد.

فمن هنا يتجلى لك ان اقحام أبي بكر في حديث اسلام آل بيت محمّد عندما بعث عميدهم رسولاً من ناحية الله سبحانه حلقة من حلقات السلسلة المصنوعة التي قام بها ابناء التسنن في تشبيد مشايخهم ولم يكتفوا بذلك حتى قدموه فـي اسفمه على كل اهله ما سوى خديجة بنت خويلد التي ماتت قبل أن تدرك زمن الأشياخ ولم تمل إلى جانب دون جانب حتى تتأثر عصبياتهم لذلك امّا بسلب أو بايجاب ومع كمال هذه المرأة وسوابقها الحسنة مع النبي من كل جهة لم يـرض كثير من أبناء التسنن في تقديمها على عائشة كما لم يرض جميعهم بـتقديم أي زوجة أُخرى من زوجاته صلى الله عليه وآله وسلم على ابنة أبي بكر بل ولا مساواتها لها وتراهـم يروغون من تقديم فاطمة ابنة محمّد التي قال في حقها أبوها ما لم يقله في شأن أي امرأة تفرض والتي أطبق المؤرخون على طهارتها وعلمها وعبادتها وزهدها وورعها ـ على عائشة ـ التي لم تزل تحرك على النبي وآله بايجاد الاختلاف عليه

من زوجاته في حياته وتدخلها التدخل التام في سياسة المسلمين بعد وفاته فتحرض على قتل عثمان تارة وتخرج للأخذ بثأره تارة أُخرى وهلم جرا إلى ان اخفى صوتها الموت المحتم ولكن بعد أن اثرت اثرها السيء في امة زوجها انصافاً ؛ ولهذا الفصل شروح مفصلة تقف عليها بكل ارتياح فيما سيجيء ان شاء الله.

٦ ـ وهذا ابن أبي طالب نفسه يصرح في ثنايا خطبه ومضامين كلماته بسابقته حيث لا قرين له في الإسلام من كل صحابة محمّد على الإطلاق ؛ ونسبق ذلك بكلمة لابن أبي الحديد في مقدمة شرحه على نهج البلاغة (ج١ ص٥) قال: واختلف في سنه حين حين أظهر النبي صلى الله عليه وآله وسلم الدعوة إذ تكامل له صلوات الله عليه أربعون سنة فالأشهر من الروايات انّه كان ابن عشر وكثير من أصحابنا المتكلمين يقولون انّه كان ابن ثلاث عشرة سنة ذكر ذلك شيخنا أبو القاسم البلخي وغيره من شيوخنا والأولون يقولون انّه قتل وهو ابن ثلاث وستين سنة وهؤلاء يقولون ابن ست وستين والروايات في ذلك مختلفة ومن الناس من يزعم ان سنه كان دون العشر والأكثر الأظهر خلاف ذلك ؛ أقول: ونحن قد تكلمنا على هذه المسألة آنفاً بطرز حسن فلا نعيد.

قال: وذكر أحمد بن يحيى البلاذري وعلي بن الحسين الاصفهاني [١] ان قريشاً أصابتها أزمة وقحط فقال رسول الله لعميه حمزة والعباس ألا نحمل ثقل

---

(١) أقول: قال أبو الفرج الاصبهاني (في مقاتل الطالبيين ص ٢٦) عند تحدثه عن مقتل علي عليه السلام وكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أخذ علياً من أبيه وهو صغير في سنة اصابت قريشا وقحط نالهم واخذ حمزة جعفراً وأخذ العباس طالبا ليكفوا أباهم مؤنتهم ويخففوا عنه ثقلهم وأخذ هو عقيلاً لميله كان إليه فقال رسول الله اخترت من اختار الله لي عليكم علياً ـ ا هـ ـ

أبي طالب في هذا المحل فجاءوا إليه وسألوه أن يدفع اليهم ولده ليكفوه أمرهم فقال دعوا لي عقيلاً وخذوا من شئتم وكان شديد الحب لعقيل فأخذ العباس طالباً وأخذ حمزة جعفراً وأخذ محمّد علياً وقال لهم قد اخترت من اختاره الله لي عليكم علياً قالوا فكان علي في حجر رسول الله منذ كان عمره ست سنين وكان ما يسدى إليه صلوات الله عليه من احسانه وشفقته وبره وحسن تربيته كالمكافأة والمعاوضة لصنيع أبي طالب به حيث مات عبد المطلب وجعله في حجره وهذا يطابق قوله عليه السلام لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأُمّة سبع سنين، وقوله كنت أسمع الصوت وأبصر الضوء سنين سبعاً ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حينئذ صامت ما إذن له في الانذار والتبليغ وذلك لأنّه إذا كان عمره يوم اظهار الدعوة ثلاث عشرة سنة وتسليمه إلى رسول الله من أبيه وهو ابن ست سنين فقد صح انّه كان يعبد الله قبل الناس بأجمعهم سبع سنين وابن ست تصح منه العبادة إذا كان ذا تمييز على ان عبادة مثله هي التعظيم والاجلال وخشوع القلب واستخذاء الجوارح إذا شاهد شيئاً من جلال الله سبحانه وآياته الباهرة ومثل هذا موجود في الصبيان ـ ا هـ ـ

١) ومن كلام له عليه السلام لأصحابه: امّا انّه سيظهر عليكم بعدي رجل رحب البلعوم مندحق البطن يأكل ما يجد ويطلب ما لا يجد فاقتلوه ولن تقتلوه ألا وانّه سيأمركم بسبي والبراءة مني أما السب فسبوني فإنّه لي زكاة ولكن نجاة وامّا البراءة فلا تتبرأوا مني فاني ولدت على الفطرة وسبقت إلى الايمان والهجرة؛ قال ابن أبي الحديد في ذيل شرحه على هذا الفصل واعلم ان أمير المؤمنين عليه السلام ما زال يدعي ذلك لنفسه ويفتخر به ويجعله في أفضليته على غيره ويصرح بذلك وقد قال غير مرة انا الصديق الأكبر والفاروق الأوّل أسلمت قبل اسلام أبي بكر وصليت قبل صلاته وروي عنه هذا الكلام بعينه أبو محمّد ابن قتيبة في كتاب المعارف وهو غير متهم في أمره ثمّ قال والأخبار الواردة في هذا الباب كثيرة

جداً لا يتسع هذا الكتاب لذكرها فلتطلب من مظانها ومن تأمل كتب السير والتواريخ عرف من ذلك ما قلناه فاما الذاهبون إلى ان أبا بكر أقدمهما اسلاماً فنفر قليلون [١].

ونحن وان كنا فندنا مزاعم من يدعي تقدم أبي بكر على علي في الإسلام من طريق المنطق لا نلوي عنان القلم عن المقابلة بين ما ورد في تقدم اسلام علي وما ورد في تقدم اسلام أبي بكر وقد أشرنا في ذيل النقول القاطعة بتقدم اسلام علي ان هذه الطوائف بعض المنقول في هذا الباب ومتحرى التتبع يقف على الوان من الحديث في هذا الشأن ودونك الآن في مقام التقابل ما يذكره ابن قتيبة في كتاب المعارف ص ٧٣ فإنّه بعد ما ذكر في حق تقدم علي اسلاماً وصلاة على كل أحد وخاصة على أبي بكر ثلاثة أنواع من الحديث ونحن قد أسلفنا ذلك عنه قال: حدثنا أبو داود قال حدثنا شعبة قال حدثنا الجريري قال سمعت أبا نضرة يقول: يقال أبو بكر في الخلافة ومن أحق بها مني ألست أوّل من أسلم ـ اهـ ولم يزد على ذلك شيئاً.

وامّا الطبري فقد ساق أربعة عشر حديثاً كما أسلفناه في تقدم علي باسلامه وصلاته [٢] ثمّ ذكر القائلين بتقدم اسلام أبي بكر وساق لهذه الدعوى سبعة أحاديث بالترتيب الآتي:

عن الشعبي قال: قلت لابن عباس من أوّل الناس اسلاماً فقال: أما سمعت قول حسان بن ثابت وذكر ثلاثة أبيات موضع الشاهد منها مصراعها الأخير:

وأوّل الناس ممن صدق الرسلا

---

(١) ج ١ ص ٣٥٥ و ص ٣٧٧.

(٢) ج ٢ ص ٢١١ وما بعدها.

ثمّ من طريق آخر عن الشعبي عن ابن عباس نحوه؛ ثمّ عن مغيرة عن ابراهيم قال: أوّل من أسلم أبو بكر؛ ثمّ عن عمرو بن مرة قال: قال ابراهيم النخعي أبو بكر أوّل من أسلم. ثمّ عن عمرو بن عبسة قال: أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ قلت يا رسول الله من تعبك على هذا الأمر قال: اتبعني عليه رجلان حر وعبد أبو بكر وبلال قال: فأسلمت عند ذلك قال فلقد رأيتني إذ ذاك ربع الإسلام. ثمّ من طريق آخر عن جبير بن نفير قال كان أبو ذر وابن عبسة كلاهما يقول لقد رأيتني ربع الإسلام ولم يسلم قبلي إلّا النبي وأبو بكر وبلال وكلاهما لا يدري متى أسلم الآخر.

أقول: الحديثان الأخيران مكذوبانِ بلا شبهة لأنّهما يصرحان بأنّ ابن عبسة أو أبا ذر لم يسبقهما إلى الإسلام إلّا النبي وأبو بكر وبلال في حال ان المؤرخين وكتاب السيرة بأسرهم يصرحون بتقدم اسلام خديجة على كل أحد وان علياً ان يكن سبقه أحد على بعض الأقوال فهو امّا أبو بكر أو زيد بن حارثة لا ابن عبسة ولا أبو ذر بطور قاطع على ان ذكر ابن عبسة هذا قد سبق في تاريخ ابن واضح اليعقوبي وانّه عندما سأل النبي من اتبعك على هذا الأمر أجابه اتبعني امرأة وصبي وعبد يريد خديجة وعلياً وزيد بن حارثة كما يشهد به السياق.

ثمّ قال الطبري: وقال آخرون أسلم قبل أبي بكر جماعة ـ ذكر من قال ذلك ـ حدثنا ابن حميد إلى أن يقول عن محمّد بن سعد قال قلت لابي أكان أبو بكر اولكم اسلاماً فقال لا ولقد أسلم قبله أكثر من خمسين ولكن كان أفضلنا اسلاماً.

أقول: قال السيوطي في تاريخ الخلفاء عند ذكره اسلام أبي بكر [١] واخرج ابن أبي شيبة وابن عساكر عن سالم بن أبي الجعد قال: قلت لمحمد بن الحنفية

---

(١) ص ١٣ و ١٤.

هل كان أبو بكر أوّل القوم اسلاماً قال: لا قلت: فبما علا أبو بكر حتى لحق بربه. وأخرج ابن عساكر بسند جيد عن محمّد بن سعد بن أبي وقاص انه قال لأبيه سعد أكان أبو بكر الصديق أولكم اسلاماً قال: لا ولكنه أسلم قبله أكثر من خمسة ولكن كان خيرنا اسلاماً. أقول أيضاً وهذا مما يؤيد ان اسلام علي خال من هذه المناقشات.

ثمّ قال الطبري [١] وقال آخرون كان أوّل من آمن واتبع النبي من الرجال زيد بن حارثة مولاه ـ ذكر من قال ذلك ـ سئل الزهري من أوّل من أسلم قال: من النساء خديجة ومن الرجال زيد بن حارثة وعن سليمان بن يسار قال: أوّل من أسلم زيد بن حارثة وعن ابن أبي أنس مثله وعن عروة قال: أوّل من أسلم زيد بن حارثة. هذا كله ما ذكره الطبري في الباب، ولا ريب ان القول في زيد بن حارثة في جانب الأقلية وإن كان الاعتبار يساعده على سبقه في الإسلام على كل خارج عن آل بيت محمّد حين البعثة من أبي بكر وغيره ما سوى خديجة وعلي بل وما سوى بنات خديجة من محمّد ﷺ ان كن حينذاك يتميزن معنى الإسلام وما هو الاعتناق له وقد أسلفنا لسان المنطق في هذا الشأن فلا نعيد؛ واختصر ابن الأثير ما ذكره الطبري في هذا الباب.

وقال ابن عبد البر في ترجمة أبي بكر ـ عبد الله بن أبي قحافة ـ من الاستيعاب: وانت قرأت عنه آنفاً ما كتب في اسلام علي فليكن علي ذكر منك؛ مجالد عن الشعبي قال: سألت ابن عباس أو سئل أي الناس كان أوّل اسلاماً فقال: أما سمعت قول حسان: وموضع الشاهد منه هو:

وأوّل الناس ممن صدق الرسلا

---

(١) كل ذلك في ج ٢ ص ٢١٤ و ص ٢١٥.

وعن ابراهيم النخعي قال أبو بكر أوّل من اسلم ثمّ ساق حديث عمرو بن عبسة كما ساقه الطبري بما مر عليك نقله ومخالفته للاعتبار الصادق؛ هذاكله ما ذكره ابن عبد البر في ترجمة أبي بكر من حديث سبقه إلى الإسلام ومع غض النظر عن كل شيء يورد في المقام فهذه النقول لا تقاوم طرفاً من تلك النقول التي اسلفها هذا الإنسان نفسه في حق علي فضلاً عما أورده غيره ممن لا يرى لأبي بكر تقدماً في الإسلام على علي ويرى التقدم لعلي بضرس قاطع وهم كثيرون وقد مر ذكر عدة منهم فلا نطيل بالتكرار وبعد هذا فما يذكره السيوطي [١] عن ميمون بن مهران ان أبا بكر آمن بالنبي زمن بحيرا الراهب حين مر به واختلف فيما بينه وبين خديجة حين أنكحها اياه وذلك كله قبل ان يولد علي؛ فذلك تزوير واضح ولو كان له طرف من الحقيقة لذكره غيره في حين انّه لا ذاكر له وما مر عليك من النقول المتوفرة عن امهات الكتب المعروفة المتداولة بين أهل التاريخ والسيرة من حديث تزوج النبي بخديجة وحديث بعثته وأوّل من آمن به شاهد واضح يقطع هذه الأكاذيب والتزويرات ويطردها بعيداً عن صفحات التاريخ.

على ان ما ذكرناه نحن غيض من فيض وما لم نذكره أكثر مما ذكرناه.

وأشد مخالفة للظاهر والواقع كليهما قول السيوطي أيضاً بل ادعى بعضهم الاجماع عليه أي تقدم اسلام أبي بكر وكيف يدعى الإجماع على ما هو في طرف الأقلية؛ أفلا يفقه هذا الإنسان لحال نفسه وهو هو بلا فاصلة يقول وقيل أوّل من أسلم علي وقيل خديجة ويذكر عن ابن أبي شيبة وابن عساكر انهما يرويان ان أبا بكر لم يكن أوّل القوم اسلاماً وهكذا يروي ابن عساكر بسند جيد عن محمّد بن سعد بن أبي وقاص ان أبا بكر لم يكن أوّل الناس اسلاماً بل أسلم

---

(١) تاريخ الخلفاء: ص ١٣.

قبله أكثر من خمسة ويقول قال ابن كثير الظاهر ان أهل بيته آمنوا قبل كل أحد وعد منهم علياً ؛ فما هذا التضارب والتناقض.

ومن المضحكات ان السيوطي ونظرائه لما وجدوا انفسهم في قبال دعوى تقدم أبي بكر في الإسلام مهددة بمخاطر كثيرة لاختلاف النقول في تقدمه بل أكثرها ينص بتقدم علي على كل أحد وبعضها بتقدم زيد بن حارثة فضلاً عن علي عليه وبعضها بتقدم خمسين عليه كما قرأت عن الطبري وبعضها بتقدم أكثر من خمسة عليه كما قرأت في رواية ابن عساكر عن محمّد بن سعد بن أبي وقاص بل كأن المؤرخين اطبقوا على تقدم خديجة على الجميع ؛ هذا وهم لا يرضون بأن تفلت دعواهم في تقدمه من أيديهم ؛ عمدوا إلى مقالة زوروها في أنفسهم ليتستروا بها عن هذا التخليط الفاضح في حق الشيخ فقالوا والجمع بين الأقوال ان أبا بكر أوّل من اسلم من الرجال الأحرار وخديجة من النساء وعلياً من الصبيان وزيداً من الاعبد ؛ فظنوا ان ذلك يحفظ لهم ما يريدونه من السابقة ولكنهم فضلاً عن عدم وصولهم إلى مقصدهم بهذا الوجه افتضحوا امام موازين العلم فإنّ هذه الاضافات إذا اخذت في أفعل التفضيل سلخت فضله بالمرة الواحدة وأوجبت عليه الكذب بالضرورة ؛ مثاله ان أربعين رجلاً متفاوتين في العمر بحيث كان كل واحد منهم اكبر من الآخر سناً دخلوا ارك من مسلك لا يسع في العبور إلّا واحداً بعد واحد فإنّهم بعد أن يستتموا دخولاً إلى الدار يجوز لك أن تقول أوّل من دخل الدار من ابناء الثمانين فلان ومن أبناء الخمسين والسبعين فلان ومن أبناء السبعين فلان وهكذا حتى تأتي بحكمك بالاولية على كل واحد منهم إلى آخرهم وأنت صادق في الحكم بكل هذه الأوليات لكل اولئك الأفراد الأربعين في حال ان الأولية الواقعية في الدخول الذي هو المنظور في هذه الأخبار لا تعدوا الأوّل دخولاً منهم الذي لم يجز قبله احد في مسلك الدار وهكذا

الشأن فيما هو الموضوع بأيدينا من مسئلة المتقدم في الإسلام من اولئك الجمع فانك يجوز لك أن تبسط القضية بأوسع مما ذكره القوم فتقول الأوّل اسلاماً من بني أسد بن عبد العزى خديجة ومن آل أبي طالب علي ومن بني تيم أبو بكر ومن غفار أبو ذر ومن بني عدي عمر وهلم جرا حتى تأتي على أكثر من عشرة آلاف نفس لها الأولية باضافة خاصة أفيصدق على هؤلاء كلهم انهم سابقون إلى الإسلام بصيغة التفضيل يستحيل ذلك وحتى على اثنين منهم فضلاً عن الجميع نعم يمكن التقارب في ذلك لا التقارن فاعقل وتدبر.

فقولهم ان أبا بكر أوّل من اسلم من الرجال الأحرار وزيد بن حارثة من الأعبد وخديجة من النساء وعلياً من الصبيان من الاحاجي والألغاز ولا يثمر اقل ثمرة وان نسبوا القول بهذا الجمع إلى الامام أبي حنيفة كما يزعم السيوطي وانّه أوّل فاتح لهذا المغلق ومرتكب لأول غلط في هذا الموضوع.

٢) وقال عليه السلام في ذم أهل العراق: امّا بعد يا أهل العراق فإنّما أنتم كالمرأة الحامل حملت فلما أتمت أملصت ومات قيمها وطال تأيمها وورثها أبعدها أما والله ما أتيتكم اختياراً ولكن جئت اليكم سوقاً ولكني بلغني انكم تقولون علي يكذب قاتلكم الله تعالى فعلى من أكذب أعلى الله فأنا أوّل من آمن به أم على نبيه فأنا أوّل من صدقه كلا والله لكنها لهجة غبتم عنها ولم تكونوا من أهلها ويل امه كيلا بغير ثمن لو كان له وعاء ولتعلمن نبأه بعد حين [١].

٣) من جملة كلام له عليه السلام: اللهم انك تعلم انّه لم يكن الذي كان منا منافسة في سلطان ولا التماس شيء من فضول الحطام ولكن لنرد المعالم من دينك ولنظهر الاصلاح في بلادك فيأمن المظلومون من عبادك وتقام المعطلة من حدودك اللهم

---

(١) نهج البلاغة مع الشرح الحديدي: ج ٢ ص ٤٧.

اني أوّل من أناب وسمع وأجاب لم يسبقني إلّا رسول الله بالصلاة [١].

٤) من جملة كلام له عليه السلام : انا وضعت في الصغر بكلاكل العرب وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر وقد علمتم موضعي من رسول الله صلى الله عليه وآله بالقرابة القريبة والمنزلة الخصيصة وضعني في حجره وأنا وليد يضمني إلى صدره ويكنفني في فراشه ويمسني جسده ويشمني عرفه وكان يمضغ الشيء حتى يلقمنيه وما وجد لي كذبة في قول ولا خطلة في فعل ولقد قرن الله به صلى الله عليه وآله من لدن إن كان فطيما اعظم ملك من ملائكته يسلك به طريق المكارم ومحاسن أخلاق العالم ليله ونهاره ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل أثر امه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علماً ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري ولم يجمع بيت واحد يومئذ في الإسلام غير رسول الله صلى الله عليه وآله وخديجة وأنا ثالثهما أرى نور الوحي والرسالة وأشم ريح النبوة ولقد سمعت رنة الشيطان حين نزل الوحي عليه صلى الله عليه وآله فقلت يا رسول الله ما هذه الرنة فقال هذا الشيطان قد أيس من عبادته انك تسمع ما أسمع وترى ما أرى إلّا انك لست بنبي ولكنك لوزير وانك لعلى خير [٢].

أقول : هذا الفصل يشرح كثيراً من التاريخ والأخبار التي أسلفناها كما يزيف كثيراً منها ـ مثل ما ينقله هيكل في كتابه حياة محمّد ان النبي دعا علياً إلى الإسلام فاستمهله حتى يشاور اباه أبا طالب فبات ليلته مضطرباً فانقاد لمحمد من دون مشورة أبيه ـ ومثل ما ينقله غيره ـ ان النبي دعاه إلى الاسفم والكفر باللات والعزى ؛ ومثل ما ينقل انّه دخل على النبي وخديجة وهما يصليان

---

(١) نهج البلاغة مع الشرح الحديدي : ج ٢ ص ٣٧٨.

(٢) نهج البلاغة مع الشرح الحديدي : ج ٣ ص ٢٥٠.

فاستوضح منهما حديث ماهما فيه ـ إلى نظير ذلك ـ فإنّ هذا الفصل ناطق بصراحة؛ ومحول به إلى علم المخاطبين بقوله: وقد علمتم موضعي من رسول الله ﷺ الخ. انّه كان أشد الناس لصوقاً بالنبي من صغره واتباعاً له في أثره وانّه كان معه في بيته وفي جملة عياله فهو في غنى عن الدعوة لأنّه لم يتخط أثر محمّد أصلاً؛ وهذا أيضاً غير حديث المؤرخين انه اصابت قريشاً أزمة شديدة فقال محمّد لعمه العباس امض بنا نخفف من عيال أبي طالب؛ فإنّ هذا الفصل يدل على كون علي عند النبي قبل زمان مثل هذا الحديث فإنّ من يقول وكان يمضغ الشيء ثمّ يلقمنيه لا يصح ان يقال في حقه انّه نقل من حجر من امه وأبيه لأجل تخفيف مؤنته عمن يعول به فإنّ من يكون بهذه الدرجة من السن ليس به ثقل على كافله من ناحية المأكل والمشرب إذ لا وزن لمطعمه ومشربه سواء في الجدب والرخاء وإنّما يقال في حقه انّه مزيد لطف وتوثق علاقة ليس غير.

كما ان هذا الفصل شارح لحديث الصلاة قبل البعثة بسبع سنين أو ست أو خمس فإنّه يقول ولقد كنت اتبعه اتباع الفصيل اثر امه يرفع لي في كل يوم من أخلاقه علما ويأمرني بالاقتداء به ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري وبهذا يندفع اعتراض المعترضين القائلين بأنّ علياً ان يكن سبق أبا بكر وزيداً وبلالاً بالاسلام فببضع ساعات فأين السبع السنون أو الست أو الخمس التي صلى فيها علي قبل كل أحد فإنّ هذا الفصل ناطق بصراحة ان صلاته كانت مع رسول الله قبل البعثة بحراء سنين عديدة؛ كما ان قوله وانا ثالثهما: ناطق صريح بأنّ حديث تقدم اسلام أبي بكر وزيد بن حارثة عليه أو مقارنته له حديث مزور لا أصل له.

قال ابن أبي الحديد [١]: وروى الفضل بن عباس ﵁ قال: سألت أبي عن ولد رسول الله الذكور ايهم كان رسول الله أشد حباً فقال: علي بن أبي طالب فقلت له: سألتك عن بنيه فقال انّه كان أحب إليه من بنيه جميعاً وأرأف ما رأيناه زايله يوماً من الدهر منذ كان طفلاً إلّا ان يكون في سفر لخديجة وما رأينا أباً أبر بابن منه لعلي ولا ابناً أطوع لأب من علي له.

٥) ومن كتاب له إلى معاوية: فأراد قومنا قتل نبينا واجتياح اصلنا وهموا بنا الهموم وفعلوا بنا الأفاعيل ومنعونا العذب واحلسونا الخوف واضطرونا إلى جبل وعر واوقدوا لنا نار الحرب فعزم الله لنا على الذب عن حوزته والرمي من وراء حومته مؤمننا يبغي بذلك الأجر وكافرنا يحامي عن الأصل ومن أسلم من قريش خلو مما نحن فيه بحلف يمنعه أو عشيرة تقوم دونه فهو من القتل بمكان آمن.

وكان رسول الله ﷺ إذا احمر البأس واحجم الناس قدم أهل بيته فوقى بهم أصحابه حر السيوف والأسنة فقتل عبيدة بن الحارث يوم بدر وقتل حمزة يوم احد وقتل جعفر يوم مؤتة وأراد من لو شئت ذكرت اسمه مثل الذي أرادوا من الشهادة ولكن آجالهم عجلت ومنيته اخرت فاعجبا للدهر إذ صرت يقرن بي من لم يسع بقدمي ولم تكن له كسابقتي التي لا يدلي أحد بمثلها إلّا ان يدعي مدع ما لا أعرفه ولا أظن الله يعرفه والحمد لله على كل حال [٢].

قال ابن أبي الحديد عقيب هذا الفصل فاما الكلام في الفصل الأوّل ـ ويريد به موضوع سابقة علي ﵇ المشار اليها في كلامه بقوله ولم تكن له كسابقتي ـ

---

(١) شرح ابن أبي الحديد: ج ٣ ص ٢٥١.

(٢) نهج البلاغة مع الشرح الحديدي: ج ٣ ص ٣٤٠.

فنذكر منه ما ذكره محمّد بن اسحاق بن يسار في كتاب السيرة والمغازي فإنّه كتاب معتمد عند أصحاب الحديث والمؤرخين ومصنفه شيخ الناس كلهم:

قال محمّد بن اسحاق لم يسبق علياً إلى الايمان بالله ورسالة محمّد ﷺ أحد من الناس إلّا أن تكون خديجة زوجة رسول الله ﷺ قال وقد كان ﷺ يخرج ومعه علي مستخفياً من الناس فيصليان الصلوات في بعض شعاب مكة فإذا أمسيا رجعا فمكثا بذلك ما شاء الله أن يمكثا لا ثالث لهما قال ابن اسحاق ثمّ أسلم زيد بن حارثة مولى رسول الله فكان أوّل من أسلم وصلى معه بعد علي ابن أبي طالب ثمّ اسلم أبو بكر بن أبي قحافة فكان ثالثاً لهما ثمّ اسلم عثمان ابن عفان وطلحة والزبير وعبد الرحمن وسعد بن أبي وقاص فصاروا ثمانية فهم الثمانية الذين سبقوا الناس إلى الإسلام بمكة ثمّ أسلم بعد هؤلاء الثمانية أبو عبيدة بن الجراح وأبو سلمة بن عبد الأسد وارقم بن أبي أرقم ثمّ انتشر الإسلام بمكة وفشا ذكره وتحدث الناس به وأمر الله رسوله أن يصدع بما أمر به فكانت مدة اخفاء رسول الله ﷺ نفسه وشأنه إلى ان أمر باظهار الدين ثلاث سنين فيما بلغني.

قال محمّد بن اسحاق ولم تكن قريش تنكر امره حينئذ كل الانكار حتى ذكر آلهتهم وعابها فاعظموا ذلك وأنكروه وأجمعوا على عداوته وخلافه وحدب عليه عمه أبو طالب فمنعه وقام دونه حتى مضى مظهراً لأمر الله لا يرده عنه شيء[1].

(١) ج ٣ ص ٣٠٥.

تنبيـه:

قال ابن كثير [١]: وأوّل من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق واسلامه كان أنفع من اسلام من تقدم ذكرهم إذ كان صدراً معظماً ورئيساً في قريش مكرما إلى آخر ما ذكر في حقه. وبمثل هذا التعنت في التعبير يذكرون في اسلام عمر بن الخطاب وان الإسلام والمسلمين عزوا به عزة ظاهرة في حال ان الذي يقرأ السيرة وحتى باقلام هؤلاء الذين يسوقون هذه الكلمات الكبار في حق الشيخين لا يعود إلّا قاطعاً بأنّ محمّداً ودين محمّد لولا أبو طالب وشدة شكيمته ومبارزاته التي قل أن تفرض لأهم مبارز في التاريخ سواه بالصورة التي تقرؤها مبسوطة في القريب العاجل لتداعيا هداً على الكثبان من دون شك وامّا حديث اعتزاز الإسلام بأبي بكر وعمر فذاك حديث تعصب مكذوب ينص على كذبه نفس هؤلاء الذين يذكرونه في زاوية من بحوثهم عند التفاتهم إلى عصبياتهم وينكرونه في زاوية أُخرى من البحث إذا استرسلوا فيه غافلين عن كل شيء سوى التحديث عن حياة محمّد الطبيعية في صدر الدعوة وقبل الهجرة.

فيقول ابن هشام حاكياً عن ابن اسحاق في ضمن حديث له عن قريش وشدة تكالبهم على أذية محمّد: فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به يقولون أنت الذي تقول كذا وكذا لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول الله نعم أنا الذي أقول ذلك قال فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه قال فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله.

قال ابن اسحاق وحدثني بعض آل ام كلثوم ابنة أبي بكر انها قالت رجع أبو

(١) البداية والنهاية: ج ٣ ص ٢٦.

بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جبذوه [١] بلحيته وكان رجلاً كثير الشعر [٢] أفمثل هذا يقال في حقه كان صدراً معظماً ورئيساً في قريش مكرماً اللهم لا ـ بضرورة الحال ـ.

وبنحو من هذا يذكر ابن هشام في سيرته عن حال عمر عندما أسلم وان عمر لم يخلص من أخذ جماعة من قريش له بالمخنق إلّا بالعاص بن وائل السهمي [٣] أبمثل هذا يقال عز الإسلام والمسلمون ؟ اللهم لا يقال ذلك ؛ نعم كل ذلك حق إذا قيل في شأن أبي طالب وحده وقد أجمع أهل السيرة على هذه المقاومة الشديدة لأبي طالب وعلى عظيم منعته وامتناع محمّد به حتى إذا مات أبو طالب ضاق كل وسيع بمحمد كما سيمر بك هذا الحديث على طوله .

❊ ❊ ❊

(١) جبذوه مقلوب جذبوه عربي مستعمل .

(٢) سيرة ابن هشام (ج ١ ص ٣١١ من طبع محمّد محيى الدين عبد الحميد في مصر).

(٣) راجع سيرة ابن هشام ج ١ ص ٣٧٠ و ٣٧١.

من البعثة إلى اظهار الدعوة

اتفق كتاب السيرة على ان الفاصلة بين بدء النبوة واظهار الدعوة كانت ثلاث سنين وان النبي كان قبل أن يكلف بالمجاهرة والاصحار بالدعوة يدعو الناس إلى الإسلام سراً وكل من انس منه لطفاً وليناً وانقياداً إلى قبول النصيحة مشى إليه وبلغه وما كان كفار قريش ومشركوا العرب قبل أن ينال النبي من أصنامهم ويذكرها بسوء متحاملين عليه وعلى من اتبعه وكان المسلم وغير المسلم جميعاً يسيرون مع الحياة بوضع اعتيادي ففي فاصلة هذه الست والثلاثين شهراً أسلم كثير من الناس وعبدوا الله بالمراسم التي كانت تعد عبادة حينذاك باعياز من النبي إلّا ان الوضع الوثني لم يزل على حالته الأُولى لأنّ النبي بعد لم يصحر برأيه العام ولم يدع إلى نبذ الأوثان دعوة جاهرة فكان الوضع في هذه الفاصلة وثنياً صرفاً والإسلام عقيدة فردية لم تزاحم أي ظاهرة من مظاهر الشرك ولا شبهة ان هذه العقيدة الفردية الخافية لم تكن لتودع في الدين عزاً ولا في شرف التوحيد جلوة وليست لها أهمية تذكر ما دامت على هذه الحال الساكتة.

لهذا كلف الله تعالى نبيه الذي اختاره للقيام بأعباء رسالته ان يصدع بأمره ويجهر بكلمته ويصارح بجوهر دعوته وهي عبادة الله وحده وترك كل معبود سواه والقضاء على الروح الوثنية في الناس وتشييد معرفة الله سبحانه في القلوب والشفاه جميعاً ولا ريب ان هذا الشكل من الدعوة في محيط تسود على آفاقه الوثنية وعلى قلوب أهله الجهالة والوحشية يحتاج إلى عاملين قويين المثابرة التامة على التبليغ ببيان جالب وتعزيز الداعي بقوة تحفظه من توثب المتوثبين.

أمّا العامل الأوّل: فقد قام به القرآن بقاطع بلاغه وناصع حججه واستدلاله بما تمضغه عقول اولئك الأقوام فوعدهم على الايمان بالنعمة والنعيم وتهددهم مع

الكفر بالنقمة والجحيم بعد ما شرح لهم بالشرح المستوفي خطأهم الواضح في عبادتهم ما لا ينطق ولا يسمع ولا يضر ولا ينفع وان ما نصبوه معبوداً واتخذوه مرجعاً وموئلاً صنع أيديهم فهم أقدر منه على كل حال إذن فلا يقوم بدفع الضر عنهم ان حل بساحتهم ولا يجلب النفع اليهم ان أرادوه وتفلت منهم الأمن هو أقوى منهم وأقدر على ما يريدون من كل قوي قادر فيهم وليس ذلك إلّا الخالق الصانع لاتساع قدرته ونفوذ قوته وانّه هو الذي يسمع الدعاء مباشرة من عباده فيستجيب لهم وقد قام القرآن بألوان من بيانه الجالب في نضد هذه الحقائق وفتقها للعوام بما لا مزيد عليه وهذا هو السر لما يوجد فيه من معان متكررة في جوهرها مختلفة في طرز تراكيبها وتفنن أساليبها فإنّ المدعوين بها اناس بعيدون عن تناول المنطق ومضغ الحجج البرهانية لبساطة مداركهم وقلة إعدادهم الجاهز لتلقي ذلك إلّا بنحو بسيط ساذج ولهذا ترى القرآن عندما يتعرض أهل الكتاب بالمحاجة والمخاصمة يغير لحنه الذي يلقى به مشركي الجزيرة فيسوق لهم ما ينطبق على اسس مبادئهم الاولى التي جاء بها أنبياؤهم ثمّ حرفها بعد ذلك المحرفون عليهم وما ذاك إلّا لتشبع أذهانهم بكثير من طرق المنطق والاستدلال ولذلك كانت اسألة أهل الكتاب الملقاة إلى النبي اسألة ذات صبغة علمية بخلاف ما يتكلم به مشركوا عرب الجزيرة فإنّه سخيف للغاية وجوامع أقوالهم له انك غيرت دين الآباء وجئتنا بشيء لا نعرفه وسفهت أحلام أسلافنا فنحن لا نرضى لك بذلك وعلى هذا النوع من الجهالة مشوا مع النبي طيلة، ماكانوا مشركين وإنّما قهرهم على مخالفة دين الآباء ذباب السيف وحده لأنّهم ما كانوا يعقلون المنطق حتى يكونوا معه والجاهل بطرق السعادة من كمال اللطف به تسييره عليها أبى ذلك أو رضي به وهذا من أهم وظائف المصلح بالنسبة إلى الجاهلين القاصرين.

وأمّا العامل الثاني: فإنّه من الضروري الواضح الورود على الذهن ان موقف

المبلغ المرشد من مجمع غصت لهواته بالجهل والتوحش موقف من اهم المواقف خطورة ووحشة على النفس والناموس فإنّ الوحشي لا يزعه عن قبيله الذي يحاول انحرافه عن خطته التي هو مأنوس بها ويعدها الذخيرة الصالحة من سلفه بقيت له إلى خطة جديدة لا يعرفها حتى يمضغها ولا يتدبرها حتى يعتبرها ـ أي وازع ـ يفرض إلّا القوة المادية الصادمة وإلّا فسرعان ما يسقط الداعي المبلغ لهذا الوحشي وأشباهه جديلاً في أوّل أحيان المخاصمة؛ والدعوة بهذا اللون تغرير بالدعاة ليس غير فتعود الخسارة بكل رأس المال ـ لهذا ـ كلف الله خاتم رسله أن يستعرض بدعوته الصق الناس به حتى يكون على بصيرة من أمره إذا ورد ميدان المبارزة التبليغية وانّه من يكون سناده وحاميه من توثب هؤلاء الطغام إذا دعاهم لخلع الوثنية وتحطيم الأوثان.

قال ابن الأثير في الكامل [١] قال جعفر بن عبد الله بن أبي الحكم لما أنزل الله على رسوله ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ اشتد ذلك عليه وضاق به ذرعاً فجلس في بيته كالمريض فأتته عماته يعدنه فقال ما اشتكيت شيئاً ولكن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فقلن له فادعهم ولا تدع أبا لهب فيهم فإنّه غير مجيبك فدعاهم فحضروا ومعهم نفر من بني عبد المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين رجلاً فبادره أبو لهب وقال هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصباة واعلم انّه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وان أحق من أخذك فحبسك بنو أبيك وان أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب فما رأيت أحداً جاء على بني أبيه بشر مما جئتهم به فسكت رسول الله ولم يتكلم في ذلك المجلس ثمّ دعاهم ثانية وقال: الحمد لله

---

(١) الكامل ج ٢ ص ٤٠.

أحمده وأستعينه واومن به واتوكل عليه وأشهد أن لا اله إلّا الله وحده لا شريك له ثمّ قال: انّ الرائد لا يكذب أهله والله الذي لا اله إلّا هو اني رسول الله اليكم خاصة وإلى الناس عامة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون وانها الجنة أبداً والنار أبداً فقال أبو طالب: ما أحب الينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقنا لحديثك وهؤلاء بنو أبيك مجتمعون وإنّما أنا أحدهم غير اني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك غير انّ نفسي لا تطاوعني على فراق دين عبد المطلب فقال أبو لهب هذه والله السوأة خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا.

أقول: يحق لرسول الله أن يشتد عليه ما دعى له فإنّ موقف العالم المحترم من الجاهل المتوثب موقف فيه من الخطورة على الحيثية ما يمرض معه الإنسان قبل مباشرة العمل فإنّ هتك الحيثية على من يعتز بها من أهم المصائب الواردة على الغيور وابن عبد الله ﷺ جد عارف بنزعة القوم وشديد تمسكهم بما هم عليه وصلافتهم أمام من يعارضهم على فعل ذميم يأتونه وواجب يتركونه وانّه لا يلقى منهم إلّا الهتك العملي والتجاوز اليدوي ومد اللسان بالفحش والسب المقذع عادتهم في كل قضية تكون بمثل هذه المعارضة ـ لكنه ﷺ ـ على اعتزازه بشرفه واحترامه لحيثيته لم يجد بداً من اطاعة ربه والقيام بوظيفته المحمولة على عاتقه ولو أتت على نفسه وكل نفيس عنده فدعى القوم وادى لهم جهد ما يستطيع من كلام ينحط له اللؤلؤ المنظوم صفاءً وجلوة وفي مثل هذه المضائق تستبين الدفائن والحقائق فكان من أبي لهب في قبال دعوة ابن أخيه ما فيه كل بؤس ويأس وحذر بني عبد مناف عامة من نهضة هذا الإنسان وما يريده من عرب الجزيرة وقال لهم احبسوا عليكم وليدكم هذا قبل أن يسوق اليكم الشر كله من

العرب كلها وأنتم عدة قليلة وما بكم على العرب قاطبة وهنا يتجلى للباحث ما انطوت عليه سريرة أبي طالب شيخ البطحاء وما يكنه لهذا الإنسان ولدعوته في حال ان من يكون مثله في شيخوخته وشرفه واعتراف قريش له بالسيادة والزعامة لا يعود خاضعاً لدعوة شاب من شبان اسرته ولانتهره في أوّل كلمة منه ـ ولكن أبا علي ـ أدرك الواقع وشرف الحقائق فأجاب ابن أخيه كما يجيب التلميذ الراسخ العقيدة باستاذه؛ ما أحب الينا معاونتك واقبلنا لنصيحتك واشد تصديقنا لحديثك؛ اني أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أُمرت به فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك؛ والله لنمنعنه ما بقينا؛ وهذه الكلمات لم يسمع مثلها محمّد من أي بشر يفرض وحتى في مآخير حياته، نعم سمع مثلها من علي ابنه في زمان هذه الدعوة ولكن ما غنياء علي في يومه ذاك وهو انسان ضئيل السمعة بالنسبة إلى أبيه شيخ الأباطح ولا يهابه أحد كما يهاب أباه ولا ينقاد له من اسرته انسان إذا دعاه كما ينقاد لشيخ الأُسرة والده.

نعم الفوارق بين الأب والابن في هذا المجال لا تحصى كثرة وسنتم بقية البحث عند استعراض حديث أبي طالب وذبه عن محمّد وحياطته لدعوته.

وقال ابن الأثير [١]: وقال علي بن أبي طالب لما نزلت: وأنذر عشيرتك الأقربين: دعاني النبي ﷺ فقال: يا علي ان الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت ذرعاً وعلمت اني متى ابادرهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره فصمت عليه حتى جائني جبرئيل فقال: يا محمّد إلا تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك فاصنع لنا صاعاً من طعام واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن واجمع لي بني عبد المطلب حتى اكلمهم وابلغهم ما أُمرت به ففعلت ما أمرني به ثمّ دعوتهم

(١) الكامل: ج ٢ ص ٤١.

وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته لهم فلما وضعته تناول رسول الله حزة من اللحم فنتفها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحي الصفحة ثمّ قال خذوا باسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وما أرى إلّا مواضع أيديهم وايم الله الذي نفس علي بيده إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل ما قدمت لجميعهم ثمّ قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وايم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله ان يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال لعلما سحركم به صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم فلما كان الغد قال يا علي ان هذا الرجل سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرقوا قبل أن أكلمهم فعد لنا من الطعام بمثل ما صنعت ثمّ اجمعهم الي ففعل مثل ما فعل بالأمس فأكلوا وسقيتهم ذلك العس فشربوا حتى رووا جميعاً وشبعوا ثمّ تكلم رسول الله فقال: يا بني عبد المطلب اني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما قد جئتكم به قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله تعالى أن ادعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر على أن يكون أخي ووصي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً وقلت واني لأُحدثكم سناً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثمّ قال: انّ هذا أخي ووصي وخليفتي عليكم فاسمعوا له وأطيعوا، قال فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب: قد أمرك أن تسمع لابنك وتطيع.

قال بعض المعلقين على الكامل عند تعرضه لهذا الحديث لا أرى هذا الحديث إلّا مصنوعاً وإلّا فلم لم يحتج به علي في استحقاق الخلافة؟

أقول: إن كان مراده هو لزوم عرض هذه الحجة من علي يوم السقيفة فعلي لم يحضر السقيفة ولم يكن اجتماع ابن أبي قحافة وصاحبيه بسابقة منه حتى يدلي

بما عنده فيكذب أو يصدق وامّا بعد السقيفة فقد أُخرج من بيته قهراً للمبايعة وامّا بعد أن ارسل خناقة فكم له من خطبة حارة في هذا الصدد فند فيها مزاعم القوم وكشف للناس وجه ابتزازهم لحقه وهتكهم لحرمته وسنتكلم عن هذا في محله من هذا الكتاب ان شاء الله.

وقال الطبري [١] بعد ما ذكر الحديث الآنف بنصه حدثني زكريا بن يحيى الضرير قال حدثنا عفان بن مسلم قال حدثنا أبو عوانة عن عثمان بن المغيرة عن أبي صادق عن ربيعة بن ناجد [٢] ان رجلاً قال لعلي عليه السلام يا أمير المؤمنين بم ورثت ابن عمك دون عمك فقال علي: هاؤم ثلاث مرات حتى اشرأب الناس ونشروا آذانهم ثمّ قال جمع رسول الله أو دعا رسول الله بني عبد المطلب منهم رهطه كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق قال فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنّه لم يمس ولم يشربوا قال ثمّ قال: يا بني عبد المطلب اني بعثت اليكم خاصة وإلى الناس عامة وقد رأيتم من هذا الأمر ما قد رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنت أصغر القوم قال فقال اجلس قال ثمّ قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لي اجلس حتى كان في الثالثة فضرب بيده على يدي قال فبذلك ورثت ابن عمي دون عمي ـ اهـ ـ

وقال ابن سعد في الطبقات [٣]: عن نافع عن سالم عن علي قال: أمر رسول الله خديجة وهو بمكة فاتخذت له طعاماً ثمّ قال لعلي ادع لي بني عبد المطلب

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢١٧.

(٢) في خصائص النسائي ماجد بالميم لا بالنون وهو الأقرب.

(٣) ج ١ ص ١٧١.

فدعا أربعين فقال لعلي هلم طعامك قال علي فأتيتهم بثريدة إن كان الرجل منهم ليأكل مثلها فأكلوا منها جميعاً حتى أمسكوا ثمّ قال اسقهم فسقيتهم باناء هو ري أحدهم بشربوا منه جميعاً حتى صدروا فقال أبو لهب: لقد سحركم محمّد فتفرقوا ولم يدعهم فلبثوا اياما ثمّ صنع لهم مثله ثمّ أمرني فجمعتهم فطعموا ثمّ قال ﷺ لهم من يؤازرني على ما أنا عليه ويجيبني على أن يكون أخي وله الجنة فقلت أنا يا رسول الله واني لأحدثهم سناً وأحمشهم [١] وسكت القوم ثمّ قالوا يا أبا طالب ألا ترى ابنك قال دعوه فلن يألوا ابن عمه خيراً [٢].

وقال النسائي في الخصائص: أخبرنا الفضل بن سهل قال حدثني ابن عفان بن مسلم قال حدثنا أبو عوانة عن عثمان بن المغيرة عن أبي صادق عن ربيعة بن ماجد ان رجلاً قال لعلي بن أبي طالب يا أمير المؤمنين لم ورثت دون أعمامك قال: جمع رسول الله أو قال دعا رسول الله بني عبد المطلب فصنع لهم مداً من الطعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنّه لم يمس ثمّ دعا بغمر فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنّه لم يمس أو لم يشرب فقال يا بني عبد المطلب اني بعثت اليكم خاصة وإلى الناس عامة وقد رأيتم من هذه الآية ما قد رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنت أصغر القوم فقال اجلس ثمّ قال ثلاث مرات كل ذلك اقوم إليه فيقول اجلس حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي ثمّ قال فبذلك ورثت ابن عمي دون عمي.

وقال الحافظ الكنجي في كتابه كفاية الطالب في الباب الحادي والخمسين (أخبرنا) علي بن المقير النجار بدمشق عن المبارك بن الحسن بن أحمد الشهر

---

(١) أحمشهم ساقاً أي أدقهم.

(٢) لن يألو أي لن يقصر.

زوري أخبرنا علي بن أحمد أخبرنا أحمد بن ابراهيم حدثنا حسين بن محمّد بن الحسين حدثنا موسى بن محمّد (بن) علي بن عبد الله حدثنا الحسن بن علي بن شبيب العمري حدثنا عباد بن يعقوب حدثنا علي بن هاشم عن صباح بن يحيى المزني عن زكريا بن ميسرة عن أبي اسحاق عن البراء قال : لما نـزلت ﴿ **وأنـذر عشيرتك الأقربين** ﴾ جمع رسول الله بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجـلاً الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العس فأمر علياً برجل شاة فآدمها ثمّ قال بسم الله ادنوا فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا ثمّ دعا بقعب من لبن فجرع منه جرعة ثمّ قال لهم اشربوا بسم الله فشرب القوم حتى رووا فبدرهم أبـو لهب فقال : هذا ما سحركم به الرجل فسكت النبي ﷺ ولم يتكلم ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثمّ أنذرهم رسـول الله فـقال : يـا بـني عـبد المطلب أنا النذير لكم من الله والبشير لما يحبه أحدكم جئتكم بالدنيا والآخـرة فأسلموا وأطيعوا تهتدوا ومن يؤاخيني ويؤازرني ويكون وليي ووصيي بـعدي وخليفتي في أهلي ويقضي ديني فأمسك القوم فأعاد ذلك ثلاثاً كل ذلك يسكت القوم ويقول علي أنا فقال : أنت فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب اطع ابنك فقد أمر علينا وعليك .

وقال علاء الدين علي بن حسام الدين الشهير بالمتقي الهندي في منتخب كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال الموضوع على هامش مسند أحمد بن حـنبل المطبوع في مصر في ستة أجزاء (ج ٥ ص ٤١) عن علي قال : لما نـزلت هـذه الآية على رسول الله ﷺ وأنذر عشيرتك الأقربين دعاني رسول الله فقال يـا علي انّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت اني مهما أناديهم بهذا الأمر أرى ما أكره فصمت عليها حتى جاءني جبرئيل فقال يا محمّد انك ان لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك ، فاصنع لي صاعاً من طعام واجعل عليه

رجل شاة واجعل لنا عساً من لبن ثمّ اجمع لي بني عبد المطلب حتى اكلمهم وابلغ ما امرت به ففعلت ما أمرني به ثمّ دعوتهم وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعته لهم فجئت به فلما وضعته تناول النبي حسبت حزة من اللحم فشقها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحي الصفحة ثمّ قال كلوا باسم الله فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما نرى إلّا آثار أصابعهم والله إن كان الرجل الواحد منهم ليأكل مثلما قدمت لجميعهم ثمّ قال اسق القوم يا علي فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وايم الله إن كان الرجل منهم ليشرب مثله فلما أراد النبي أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم النبي فلما كان من الغد قال يا علي ان هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن اكلمهم فعد لنا مثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثمّ اجمعهم لي ففعلت ثمّ جمعتهم ثمّ دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا حتى نهلوا ثمّ تكلم النبي فقال: يا بني عبد المطلب اني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به اني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرني على أمري هذا فقلت وأنا أحدثهم سناً وأرمصهم عيناً وأعظمهم بطناً وأحمشهم ساقاً أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي وقال: انّ هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع وتطيع لعلي [1].

---

(١) ابن اسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم والبيهقي معاً في الدلائل.

وقال المتقي الهندي [١] عن علي قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ دعا بني عبد المطلب وصنع لهم طعاماً ليس بالكثير فقال كلوا باسم الله من جوانبها فإنّ البركة تنزل من ذروتها ووضع يده أولهم فأكلوا حتى شبعوا ثمّ دعا بقدح فشرب اولهم ثمّ سقاهم فشربوا حتى رووا فقال أبو لهب لقدماً سحركم وقال يا بني عبد المطلب اني جئتكم بما لم يجيء به أحد قط أدعوكم إلى شهادة أن لا اله إلّا الله وإلى كتابه فنفروا وتفرقوا ثمّ دعاهم الثانية على مثلها فقال أبو لهب كما قال في المرة الأُولى فدعاهم ففعلوا مثل ذلك ثمّ قال لهم ومد يده من يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووليكم من بعدي فمددت يدي وقلت أنا أُبايعك وأنا يومئذ أصغر القوم عظيم البطن فبايعني على ذلك قال وذلك الطعام أنا صنعته (ابن مردويه).

وقال المتقي الهندي أيضاً [٢] عن علي قال انّه قيل لي كيف ورثت ابن عمك دون عمك فقال: جمع رسول الله بني عبد المطلب وهم رهط كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كما هو كأنه لم يمس أو لم يشرب فقال يا بني عبد المطلب اني بعثت اليكم خاصة وإلى الناس عامة وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي ووارثي فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنت من أصغر القوم فقال اجلس ثمّ قال ثلاث مرات كل ذلك أقوم إليه فيقول لي اجلس حتى كان في الثالثة ضرب بيده على يدي قال فلذلك ورثت ابن عمي دون عمي [٣].

---

(١) المصدر نفسه: ج ٥ ص ٤٢.

(٢) المصدر نفسه من جميع الوجوه.

(٣) أحمد في المسند، وابن جرير، وسعيد بن منصور في سننه.

وقال المتقي الهندي أيضاً [١]: عن أبي اسحاق قال: قيل لقثم كيف ورث علي النبي دونكم قال انّه كان اولنا به لحوقاً وأشدنا به وثوقاً [٢].

وقال المتقي الهندي أيضاً [٣]: عن علي قال: لما نزلت هذه الآية ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ جمع النبي من أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا فقال من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون خليفتي في أهلي فقال رجل يا رسول الله انت كنت بحراء من يقوم بهذا ثمّ قال الآخر فعرض على أهل بيته واحداً واحداً فقال علي أنا [٤].

وقال أبو جعفر الاسكافي في رد الجاحظ حين قارن بين اسلام علي عليه السلام واسلام أبي بكر ورجح اسلام أبي بكر بأنّه صادر عن رجل كبير السن بخلاف علي فإنّه كان صغيراً واسلام الصغير لا يعبأ به [٥] وما علمنا أحداً من الناس فيما خلا استخف باسلام علي عليه السلام ولا تهاون به ولا زعم انّه أسلم اسلام حدث غرير وطفل صغير ومن العجب أن يكون مثل العباس وحمزة ينتظران أبا طالب وفعله ليصدرا عن رأيه ثمّ يخالفه علي ابنه لغير رغبة ولا رهبة يؤثر القلة على الكثرة والذل على العزة من غير علم ولا معرفة بالعاقبة وكيف ينكر الجاحظ والعثمانية ان رسول الله دعاه إلى الإسلام وكلفه الصديق. وروي في الخبر الصحيح انّه كلفه في مبدأ الدعوة قبل ظهور كلمة الاسفم وانتشارها بمكة ان يصنع له طعاماً وان يدعو له بني عبد المطلب فصنع له الطعام ودعاهم له فخرجوا ذلك اليوم ولم

---

(١) المصدر نفسه من جميع الوجوه.

(٢) ابن أبي شيبة.

(٣) المصدر نفسه ص ٤٣.

(٤) أحمد في المسند، وابن جرير وصححه، والطحاوي، والضياء المقدسي في المختارة.

(٥) النهج الحديدي ج ٣ ص ٢٦٣.

ينذرهم ﷺ لكلمة قالها عمه أبو لهب فكلفه اليوم الثاني ان يصنع مثل ذلك الطعام وان يدعوهم ثانية فصنعه ودعاهم فأكلوا ثمّ كلمهم ﷺ فدعاهم إلى الدين ودعاه معهم لأنّه من بني عبد المطلب ثمّ ضمن لم يوازره منهم وينصره على قوله ان يجعله أخاه في الدين ووصيه بعد موته وخليفته من بعده فأمسكوا كلهم وأجابه هو وحده وقال أنا أنصرك على ما جئت به وأؤازرك وأُبايعك فقال لهم لما رأى منهم الخذلانَ ومنه النصر وشاهد منهم المعصية ومنه الطاعة وعاين منهم الاباء ومنه الاجابة هذا أخي ووصي وخليفتي من بعدي فقاموا يسخرون ويضحكون ويقولون لأبي طالب أطع ابنك فقد أمره عليك فهل يكلف عمل الطعام ودعاء القوم صغير غير مميز وغيرغير عاقل وهل يؤتمن على سر النبوة طفل ابن خمس سنين أو ابن سبع وهل يدعى في جملة الشيوخ والكهول إلّا عاقل لبيب وهل يضع رسول الله يده في يده ويعطيه صفقة يمينه بالاخوة والوصية والخلافة إلّا وهو أهل لذلك بالغ حد التكليف محتمل لولاية الله وعداوة أعدائه وما بال هذا الطفل لم يأنس باقرانهِ ولم يلصق بأشكاله ولم ير مع الصبيان في ملاعبهم بعد اسلامه وهو كأحدهم في طبقته كبعضهم في معرفته وكيف لم ينزع اليهم في ساعة من ساعاته فيقال دعاه بعض الصبا وخاطر من خواطر الدنيا وحملته الغرة والحداثة على حضور لهوهم والدخول في حالهم بل ما رأيناه إلّا ماضياً على اسلامه مصمماً في امره محققاً لقوله بفعله قد صدق اسلامه بعفافه وزهده ولصق برسول الله من بين جميع من بحضرته فهو أمينه وأليفه ـ الخ ـ.

وقال الخازن في تفسيره المسمى لباب التأويل في تفسير القرآن الجليل قوله تعالى: ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ روى محمّد بن اسحاق بسنده عن علي بن أبي طالب قال: لما نزلت هذه الآية على رسول الله قال: يا علي انّ الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً وعرفت اني متى اباديهم بهذا الأمر

أرى منهم ما أكره فصمت عليها حتى جائني جبرئيل فقال: يا محمّد ان لا تفعل ما تؤمر يعذبك ربك فاصنع لنا طعاماً واجعل عليه رجل شاة واملأ لنا عساً من لبن ثمّ اجمع لي بني عبد المطلب حتى ابلغهم ما أُمرت به ففعلت ما أمرني به ثمّ دعوتهم له وكانوا يومئذ نحو أربعين رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا دعاني بالطعام الذي صنعت فجئت به فتناول رسول الله حزة من اللحم فشقها بأسنانه ثمّ ألقاها في نواحي الصفحة ثمّ قال خذوا باسم الله فأكل القوم حتى ما لهم بشيء من حاجة وايم الله إن كان الرجل الواحد ليأكل مثل ما قدمت لجميعهم ثمّ قال اسق القوم فجئتهم بذلك العس فشربوا حتى رووا جميعاً وايم الله إن كان الرجل الواحد ليشرب مثله فلما أراد رسول الله أن يكلمهم بدره أبو لهب فقال: سحركم صاحبكم فتفرق القوم ولم يكلمهم رسول الله فقال الغد يا علي فإنّ هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق القوم قبل أن أُكلمهم فاعدد لنا من الطعام مثل ما صنعت ثمّ اجمعهم ففعلت ثمّ جمعتهم ثمّ دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس فأكلوا وشربوا ثمّ تكلم رسول الله فقال: يا بني عبد المطلب اني قد جئتكم بخيري الدنيا والآخرة وقد أمرني الله عزوجل أن أدعوكم إليه فأيكم يوازرني على أمري هذا ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم فأحجم القوم عنها جميعاً وأنا أحدثهم سناً فقلت أنا يا رسول الله أكون وزيرك عليه فأخذ برقبتي ثمّ قال: هذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا فقام القوم يضحكون ويقولون لأبي طالب قد أمرك أن تسمع لعلي، وتطيعه.

وقال سليمان القندوزي في ينابيع المودة طبع اسلامبول (ص ١٠٥) الباب الحادي والثلاثون في تفسير قوله تعالى: ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ في جمع الفوائد: علي لما نزلت وأنذر عشيرتك الأقربين جمع النبي ﷺ من بني عبد

المطلب رهطاً كلهم يأكل الجذعة ويشرب الفرق فصنع لهم مداً من طعام فأكلوا حتى شبعوا وبقي الطعام كأنّه لم يمس ثمّ دعا بغمر فشربوا حتى رووا وبقي الشراب كأنّه لم يمس فقال: يا بني عبد المطلب اني بعثت اليكم خاصة وإلى الناس عامة وقد رأيتم من هذه الآية ما رأيتم فأيكم يبايعني على أن يكون أخي وصاحبي في الجنة فلم يقم إليه أحد فقمت إليه وكنت أصغر القوم فقال لي اجلس قال ذلك ثلاثاً كل ذلك أقوم إليه فيقول لي اجلس حتى إذا كان في الثالثة ضرب بيده على يدي وقال: هو أخي وصاحبي في الجنة (١).

وقال القندوزي أيضاً (٢): وفي مسند أحمد بسنده عن عبد بن عبد الله الأسدي عن علي رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ جمع النبي ﷺ أهل بيته فاجتمع ثلاثون نفراً فأكلوا وشربوا ثلاثاً ثمّ قال لهم من يضمن عني ديني ومواعيدي يكون معي في الجنة ويكون خليفتي في اهلي فقال علي: أنا يا رسول الله ـ اهـ.

وقال القوشجي في شرحه على التجريد عند قول الماتن (وقوله) ﷺ مخاطباً لعلي عليه السلام (أنت الخليفة بعدي) بعد جملة كلام له وقوله وقد جمع بني عبد المطلب أيكم يبايعني ويوازرني ويكون أخي ووصيي وخليفتي من بعدي فبايعه علي؛ نعم غاية ما يدعي القوشجي عدم تواتره ولنا معه على طول مشيه في مبحث الامامة مناوشات علمية نوافيك بها في محلها ان شاء الله ـ راجع شرح القوشجي على مبحث الامامة من التجريد.

وقال الطبرسي في تفسير قوله سبحانه ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين** ﴾ من سورة

---

(١) لأحمد في مناقبه.

(٢) المصدر نفسه من جميع الوجوه.

الشعراء وقد فعل ذلك النبي واشتهرت القصة بذلك عند الخاص والعام وفي الخبر المأثور عن البراء بن عازب انّه قال: لما نزلت هذه الآية جمع رسول الله بني عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا الرجل منهم يأكل المسنة ويشرب العس فأمر علياً برجل شاة فآدمها ثمّ قال ادنوا بسم الله فدنا القوم عشرة عشرة فأكلوا حتى صدروا ثمّ دعا بعقب من لبن فجرع منه جرعة ثمّ قال لهم اشربوا بسم الله فشربوا حتى رووا فبدرهم أبو لهب فقال: هذا ما سحركم به الرجل فسكت يومئذ ولم يتكلم ثمّ دعاهم من الغد على مثل ذلك من الطعام والشراب ثمّ أنذرهم رسول الله فقال: يا بني عبد المطلب اني أنا النذير اليكم من الله عزوجل والبشير فأسلموا وأطيعوني تهتدوا ثمّ قال: من يؤاخيني ويوازرني ويكون وليي ووصيي بعدي وخليفتي في اهلي ويقضي ديني فسكت القوم فأعادها كل ذلك يسكت القوم ويقول علي: أنا فقال في المرة الثالثة أنت فقام القوم وهم يقولون لأبي طالب أطع ابنك فقد أمر عليك، أورده الثعلبي في تفسيره.

وروي عن أبي رافع هذه القصة وانّه جمعهم في الشعب فصنع لهم رجل شاة فأكلوا حتى تضلعوا وسقاهم عساً فشربوا كلهم حتى رووا ثمّ قال: ان الله تعالى أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين وأنتم عشيرتي ورهطي وان الله لم يبعث نبياً إلّا جعل له من أهله أخاً ووزيراً ووارثاً ووصياً وخليفة في أهله فأيكم يقوم فيبايعني على انّه أخي ووارثي ووزيري وصيي ويكون مني بمنزلة هارون من موسى إلّا انّه لا نبي بعدي فسكت القوم فقال ليقومن قائمكم أو ليكونن في غيركم ثمّ لتندمن ثمّ أعاد الكلام ثلاث مرات فقام علي فبايعه وأجابه ثمّ قال ادن مني فدنا منه ففتح فاه ومج في فيه من ريقة وتفل بين كتفيه وثدييه فقال أبو لهب بئس ما حبوت به ابن عمك ان أجابك فملأت فاه ووجهه بزاقاً فقال ﷺ ملأته حكمة وعلماً.

وقال أحمد بن حنبل [١]: عن عباد بن عبد الله الأسدي عن علي قال لما نزلت هذه الآية ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ قال جمع النبي من أهل بيته فاجتمع ثلاثون فأكلوا وشربوا قال فقال لهم من يضمن عني ديني ومواعيدي ويكون معي في الجنة ويكون خليفتي في اهلي فقال رجل لم يسمه أنت كنت بحراء هن يقوم بهذا قال ثمّ قال الآخر قال فعرض ذلك على أهل بيته فقال علي: أنا.

أقول: والذي يكون بصدد التتبع يجمع أضعافاً مما ذكرنا بسهولة وأرى بعض المتعصبين يتهم قوله ﷺ فأيكم يؤازرني على أمري هذا ويكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم بالوضع والتزوير لأنّ فيه حديث الوصاية والخلافة وهو يهدم ما يدعونه لمشايخهم من صحة خلافتهم وايماء النبي اليهم بذلك في عدة أخبار يروونها هم من طرقهم تثبيتاً لمزاعمهم لكن الأمر هين انصافاً منا ومنهم لاشتراكنا جميعاً في ان خلافة المشايخ الثلاث فاقدة للنص وإنّما كانت بنوع من توافق بعض الآراء كما سيجيء البحث عن ذلك مفصلاً فمثل هذه الأحاديث عن النبي في حق علي لا يزاحمها حديث آخر في المشايخ حتى يكون هناك تعارض أو تناقض في الأثر الوارد فيعترك الشيعة والسنة في تقديم أي الحديثين منهما على الآخر الحديث الناص على خلافة علي أو الحديث المتكفل لخلافة الجماعة ـ لو فرض ـ نعم إنّما يلاحظ أبناء التسنن إذا اعترفوا بمثل هذه المضامين للشيعة من قيام الشيعة عليهم بتضليل شيوخهم لاجلابهم على حق علي وغصبهم اياه من دون اقل مسوغ وهذه فضيحة لا يتحملون شناعتها لذلك نصبوا صدورهم للطعن في مثل هذه الأحاديث بالتشهي الصرف وبأنّ أحد رجال هذا السند شيعي أو ان مضمون الحديث لا يلائم مشرب أهل السنة أو كأن هذا

---

(١) مسند احمل بن حنبل: ج ١ ص ١١١.

الحديث موضوع وعلى هذا قس نظيره ومن باب الصدف ان قاطبة الأحاديث الواردة في حق علي مترابطة المعاني يشهد بعضها على صدق البعض الآخر لتقارب المضامين في الدلالة على معنى جامع وانكار بعض خصوصيات الألفاظ في حديث لا يسقطه عن الاعتبار ما دام له شاهد يؤيده من حديث واحداً وأحاديث جمة بل مجموعة الآثار الواردة في فضل علي من شتى جهاته والناصة على مديد فضائله وعلو شأنه بحيث لو أراد جامعها أن يجمعها لبلغت عدة مجلدات باعتراف القوم أنفسهم وانّه لم يرد في حق أي انسان يفرض من امة محمّد بطريق صحيح أو حسن ما ورد في حق علي وفضله ـ تعطي ـ التواتر القطعي بما لا غبار عليه بأفضلية علي على كافة من سواه بوضوح وبهذا وحده يثبت غصب القوم حقاً ثبت لمستحقه وازاحتهم له عنه من دون أقل مبرر.

وأمّا لفظ أخي وصاحبي ووارثي ووصيي وخليفتي فهو كثير الورود في جملة من الأحاديث الواردة في فضله عليه السلام والاعتراف بشتات هاته الجمل موجب للاعتراف بمجتمعاتها إذ لا فرق في معانيها المفادة اقترنت في تأليف حديث واحد أو تفرقت في جملة أحاديث ونحن بعون الله سوف نقوم في مبحث الامامة بشرح هذه النقاط وتشريحها على آخر طرز وعلى الله التكلان.

ولا بأس أن نشير في هذا المقام إلى ما ذكره الدكتور هيكل في كتابه حياة محمّد (ص ١٣٩) قال بعد ثلاث سنين من حين البعث أمر الله رسوله أن يظهر ما خفي من أمره وأن يصدع بما جاءه منه ونزل الوحي ﴿ **وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين فإن عصوك فقل اني بريء مما تعملون فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين** ﴾ ودعا محمّد عشيرته إلى طعام في بيته وحاول أن يحدثهم داعياً اياهم إلى الله فقطع عمه أبو لهب حديثه واستنفر القوم ليقوموا ودعاهم محمّد في الغداة كرة أخرى فلما طعموا قال لهم ما أعلم انساناً في العرب

جاء قومه بأفضل مما جئتكم به قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرني ربى أن أدعوكم إليه فأيكم يؤازرني على هذا الأمر فاعرضوا عنه وهموا بتركه لكن علياً نهض وهو ما يزال صبياً دون الحلم وقال أنا يا رسول الله عونك أنا حرب على من حاربت فابتسم بنو هاشم وقهقه بعضهم وجعل يتنقل من أبي طالب إلى ابنه ثمّ انصرفوا مستهزئين.

أقول: لا ريب ان مساق ما قصه هيكل مأخوذ عن محمّد بن اسحاق والموازنة بين كلامه هذا وكلام ابن اسحاق فيما أسلفناه نحن تعطي بجلاء أخذ هيكل هذا الفصل من المؤرخ الذي ذكرناه ولكن بتحريف فإنّ حديث ابن اسحاق الذي نقلناه عنه مكرراً بوسائط صرحنا بها متكفل بذكر الاخوة والوصاية والخلافة وحديث هيكل عار عن الجميع وان يكن هيكل طلس حديث عن علي في هذا الفصل بما أصحر به غيره فنفس قوله لكن علياً نهض وهو ما يزال صبياً دون الحلم وقول علي أنا يا رسول الله عونك أنا حرب على من حاربت مما يشع على روح علي بفضل لا تحديد لمسافاته؛ صبي لم يبلغ الحلم في ندوة تجمع أربعين رجلاً من بني هاشم كلهم أكبر منه سناً وأنبه اسماً وفيهم أبوه وأعمامه فيدعو النبي الجميع فلا من متكلم ويتقدم هو وحده غير مكترث بأب ولا عم ولا ابن عم ولا رحم آخر ولا منخذل بصغره وبوحدته وعدم خوضه لكل حادثة من حوادث الحياة بعد؛ بكل شهامة وصراحة وصرامة ويقول: أنا يا رسول الله عونك من بين هؤلاء الأربعين رجلاً أنا حرب على من حاربت ـ لا يكون هذا الصبي ـ إلّا من أهم النوابغ وأعظم أرباب القلوب كيف لا وهو لو لم تتربع حقيقة الايمان على سويداء فؤاده ولم يدرك الحق بمنتهى دركه لما جال وهو صبي في هذه الحلبة التي نكص عنها الشيوخ المعمرون المحنكون المجربون الذين يتكلون في كل اقدام يقدمونه على استحاكم قوة وبسطة قدرة واتساع نفوذ ولواذِ ببعض

ببعض ونرى هذا الصبي من لدن بعث النبي وكان موضع اشارة لمشركي قريش بالاستهزاء واستغراب الطريقة على ما يشهده فيه من قلة ذات اليد وانعدام كل عدد ومدد لا ينفصل عنه في حل ولا مرتحل يصل جناحه بالصلاة معه ويخرج صحبته إلى شعاب مكة للعبادة ويقف من دون كل الناس هذا الموقف الذي قرأته ويكون معه في الشعب وبعد الشعب ويمارس القتال ممارسة جعلت له الذكر النابه بما دوت به الجزيرة العربية وهو شاب لم يدرك الثلاثين وعلى هذه المرقاة تدرج عابداً زاهداً عالماً قارئاً شجاعاً متفانياً في الله والرسول والدعوة اليهما والتضحية في سبيلهما إلى أن لف في كفنه وادرج في ثيابه لم يستفد في قبال خدماته هذه إلّا مرضاة الله والرسول ووجدانِهِ الطاهر فحسب هذا هو النبوغ العقلي حقاً والاعجاز في الانسانية صدقاً فسلام عليه من الأزل إلى الأبد بما لا بداية لهذه التحية ولا نهاية.

ثمّ دعا النبي جميع قريش بدعوة عامة وهو قائم على الصفا وقال: ان أخبرتكم ان خيلا تخرج من سفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تكذبوني قالوا ما جربنا عليك كذباً فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فاني لا أُغني عنكم من الله شيئاً اني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد، إنّما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشي أن يسبقوه إلى أهله فجعل يصيح يا صباحاه يا صباحاه أُتيتم أُتيتم، وفي رواية وقف على أضمة من جبل فعلا أعلاها حجراً يهتف يا صباحاه فقالوا من هذا الذي يهتف قالوا محمّد فاجتمعوا إليه فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج بنفسه أرسل مولاه فأنذرهم بما أمليناه فقال أبو لهب تباً لك ألهذا دعوتنا أو جمعتنا فأنزل الله عز وجل: ﴿ **تبت يدا أبي لهب وتب** ﴾ إلى آخر السورة.

ايمان أبي طالب

قال ابن اسحاق [١]: فلما بادى رسول الله ﷺ قومه بالاسلام وصدع به كما أمره الله لم يبعد منه قومه ولم يردوا عليه فيما بلغني حتى ذكر آلهتهم وعابها فلما فعل ذلك أعظموه وناكروه واجمعوا خلافه وعداوته.

قال ابن سعد في طبقاته [٢]: وكان أهل العداوة والمباداة لرسول الله ﷺ وأصحابه أبو جهل بن هشام وأبو لهب بن عبد المطلب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن قيس بن عدي والوليد بن المغيرة وأُمية وأُبي ابنا خلف وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة والعاص بن وائل والنضر بن الحارث ومنبه بن الحجاج وزهير بن أبي امية والسائب بن صيفي بن عائذ والأسود بن عبد الأسد والعاص بن سعيد بن العاص والعاص بن هاشم وعقبة بن أبي معيط وابن الأصدي الهذلي والحكم بن أبي العاص وعدي بن الحمراء وذلك انهم كانوا جيرانه والذي كان تنتهي عداوة رسول الله اليهم أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط وكان عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب أهل عداوة ولكنهم لم يشخصوا بالنبي كانوا كنحو قريش قال ابن سعد ولم يسلم منهم أحد إلاّ أبو سفيان والحكم.

أقول: ويا ليتهما هما وذريتهما كانوا على الكفر الصريح غير المدلس إلى الأبد فإنّ البلية فيهم بعد الإسلام أشد مما قبله كما سيأتي الحديث عنه في مستقبل البحث.

قال ابن اسحاق في ذيل حديثه الآنف وحدب على رسول الله عمه أبو طالب

---

(١) سيرة ابن هشام: ج ١ ص ٢٧٥ وما بعدها، من طبع محمّد محيي الدين.

(٢) ج ١ ص ١٨٥.

ومنعه وقام دونه ومضى رسول الله على أمر الله مظهراً لأمره لا يرده عنه شيء فلما رأت قريش ان رسول الله لا يعتبهم من شيء أنكروه عليه من فراقهم وعيب آلهتهم ورأوا ان عمه أبا طالب قد حدب عليه وقام دونه فلم يسلمه لهم مشى رجال من أشراف قريش إلى أبي طالب عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو سفيان بن حرب والعاص بن هشام والأسود بن المطلب وأبو جهل والوليد بن المغيرة ونبيه ومنبه ابنا الحجاج بن عامر والعاص بن وائل أو من مشى منهم فقالوا يا أبا طالب ان ابن أخيك قد سبّ آلهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وضلل آبائنا فاما أن تكفه عنا وامّا أن تخلي بيننا وبينه فانك على مثل ما نحن عليه من خلافه فنكفيكه فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه ومضى رسول الله ﷺ على ما هو عليه يظهر دين الله ويدعو إليه ثمّ شرى الأمر بينه وبينهم حتى تباعد الرجال وتضاغنوا وأكثرت قريش ذكر رسول الله بينها وتذامروا فيه وحض بعضهم بعضاً عليه ثمّ انهم مشوا إلى أبي طالب مرة أُخرى فقالوا له يا أبا طالب انّ لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وانا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا وانا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله واياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ثمّ انصرفوا عنه فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ولم يطب نفساً باسلام رسول الله لهم ولا خذلانه.

قال ابن اسحاق: وحدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة بن الأخنس انّه حدث ان قريشاً حين قالوا لأبي طالب هذه المقالة بعث إلى رسول الله فقال له يا ابن أخي انّ قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا ـ للذي كانوا قالوا له ـ فأبق علي وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أُطيق، قال: فظن رسول الله انّه قد بدا لعمه فيه بداء وانّه خاذله ومسلمه وانّه قد ضعف عن نصرته والقيام معه قال فقال

رسول الله يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته، قال ثمّ استعبر رسول الله فبكى ثمّ قام فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، قال فأقبل عليه رسول الله فقال: اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أُسلمك لشيء أبداً.

قال ابن اسحاق: ثمّ ان قريشاً حين عرفوا ان أبا طالب قد أبى خذلانَ رسول الله واسلامه واجماعه لفراقهم في ذلك وعداوتهم مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد انهد فتى في قريش وأجمله فخذه فلك عقله [١] ونصره واتخذه ولداً فهو لك واسلم الينا ابن أخيك هذا الذي قد خالف دينك ودين آبائك وفرق جماعة قومك وسفه أحلامهم فنقتله فإنّما هو رجل برجل، قال: والله لبئس ما تسومونني أتعطونني ابنكم أغذوه لكم وأُعطيكم ابني تقتلونه هذا والله ما لا يكون أبداً فقال المطعم بن عدي والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك وجهدوا على التخلص مما تكرهه فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً فقال أبو طالب للمطعم والله ما أنصفوني ولكنك قد أجمعت خذلاني ومظاهرة القوم علي فاصنع ما بدا لك.

قال: فحقب الأمر [٢] وحميت الحرب وتنابذ القوم وبادى بعضهم بعضاً فقال أبو طالب عند ذلك يعرض بالمطعم بن عدي ويعم من خذله من عبد مناف ومن عاداه من قبائل قريش ويذكر ما سألوه وما تباعد من أمرهم؛ ثمّ ذكر مقطوعة رائية فيها العتب الحار من أبي طالب لبيوتات قريش الذين كانوا يشتركون مع بني هاشم في الدفاع عن الحوزة إذا دهم أمر مهم ويخص بالذكر منهم عبد شمس

---

(١) أي ديته إذا قتل.

(٢) أي زاد واشتد.

ونوفل ويقول في آخرها:

وتـيم ومـخزوم وزهـرة مـنهم وكـانوا لنـا مـولى إذا بـغى النـصر
فـوالله لا تـنفك مـنا عـداوة ولا منهم ما كان من نسلنا شفر [١]

قال ابن اسحاق: ثمّ ان قريشاً تذامروا بينهم على من في القبائل منهم من أصحاب رسول الله الذين أسلموا معه فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم ومنع رسول الله رسوله منهم بعمه أبي طالب وقد قام أبو طالب حين رأى قريشاً يصنعون ما يصنعون في بني هاشم وبني المطلب فدعاهم إلى ما هو عليه من منع رسول الله والقيام دونه فاجتمعوا إليه وقاموا معه وأجابوه إلى ما دعاهم إليه إلّا ما كان من أبي لهب فلما رأى أبو طالب من قومه ما سره في جهدهم معه وحدبهم عليه جعل يمدحهم ويذكر قديمهم ويذكر فضل رسول الله فيهم ومكانه منهم ليشد لهم رأيهم وليحدبوا معه على أمره فقال:

إذا اجتمعت يـوماً قـريش لمـفخر فـعبد مـناف سـرها وصـميمها
فإن حصلت أشـراف عـبد مـنافها فـفي هـاشم أشـرافـها وقـديمها
وان فـخرت يـوماً فـإنّ مـحمّداً هو المصطفى من سـرها وكـريمها
تـداعت قـريش غـثها وسـمينها علينا فلم تظفر وطـاشت حـلومها
وكـنا قـديماً لا نـقر ظـلامة إذا ما ثـنوا صـعر الخـدود نـقيمها
ونـحن حـماها كـل يـوم كـريهة ونضرب عن أحجارها من يرومها
. بـنا انـتعش العـود الذواء وانـما بأكـنافنا تـندى وتـنمى ارومـها

(١) يقال ما بالدار شفر أي ما بها أحد.

قال ابن اسحاق: فلما خشي أبو طالب دهماء العرب [١] أن يركبوه مع قومه قال قصيدته التي تعوذ فيها بحرم مكة وبمكانه منها وتودد فيها أشراف قومه وهو على ذلك يخبرهم وغيرهم في ذلك من شعره انّه غير مسلّم رسول الله ولا تاركه لشيء أبداً حتى يهلك دونه فقال أبو طالب: أقول: هذه القصيدة مطولة جداً ونحن نذكر منها ما يرتبط بموضوعنا الذي نحاول الافاضة فيه وهو بيان ما كان عليه أبو طالب من النزعة الدينية من أوّل ظهور ابن أخيه محمّد ﷺ بدين الاسفم إلى حين موته:

ولما رأيت القوم لا ودّ فيهم ... وقد قطعوا كل العرى والوسائل
وقد صارحونا بالعداوة والأذى ... وقد طاوعوا أمر العدو المزايل
وقد حالفوا قوماً علينا اظنة ... يعضون غيظاً خلفنا بالأنامل
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة ... وأبيض عضب من تراث المقاول [٢]

إلى أن يقول:

كذبتم وبيت الله نترك مكة ... ونظعن إلّا أمركم في بلابل [٣]
كذبتم وبيت الله نبزي محمّداً ... ولما نطاعن دونه ونناضل [٤]
ونسلمه حتى نصرع حوله ... ونذهل عن أبنائنا والحلائل

---

(١) أي عامتهم وجماعتهم.

(٢) السمراء السمحة القناة اللينة والمقاول السادات.

(٣) البلابل هي الوساوس والهموم.

(٤) نبزى أي نُغلب عليه.

إلى أن يقول:

وما ترك قوم لا أبا لك سيداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل [١]
وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل

إلى أن يقول:

لعمري لقد كلفت وجداً بأحمد ... واخوته دأب المحب المواصل
فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها ... وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أي مؤمل ... إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش ... يوالي إلهاً ليس عنه بغافل
فوالله لولا ان اجيء بسبة ... تجر على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة ... من الدهر جداً غير قول التهازل
لقد علموا ان ابننا لا مكذب ... لدينا ولا يعني بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في ارومة ... تقصر عنه سورة المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته ... ودافعت عنه بالذرا والكلاكل [٢]
فأيده رب العباد بنصره ... وأظهر ديناً حقه غير باطل

انتهى موضع الحاجة منها، قال ابن هشام بعد ما سرد القصيدة بطولها هذا ما صحّ لي من هذه القصيدة وبعض أهل العلم بالشعر ينكر أكثرها؛ وتعقبه ابن كثير

---

(١) الذرب الفاسد والمواكل الذي يتكل على غيره.

(٢) الذرا جمع ذروة وهي أعلا ظهر البعير والكلكل معظم الصدر.

في تاريخه البداية والنهاية وقال قد أوردها الأموي في مغازيه مطولة بـزيادات اخر وقال صاحب التعليق على التاريخ المذكور ولهذه القصيدة نسـخ مـطبوعة على حدتها وفي هامش تاريخ ابن الأثير (ج ٢ ص ٦٢) ان علي فهمي مفتي بلاد الهرسك ألّف مجموعة من قصائد أبي طالب وشرحها.

وقال الشارح الحديدي[1]: قال قال ابن اسحاق وقال أبو طـالب يـذكر مـا أجمعت عليه قريش من حربه لما قام بنصر محمّد ﷺ:

والله لن يـصلوا اليك بـجمعهم — حـتى أُوسـد فـي التـراب دفـينا

فانفذ لأمـرك مـا عـليك مـخافة — وابشـر وقـر بـذاك مـنه عـيونا

ودعوتني وزعمت انك نـاصحي — ولقد صـدقت وقـبل كـنت أمـينا

وعرضت ديـناً قـد عـلمت بأنّـه — مـن خـير أديـان البـرية ديـنا

لولا المـلامة أو حـذاري سـبة — لوجـدتني سـمحاً بـذاك مـبينا

قال محمّد بن اسحاق: لم يؤثر عن أبي لهب خير قط ـ مع التودد الزائد من أبي طالب له رجاء أن يرقق بذلك قلبه على ابن أخيه محمّد ﷺ إلّا ما يروى ان أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي لما وثب عليه قومه ليعذبوه ويفتنوه عن الاسلام هرب منهم فاستجار بأبي طالب وأم أبي طالب مخزومية وهـي أُم عـبد الله والد رسول الله ﷺ فأجاره فمشى إليه رجال من بني مخزوم وقالوا له يا أبا طالب هبك منعت منا ابن أخيك محمّداً فما لك ولصاحبنا تمنعه منا قال انّه استجار بي وهو ابن اختي وان أنا لم أمنع ابن اختي لم أمنع ابن أخي فـارتفعت أصـواتـهم وأصواته فقام أبو لهب ولم ينصر أبا طالب قبلها ولا بعدها فقال: يا معشر قريش

(١) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ج ٣ ص ٣٠٦ وما بعدها.

والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ لا تزالون تتوثبون عليه في جواره من بين قومه أما والله لتنتهن عنه أو لنقومن معه فيما قام فيه حتى يبلغ ما أراد، فقالوا بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة فقاموا فانصرفوا وكان ولياً لهم ومعيناً على رسول الله وأبي طالب فاتقوه وخافوا أن تحمله الحمية على الإسلام فطمع فيه أبو طالب حيث سمعه قال ما قال وأمل أن يقوم معه في نصرة رسول الله ﷺ فقال يحرضه على ذلك:

وان امرءاً أبو عتيبة عمه ... لفي معزل من أن يسام المظالما
ولا تقبلن الدهر ما عشت خطة ... تسب بها اما هبطت المواسما
أقول له وأين منه نصيحتي ... أبا عتبة ثبت سوادك قائما
وول سبيل العجز غيرك منهم ... فانك لم تخلق على العجز لازما
وحارب فإنّ الحرب نصف ولن ترى
اخا الحرب يعطي الخسف حتى يسالما
كذبتم وبيت الله نبزي محمّداً
ولما تروا يوماً من الشعب قائم

وقال يخاطب أبا لهب أيضاً:

عجبت لحلم يا ابن شيبة عازب ... وأحلام أقوام لديك سخاف
يقولون شايع من أراد محمّداً ... بظلم وقم في أمره بخلاف
اضاميم امّا حاسد ذو خيانة ... وامّا قريب منك غير مصافى
ولا يركبن الدهر منك ظلامة ... وأنت امرؤ من خير عبد مناف
ولا تتركنه ما حييت لمعظم ... وكن رجلاً ذا نجدة وعفاف

يـذود العـدا عـن ذروة هـاشمية ... ألا فـهم فـي النـاس خـير إلاف
فـإنّ له قـربى لديك قـريبة ... وليس بـذي حـلف ولا بـمضاف
ولكـنه مـن هـاشم فـي صـميمها ... إلى أبـحر فـوق البـحور طـوافـي
وزاحم جميع الناس عـنه وكـن له ... وزيراً عـلى الأعـداء غـير مـجاف
وإن غضبت مـنه قـريش فـقل لهـا ... بـني عـمنا مـا قـومكم بـضعاف
فما قومكم بالقوم تخشون ظـلمهم ... ومـا نـحن فـيما سـائكم بـخفاف
ولكـننا أهـل الحـفائظ والنـهى ... وعـز بـبطحاء المشـاعر وافـي

قال محمّد بن اسحاق: فلما طال البلاء على المسلمين والفتنة والعذاب وارتد كثير عن الدين باللسان لا بالقلب كـانوا إذا عـذبوهم يـقولون نشـهد ان اللات والعزى هي الآلهة فإذا خلوا عنهم عـادوا إلى الإسـلام فـحبسوهم وأوثـقوهم وجعلوهم في حر الشمس على الصخر والصفا وامتدت أيّام الشقاء عـليهم ولم يصلوا إلى محمّد صلى الله عليه وآله وسلم لقيام أبي طالب دونه فأجمعت قريش على أن يكـتبوا بينهم وبين بني هاشم صحيفة يتعاقدون فيها أن لا يناكحوهم ولا يـبايعوهم ولا يجالسوهم فكتبوها وعلقوها في جوف الكعبة تأكيداً على أنفسهم وكان كاتبها منصور بن عكرمة بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار فلما فعلوا ذلك انحازت هاشم والمطلب فدخلوا كلهم مع أبي طالب في الشعب فاجتمعوا إليه وخرج منهم أبو لهب إلى قريش فظاهرها على قومه.

قال محمّد بن اسحاق: فضاق الأمر ببني هاشم وعدموا القـوت إلّا مـا كـان يحمل إليه سراً وخفية وهو شيء قليل لا يمسك ارماقهم واخافتهم قريش فـلم يكن يظهر منهم أحد ولا يدخل إليهم أحد وذلك أشد ما لقى رسول الله وأهل بيته بمكة.

قال محمّد بن اسحاق: فأقاموا على ذلك سنتين أو ثلاثاً حتى جهدوا لا يصل اليهم شيء إلّا القليل سراً ممن يريد صلتهم من قريش وقد كان أبو جهل بن هشام لقى حكيم بن حزام بن خويلد معه غلام يحمل قمحاً يريد به عمته خديجة بنت خويلد وهي عند رسول الله محاصرة في الشعب فتعلق به وقال أتحمل الطعام إلى بني هاشم والله لا تبرح أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة فجاءه أبـو البـختري العاص بن هشام بن الحارث بن أسد بن عبد العزى فقال مالك وله قال انّه يحمل الطعام إلى بني هاشم فقال أبو البختري: يا هذا ان طعاماً كان لعمته عنده بعثت إليه فيه أفتمنعه أن يأتيها بطعامها خلّ سبيل الرجل فأبى أبو جهل حتى نال كل منهما من صاحبه فأخذ له أبو البختري لحى بعير فضربه به فشجه ووطئه وطئاً شديداً فانصرف وهو يكره أن يعلم رسول الله وبنو هاشم بذلك فـيشمتوا فـلما أراد الله تعالى من ابطال الصحيفة والفرج عن بني هاشم من الضيق الذي كانوا فـيه هـيأ لذلك هشام بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤي فقام في ذلك أحسن قيام وذلك ان اباه عمرو بن الحارث كان أخاً لنضلة بن هاشم بن عبد مناف بن قصي من أُمه فكان هشام بن عمرو يحسب ذلك واصلاً ببني هاشم وكان ذا شرف في قومه بني عامر بن لؤي فكان يأتي بالبعير ليلاً وقد أوقره طعاماً وبنو هاشم وبنو المطلب في الشعب حتى إذا أقبل به نحو فم الشعب أخذ خطامه من رأسه وضربه على جنبه فيدخل الشعب عليهم ثمّ يأتي به مـرة أُخرى وقد أوقره تمراً فيصنع به مثل ذلك ثمّ انّه مشى إلى زهـير بـن ابـى امـية المخزومي فقال: يا زهير أرضيت أن تأكل الطـعام وتشـرب الشـراب وتـلبس الثياب وتنكح النساء وأخوالك حيث قد علمت لا يبتاعون ولا يبتاع مـنهم ولا ينكحون ولا ينكح اليهم ولا يواصلون ولا يزاورون أما اني أحلف لو كان أخوال أبي الحكم بن هشام ودعوته إلى مثل ما دعاك إليه منهم ما أجابك أبـداً، قـال:

ويحك يا هشام فماذا أصنع إنّما أنا رجل واحد والله لو كان معي رجل آخر لقمت في نقض هذه الصحيفة القاطعة قال قد وجدت رجلاً قال من هو قال أنا قال زهير ابغنا ثالثاً فذهب إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف فقال له يـا مـطعم أرضيت أن يهلك بطنان من عبد مناف جوعاً وجهداً وأنت تشاهد ذلك موافـق لقريش فيه أما والله لئن أمكنتموهم من هذا لتجدن قريشاً إلى مساءتكم في غيره سريعة، قال: ويحك ماذا أصنع إنّما أنا رجل واحد، قال: قد وجدت ثانياً، قال: من هو هال أنا، قال ابغني ثالثاً قال: قد وجدت، قال: من هو قال: زهير بن أبي امية، قال: ابغنا رابعاً فذهب إلى أبي البختري بن هشام فـقال له نـحو مـا قـال للمطعم قال وهل من أحد يعين على هذا، قال: نعم وذكرهم قال فابغنا خامساً فمضى إلى زمعة بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى فكلمه فقال وهل يعين على ذلك من أحد قال: نعم ثمّ سمى له القوم فاتعدوا حطم الحـجون ليـلاً بأعلا مكة فأجمعوا أمرهم وتعاقدوا على القيام حتى ينقضوا الصحيفة وقال زهير أنا أبدؤكم وأكون أولكم متكلماً فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم وغدا زهير بـن أبي امية عليه حلة له فطاف بالبيت سبعاً ثمّ أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة أنأكل الطعام ونشرب الشراب ونلبس الثياب وبنو هاشم هلكى والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة وكان أبو جهل في ناحية المسجد فقال كذبت والله لا تشق فقال زمعة بن الأسود لأبي جهل والله أنت أكذب ما رضينا والله بها حين كتبت، فقال أبو البختري معه صدق والله زمعة لا نرضى بها ولا نقر بما كتب فيها فقال المطعم بن عدي صدق والله وكذب من قال غير ذلك نبرأ إلى الله مـنها ومما كتب فيها وقال هشام بن عمرو مثل قولهم فقال أبو جهل هذا امرى قـضي بليل وقام مطعم بن عدي إلى الصحيفة فحطها وشقها فوجد الارضة قد أكلتها إلّا ما كان من باسمك اللهم قالوا وامّا كاتبها منصور بن عكـرمة فشـلت يـده فـيما

يذكرون فلما مزقت الصحيفة خرج بنو هاشم من حصار الشعب.

قال محمّد بن اسحان فلم يزل أبو طالب ثابتاً صابراً مستمراً على نصر رسول الله وحمايته والقيام دونه حتى مات في أوّل السنة الحادية عشرة من مبعث رسول الله ﷺ فطمعت فيه قريش حينئذ ونالت منه فخرج عن مكة خائفاً يطلب أحياء العرب يعرض عليهم نفسه فلم يزل كذلك حتى دخل مكة في جوار المطعم بن عدي ثمّ كان من أمره مع الخزرج ما كان ليلة العقبة؛ قال: ومن شعر أبي طالب الذي يذكر فيه رسول الله وقيامه دونه قوله:

ارقت وقد تصوبت النجوم — وبت ولا تسالمك الهموم
لظلم عشيرة ظلموا وعقوا — وغب عقوقهم لهم وخيم
هم هتكوا المحارم من أخيهم — وكل فعالهم دنس ذميم
وراموا خطة جوراً وظلماً — وبعض القول ذو جنف مليم
لتخرج هاشم فتكون منها — بلاقع بطن مكة والحطيم
فمهلاً قومنا لا تركبونا — بمظلمة لها خطب جسيم
فيندم بعضكم ويذل بعض — وليس بمفلح أبداً ظلوم
أرادوا قتل أحمد زاعميه — وليس بقتله منهم زعيم
ودون محمّد منا ندى — هم العرنين والعضو الصميم

ومن ذلك قوله:

وقالوا لأحمد أنت امرؤ — خلوف الحديث ضعيف السبب
وإن كان أحمد قد جائهم — بصدق ولم يأتهم بالكذب
سفهتم ومن حج من راكب — وكعبة مكة ذات الحجب
تنالون أحمد أو تصطلوا — ظباة الرماح وحد القضب

وروى عبد الله بن مسعود قال: لما فرغ رسول الله من قتلى بدر وأمر بطرحهم في القليب جعل يتذكر من شعر أبي طالب بيتاً فلا يحضره فقال له أبو بكر لعله قوله يا رسول الله:

وانا لعمر الله ان جد جدنا لتلتبسن أسيافنا بالأماثل

فسر بظفره بالبيت وقال أي لعمر الله لقد التبست ومن شعر أبي طالب قوله:

ألا أبلغا عني لؤياً رسالة بحق وما تغني رسالة مرسل
بني عمنا الادنين فيما يخصهم واخواننا من عبد شمس ونوفل
أظاهرتم قوماً علينا سفاهة وأمراً غوياً من غواة وجهل
يقولون لو انا قتلنا محمّداً اقرت نواصي هاشم بالتذلل
كذبتم ورب الهدى تدمى نحوره بمكة والبيت العتيق المقبل
تنالونه أو تصطلوا دون نيله صوارم تفري كل عضو ومفصل
وتلقوا ربيع الأبطحين محمّداً على ربوة في رأس عنقه عيطل
وتأوى إليه هاشم ان هاشماً عرانين كعب آخر بعد أوّل
فإن كنتم ترجون قتل محمّد فروموا بما جمعتم نقل يذبل

وكان أبو طالب كثيراً ما يخاف على رسول الله البيات إذا عرف مضجعه فكان يقيمه ليلاً من منامه ويضجع ابنه علياً مكانه.

أقول: هنا مقام التنبيه على أُمور:

١ ـ انّ ما يذكره أبناء السنة من عزة المسلمين والإسلام بأبي بكر وعمر عندما أسلما تزوير وخداع؛ كمقالة ابن كثير في البداية والنهاية وأوّل من أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصديق واسلامه كان أنفع من اسلام من تقدم ذكرهم إذ

كان صدراً معظما ورئيساً في قريش مكرما ؛ وكمقالة هيكل في كتابه حياة محمّد ص ١٥٦ وفت اسلام عمر في عضد قريش فأتمرت مرة أُخرى ما تصنع والحق ان هذا الحادث عزز المسلمين بعنصر جديد قوي غاية القوة جعل موقف قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان ـ ا هـ ـ وجهة تزوير هذه المقالات ان هؤلاء بأنفسهم عندما تغيب عنهم روحهم التعصبية في سرد حوادث التاريخ يذكرون لنا ضد ما ذكروا أوّلاً وان اسلام هذين الرجلين لم يكن فيه اقل مائز على الحالة الطبيعية التي مشت بالاسلام يومذاك ولم يكن إلّا كاسلام غيرهما .

قال ابن اسحاق [١]: حدثني يحيى بن عروة بن الزبير عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قلت ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله فيما كانوا يظهرون من عداوته قال حضرتهم وقد اجتمع أشرافهم يوماً في الحجر فذكروا رسول الله فقالوا ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط سفه أحلامنا وشتم آبائنا وعاب ديننا وفرّق جماعتنا وسب آلهتنا لقد صبرنا منه على أمر عظيم فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله فأقبل يمشي حتى استلم الركن ثمّ مرّ بهم طائفاً بالبيت فلما مرّ بهم غمزوه ببعض القول قال فعرفت ذلك في وجه رسول الله قال ثمّ مضى فلما مرّ بهم الثانية غمزوه بمثلها فعرفت ذلك في وجه رسول الله ثمّ مرّ بهم الثالثة فغمزوه بمثلها فوقف ثمّ قال أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي بيده لقد جئتكم بالذبح قال فأخذت القوم كلمته حتى ما منهم رجل إلّا كانما على رأسه طائر واقع قال فانصرف رسول الله حتى إذا كان الغد اجتمعوا في الحجر وأنا معهم فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منكم وما بلغكم عنه حتى إذا باداكم بما تكرهون تركتموه فبينا هم في ذلك إذ طلع رسول الله فوثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا

---

(١) السيرة الهشامية : ج ١ ص ٣١٠ وما بعدها من طبع محمّد محيي الدين عبد الحميد.

به يقولون أنت الذي تقول كذا وكذا لما كان يقول من عيب آلهتهم ودينهم فيقول رسول الله نعم أنا الذي أقول ذلك قال فلقد رأيت رجلاً منهم أخذ بمجمع ردائه قال فقام أبو بكر دونه يبكي ويقول أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ثمّ انصرفوا عنه.

قال ابن اسحاق: وحدثني بعض آل ام كلثوم ابنة أبي بكر انها قالت رجع أبو بكر يومئذ وقد صدعوا فرق رأسه مما جبذوه [١] بلحيته وكان رجلاً كثير الشعر.

أقول: امّا الالتجاء إلى البكاء فذلك شأن كل ضعيف تقهره الذلة فلا يجد معواناً له إلّا دموعه ولا يكون من يؤخذ بلحيته ويجذب بها ويصدع فرقه عزيزاً ولا شبه عزيز ولا صدراً معظماً ولا رئيساً في قريش مكرما بواضح الضرورة.

وقال ابن اسحاق أيضاً [٢]: وقد كان أبو بكر كما حدثني محمّد بن مسلم الزهري عن عروة عن عائشة حين ضاقت عليه مكة وأصابه فيها الأذى ورأى من تظاهر قريش على رسول الله وأصحابه ما رأى استأذن رسول الله في الهجرة فأذن له فخرج أبو بكر مهاجراً حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدغنة اخو بني الحارث وهو يومئذ سيد الأحابيش فقال ابن الدغنة أين يا أبا بكر قال أخرجني قومي وآذوني وضيقوا علي قال ارجع وأنت في جواري فرجع معه حتى إذا دخل مكة قام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش اني قد أجرت ابن أبي قحافة فلا يعرضن له أحد إلّا بخير قال فكفوا عنه إلى أن رد جوار ابن الدغنة عليه فقام ابن الدغنة فقال يا معشر قريش ان ابن أبي قحافة قد ردّ علي جواري فشأنكم بصاحبكم فلقيه سفيه من سفهاء قريش وهو عامد إلى الكعبة

---

(١) أي جذبوه.

(٢) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٣٩٤ وما بعدها.

فحثا على رأسه تراباً فمر بأبي بكر الوليد بن المغيرة أو العاص بن وائل فقال أبو بكر ألا ترى إلى ما يصنع هذا السفيه ـ اهملخصاً ـ

أقـول: كما قلت أوّلاً ان من يصون نفسه بجوار غيره ليس بعزيز ومن يحثى على رأسه التراب ليس صدراً معظماً ولا رئيساً في قريش مكرما كما يقول أهل هواه من ابناء التسنن.

وقال ابن اسحاق [١]: حدثني نافع مولى عبد الله بن عمر عن ابن عمر قال لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش انقل للحديث قال قيل له جميل بن معمر الجمحي قال فغدا عليه قال عبد الله بن عمر وغدوت اتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنـا غـلام أعقل كلما رأيت حتى جاءه فقال له أعلمت يا جميل اني قد أسلمت ودخلت في دين محمّد قال فوالله ما راجعه حتى قام يجر ردائه واتبعه واتبعت أبي حـتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلا صوته يا معشر قريش وهم في أنديتهم حول باب الكعبة ألا انّ عمر بن الخطاب قد صبأ قال ويقول عمر من خلفه كذب ولكني قد أسلمت وشهد أن لا اله إلّا الله وان محمّداً عبده ورسوله وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم قال وطلح [٢] فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول افعلوا ما بدا لكم فأحلف بالله ان لو قد كنا ثلاثمائة رجـل لتركناها لكم أو لتركتموها لنا قال فبينما هم على ذلك إذ أقبل شيخ من قـريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم فقال ما شأنكم قالوا صبأ عمر فقال: فمه: رجل اختار لنفسه أمراً فماذا تريدون أترون بـني عـدي بـن كـعب يسلمون لكم صاحبهم هكذا خلوا عن الرجل قال فوالله لكأنما كانوا ثوباً كشط

---

(١) السيرة الهشامية ج ١ ص ٣٧٠.

(٢) أي أعيا وعجز.

عنه قال فقلت لأبي بعد أن هاجر إلى المدينة يا أبت من الرجل الذي زجر القوم عنك بمكة يوم أسلمت وهم يقاتلونك فقال ذلك أي بني العاص بن وائل السهمي .

أقول : على كل تلطيف أتى به ابن عمر في حديث أبيه وتوقيره أو جاء به ابناء التسنن الذين حرروا هذا الخبر فإنّ قول عمر افعلوا ما بدا لكم فاحلف بالله ان لو قد كنا ثلاثمائة رجل لتركناها لكم أو لتركتموها لنا دليل على كل الاستسلام والضراعة والالتجاء إلى التمني الفارغ وانّه لم يخلص من شر المحيطين به إلّا بالعاص بن وائل السهمي لا بعزة نفسه وقوته هذا فضلاً عن عزة المسلمين به وبهذا يفتضح هيكل حين يقول والحق ان هذا الحادث عزز المسلمين بعنصر جديد قوي غاية القوة جعل موقف قريش منهم وموقفهم من قريش غير ما كان.

كما يفتضح هيكل من عبارة نفسه أيضاً (١) فإنّه يقول : أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر أسلم أثنائها عمر بن الخطاب وعلم هؤلاء المهاجرون ما حدث على اثر اسلامه من رجوع قريش عن ايذائها محمّداً ومن اتبعه فعاد كثير منهم في رواية وعادوا كلهم في رواية أُخرى إلى مكة فلما بلغوها رأوا قريشاً عادت إلى ايذاء المسلمين وإلى الامعان في عداوتهم أشد مما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل فعاد منهم إلى الحبشة من عاد ودخل مكة من دخل مستخفياً أو بجوار ـ اهـ ـ

أقول : يا هذا الدكتور ما أشد تناقض اسطرك هذه القليلة فبينما تقول وعلم هؤلاء الهاجرون ما حدث على اثر اسلامه من رجوع قريش عن ايذائها محمّداً ومن اتبعه ؛ إذ غايرت خطتك بمناقضة صريحة ، فقلت : فلما بلغوها رأوا قريشاً

(١) راجع : ص ١٥٧ من حياة محمّد الطبعة الثالة.

عادت إلى ايذاء المسلمين وإلى الامعان في عداوتهم أشد مما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل؛ حتى كأن اسلام عمر عاد عليهم نقمة لا عزاً ورحمة فإنّ هيكل يعترف ان هؤلاء المهاجرين ما كانوا يرون من قريش قبل اسلام عمر ما رأوه بعد اسلامه.

انظر نظرك الدقيق واعجب؛ هذا وان التاريخ على طول خطه مع شيوق السنة الثلاث منذ هبطوا إلى هذا الوجود وإلى آخر نفس من أنفاسهم مجاهر بصراحة بأنّ سوح القتال وحدود الأسنة والسيوف لا تعرفهم بمبارزة أو بمناجزة ولم يريقوا محجمة دم في سبيل الله نعم لا ينكر التاريخ تفلت عمر على الناس في مقام الأمن والرخاء واعانته لهم وامّا في الشدة فهو في صف النظارة فقط.

٢ ـ ثبت من النقول المتواترة التي أتينا بطرف منها فيما سلف انّ الحامي الوحيد لمحمد ولدعوته هو أبو طالب صرفاً وان قريشاً لا تراعي في مكة غير شخصه ولا تداري سوى شخصيته فيما بينهم وشرفه في بني هاشم وانّه زعيم اسرته غير مدافع عن مقامه وانّه لأجل حمايته محمّداً ودعوة محمّد لقى من الأذى ومقاطعة مواطنيه وبني عمومته واجماع قريش على محاصرته في الشعب مدة سنتين أو ثلاثاً حتى عز عليه القوت اليسير مطعوماً والماء مشروباً فضلاً عما فوقهما من آليات واحتياجات ما لا يقوم للقائه فرد سائر ولا شخص عادي بالمرة بل وما كان يدور في خلده انّه يلاقي في دنياه مسافة احدى عشرة سنة ما لاقاه من تلك الصعوبات المجهدة ومن الضروري الواضح ـ حسب سير الأسباب بمسبباتها ـ ان النبي محمّداً لو لم يصادف في مبعثه إلى نهاية تيك الاحدى عشرة سنة التي توفي فيها أبو طالب هذا الحرز الحريز والركن الشديد من وجود عمه شيخ الأباطح وهذا الحدب الخارج عن المعتاد منه البالغ منتهى العطوفة والرحمة لاقتطعته الحوادث من يومه الأوّل بيد عمه أبي لهب فضلاً عن

الأجانب الأغيار المتحاملين عليه تحاملاً يكفى طرف منه في تلاشيه، وامّا حديث ان الله سخر أبا طالب لحفظ محمّد حتى ينشر كلمة الله بين العباد فأبو طالب مسخر بارادة قاهرة فلا أهمية لتضحياته التي قام بها ازاء محمّد ودعوته فهو بعينه وارد على مجاهدات محمّد نفسه منذ بعث إلى أن مات فإنّها لا قيمة لها أيضاً لأنّها مسوقة بالزام قهري لا مساغ للتأخر عنه؛ وانّه لحديث خرافة لا يصغى إليه إلّا للسخرية والتفكه.

٣ ـ نعود في نهاية الحديث السابق فنسأل ما يكون محمّد من أبي طالب وما هي الارتباطات الواشجة بينهما ولا بدع إذا أجبنا عن هذا السؤال بأنّ محمّداً لا يزيد أن يكون ابن أخي لأبي طالب وأبو طالب ليس إلّا عماً لمحمد كالعباس وأبي لهب والحمزة وان ترقينا ـ وترقينا لا يزيد على درجة واحدة ـ قلنا انّه أخو أبيه عبد الله لأبيه وامه وامّا العباس وأبو لهب والحمزة فإنّهم أعمامه لأبيه فقط فإذا أدت العاطفة بالعباس إلى أن لا يعرف محمّداً منذ مات ابواه بكسرة خبز مطعوماً ـ ومحمّد لم يجد أباً ولا أُمّاً يلوذ بكنفهما ـ فالدرجة الزائدة التي تكون لأبي طالب عليه حينئذ هو انّه يكسوه ويغذوه ويعده واحداً من أفراد عياله لا أكثر.

ثمّ نسأل فنقول انّ أبا طالب عند ما فرغ ابن أخيه عن دعوته إلى التوحيد ونبذ الشركاء وتخطأة كل مشرك وتسفيه حلمه وحلوم أسلافه بعبادة الأوثان والأصنام هل كان مشركاً كأهل مكة أو مستضعفاً لا يركن إلى دين بخصوصه ولا يحمل غلا على دين أو انّه استراح إلى ما جاء به ابن أخيه واطمئن له وكل انسان لا يخلو عن واحدة من هاته العقائد الثلاث بالضرورة المحسوسة والإنسان ذو العقيدة غيور على عقيدته ولذلك بارز أهل مكة محمّداً بأشد المبارزات حتى ضايقوه على مساغ ريقه ولولا قيام أبي طالب دونه لمزقوه من ساعته الأُولى وإلّا

فأهل مكة قبل أن يشخص محمّد بدعوته ما كانوا ينظرونه إلّا كما ينظرون إلى انسان من أرحامهم وأقربائهم وليس لأبي لهب عم محمّد عداء سابق إلى ابن أخيه هذا ولو كان أقل شيء منه لما زوج ولديه من بنتي محمّد رقية وأُم كلثوم فلما أجهر محمّد بنبذ الشرك والشركاء أمر ولديه بتطليقهما تنفراً من هذا الرحم المنحرف عن عقيدة عمه وآل عمه.

فأبو طالب إن كان حينذاك مشركاً لكان نظير مشركي قريش ولاشترك معهم في اسكات نامة هذا الإنسان المتفلت على عقائدهم أو حد الأقل كان انساناً لا له ولا عليه وغاية ما يكون به رؤوفاً انّه ينصحه ويفنده أشد التفنيد بتعريضه نفسه للمخاطر والويلات ويقول له ان الناس لا يتركون لك عقائدهم التي عاش عليها آباؤهم وأجدادهم منذ مئين من السنين إلى ساعتهم هذه وانك يا هذا انسان ضعيف من وجهتيك المادية والمعنوية فلا مال عندك ولا رجال يحمونك في سبيل ترويج دعوتك الجديدة وتحطيم ما ندين به نحن واخواننا هؤلاء وكل عرب الجزيرة إلّا القليل فاترك ما أنت فيه من تسفيه أحلام الناس وسب آلهتهم التي يعبدون وإذا زاد حدبه عليه وعطفه به وقف دون دعوته بالتعقيم وساعد مشركي مكة على التنكيل بكل من يرى إلى جنب محمّد أو يسمع به انّه اتبعه وهذا كاف لخنق محمّد من أوّل ايامه.

وإن كان مستضعفاً لا دين له قال له يا ابن أخي لا تجلب علينا الويلات بدعوتك هذه فانا نريد أن نعيش في هذه الدنيا بهدوء ان استطعناه وأنت لا محالة تريد أن تكدر عيشنا لا لشيء سوى خيالات تجسمت في دماغك ووساوس ملأت قلبك تريد أن تحملها على الناس قهراً فإنّهم كما ترى لا يهوون ما تتلوه عليهم من حديث بل يزاحمونك فيه على عمرك والإنسان إنّما يعير إذا ترك الدفاع عن ناموسه وماله ونفسه لا انّه يضحي بحياته لوسوسة طغت في دماغ

بعض أهل بيته لا يدري ما هو مبدؤها وأين يكون مصيرها وما رأينا في الدنـيا حباً فردياً تركت لأجله العقائد وضحى دونه بالنفس والنفيس والعشيرة وحتى في أعظم العشاق كيما نقول ان أبا طالب بالنسبة إلى محمّد من هذه المـصاديق الاعجازية.

كل هذا ليس بمتصور أصلاً وأهل مكة لم يزاحـموا مـحمّداً عـلى نـفسه أو عرضه أو ماله أو غير ذلك من حيثياته عـدواناً وظـلماً حـتى تـهز العـصبيات والحمية البيتية أبا طالب للقيام دونه والذب عنه وإنّما شكـوا مـنه سب آلهـتهم وقوله فيهم وفي آبائهم انهم على ضلالة وانّه لابد من انحرافهم عـما هـم عـليه وتزريق هذه التعاليم المتجافية في قلوب بسطائهم وسذجهم فيما يزعمون.

هذا كل ما شكوه منه إلى أبي طالب وإلى غيره فإذا كان أبو طالب مثلهم فـي العقيدة أو لا يعتقد بشيء أصلاً لمالئهم عليه بالزامه السكوت أو لخلى بينهم وبينه ومثل هذه السنن جارية من قديم وحديث فانا نرى الرجل المـتدين إذا شكـى الناس إليه ولده الخليع المستهتر فصله من بيته وباعده عن نفسه أو لا أقل تبرأ منه إذا لم يستطع كبحه ورده بل وحتى إذا كان لا مبدئياً وشكى الناس من بعض ولده حالة تخالف الوضع العام وكان هذا الأب لا يعتقد بهذه الحالة ولا يخطأها دفع في صدر ولده وقال له دع عنك ما تثير به علينا سوءً وما المحصل مما أنت فيه يا هذا سوى اثارة الشر.

فاما إذا رأينا شيخ الأباطح وشريف مكة المحترم ومعقد آراء قـريش يـجيب يتيماً في كنفه وشاباً من شبان اسرته قد خذلته كل المؤهلات المادية والجلوات الاعتبارية فلا وراءه ولا أمامه مما يعتز به أبناء الدنيا عند ما خاطبه وخاطب بقية أفراد الأُسرة اني رسول الله اليكم خاصة وإلى النـاس عـامة والله لتـموتن كـما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون وانها الجنة أبداً والنـار أبـداً ـ يـابـن أخـي

ما أحب الينا معاونتك واقبلنا لنصيحتك واشد تصديقنا لحديثك [١] فلا نشك انّه لم يجبه بقبول النصيحة التي أدلى بها وهي الاعتراف بالله أوّلاً وبرسالته ثانياً وبالموت والبعث والحساب والجنة والنار ثالثاً ولا بشدة التصديق لحديثه إلّا وهو معترف بأنّ ابن اخيه ناصح له صادق في حديثه معه وهذا عين الاعتراف بالعقيدة الإسلامية وإلّا لقال له دع عنك هذا يا ابن أخي ولا تطل علينا بحديثه ولا تكدر علينا أيامنا وتكثر أعدائنا بمثل هذه المدعيات النابية والمزاعم الفاشلة؛ في حال ان أبا طالب قال مقالته الأُولى ولم يقل مقالته الثانية.

ولو لم تكن دعوة محمّد مقبولة عند أبي طالب مرضية عنده مؤثرة كل التأثير على فكره لما قال وهو زعيم اسرته وشيخها في حق شاب طال به اليتم والفقر وتجافت عنه الدنيا بما يعده الناس عموماً ملاك الاعتبار والتشخص من ثروة مال وكثرة رجال وهيبة وروعة ما قال في لاميته الآنفة:

وما ترك قوم لا أبا لك سيداً ... يحوط الذمار غير ذرب مواكل [٢]

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ... ثمال اليتامى عصمة للأرامل

يلوذ به الهلاك من آل هاشم ... فهم عنده في رحمة وفواضل [٣]

في حال ان محمّداً عندما قيل في حقه هذا القصيد لم يكن سيداً ولم يحط ذماراً ولم يستسق بوجهه ولا كان محل عصمة للأرامل والأيتام ولا لاذ به أقل فرد من بني هاشم فضلاً عن هلاك هذه الأُسرة وانهم عنده في رحمة وفواضل بل

---

(١) تاريخ ابن الأثير: ج ٢ ص ٤١.

(٢) الذرب الفاسد والمواكل هو الذي يتكل على غيره في قضاء أشغاله والقيام بأعماله.

(٣) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٢٩١ طبع محمّد محيي الدين.

كان انساناً يخاف أصغر الناس وأحقرهم على نفسه وكان فقيراً مملقاً لا يجد بيتاً يأوي إليه سوى بيت زوجته خديجة بنت خويلد وكان مفرداً لم يتبعه إلاّ أُناس معدودون أكثر منه خوفاً على أنفسهم وأهلهم من طواغيت قريش ومشركي العرب لكن أبا طالب قال ذلك لمزيد يقينه به واطمئنانه فيه كما يقول التلميذ منافي حق استاذه مقالة التبجيل والتعظيم؛ ويقول في حقه أيضاً من لاميته المشار اليها:

فلا زال في الدنيا جمالاً لأهلها	وزيناً لمن والاه رب المشاكل
فمن مثله في الناس أي مؤمل	إذا قاسه الحكام عند التفاضل
حليم رشيد عادل غير طائش	يوالي إلهاً ليس عنه بغافل

ثمّ يقول

لقد علموا ان ابننا لا مكذب	لدينا ولا يعني بقول الأباطل
فأصبح فينا أحمد في ارومة	تقصر عنه سورة المتطاول
حدبت بنفسي دونه وحميته	ودافعت عنه بالذرا والكلاكل
فأيده رب العباد بنصره	وأظهر ديناً حقه غير باطل (١)

وإذا نحن نظرنا في أبي طالب نظر المكذب أو المتردد في دعوة ابن اخيه محمّد حينما قال في حقه هذا الشعر وجدنا كل أبياته هذه عارية عن الصواب فإنّ محمّداً لم يكن بوضعه الظاهري الدنيوي حينذاك جمالا لأهل الدنيا ولا مفضلاً عند الحكام مؤملاً بين الناس بل كان خاملاً فقيراً يتيماً كما أعرب الكتاب العزيز عن ذلك بصراحة فقال رب العزة: ﴿ **ألم يجدك يتيماً فآوى ووجدك ضالاً فهدى**

---

(١) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٢٩٧.

ووجدك عائلاً فأغنى ﴾[(١)] وقال تعالى: ﴿ **ورفعنا لك ذكرك** ﴾[(٢)]، وقوله:

يوالي إلهاً ليس عنه بغافل

وقوله أيضاً:

فأيده رب العباد بنصره وأظهر ديناً حقه غير باطل

صريح في ان أبا طالب معتقد بدعوة محمّد ومن يدعو إليه وما يبلغ به؛ وهكذا ما يرويه ابن اسحاق من قوله:

ودعوتني وزعمت انك ناصحي ولقد صدقت وقبل كنت أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنّه من خير أديان البرية دينا [(٣)]

وهكذا قوله

وقالوا لأحمد أنت امرؤ خلوف الحديث ضعيف السبب
وإن كان أحمد قد جائهم بصدق ولم يأتهم بالكذب [(٤)]

وهكذا قوله

ألا ابلغا عني علي ذات بيننا لؤياً وخصا من لؤي بني كعب
ألم تعلموا انا وجدنا محمّداً نبياً كموسى خط في أوّل الكتب [(٥)]

---

(١) سورة الضحى.

(٢) ألم نشرح.

(٣) الشرح الحديدي: ج ٣ ص ٣٠٦، ومما تكرر في كتب النحو الاستشهادية قول أبي طالب:

ولقد علمت بأنّ دين محمد من خير أديان البرية دينا

(٤) الشرح الحديدي: ج ٣ ص ٣٠٩.

(٥) هامش تاريخ ابن الأثير: ج ٢ ص ٦٢ من طبعته الأخيرة. والبداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ٨٧ ذكرهما عن ابن اسحاق ضمن مقطوعة بائية.

ونحن لم نذكر مما رواه له المؤرخون إلّا نموذجاً ليقف به الباحث على مصير وجدانه من البحث ومن أقوال أبي طالب ما يرويه الطبري [١] عن ابن حميد قال حدثنا سلمة قال حدثني محمّد بن اسحاق قال وزعموا انّه (أي أبا طالب في بدء الدعوة وقبل أن يعرف الاسفم من أهل مكة أحد سوى أهل بيت محمّد) قال لعلي بن أبي طالب ايى بني ما هذا الدين الذي أنت عليه قال يا أبه آمنت بالله وبرسوله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله فزعموا انّه قال له أما انّه لا يدعوك إلّا إلى خير فالزمه.

وفي السيرة الهشامية (ج ١ ص ٢٦٥) وذكروا انّه قال لعلي أي بني ما هذا الدين الذي أنت عليه فقال يا أبت آمنت بالله وبرسوله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته فزعموا انّه قال له أما انّه لم يدعك إلّا إلى خير فالزمه.

وفي تاريخ ابن الأثير (ج ٢ ص ٣٨) وقال أبو طالب لعلي ما هذا الدين الذي أنت عليه قال يا أبت آمنت بالله وبرسوله وصليت معه فقال أما انّه لا يدعونا إلّا إلى الخير فالزمه ـ اهبلفظه ـ

وقال أحمد بن أبي يعقوب المعروف بابن واضح الاخباري المتوفى بعد سنة ٢٩٢ (في ج ٢ ص ٢٢ من تاريخه) وهمت قريش بقتل رسول الله وأجمع ملأها على ذلك وبلغ أبا طالب فقال:

والله لن يصلوا اليك بجمعهم ... حتى أُوسد في التراب دفينا
ودعوتني وزعمت انك ناصحي ... ولقد صدقت وكنت ثم أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنّه ... من خير أديان البرية دينا

---

(١) ج ٢ ص ٢١٤ من تاريخه.

فلما علمت قريش انهم لا يقدرون على قتل رسول الله ﷺ وان أبا طالب لا يسلمه وسمعت بهذا من قول أبي طالب كتبت الصحيفة القاطعة الظالمة ان لا يبايعوا أحداً من بني هاشم ولا يناكحوهم ولا يعاملوهم حتى يدفعوا اليهم محمّداً فيقتلوه وتعاهدوا وختموا على الصحيفة بثمانين خاتماً وكان الذي كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار فشلت يده ثمّ حصرت قريش رسول الله وأهل بيته من بني هاشم وبني المطلب بن عبد مناف في الشعب الذي يقال له شعب بني هاشم بعد ست سنين من مبعثه فأقام ومعه جميع بني هاشم وبني المطلب في الشعب ثلاث سنين حتى انفق رسول الله ماله وأنفق أبو طالب ماله وأنفقت خديجة بنت خويلد مالها وصاروا إلى حد الضر والفاقة ثمّ نزل جبريل على رسول الله ﷺ فقال: ان الله بعث الارضة على صحيفة قريش فأكلت كل ما فيها من قطيعة وظلم إلّا المواضع التي فيها ذكر الله فخبر رسول الله أبا طالب بذلك ثمّ خرج أبو طالب ومعه رسول الله وأهل بيته حتى صار إلى الكعبة فجلس بفنائها وأقبلت قريش من كل اوب فقالوا قد آن لك يا أبا طالب أن تذكر العهد وأن تشتاق إلى قومك وتدع اللجاج في ابن أخيك فقال لهم يا قوم احضروا صحيفتكم فلعلنا نجد فرجاً وسبباً لصلة الأرحام وترك القطيعة وأحضروها وهي بخواتيمهم فقال هذه صحيفتكم على العهد لم تنكروها قالوا نعم قال فهل أحدثتم فيها حدثاً قالوا اللهم لا قال فإنّ محمّداً أعلمني من ربه انّه بعث الارضة فأكلت كل ما فيها إلّا ذكر الله أفرأيتم إن كان صادقاً ماذا تصنعون قالوا نكف ونمسك قال فإن كان كاذباً دفعته اليكم تقتلونه، قالوا: قد أنصفت وأجملت وفضت الصحيفة فإذا الارضة قد أكلت كل ما فيها إلّا مواضع بسم الله عزوجل فقالوا ما هذا إلّا سحر وما كنا قط أجد في تكذيبه منا ساعتنا هذه وأسلم يومئذ خلق من الناس عظيم وخرج بنو هاشم من الشعب وبنو المطلب ـ اهـ.

ولو أردنا أن نتتبع مرحلة الأقوال الصادرة من أبي طالب الدالة على اعتقاده بصدق ما يدعو إليه محمّد وما يبلغ عنه لخرجنا عن خطة الكتاب كما نخرج عن الخطة إذا ذكرنا جميع ما ذكر له المؤرخون من شعر في هذا الصدد فإنّه لا محالة يكون ديواناً صغيراً ؛ وهل يسوغ عاقل لنفسه أن يقول لولده وفلذة كبده الزم فلاناً فإنّه لا يدعوك إلّا إلى الخير وهو لا يعتقد خيره ولا صدق ما يدعو إليه بل يناقضه في العقيدة أتم مناقضة فإنّ هذه المقالة مع هذه العقيدة لا تكون إلّا من انسان يريد كل الشر بمن قال له كما يغش العدو الألد في الباطن انساناً يجامله في الظاهر فيتظاهر له بمظاهر الارشاد حتى يسوقه إلى ما فيه تلفه وهلاكه وأبو طالب إذا كان كافراً بمحمد وبما يدعو إليه لانتبذ بعيداً عنه أوّلاً شأن كل متناقضين في العقيدة فإنّ كلا منهما يبارز صاحبه في التبليغ إلى عقيدته وتضليل عقيدة طرفه كما فعل كل مشرك مع رسول الله وقد قرأت طرفاً صالحاً منه آنفاً وما لم نقرأ عليك من شدة ايذائهم له ولأتباعه أشد وأنكى مما مر بك ولعلك تقف في المستقبل على شعبة منه ؛ تنزلنا وقلنا عف عن مبارزته ؛ فهل يسوغ لنا أن نجوز للمشرك والكافر بمحمد ودعوته أن يبسط لسان شاعريته فيأتي بأنواع المدح والثناء والتقريظ والاطراء لعدوه في العقيدة الذي هو معه على طرفي نقيض خصوصاً والمقام الذي قام به وقال هذه الأقوال مقام مبارزة عنيفة بين المشركين ومحمّد وهو من المشركين فهل ليت شعري يبارز الإنسان عقيدة نفسه وجليل ما استقر في دماغه وقلبه ـ هذا ما يستحيل تصوره فضلاً عن وقوعه ـ

قال ابن أبي الحديد [١] كان صديقنا علي بن يحيى البطريق يقول لولا خاصة النبوة وسرها لما كان مثل أبي طالب وهو شيخ قريش ورئيسها وذو شرفها يمدح

---

(١) النهج الحديدي: ج ٣ ص ٣٠٩ وما بعدها.

ابن أخيه محمّداً وهو شاب قد ربي في حجره وهو يتيمه ومكفوله وجار مجرى أولاده بمثل قوله:

وتلقوا ربيع الأبطحين محمّداً على ربوة في رأس عنقاء عيطل
وتأوي إليه هاشم ان هاشماً عرانين كعب آخر بعد أوّل

ومثل قوله

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل
يلوذ به الهلاك من آل هاشم فهم عنده في رحمة وفواضل [١]

فإنّ مثل هذا الاسلوب من الشعر لا يمدح به التابع والذنابى من الناس وإنّما هو من مديح الملوك والعظماء فإذا تصورت انّه شعر أبي طالب ذاك الشيخ المبجل العظيم في محمّد وهو شاب مستجير به معتصم بظله من قريش قد رباه في حجره غلاماً وعلى عاتقه طفلاً وبين يديه شاباً يأكل من زاده ويأوى إلى داره علمت موضع خاصية النبوة وسرها وان امره كان عظيماً وان الله تعالى أوقع في القلوب والأنفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً.

أقول: وقد أخطأ ابن البطريق في ذيل كلامه خطئاً لا مقيل له منه فإنّ نبوة محمّد ان كانت ذات خاصية في النفوس وقهر خفي في القلوب فلم لم تتجاوز أبا طالب إلى واحد آخر من مئات الوف المشركين المحيطين به ولو كانت لنبوة محمّد خاصية من غير جهة الأسباب الظاهرية لخففت عنه قليلاً من وطأة المشركين الذين زاحموه على شرفه وحيثيته ودمه وبدنه واتباعه والمؤمنين به

(١) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٢٩١ طبع محمّد محيي الدين.

حتى تخافتت أصوات المسلمين بعد ظهورها وحتى هاجر كثير منهم إلى خارج الجزيرة وحتى الجأ المشركون أبا طالب ومحمّداً ومن اتبع أبا طالب من بني هاشم والمطلب إلى أن يقيم في الشعب مدة ثلاث سنين على غير مطعم ولا مشرب محصوراً أشد الحصار ؛ فأين كانت خاصية النبوة عن أبي لهب وأبي جهل وآلاف من اخوتهم بل كل مشرك في عرب الجزيرة وأين ما يقوله ابن البطريق وأوقع الله في القلوب والانفس له منزلة رفيعة ومكاناً جليلاً أكان ذلك حين ينثر المشركون التراب على رأسه ويطرحون سلا الشاة عليه وهو يصلي.

قال ابن الأثير [١]: قال رسول الله ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب وذلك ان قريشاً وصلوا من أذاه بعد موت أبي طالب إلى ما لم يكونوا يصلون إليه في حياته حتى ينثر بعضه التراب على رأسه وحتى ان بعضهم يطرح عليه رحم الشاة وهو يصلي. وهذه واحدة من سيئات قريش إلى محمّد، تقع هذه المكاره بمحمد بعد عشر سنين من مبعثه فلو كان لله انتصار لدينه من غير طريق الأسباب الظاهرية لانتصر لمحمد من سنة لمبعثه أو سنتين أو ثلاث سنين بل نرى محمّداً يضيق ذرعاً مما هو به بعد وفاة أبي طالب فيخرج خارج مكة فلا يلاقي إلّا الأمرين حتى يقيض الله له حامية في المدينة فتكون هي سبب هجرته ؛ فاربع على ظلعك يا ابن البطريق ويا نظير ابن البطرين وهم كافة أبناء التسنن الذين يحملهم خبث العصبيات على ركوب كل جهالة ؛ فهل وجدت أيّها القارئ في هذه الميادين خاصية النبوة أثرت في أقل افراد المشركين فنكست به عن أذية محمّد ومبارزته فإن يكن أبو طالب مثلهم في العقيدة لكان واحداً منهم في ايصال الأذى إليه وان ترقينا فالسكوت عنه لا له ولا عليه وان ترقينا فالمحاماة

---

(١) تاريخ ابن الأثير: ج ٢ ص ٦٣.

عن اراقة دمه لابسط الطريق له في تبليغ دعوته، فاما أن يقول له اذهب فقل ما شئت ويقوم بتبجيله بما لم يبجل به أحداً غيره وهو ليس من أهل التبجيل حينذاك ـ يتيم أسير فقير مملق من حسنتي المال والرجال ـ ويقول في حق دعوته:

ولقد علمت بأنّ دين محمّد　　من خير أديان البرية دينا
وإن كان أحمد قد جائهم　　بصدق ولم يأتهم بالكذب
ألم تعلموا انا وجدنا محمّداً　　نبياً كموسى خط في أوّل الكتب

ويوصي ولده بلزومه فإنّه لا يدعوه إلّا إلى الخير؛ ويتحمل في سبيل معاضدته كل جهد وبلاء مقاطعة الأرحام من ناحية والمبارزات العنيفة من ناحية ثانية والتلطف بمن ينتصر لبني هاشم في الحوادث العامة حتى يعضدوه في قيامه هذا من ناحية ثالثة واظهار الرغبة الملحة إلى افراد بني هاشم انفسهم ليكونوا معه يداً واحدة حتى انّه مدح أبا لهب بعدة مقاطيع كما تقدم ذلك ليكون له ردءاً وعن محمّد محامياً من ناحية رابعة ومعاناة الجوع والمضض ودخول الشعب ومحاصرته وانقطاعه عن الجامعة وانقطاع الجامعة عنه من ناحية خامسة وهلم دواليك إلى أن يموت غير وان ولا كسل عن متابعة خدماته ـ فذلك ـ ما لا يجوز صدوره عن أسفه السفهاء وهو في مقام مبارزة عقيدة نفسه فضلاً عن صدور ذلك كله من أعقل عقلاء وقته وأشرفهم غير مدافع في ذلك والضرورات العقلية حاكمة على كل اظهار رأي أو حديث يتحدث به يكونان على خلافها فإنّ الاعتبار العقلي هو معيار كل نقل ينقل وحتى لو رواه أوثق الرواة ومن الجنون ان يترك العاقل عقله جانباً عنه ويستمع إلى قائل يقول سلوني عن كل شيء في الله إلّا عن الفرث والدم ـ مثلاً ـ فيعود مجسماً محضاً وعقله لا يعرف الرب الصانع

للكون إلّا مجرداً عن كل مادة وشوائب مادة ومما فضح كثرة الحديث الذي يروى مسنداً إلى مصادر الدين من أنبياء وائمة هو العقل عند نضوجه وتنقيح مباحث المعقول التي ضربت ضربتها القاضية على أهازيج دجالى صدر الإسلام ومن بعدهم الذين قامت بهم المطامع من ناحية والأهواء السياسية من ناحية ثانية والتعصبات الخبيثة من ناحية ثالثة وصادفوا مجالاً من عامية الناس واسعاً فسردوا ما أحبوا وقالوا ولم يدروا ان تضخم الافهام ونضج العقول سوف يصك جباههم بلطمات حارة يسقطهم بها عن درجة الانسانية المطلقة ؛ بل قد لا يكونون يدركون الكذب فيما رووا لعاميتهم أيضاً فإنّ أبا هريرة ان أكثر من أحاديث التجسيم فلجهله بالضرورة بهوية واجب الوجود وما يوجبه العقل له ويجيزه عليه أو يمنعه منه وهو شأن غيره من أبناء عصره الذين لا يعرفون الله إلّا بالتوهم وانّه شيخ على كرسيه معمم ؛ أو ما شابه ذلك من هاته الترهات التي كانت مالئة أجواء أمس الغابر الذي عبدت فيه الأوثان والأصنام والنيران والشموس والاقمار ولست أخص أبا هريرة وحده بل وحتى جيله بذلك بل كل من لم يمارس الفنون النظرية والمباحث العقلية وكيفية ارتباط الشيء بالشيء وسنخية هذا لذاك والعلل التي تصحح مطلباً وتخطأ مطلباً آخر يقع في محاذير جمة لا يلتفت اليها الجهلة في مقام توهمها وهذه الروح الجاهلة تكثر بتوسع في المحدثين ونقلة الأخبار الذين شغلهم قال فلان وروى فلان عن الممارسة لفقه الحديث بما ينطبق مع الموازين العلمية ولهذا كثرت الخرافات في السنة والاباطيل في النقل والتزويرات المفتضحة في الآثار والوهن والسقوط في الأخبار والسامعون المتلقون لتيك الأحاديث هم طبقة العوام ومن اين للعامي التمييز وتشخيص القول المسدد من المفند .

نعم ربما نشأت ناشئة في الأدوار الوسطى للاسلام واحبت أن تتصدر لتصفية

الصادق من الكاذب مما ينقل فأخذت تحاسب رجال السند فتجرح بعضاً وتؤيد بعضاً فقالت بالتشهي جهد ما دفعتها منوياتها المدخولة ومع الغض عن هذه المرحلة بقيت المتون كما هي محشوة بالأوهام والتزويرات والأباطيل وإن كان البخاري ومسلم وأحمد ونظراؤهم يحسنون الحفظ فإنّهم كانوا عراة عن الجنبة الفنية فقراء من المباحث النظرية والأنظار العقلية وكانوا في حكم الببغاء تعيد ما تسمع من دون أن تفهم ما سمعت وقالت ـ مثال ذلك ـ

ما ذكره سبط محمّد بن عبد الوهاب في كتابه فتح المجيد شرح كتاب التوحيد عند قوله تعالى: ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه** ﴾[1] قال روى الامام أحمد عن ابن عمران رسول الله قرأن هذه الآية ذات يوم على المنبر ﴿ **وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعاً قبضته يوم القيامة والسموات مطويات بيمينه سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ ورسول الله يقول هكذا بيده يحركها ويقبل بها ويدبر.

ولمسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله يطوي الله عزوجل السموات ثمّ يأخذهن بيده اليمنى ثمّ يقول أنا الملك اين الجبارون أين المتكبرون ثمّ يطوي الأرضين بشماله ثمّ يقول أنا الملك أين الجبارون أين المتكبرون.

وأخرج البخاري عن ابن عمر قال: ان الله يقبض يوم القيامة الأرضين وتكون السماء بيمينه.

ثمّ قال صاحب الكتاب المشار إليه تدل هذه الأحاديث على اثبات الصفات على ما يليق بجلال الله وعظمته اثباتاً بلا تمثيل وتنزيهاً بلا تعطيل وتأمل ما في هذه الأحاديث الصحيحة من تعظيم النبي ربه بذكر صفات كماله على ما يليق

---

(١) ص ٤٠٩ وما بعدها.

بعظمته وجلاله وتصديق اليهود فيما أخبروا به عن الله من الصفات التي تدل على عظمته.

وكان صاحب الكتاب روى قبل هذه الأحاديث التي ذكرناها عنه عن ابن مسعود ان رجلاً من أهل الكتاب جاء إلى النبي فقال: يا أبا القاسم أبلغك ان الله تعالى يحمل الخلائق على اصبع والسموات على اصبع والأرضين على اصبع والشجر على اصبع والثرى على اصبع فضحك ﷺ حتى بدت نواجذه وساق مثله عن يهودي آخر، ثمّ قال: وتأمل ما فيها من اثبات علو الله تعالى على عرشه ولم يقل النبي في شيء منها ان ظاهرها غير مراد وانها تدل على تشبيه صفات الله بصفات خلقه.

ثمّ قال: وروى الحافظ الذهبي بالأسانيد الصحيحة عن ام سلمة زوج النبي انها قالت في قوله تعالى ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والاقرار به ايمان والجحود به كفر؛ قال وسئل ربيعة بن عبد الرحمن كيف الاستواء قال الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق؛ ثمّ أكثر من نقل اقوال المفسرين ان استوى بمعنى ارتفع ثمّ ذكر عن ابن المبارك انّه قيل له كيف نعرف ربنا قال بأنّه فوق السماء السابعة على العرش ثمّ قال وقال أبو عمر الطلمنكي في كتاب الأُصول أجمع المسلمون من أهل السنة على ان الله استوى على عرشه بذاته ـ اهـ ملخصاً ـ.

وأنت كما ترى ان هؤلاء على ما توفر لهم من سمعة ويعدون في الرعيل الأوّل من علماء الإسلام ومحدثيهم يعبدون ما لا يعرفون ويتعبدون بما لا تتم عليهم حجته إلّا بعد معرفة اصله وهو معرفة الصانع ومعرفة الصانع لا تأتى من نحو ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ ولا من قول النبي لام سلمة وابن المبارك ولا

الحافظ الذهبي وهلم جرا بل هي اصل اولي سابق على كل شيء ومدركه منحصر بالعقلوحده ولا صلاحية لأي شيء سواه فالعقل إذا فرغ من توجيه الإنسان إلى مبدءه وعرفه له جهد ما يستطيع دركه انتقل إلى مسألة تتفرع من ذلك وهي مسألة التكليف والمكلف وارسال الرسل وتأييدهم بحجج داعمة تصدقهم فيما يدعون نسبته إلى الله من حكم أو وعد أو وعيد.

ولا ريب ان العقل لا يجوز على واجب الوجود التجسيم ولا رائحته بالمرة الواحدة وان الميل إلى مثل هذه الأهواء بنفسه هادم لصانعية الصانع وما يلزم من وجوده عدمه محال وهذا بحث كما أسلفنا لا ربط له بكتاب ولا بسنة ولا باجماع وإنّما هو عقلي محض سابق على الجميع بطبعه لا بوضعه وحده فالتحدث عنه بقال الله وقال النبي وقالت فلانة زوجة النبي وقال فلان المحدث تحدث ساقط لأخذ المتأخر رتبة فيما هو متقدم عليه طبعاً ولو حصل لهذا المتشدق ـ ربيعة بن عبد الرحمن ـ بقوله الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول ومن الله الرسالة وعلى الرسول البلاغ وعلينا التصديق ـ فنان ـ يقول له يا هذا إنا إنّما سألتك لأتعلم منك لا لأن أسمع كلمات متفككة لا تفيدني اقل شيء مما أنا في صدده فقولك الاستواء غير مجهول تريد به ان معناه هو علو الجسم على جسم آخر والكيف غير معقول أي على واجب الوجود لأنّه يستلزم جسميته المستلزمة لا مكانة المخرج له عن كونه واجب الوجود فهو محال إذن ولكن ما معنى قولك ومن الله الرسالة وما ربط هذه المقالة بالجواب عن سؤال: الرحمن على العرش استوى: فإنّ الخوض فيما يجوز وما لا يجوز على الله عقلي محض لا منفذ للنقول فيه والذي على الرسول تبليغه هو الاحام التكليفية والوعد والوعيد بعد اثبات الصانع عقلاً حتى ان ما في القرآن أو السنة من دليل يساق لاثبات الصانع مثل أفي الله شك فاطر السموات والأرض ارشادي محض لادراكات العقول

وليس علينا التصديق في العقائد المبدئية فإنّها ليست تقليدية يكتفى فيها بالتعبد مضافاً إلى ان التعبد لا يكون له موضوع ما لم يثبت أصل وجود المتعبد به من طريقه ولا طريق له إلّا العقل الصرف لتأخر كل طريق عن العقل في هذه المسألة رتبة وطبأ بواضح الضرورة.

وما يرويه صاحب الكتاب الآنف ذكره عن ابن وهب قال: كنا عند مالك فدخل رجل فقال يا أبا عبد الله ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ كيف استوى ؟ فأطرق مالك وأخذته الرحضاء وقال: ﴿ **الرحمن على العرش استوى** ﴾ كما وصف نفسه ولا يقال كيف وكيف عنه مرفوع وأنت صاحب بدعة أخرجوه. يعطيك صورة واضحة من جهل القوم بمبادئهم على ان المسؤول الذي ذكرت عنه هذه القصة إمام من أئمة المسلمين لم يزل مقلداً بعد مماته كما كان كذلك في حياته لفريق منهم فهذا الامام لم يستطع أن يفاهم طرفه بما يزرع في عقله عقيدة واضحة صادقة نعم قصاراه ان ساق له كلمات مهملة لم يفهمها هو فضلاً عن السائل فإنّ السائل بطبيعة سؤاله يجهل معنى الرحمن على العرش استوى فجوابه بقوله الرحمن على العرش استوى كما وصف نفسه تكرير لعين السؤال؛ ثمّ قال له ولا يقال كيف وكيف عنه مرفوع وهو كلام مهمل ما لم يشرحه له حتى يفهمه وامّا قوله وأنت صاحب بدعة أخرجوه فهو بهتان وقذف لمسلم حاول تفهم مسألة فرماه امام المسلمين بما لا يستحق اقله وليت شعري أفبمثل هذا التبليغ يعرف الإسلام وينتشر بين الناس وكيف عرفته يا هذا انّه صاحب بدعة وعلى فرضه مبدعاً فلم لم تلزمه وتفحمه حتى تظهر قوة دينك والدليل الدال على صدقه وليست هذه البلية موجودة في مالك وحده بل كلهم على هذا المنوال يومذاك لا يرضون من الناس إلّا بالخضوع لكل ما يقولون وإذا أبى أحد هيجوا عليه الرأي العام فأهدروا دمه في محاكمة لا تزيد على دقائق محدودة وحكموا

عليه بعد قتله انّه من أهل النار في أسفل دركها .

وكلما ورد في الكتاب العزيز مما لا ينطبق بظاهره الغير المتصرف فيه عـلى حدود المنطق من أي شيء يفرض فإن أمكن تصريفه بما يمشي معه على سنن الاستعارات والمجازات البليغة فذاك مـثل والأرض جـميعاً قـبضته أي تـحت تسلطه وتصرفه أو يه مبسوطة أي سخي كريم أو طلعها كأنّه رؤوس الشياطين في مقام التهويل وشدة التخويف كما قال الآخر ومسنونة زرق كانياب أغوال وما شابه ذلك مما لم يرد على لسان الذكر الحكيم إلّا كما ورد نظيره في اللغة التي نزل بها .

ومن باب الصدف ان كلما يذكرونه مما يعطي التجسيم وجواز الرؤية على الله لا شاهد لهم فيه ومساقه مساق المجازات والاستعارات بطور صريح ؛ وان ابـى عن مثل هذه التصريفات وجب السكوت عنه نظير ـ الم ـ حم عسق ـ يس ـ طه ـ كهيعص ـ فكما أخر علم هذه المقطعات واحيل إلى الله سبحانه كذلك يـحال له علم كلما يأباه صريح المنطق ودرك العقول لا ان يقال جاء في القرآن ان لله يـداً فنحن نصدق بذلك ونصفه بأنّه ذو يد وان كانت عقولنا تحيل الجسمية ولوازمها على واجب الوجود فإنّ في ذلك من التدافع ما لا يخفى فإنّه لولا العقل لما ثبت وجود للصانع وانتساب للقرآن إليه وانّه معجز لا منفذ للكذب والاخـتلاق فـيه فكيف يطرح العقل بعد ذلك جانباً ويؤخذ بما يناقضه هذا مـجمل البـحث فـي الكتاب ؛ والسنة فيما يمكن تطبيقه منها على الموازين التي قررناها له فهي مثله وإلّا طرحت لكثرة الوضع والاختلاق والتزوير فيما نقل منها الينا .

وهؤلاء القشريون لو كانوا يملكون شيئاً من الفهم الصحيح لأراحوا كل باحث سليم الحاسة عن نقدهم ولتوجه بمداركه إلى كشف حقائق مجهولة تـفيد الفـن والفنان بضاعة جديدة ولوناً من البحث رائقاً .

ومثال آخر:

قال صاحب الكتاب الآنف الذكر: عن العباس بن عبد المطلب قال: كنت في البطحاء في عصابة فيهم رسول الله فمرت بهم سحابة فنظر اليها فقال ما تسمون هذه قالوا السحاب قال والمزن قالوا والمزن قال والعنان قالوا والعنان قال أبو داود لم أتقن العنان جداً قال هل تدرون ما بعد ما بين السماء والأرض قالوا لا ندري قال ان بعد ما بينهما امّا واحدة أو اثنتان أو ثلاث وسبعون سنة ثمّ السماء فوقها كذلك حتى عدد سبع سموات ثمّ فوق السابعة بحر بين أسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ثمّ فوق ذلك ثمانية اوعال بين اظلافهم وركبهم مثل ما بين سماء إلى سماء ثمّ على ظهورهم بين اسفله وأعلاه كما بين سماء إلى سماء ثمّ الله تعالى فوق ذلك؛ أخرجه الترمذي وابن ماجة وقال الترمذي حسن غريب وقال الحافظ الذهبي رواه أبو داود باسناد حسن وروى الترمذي نحوه من حديث أبي هريرة وفيه بعد ما بين سماء إلى سماء خمسمائة عام ولا منافاة بينهما لأنّ تقدير ذلك بخمسمائة عام هو على سير القافلة مثلاً ونيف وسبعون سنة على سير البريد.

أقول: لا شبهة ان رواة مثل هذه الأحاديث لو كانوا في مثل هذه العصور التي انزاح أمامها كثير من هذه الترهات لتحرجوا من ارسالها إلى الناس بمثل هذه الصور المزعومة الخيالية الجارية على ما ينطبق وعصرها الذي كان يكثر فيه ذكر الغول والعنقاء ولكانوا إذا احوجهم الكذب إلى اختلاق شيء معتدلين في تصوير المطلب الذي يهوون تطييره بين الناس لهدف ما.

ثمّ ليت شعري ما هو حد السماء وهل له جرمية تقبل التحديد حتى يقال بين الأرض وحد السماء الأُولى كذا وبين الأُولى والثانية كذا وهلم جرا وهذا العصر الجديد بابتكاراته واختراعاته ومقاييسه الصادقة وارصاده القيمة لم يعرفنا عن

السماء إلّا بأنها فضاء قد تمركزت فيه هذه الكرات السيارة والثابتة لا أكثر على ان هؤلاء الجدد أيضاً يزعمون بعض المزاعم الجزافية بمثل ان كرة الشمس مثلا هي كذا ضعف أكبر من الأرض وان الكوكب الفلاني يبع عن الكوكب الآخر كذا كيلومتراً وعلى مثل هذا من الحزر والتخمين الباردين وان يكن الجدد اولوا البصيرة في مثل هذه الفنون بهذا الحد من التخرص البارد فأجدر بعصر خلت منه المعارف بصورة مؤسفة ان يكون كل ما فيه من هذا القبيل جزافاً وحديثاً باطلاً ويشهد لذلك التحديد تارة بنيف وسبعين وأُخرى بخمسمائة وأنت ترى كم من تفاوت فاحش بين التقديرين مما يدل على ان التحديدين جميعاً من مكيال واحد مجهول ولا شبهة ان قائل النيف والسبعين سنة هو بنفسه الذي استرسل بالخمسمائة عام في عين التحديد المذكور ؛ فإنّ مفروض الرواة ذلك وان مصدر هذه التحديدات هو النبي كما يدعون ؛ وان استرساله بكليهما كان على نحو واحد من قطع المسافات الذي عهد في زمانه ولذلك لم يقيد أحدهما بقيد يخالف به الآخر ثمّ من أين أحرز ان النيف والسبعين بسير البريد يساوي خمسمائة عام بسير القافلة فإنّ هذه التحكمات يجوز أن تصدر من صاحب الكتاب الذي نقلنا عنه ولا يجوز أن تنسب إلى النبي الذي لا ينطق عن الهوى على ان كثيراً من مثل هذه الروايات تقول خمسمائة عام للطير المسرع ومع ذلك قد لا يعز على أنصار صاحب الكتاب أن يقولوا ووجه الجمع حينئذ ان المراد بالنيف والسبعين سنة هو بسير الطيارات القوية السريعة السير ذات (الأربع موترات) ثمّ ما الداعي العقلائي لانشاء الله سبحانه بحراً على عرض السماء عمقه كالمسافة بين سماء إلى سماء حيث لا ديار هناك يستفيد من وجود هذا البحر ثمّ ما الذي دعاه سبحانه إلى ايجاد هذه الاوعال الثمانية العظيمة الخلقة بحيث كان ما بين اظلافها وركبها مسافة خمسمائة عام وبين ركبها واصل قوائمها حتماً قريب من هذه

المسافة وما بين بطونها وأعلا ظهورها مسافة خمسمائة عام أيضاً فإنّ لخلقة كل شيء وزن والصانع حكيم وهذه التهويلات يجل عنها اللسان ذاكراً لها فضلاً عن الذهن متصوراً والعيان محتضناً .

وختم الراوي حديثه بقوله ثمّ الله تعالى فوق ذلك أي راكب على ظهور هذه الاوعال العظيمة وهدفهم من هذا التحديث هو توسيع نطاق العظمة الربانية وان الله بلغ من عظمته ان هذا عرشه بحيث تعجز الملوك والسلاطين عن تهيأة القليل الحقير منه في حال ان عظمة الاقتدار لا تناط بمثل هذه المخرعات وإنّما تناط بعجيب الصنعة وجوهر الخلقة وفي خلقة الذرة والبعوضة على انهما لا شيء من حيث الجسمية في حيطة الوجود من آثار الصنعة وجليل القدرة وان هذه الموجودات الحقيرة كيف تغذو وتنمو وتسلك في الحياة بهدى وروية تنطبق مع ما يلتئم بسيرها الحيوي المخصوص ما لا يخفى ولا شك ان هذه الصنعة المكشوفة للعقل في هذه الذرة والبعوضة أعظم من وصف تيك الاوعال الثمانية المهولة التي لم يتجل للحاسة الداركة جهة خلقها وما هو عملها الصناعي ونفس انتصابها قائمة على وجه البحر الموصوف لا يعطيها شيئاً من عظمة الفن كما لا يعطي المنارة العظيمة شيئاً من ذلك أمام دودة القز وزنبور العسل على صغرهما .

ثمّ إذا كان من نظر هؤلاء المجسمين تهويل صورة الرب وانّه جسم بهذه الصولة والابهة لكان من حقه عليهم أن يصوروا له بلاطاً وعرشاً وقاعة وقصراً مملوءات بالمناظر المبهجة الحسنة لا أن يدعوه في فضاء شاسع وبحر بعيد القعر متلاطم الأمواج وأوعال مخرعة الصورة موحشة المنظر ولكن عقولهم يومذاك لا تسيغ لهم أكثر من ذلك ولم تخلق في عصرهم عروش نيويورك ولندن وقصر كرملين الذهبي المواج حتى ينحتوا للرب صورة من طرازها ولو كانت الكتب التي تحتوي على مثل هذه الترهات كتباً ساقطة القيمة عند أهل النظر لهان

الخطب كله ولكنها من محتويات صحيح البخاري والترمذي وابن ماجة وأبي داود وهذا الحافظ الذهبي الذي تراه يستنكر الحديث إذا كان بعض رواته شيعة ويقول في حقه انّه منكر ولا أحسبه إلّا موضوعاً ما باله لا ينكر هذه المنكرات الجلية ولا يتهمها بالوضع بل نراه يؤيدها ويسددها.

ومثال آخر:

وذكر صاحب فتح المجيد [١] قال: روى الامام أحمد عن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ ان رجلاً قال: يا رسول الله طوبى لمن رآك وآمن بك قال: طوبى لمن رآني وآمن بي وطوبى ثمّ طوبى ثمّ طوبى لمن آمن بي ولم يرني قال له رجل وما طوبى قال: شجرة في الجنة مسيرة مأة عام ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها وله شواهد في الصحيحين وغيرهما وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه ههنا أثراً غريباً عجيباً قال وهب ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى يسير الراكب في ظلها مأة عام لا يقطعها، زهرها رياط وورقها برود وقضبانها عنبر وبطحاؤها ياقوت وترابها كافور ووحلها مسك يخرج من أصلها انهار الخمر واللبن والعسل وهي مجلس لأهل الجنة فبينا هم في مجلسهم إذ أتتهم الملائكة من ربهم يقودون بختاً مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح من حسنها ووبرها كخز الذعرى من لينه عليها رحال الواحها من ياقوت ودفوفها من ذهب وثيابها من سندس واستبرق فينيخونها ويقولون ان ربنا أرسلنا اليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال فيركبونها فهي أسرع من الطائر وأوطأ من الفراش خباً يسير الراكب إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه لا تصيب إذن راحلة منها إذن صاحبتها حتى ان الشجر لتنتحي عن طريقهم لئلا تفرق بين الرجل وأخيه قال

---

(١) الكتاب الذي أسلفنا النقل عنه، ص ٢٩٧ وما بعدها.

فيأتون إلى الرحمن الرحيم ويسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه ـ إلى أن ينتهي بروايته عند قوله ـ ثمّ يقول ـ أي الله سبحانه ـ اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم ولم يخطر لهم على بال قال فيعرضون عليهم حتى تقصر بهم أمانيهم التي في أنفسهم فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مقرنة على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة على كل سرير منها قبة من ذهب مفرغة في كل قبة منها فرش من فرش الجنة مظاهرة في كل قبة منها جاريتان من الحور العين على كل جارية منهن ثوبأنّ من ثياب الجنة وليس في الجنة لون إلّا وهو فيهما ولا ريح طيب إلّا قد عبق بهما ينفذ ضوء وجوههما غلظة القبة حتى يظن من يراهما انهما دون القبة يرى مخهما من فوق سوقهما كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء يريان له من الفضل على صحابته كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى لهما مثل ذلك ثمّ يدخل عليهما فيحييانه ويقبلانه ويعانقانه ويقولان له والله ما ظننا ان الله يخلق مثلك ثمّ يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفاً في الجنة حتى ينتهي كل رجل منهم إلى منزلته التي اعدت له .

وقد روى هذا الأثر ابن أبي حاتم بسنده عن وهب بن منبه وزاد فانظروا إلى مواهب ربكم الذي وهب لكم فإذا بقباب في الرفيق الأعلا وغرف مبنية بالدر والمرجان أبوابها من ذهب وسررها من ياقوت وفرشها من سندس واستبرق ومنابرها من نور وإذا بقصور شامخة في أعلا عليين من الياقوت يزهو نورها فما كان من تلك القصور من الياقوت الأبيض فهو مفروش بالحرير الأبيض وما كان منها من الياقوت الأخضر فهو مفروش بالسندس الأخضر وما كان منها من الياقوت الأصفر فهو مفروش بالارجوان الأصفر والزمرد الأخضر والذهب الأحمر والفضة البيضاء قوائمها وأركانها من الجوهر وشرفها قباب من لؤلؤ وبروجها غرف من المرجان فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم قربت لهم براذين

من ياقوت أبيض منفوخ فيها الروح تحتها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم شكيمة برذون من تلك البراذين ولجمها واعنتها من فضة بيضاء منظومة بالدر والياقوت سروجها سرر موضونة مفروشة بالسندس والاستبرق فانطلقت تلك البراذين تزف بهم فينظرون رياض الجنة فلما انتهوا إلى منازلهم وجدوا الملائكة قعوداً على منابر من نور ينتظرونهم ليروهم ويصافحوهم.

وقال خالد بن معد ان في الجنة شجرة يقال لها طوبى ضروع كلها ترضع صبيان أهل الجنة وان سقط المرءة يكون في نهر من انهار الجنة يتقلب فيه حتى تقوم القيامة فيبعث ابن أربعين سنة، رواه ابن أبي حاتم ـ اهـ ـ

أقول: ولا يخفى ما في هذه العبارات من أوّلها إلى آخرها من تراكيب خيالية نظير ما يمثل به البيانيون من قوله: اعلام ياقوت نثرن على رماح من زبرجد: و: بحر من المسك موجه الذهب.

وإنّما سردناها ليقف الباحث الحر على مقدار التزويرات التي كان يقوم بها رجال أمس باسم الدين فإنّ من الأدلّة التي برهنت على وجود الصانع نظام الصنعة في هذه المخلوقات وانشائها على موازين فنية دقيقة وهكذا الصانع الحكيم لا يصنع الشيء إلّا عن حكمة ولا يوجده إلّا لغرض موزون.

وانك لا تجد في تيك الأحاديث جملة واحدة مما يزنها الاعتبار بوزن صحيح فما هدف الصانع بخلق شجرة في الجنة يسير الراكب تحت ظلها مأة عام وهل يعجزه ابداع ثياب أهل الجنة حتى يخرجها من أكمام هذه الشجرة.

وهل يمضغ العقل بنحو موزون ان يكون زهر هذه الشجرة رياطاً وورقها بروداً وقضبانها عنبراً وبطحاؤها ياقوتاً وترابها كافوراً ومن أين لها الوحل حتى يقال ووحلها مسك.

ولا شبهة ان كل تزوير إنّما يكون طبق متعارف عصره وبما ان عصر هؤلاء

الرواة لم يكن يعرف غير البراذين والجمال لذلك لا تراهم يسمون مركباً غيرها ولا يحدثون في عباراتهم بغير الهودج والسرج والعنان اللجام ولو كانوا يحتملون ان العصر يتطور من البرذون والجمل والحمار والفرس والهودج إلى القطار السريع السير والسيارات ذات آخر طرز والطائرات الخاطفة كخطف البرق لما خصصوا مراكب أهل الجنة بالبراذين والابل لأنّ مؤمني عصور الطائرات والسيارات والماكنات البخارية لا تسمح لهم أنفسهم أن يركبوا البراذين وقد كانت هذه الوسائل الكهربائية المجهزة بآخر تجهيز في دنياهم مبذولة لديهم ولا ريب ان مؤمن أهل الدنيا ولو كان في آخر نعمة يتوقع من نعيم الله لوناً لم يجده في دنياه أو إن كان وجده لم يحصله بما كان يزويه لنفسه والله سبحانه ضمن لأهل جنانه بأنّ فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ به الأعين ونحن لا نزاحم مؤمن العهود القديمة ان يشتهي طبق ما وصف وهب بن منبه من البراذين والهوادج والسندس والاستبرق ولكنا نقطع بأنّ هذه الأوصاف يستقذرها من عاش مترفاً في القرن العشرين بل وحتى من عاش من أهله مجهداً مكدوداً فانا إذا فتشنا آماله المنزوية في نفسه لا نرى من جملتها البرذون ولا الهودج ونظير ذلك مما يعده من وسائل العهود العتيقة التي أجبرتها قلة الوسائل على أن تعتز بمثل هذه المراكب والملابس والمآكل وهلم جرا.

وما أقبح قولهم: فيأتون إلى الرحمن الرحيم ويسفر لهم عن وجهه حتى ينظروا إليه ألا يزعهم عن هذه العقيدة الخاطئة في حق واجب الوجود نفس قوله في صريح قرآنه لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار. وصريح سنة نبيه من طرقهم فقد روى البخاري عن مسروق قال قلت لعائشة يا امتاه هل رأى محمّد ﷺ ربه فقالت لقد قف شعري مما قلت أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب من حدثك ان محمّداً رأى ربه فقد كذب ثمّ قرأت ﴿ **لا تدركه الابصار**

وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير ﴾ ﴿ **وما كان لبشر أن يكلمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب** ﴾ ومن حدثك انّه يعلم ما في غد فقد كذب [١].

وأورد البخاري أيضاً [٢]: عن الشعبي عن مسروق عن عائشة قالت: من حدثك ان محمّداً رأى ربه فقد كذب وهو يقول ﴿ **لا تدركه الابصار** ﴾ ومن حدثك انّه يعلم الغيب فقد كذب وهو يقول: لا يعلم الغيب إلّا الله. ونظير هذا المضمون كثير في كتب الحديث السني فضلاً من الشيعي.

هذا في جانب وصراحة العقل الصريح في جانب فما الذي يدعوهم إلى تحطيم مقام ربهم وما هو شأنه ثمّ ما أزيف خيالهم الوصفي حين يصفون شفافية الحوراء بأنّها يرى مخها من فوق ساقها كالسلك الأبيض في ياقوتة حمراء فإنّ الجلد إذا شف عما تحته من عروق وأعصاب وأمعاء ومخ وعظام اوجب من قبح هذه المنظرة ما تتهوع له النفوس وكلما خفيت العروق والأعصاب وكلما هو داخل في البدن لوناً وحجماً زاد لطف الجسم وكلما ظهر منه ذلك قبح واستسمج ثمّ هل يعقل ان يصاغ من النور منبر يجلس عليه حتى يصح أن يقال في منابر الجنة انها من نور وانهم يجدون الملائكة قعوداً على منابر من نور ولا أُطيل عليك تعديداً بهذه الأوهام التي يجل عنها وزن الصنعة والنظام في كل منشئات الله سبحانه ولكن قصور هؤلاء في عقولهم وروحياتهم هو الذي أهاب بهم إلى أن لا يعرفوا نعيم الله إلّا من هذه الطرق الساقطة المادة المكذوبة التصوير وعند مقايسة هذه الأخبار بمحتويات آيات الكتاب العزيز الشارحة لنعيم الجنة تعرف كم من فرق بين الكاذب والصادق والسقيم والحكيم والمرذول والمقبول.

---

(١) ج ٣ ص ١٢٥ في سورة النجم.

(٢) ج ٤ ص ١٧٥ باب قوله تعالى عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً.

ومثال آخـر:

ما ذكره صاحب التاج الجامع للأُصول في أحاديث الرسول في أوصاف الجنة وأهلها عن أنس عن النبي قال: يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قيل يا رسول الله أو يطيق ذلك قال يعطى قوة مأة وقال في شرحه فالرجـل مـن أهل الجنة يكون في الجماع كقوة مأة رجل بل روى ان ذكره يكون كالنخلة كما روى انّه إذا كان يجامع واحدة منهن التذت باقي الزوجات مع التباعد بينهن كما سبق في كل زاوية أهل لا يرون الآخرين [١] نعم لا استبعاد أن يعطى الرجل في الجنة لأجل احراز تمتعه قوة مأة رجل من أهل الدنيا فيها ولكن الوسـائل التـي تستخدم في ذلك لا معنى لتغيير هويتها بأقل من التقدير المـذكور ـ كـالنخلة ـ فضلاً عن نفسه فإنّ المنظور التوسل بهذه الآلات كما نراه في عـالم الدنـيا بـهذا اللون الوزين الصنعة على ان قيا الآلة بالنخلة مما يوجب بمقتضى التـناسب أن يكون البدن المحتوي عليها يزيد مأة مرة أو ما يقارب ذلك في الحجر من عرضه وطوله وأي معنى يعقل في خلق جثة للانسان إذا كان طوله مأة نخلة وعرضه مأة نخلة أو ما هو قريب من ذلك وهل هذا إلّا جنون وتخليط لا مقيل منه ثمّ كـيف يستساغ من طريق العقل أن يكون الرجل بجماعه لواحدة من أزواجه مـوجداً للذة في أزواجه الأُخر البعيدات عنه كما هو نص قوله في كل زاوية أهل لا يرون الآخرين وامّا تهيج الناظر باشرافه على المتباضعين فذاك ميزان عـام لكـل ذي شهوة من الحيوانات فإنّه يتحرك من اصل مشاهدة العمل ولا ربط له باهل الجنة وحدهم.

---

(١) ج ٥ ص ٤٣٨.

وقال صاحب التاج في صفة أهل النار [١] من كتابه المذكور عن أبي هـريرة عن النبي قال: ما بين منكبي الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيّام للراكب المسرع. رواه الشيخان. وعنه عن النبي قال: ضرس الكافر أو ناب الكافر مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث. رواه مسلم والترمذي. ولفظه ان غلظ جلد الكافر اثنان وأربعون ذراعاً وان ضرسه مثل احد وان مجلسه من جهنم كما بين مكة والمدينة. وعن ابن عمر عن النبي ان الكافر ليسحب لسانه الفرسخ والفرسخين يتوطؤه الناس. عن أبي سعيد عن النبي قال: تلفح وجوههم النار وهم فيها كالحون قال تشويه النار فتقلص شفته العليا حتى تبلغ وسط رأسه وتسترخي شفته السفلى حتى تضرب سرته. روى هذه الثلاثة الترمذي.

أقول: لا شبهة ان مقام النبي جليل كجلالة مقام الله والله سبحانه لم يتحدث عن النار واهلها إلّا بمثل قوله تعالى: ﴿ **انّ الذين كفروا بآياتنا سوف نصليهم ناراً كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب انّ الله كان عزيزاً حكيما** ﴾ هذه هي البيانات المعقولة الوافية بالغرض كما اشار اليها بقوله كان عزيزاً حكيماً أي محترم الجانب فلا يفوته متمرد متفلت حكيم الصنعة لا يخلق شيئاً عابثاً وقد قال شارح التاج بعد ذكره للأحاديث السابقة وهذا مقدور لله يجب الايمان به لأخبار الصادق الأمين به بل ورد أعظم من ذلك فللامام أحمد يعظم أهل النار في النار حتى ان بين شحمة إذن أحدهم إلى عاتقه مسيرة سبعمائه عام. ولازم هذا التقدير أن يكون طول بدنه كله مسيرة سبعة آلاف عام حد الأقل ولا شبهة ان مسافة الكرة الأرضية لا يبلغ عشراً من ذلك فهذا الاثر يقدر كل واحد من الناس بأضعاف الكرة عشر مرات ولا ريب ان الذين حكمهم الشرع بدخول النار من

---

(١) ج ٥ ص ٤٥٣.

بدء الخلقة إلى ختامها يزيد عددهم على ملايين الملايين ومثل هذا يحتاج إلى مسافة ليس بملايين الكيلومترات طاقة بمسحها ؛ والممكنات التصورية كثيرة جداً وكل ممكن قابل لتعلق قدرة الصانع به ولكن الصانع لم يبعث قدرته وحدها لانشاء الملك والملكوت وإنّما أعمل حكمته فوق قدرته فخلق الإنسان بهذا الترتيب المتناسب في داخله وظاهره وتفصيل أعضائه وتعديل قواه الظاهرية والباطنية بما جعل العقول خاضعة لطرف من وسيع حكمته وعظمته ولم يكن اعجابها بخلقه جبال هملايا يعادل أقل القليل من اعجابها بخلقة الإنسان ولقد كان الله قادراً منذ أنشأ اصل الإنسان أن يجعله كما تصف هذه الأحاديث ما بين منكبيه مسيرة ثلاثة أيّام للراكب المسرع وان ضرسه بقدر جبل احد وان مسافة ما بين البيه مسافة ما بين مكة والمدينة وهلم جرا ولكنه لم يخلقه إلّا كما هو عليه الآن لأنّ اتقان الصنعة لا يعد ما زاد على ذلك إلّا فضولاً لا داعي له وكلما لا تدعو إليه العقول والاعتبارات الصادقة لا يرتكبه الحكيم من الناس فضلاً عن مقام حكمة المعبود جل وتقدس الذي هو افاض على عباده قوى التعقل والتفهم لتكون واسطة لهم في وزن الأشياء والحكم عليها بالحكم الصائب جرحاً وتعديلاً.

ومسكين ابن آدم لخطرة من وساوسه التي تدور في خلده كافية في تعذيبه فكم استولت الهموم على انسان ضخم البنية فأهزلته وعلى صحيح المزاج فأمرضته بالأمراض الفاتكة ؛ وحمى يوم تأكل من بدنه أضعاف ما تعطيه الصحة في شهور عديدة فتعذيب مثل هذا الوجود الضعيف في غنى واسع عن مثل ما يرويه أبو هريرة عن النبي قال اوقد على النار ألف سنة حتى احمرت ثمّ اوقد عليها ألف سنة حتى ابيضت ثمّ اوقد عليها الف سنة حتى اسودت فهي سوداء

مظلمة [١].

وعن أبي هريرة أيضاً عن النبي قال: اشتكت النار إلى ربها فقالت رب أكل بعضي بعضاً فاذن لها بنفسين نفس في الشتاء ونفس في الصيف فهو أشد ما تجدون من الحر وأشد ما تجدون من الزمهرير [٢].

وانا لنرى بكثرة ان الإنسان يموت لوجع يطغو عليه من ضرسه أو عينه أو قلبه أو عضو آخر من أعضائه فما هذا الازدحام له بهذه التهويلات. والوجود الذي يغرق في عمق أربعة أمتار من الماء لا يحتاج إغراقه إلى أن يخلق له المحيط الهادي أو البحر الاطلنطيقي إذاً فالله غني في تعذيب الإنسان عما يرويه أبو هريرة أيضاً عن النبي قال: كنا مع النبي إذ سمع وجبة فقال تدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا حجر رمى به في النار منذ سبعين خريفاً فهو يهوى في النار حتى انتهى إلى قعرها [٣].

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي قال: لو ان رضاضة مثل هذه وأشار إلى مثل الجمجمة أرسلت من السماء إلى الأرض وهي مسيرة خمسمائة سنة لبلغت الأرض قبل الليل ولو انها ارسلت من رأس السلسلة (أي من سلاسل النار) لسارت أربعين خريفاً الليل والنهار قبل أن تبلغ أصلها أو قعرها [٤].

وإذا كانت طلقة واحدة من الرصاص كافية في ازهاق نفس الإنسان فمن العبث أن تطلق عليه قنبلة ذات عيار ضخم بواضح الضرورة؛ وإذا كان ما يرويه

(١) التاج للاصول: ج ٥ ص ٤٥١.

(٢) التاج للاصول: ج ٥ ص ٤٥٠.

(٣) التاج: ج ٥ ص ٤٥١.

(٤) التاج: ج ٥ ص ٤٥١.

النعمان بن بشير عن النبي قال ان أهون أهل النار عذاباً من له نعلان وشراكان من نار يغلى منهما دماغه كما يغلي المرجل ما يرى ان أحداً أشد منه عذاباً وانّه لأهونهم عذاباً (١). حقاً فالزائد على هذا اللون من التعذيب لا مساغ له من الحكمة والمعذب نفسه ما يرى ان أحداً أشد منه عذاباً لجليل ما وقع عليه من العذاب وعظيم ما يتقلب فيه من الألم؛ وبمثل هذا التعذيب يجازي الله سبحانه خدمات أبي طالب في الإسلام التي قرأت عنها آنفاً فقد روى البخاري (٢) عن العباس بن عبد المطلب انّه قال للنبي ما أغنيت عن عمك فوالله كان يحوطك ويغضب لك قال هو في ضحضاح من نار ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل.

وفي رواية أُخرى في هذا الباب والصفحة نفسها في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منه دماغه. وفي ثالثة: تغلي منه ام دماغه.

وفي التاج للاصول (٣) عن ابن عباس ان رسول الله قال: أهون أهل النار عذاباً أبو طالب وهو منتعل بنعلين يغلي منهما دماغه، رواه مسلم والامام أحمد؛ فجزاء النبي لهذا الإنسان الذي أحرز وجوده ودينه ودعوته ومكنه في الأرض وحفظ دمه وكلما يتصل به وكلف نفسه من المشاق في سبيله ما لم يتكفله صاحب الغرض لنفسه انّه أغرقه في ماء لا يزيد عمقه على خمسة أمتار ولم يغرقه في المحيط الاطلسي مثلاً، فإذا كان نعلا أبي طالب يغليان دماغه كما يغلي المرجل على النار فأي عذاب تخلف عنه بعد أن استغرقه العذاب وما يرى ان أحداً أشد منه عذاباً.

---

(١) التاج: ج ٥ ص ٤٥٦.

(٢) صحيح البخاري: ج ٢ ص ٢٠٩ باب قصة أبي طالب.

(٣) ج ٥ ص ٤٥٧.

وما فضل محمّد أو رب محمّد عليه ؛ تعست العصبية السنية إلى أين وصلت بأصحابها ؛ ويحكمون لأبي سفيان بكل ما للصحابي من فضل ويعتبرون الصحابي وأيّاً كان من أفضل الناس وامّا الجنة فهي تراثه من أبيه غير منازع عليها هذا مع ما يروون في حقه انّه كان من المؤلفة قلوبهم وانّه كان رأس المشركين وانّه لما رأى الناس يطؤون عقب رسول الله حسده فقال في نفسه لو عاودت الجمع لهذا الرجل فضرب رسول الله في صدره ثمّ قال إذاً يخزيك الله [١] فإن يكن في الدنيا كيل جزاف وقول بالتشهي الفارغ فهو هذا الذي قرأته عنهم في حق الرجلين اللذين ما قامت للاسلام قائمة على إطلاق هذا القول بشهادة كل من كتب في السيرة من أي أفراد الناس كان إلّا بتضحيات أولهما بمفرده ؛ وما تعقم كثير من جريانه وانهدم العظيم الشامخ من أركانهِ إلّا بخبث ثانيهما وتأليبه وتعصبه للكفر تعصباً ما رؤى على انسان مثله ولم يخضع إلّا عام الفتح بقهر طبيعة الوضع له أوّلاً وبالتأليف ثانياً ـ اللهم غفرانك من التعصب الممقوت ـ ولهذا البحث بقية تأتي في مبحث الامامة ان شاء الله .

*** عود على بدء ***

نعم لا شبهة ان أبا طالب على طول الخط من مشيه الدفاعي عن محمّد ودعوته بل واتباعه بما مر عليك طرف منه لم يحفظ لنا التاريخ عنه انّه ظهر بمراسم المسلمين يومذاك من صلاة أو تلاوة قرآن كما لا ريب ان عدم تظاهره بمثل هذه المراسم إنّما كان منه ليحفظ به موقفه من قريش في الدفاع عن محمّد بل في الدفاع عن كل بني هاشم وان قريشاً إذا وجدت منه ما تجد من عمار

---

(١) انظر حد الأقل الاصابة في ترجمة صخر بن حرب.

وعلي ابنه ونظيريهما لسحقوه بكلاكلهم ولعدوا وقوفه دون ابن أخيه وقوف ذي عقيدة ينافح عن عقيدته لا حافظاً لابن أخيه ودافعاً عنه فقط ولا شك ان رعايتهم له مع احرازهم لاتحاده معهم في العقيدة وإنّما يكافحهم عن نفس ابن أخيه وحفظ مصونيته لا تبقى في قلوبهم ولا في أعينهم إذا عرفوه المسلم الصميم المنابذ لآلهتهم قلباً وقالباً المنحاز عن جامعتهم ظاهراً وباطناً ديناً ودنيا وهذا أمر من الوضوح بمكان ولذلك دعته حنكته وعقله التجربي إلى أن لا يكون على حالة يحرزون معها اليأس منه وسوء العقيدة به حتى يستطيع من هذا الطريق أن يرفه عن النبي وعن مجاري دعوته ليتهيأ له ما يريد كما لا ريب ان تكليفه مع هذه الاقترانات هو ما اختار لنفسه من تستر بالعقيدة وتقية في المراحل العملية وقد أدرك ابن كثير هذا السر في تستر أبي طالب وان لم يعرفه فيه عن تقية كما نراه نحن فقال إذ لو كان أسلم أبو طالب لما كان له عند مشركي قريش وجاهة ولا كلمة ولا كانوا يهابونه ويحترمونه ولاجترأوا عليه ولمدوا أيديهم وألسنتهم بالسوء إليه ـ اهـ ـ ولهذا الداعي التستري والتقية التي يراها لازمة في مجراه ذاك كما يراها له كل عاقل كيس فطن تراه يقول في بعض أشعاره :

فوالله لولا ان اجيء بسبة　　تجر على أشياخنا في المحافل
لكنا اتبعناه على كل حالة　　من الدهر جداً غير قول التهازل

ثمّ بلا فاصلة يعقب ذاك بقوله :

لقد علموا ان ابننا لا مكذب　　لدينا ولا يعني بقول الأباطل

وبعده بفاصلة بيتين :

فأيده رب العباد بنصره　　وأظهر ديناً حقه غير باطل

فيجمع بين حفظه لظاهره مع قومه وابرازه لعقيدته في ابن أخيه وانّه غير مكذب عنده وان رب العباد يؤيده بنصره ويظهر دينه الحق المنزه عن شوائب الباطل ؛ ونظير ما سبق أيضاً قوله :

ودعوتني وزعمت انك ناصحي ولقد صدقت وقبل كنت أمينا
وعرضت ديناً قد علمت بأنّه من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري سبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

ويعترف أبو طالب بأنّ محمّداً في دعوته اياه ناصح له صادق فيما يقول له أمين عليه وان دينه الذي عرضه من خير أديان البرية على الإطلاق ولا يقول هذا القول طبعاً إلّا من هو متأكد من حقيقته مصدق به بالضرورة وإلّا لما قال الأقل منه ولكن أتبعه بما يحفظ به ظاهره مع قومه فقال :

لولا الملامة أو حذاري سبة لوجدتني سمحاً بذاك مبينا

أعلن به كما أعلن سائر المسلمين وتظاهر به كما يتظاهرون ولكن الفرق بيني وبينهم انهم باسلامهم ما استطاعوا أن يصونوا أنفسهم من كفار قريش وحتى من جهة التظاهر بالاسلام في بعض الأحيان فكيف يستطيعون حماية دينهم ونبيهم وأنا بتستري استطعت أن أحفظ محمّداً الذي هو هم قريش وغمها وهدفها الوحيد الذي لا يريدون ان تمكنوا منه أحداً غيره كائناً من كان واستطعت أن ابقيه مطلق السراح في تبليغه الدعوة ونشره دين الإسلام ولولا ذاك لتلاشيت أنا وهو جميعاً حيث لا نتيجة ولا محصل .

قال ابن واضح في تاريخه [١]: وتوفي أبو طالب بعد خديجة بثلاثة أيّام وله ست وثمانون سنة وقيل تسعون سنة ولما قيل لرسول الله ان أبا طالب قد مات عظم ذلك في قلبه واشتد له جزعه ثمّ دخل فمسح جبينه الأيمن أربع مرات وجبينه الايسر ثلاث مرات ثمّ قال: يا عم ربيت صغيراً وكفلت يتيماً ونصرت كبيراً فجزاك الله عني خيرا ومشى بين يدي سريره وجعل يعرضه ويقول وصلتك رحم وجزيت خيرا وقال اجتمعت على هذه الأُمّة في هذه الأيّام مصيبتان لا أدري بأيهما أنا أشد جزعاً ـ يعني مصيبة خديجة وأبي طالب ـ.

قال ابن كثير في تاريخه [٢]: قال ابن اسحاق: ولما اشتكى أبو طالب وبلغ قريشاً ثقله قالت قريش بعضها لبعض ان حمزة وعمر قد أسلما وقد فشا أمر محمّد في قبائل قريش كلها فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا فانا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا، قال ابن اسحاق وحدثني العباس بن عبد الله بن معبد عن بعض اهله عن ابن عباس قال: لما مشوا إلى أبي طالب وكلموه وهم اشراف قومه عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وأبو جهل بن هشام وامية بن خلف وأبو سفيان بن حرب في رجال من اشرافهم فقالوا يا أبا طالب انك منا حيث قد علمت وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه فخذ لنا منه وخذ له منا ليكف عنا ولنكف عنه وليدعنا وديننا ولندعه ودينه فبعث إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخي هؤلاء اشراف قومك قد اجتمعوا اليك ليعطوك وليأخذوا منك قال فقال رسول الله: يا عم كلمة واحدة تعطونها تملكون بها العرب وتدين لكن بها العجم فقال أبو جهل نعم وأبيك

---

(١) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٦.

(٢) البداية والنهاية: ج ٣ ص ١٢٣.

وعشر كلمات قال تقولون لا اله إلّا الله وتخلعون ما تعبدون مـن دونـه فـصفقوا بأيديهم ثمّ قالوا يا محمّد أتريد أن تجعل الآلة إلهاً واحداً ان أمرك لعجب قال ثمّ قال بعضهم لبعض انّه والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مـما تـريدون فـانطلقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ثمّ تفرقوا قـال فـقال أبـو طالب والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً قال فطمع رسول الله فيه فـجعل يقول له أي عم فأنت فقلها استحل لك بها الشفاعة يوم القيامة فلما رأى حرص رسول الله قال يا ابن أخي والله لولا مخافة السبة عليك وعلى بني أبيك من بعدي وان تظن قريش اني إنّما قلتها جزعاً من الموت لقلتها لا أقولها إلّا لأسرك بها قال فلما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفتيه فأصغى إليه باذنه فقال يا ابن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته أن يقولها قال فقال رسول الله لم أسمع.

وقد ذكر ابن هشام [١]: هذا الحديث بعينه وهو وإن كان عن ابن اسحاق أيضاً إلّا انّه لم يثبته في كتابه إلّا لاختياره له والاختيار في نفسه طريق آخر للروايـة لأنّه لو لم يختره لما ذكره بالبداهة.

وقد قال ابن كثير عقيب ما ذكره من حديث ابن اسحاق ليس في هذا الحديث حجة على اسلام أبي طالب لأنّ راويه متفرد به وروايات أهل السنة كلها عـلى خلافه وقد فات ابن كثير ان أبا بكر الخليفة هو بنفسه المـؤسس لقـاعدة نـحن معاشر الأنبياء لا نورث وهو متفرد به على ان عمومات الكتاب وصريح ظواهره مكذبة له فلم انجرفت ابناء السنة ورائه وتركت كتاب الله ورائها ظهرياً عـلى ان اسلام أبي طالب ليس بالأمر العجيب حتى يحتاج اثباته إلى تواتـر النـقول ولا

(١) السيرة الهشامية: ج ٢ ص ٢٦ و ٢٧ من طبع محمّد محيي الدين.

يكتفى فيه بالرواية الواحدة على كثير ما يعضدها من نفس سيرة أبي طالب مع النبي ودفاعه عنه واشعاره في حقه وحق دعوته ودينه ونفس قوله في حديث ابن اسحاق هذا: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شططاً: هو شهادة صريحة بانعقاد قلبه على حقيقة الإسلام ولو كان أبو طالب مثل القوم الذين حضروا عنده وكلمهم محمّد فلم يرتضوا مقالته وتفرقوا عنه مغضبين لقال له كما قالوا له وهذا شيء لا يكاد يخفى على الغليظ القلب الراكد الحاسة انصافاً ولا أراني في حاجة إلى جر البحث في هذا الموضوع لأطول من هذه المسافة التي قطعتها بمباحثي السالفة وببعضها لأهل الرشد كفاية وامّا لمتعصب فلو جعلت الشمس في يمينه والقمر في شماله لأبى التصديق بهما ولكن مع ذلك للحجة حظها من البيان وهي التي أهابت بنا إلى أن نواصل البحث في هذه السلسة أمام متشدقة المنحرفين عن الحق وأهله.

❊ ❊ ❊

دواعي الهجرة إلى الحبشة

لا شبهة ان الارادة المطمئنة في النفس لها فعل قوي في توجيه البدن إلى جهة ما تعلقت به وكلما ازدادت رسوخاً في النفس ازدادت وطئتها على البدن فهي تبعثه إلى تحقيق ما تعلقت به بعثاً ربما أوهاه واوهنه ومن هذه الرغبات الملحة كثيراً ما نجد البدن يصير ضحية لمفعولها القوي ومن هنا كانت العقائد الراسخة ذات توجيه مهم لعالم النفوس والأبدان وهي التي أهابت بالمجتمعات من قديم وحديث إلى أن تولد الخصومة القائمة على ساق بين فريق وفريق إذا تعاكست في مبدأ وروية فترى القوم من الفريقين ملتذاً بما وفق له من تحقيق ارادته بظهور وأصحاب والضعيف مغبوناً آسفاً معذباً طوال الأيّام وربما شان به ضعفه وحفز به استنكافه إلى أن يتحمل المتاعب والصعوبات المجهدة في طريق فراره من نقطة الضعف إلى نقطة تخف عليه الوطأة فيها وهذا التصوير الذهني له محققات كثيرة في الخارج من كافة طوائف بني الإنسان في المجتمعات وفي الأفراد أيضاً وسرد الحوادث التي قهرت المغلوب في قوته إلى الفرار بمنويات نفسه مما يحتاج إلى وضع كتاب بخصوصه ولكنا نذكر من ذلك حديث الهجرة بالعقيدة والفرار بالدين فإنّه من أشرف الانانيات الروحية.

ألح مشركوا قريش بالأذية بعدما تظاهر النبي بالدعوة إلى عبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام والأوثان وأخذوا يعملون قواهم بجد وتنفيذ فيمن أسلم لله واتبع محمّداً ﷺ فاصطبر المسلمون لهذه المعاناة ولكنها حرمتهم لذة التمتع بمزايا هذا الدين الجديد فما كانوا يستطيعون بروزاً بأنفسهم ولا اصحاراً بعقائدهم فضاقت روحياتهم التي فيهم ذرعاً بهم فوجد لهم النبي ﷺ مظنة فكر صائب وهي الهجرة إلى النجاشي ملك الحبشة يومئذ وسلطانها العادل فيما يعرف

له لكيما يتفرغوا لدينهم من ناحية ومن أذية مشركيي قريش لهم من ناحية ثانية إلى أن يفتح الله لهم من مشركي الجزيرة فتحاً يؤمن لهم حريتهم في العقيدة ومصونيتهم من كفار قريش وهي فكرة حسنة صادفت في الخارج فراغاً واسعاً من التحقق بالشرح الذي نمليه ذيلاً.

قال ابن اسحاق: ثمّ انهم عدوا على من أسلم واتبع رسول الله من أصحابه فوثبت كل قبيلة على من فيها من المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش وبرمضاء مكة إذا اشتد الحر؛ من استضعفوه منهم يفتنونهم عن دينهم فمنهم من يفتن من شدة البلاء الذي يصيبهم ومنهم من يصلب لهم ويعصمه الله منهم فكان بلال مولى أبي بكر لبعض بن جمح مولداً من مولديهم وهو بلال بن رباح واسم امه حمامة وكان صادق الاسفم طاهر القلب وكان امية بن خلف يخرجه إذا حميت الظهيرة ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره.

وقال ابن اسحاق أيضاً: وكانت بنو مخزوم يخرجون بعمار بن ياسر وبأبيه وامه وكانوا أهل بيت اسلام إذا حميت الظهيرة يعذبونهم برمضاء مكة فيمر بهم رسول الله فيقول فيما بلغني: صبراً آل ياسر موعدكم الجنة.

وروى البيهقي عن جابر ان رسول الله مرّ بعمار وأهله وهم يعذبونهم فقال: أبشروا آل عمار وآل ياسر فإنّ موعدكم الجنة فاما أُمّ فيقتلونها فتأبى إلّا الإسلام.

وقال أحمد بن حنبل: أوّل شهيد كان في أوّل الإسلام استشهد ام عمار سمية طعنها أبو جهل بحربة في قلبها.

وعن سعيد بن جبير قال: قلت لعبد الله بن عباس أكان المشركون يبلغون من أصحاب رسول الله من العذاب ما يعذرون به في ترك دينهم، قال: نعم والله ان كانوا ليضربون أحدهم ويجيعونه ويعطشونه حتى ما يقدر أن يستوي جالساً من

شدة الضر الذي به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة [١].

وذكر ابن واضح [٢] قال: فكان ممن يعذب في الله عمار بن ياسر وياسر ابوه وسمية امه حتى قتل أبو جهل سمية طعنها في قلبها فماتت فكانت أوّل شهيدة في الإسلام وخباب بن الأرت وصهيب بن سنان وأبو فكيهة الأزدي وعامر بن فهيرة وبلال بن رباح وقال خباب بن الأرت يا رسول الله ادع لنا قال انكم لتعجلون لقد كان الرجل ممن كان قبلكم يمشط بامشاط الحديد ويشق بالمنشار فلا يرده ذلك عن دينه والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله والذئب على عنزه.

واشتد على القوم العذاب ونالهم منه أمر عظيم فرجع عن الإسلام خمسة نفر منهم أبو قيس بن الوليد بن المغيرة وأبو قيس بن الفاكه بن المغيرة فروى ان فيهم نزلت هذه الآية: ﴿ **الذين تتوفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم** ﴾ إلى آخير الآية.

وقال ابن الأثير في تاريخه [٣] عند ذكره لتعذيب المستضعفين من المسلمين: هم الذين سبقوا إلى الإسلام ولا عشائر لهم تمنعهم ولا قوة لهم يمنعون بها فاما من كانت له عشيرة تمنعه فلم يصل الكفار إليه.

أقول: فيه نظر واضح وهل الذين هاجروا إلى الحبشة إلّا أصحاب عشائر في أغلبهم وما دعاهم إلى الهجرة إلّا الاضطرار وعدم التمكن من الاقامة؛ قال: فلما رأوا امتناع من له عشيرة وثبت كل قبيلة على من فيها من مستضعفي المسلمين فجعلوا يحبسونهم ويعذبونهم بالضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة والنار

(١) البداية والنهاية لابن كثير: ج ٣ ص ٥٧ و ٥٨ و ٥٩.

(٢) تاريخ اليعقوبي: ج ٢ ص ٢٠.

(٣) ج ٢ ص ٤٥ وما بعدها.

ليفتنوهم عن دينهم فمنهم من يفتتن من شدة البلاء وقلبه مطمئن بالايمان ومنهم من تصلب في دينه وعصمه الله منهم؛ فمنهم بلال بن رباح وكان أبوه من سبي الحبشة وهو من مولدي السراءة وصار لأُمية بن خلف الجمحي فكان إذا حميت الشمس وقت الظهيرة يلقيه في الرمضاء على وجهه وظهره ثمّ يأمر بالصخرة العظيمة فتلقى على صدره ويقول لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى.

ومنهم عمار بن ياسر أبو اليقظان اسلم هو وأبوه قديماً وكان ياسر حليفاً لبني مخزوم فكانوا يخرجون عماراً وأباه وامه إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء يعذبونهم بحر الرمضاء فمر بهم النبي فقال: صبراً آل ياسر فإنّ موعدكم الجنة فمات ياسر في العذاب واغلظت امرأته سمية القول لأبي جهل فطعنها في قلبها بحربة في يديه فماتت وهي أوّل شهيد في الإسلام وشددوا العذاب على عمار بالحر تارة وبوضع الصخر الأحمر على صدره أُخرى وبالتغريق ثالثة فقالوا لا نتركك حتى تسب محمّداً وتقول في اللات والعزى خيراً ففعل فتركوه فأتى النبي يبكي فقال: ما وراءك قال: شر يا رسول الله كان الأمر كذا وكذا قال فكيف تجد قلبك قال أجده مطمئناً بالايمان فقال يا عمار ان عادوا فعد فأنزل الله تعالى: ﴿ **إلّا من أُكره وقلبه مطمئن بالايمان** ﴾. ومنهم خباب بن الارت كان ابوه سوادياً من كسكر فسباه قوم من ربيعة وحملوه إلى مكة وباعوه من سباع بن عبد العزى الخزاعي حليف بني زهرة وكان اسلامه قديماً فأخذه الكفار وعذبوه عذاباً شديداً فكانوا يعرونه ويلصقون ظهره بالرمضاء ثمّ بالرضف وهي الحجارة المحماة بالنار فلم يجبهم إلى شيء مما أرادوا منه.

ومنهم صهيب بن سنان الرومي ولم يكن رومياً وإنّما نسب اليهم لأنّهم سبوه وباعوه وهو من النمر بن قاسط وكان ممن يعذب في الله فعذب عذاباً شديداً.

وأمّا عامر بن فهيرة فهو مولى الطفيل بن عبد الله الأزدي وكان من المستضعفين يعذب في الله فلم يرجع عن دينه . ومنهم أبو فكيهة واسمه افلح وقيل يسار وكان عبداً لصفوان بن امية بن خلف اسلم مع بلال فأخذه امية بن خلف وربط في رجله حبلاً وأمر به فجر ثمّ القاه في الرمضاء . ومنهم لبينة جارية بني مؤمل بن حبيب بن عدي أسلمت قبل اسلام عمر ابن الخطاب وكان عمر يعذبها حتى تفتن ثمّ يدعها ويقول اني لم ادعك إلّا سآمة . ومنهم زنيرة وكانت لبني عدي وكان عمر يعذبها وقيل كانت لبني مخزوم وكان أبو جهل يعذبها حتى عميت ؛ وذكر غير اولئك حتى قال : وكان أبو جهل يأتي الرجل الشريف ويقول له أتترك دينك ودين أبيك وهو خير منك ويقبح رأيه وفعله ويسفه حلمه ويضع شرفه وإن كان تاجراً يقول ستكسد تجارتك ويهلك مالك وإن كان ضعيفاً أغرى به حتى يعذب .

ذكر الهجرة الأُولى إلى أرض الحبشة :

قال ابن هشام في سيرته [١] : حدثنا زياد بن عبد الله البكائي عن محمّد بن اسحاق قال : فلما رأى رسول الله ما يصيب أصحابه من البلاء وما هو فيه من العافية لمكانه من الله ومن عمه أبي طالب وانّه لا يقدر على أن يمنعهم مما هم فيه من البلاء قال لهم لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإنّ بها ملكاً لا يظلم عنه أحد وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه فخرج عند ذلك المسلمون من أصحاب رسول الله إلى أرض الحبشة مخافة الفتنة وفراراً إلى الله بدينهم فكانت أوّل هجرة في الإسلام وكان أوّل من خرج من المسلمين من بني امية بن عبد شمس عثمان بن عفان ومعه امرأته رقية بنت رسول الله ؛ ومن بني

---

(١) ج ١ ص ٣٤٣ وما بعدها.

عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة معه امرأته ؛ ومن بني أسد بن عبد العزى الزبير بن العوام ؛ ومن بني عبد الدار بن قصي مصعب بن عـمير ؛ ومن بني زهرة بن كلاب عبد الرحمن بن عوف ؛ ومن بني مخزوم أبو سلمة بـن عبد الأسد معه امرأته ام سلمة ؛ ومن بني جمح عثمان بن مظعون ؛ ومن بني عدي بن كعب عامر بن ربيعة ؛ ومن بني عامر بن لؤي أبو سبرة بن أبي رهم ويقال بل أبو حاطب بن عمرو وانّه هو كان أوّل من قدمها ؛ ومن بني الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء فكان هؤلاء العشرة أوّل من خرج من المسلمين إلى أرض الحبشة فيما بلغني قال ابن هشام وكان عليهم عثمان بن مظعون فيما ذكر لي بعض أهل العلم ؛ قال ابن اسحاق ثمّ خرج جعفر بن أبي طالب وتتابع المسلمون حـتى اجـتمعوا بأرض الحبشة فكانوا بها منهم من خرج بأهله ومنهم من خرج بنفسه ؛ ثمّ أفاض اسحاق في اسماء الخارجين إلى الحبشة مفصلاً حتى قال في نهاية مطافه فكان جميع من لحق بأرض الحبشة وهاجر اليها من المسلمين سوى ابـنائهم الذيـن خرجوا بهم معهم صغاراً وولدوا بها ثلاثة وثمانين رجلاً إن كان عمار بـن يـاسر فيهم وهو يشك فيه .

وقال الطبري في تاريخه [1]: من بعض حـديثه خـرج الذيـن هـاجروا إلى الهجرة الأُولى متسللين سراً وكانوا أحد عشر رجلاً وأربع نسوة حتى انتهوا إلى الشعيبة منهم الراكب والماشي ووفق الله للمسلمين ساعة جاؤوا سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار وكان مخرجـهم فـي رجب فـي السنة الخامسة من حين نبيء رسول الله وخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا البحر حيث ركبوا فلم يدركوا منهم أحداً قالوا وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها

---

(١) ج ٢ ص ٢٢١.

خير جار آمنّا على ديننا وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه.

قال ابن اسحاق [١]: حدثني محمّد بن مسلم الزهري عن أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي عن ام سلمة بنت أبي امية بن المغيرة (وكانت مع زوجها أبي سلمة من مهاجرة الحبشة كما أسلفناه) قال قالت لما نزلنا ارض الحبشة جاورنا بها خير جار النجاشي آمنّا على ديننا وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي فينا رجلين منهم جليدين وان يهدوا للنجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة وكان من أعجب ما يأتيه منها الأدم فجمعوا له أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقته بطريقاً إلّا أهدوا له هدية ثمّ بعثوا بذلك عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص فأمروهما بأمرهم وقالوا لهما ادفعا إلى كل بطريق هديته قبل أن تكلما النجاشي فيهم ثمّ قدما إلى النجاشي هداياه ثمّ سلاه أن يسلمهم اليكما قبل أن يكلمهم قالت فخرجا حتى قدما على النجاشي ونحن عنده بخير دار عند خير جار فلم يبق من بطارقته بطريق إلّا دفعا إليه هديته قبل أن يكلما النجاشي وقالا لكل بطريق منهم انّه قد ضوى إلى بلد الملك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينكم وجاءوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشراف قومهم ليردهم اليهم فإذا كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم الينا ولا يكلمهم فإنّ قومهم اعلا بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فقالوا لهما نعم ثمّ انهما قدما هداياهما إلى النجاشي فقبلها منهما ثمّ كلماه فقالا له أيّها الملك انّه قد ضوى إلى بلدك منا غلمان سفهاء فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك وجاءوا بدين ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا أنت وقد بعثنا اليك فيهم أشراف

---

(١) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٣٥٧ وما بعدها طبع محمّد محيي الدين.

قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرهم لتردهم عليهم فهم أعلا بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم وعاتبوهم فيه.

قالت: ولم يكن شيء أبغض إلى عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص من أن يسمع كلامهم النجاشي، قالت: فقالت بطارقته حوله صدقاً أيّها الملك قومهم أعلا بهم عيناً وأعلم بما عابوا عليهم فأسلمهم اليهما فليرداهم إلى بلادهم وقومهم، قالت: فغضب النجاشي ثمّ قال ـ لاها الله ـ إذاً لا أُسلمهم اليهما ولا يكاد قوم جاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سوأي حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان في أمرهم فإن كانوا كما يقولان أسلمتهم اليهما ورددتهم إلى قومهم وان كانوا على غير ذلك منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني.

قالت: ثمّ أرسل إلى أصحاب رسول الله فدعاهم فلما جائهم رسوله اجتمعوا ثمّ قال بعضهم لبعض ما تقولون للرجل إذا جئتموه قالوا نقول والله ما علمنا وما أمرنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن فلما جاءوا وقد دعا النجاشي أساقفته فنشروا مصاحفهم حوله سألهم فقال لهم: ما هذا الدين الذي قد فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا ديني ولا في دين أحد من هذه الملل، قالت: فكان الذي كلمه جعفر بن أبي طالب فقال له: أيّها الملك كنا قوماً أهل جاهلية نعبد الأصنام ونأكل الميتة ونأتي الفواحش ونقطع الأرحام ونسيء الجوار ويأكل القوي منا الضعيف فكنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولاً منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم وحسن الجوار والكف عن المحارم والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنة وأمرنا أن نعبد الله وحده لا نشرك به شيئاً وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام، قالت: فعدد عليه امور الإسلام فصدقناه وآمنا به واتبعناه على

ما جاء به من الله فعبدنا الله وحده فلم نشرك به شيئاً وحرمنا ما حرم علينا وأحللنا ما أحل لنا فعدا علينا قومنا فعذبونا وفتنونا عن ديننا ليردونا إلى عبادة الأوثان من عبادة الله تعالى وان نستحل ما كنا نستحل من الخبائث فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا وحالوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك أيّها الملك.

قالت: فقال له النجاشي: هل معك مما جاء به عن الله شيء، قالت: فقال له جعفر: نعم فقال له النجاشي: فاقرأه علي قالت فقرأ عليه صدراً من (كهيعص) قالت فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته وبكت أساقفته حتى اخضلوا مصاحفهم حين سمعوا ما تلا عليهم ثمّ قال النجاشي: ان هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة انطلقا فلا والله لا اسلمهم اليكما ولا يكادون.

قالت: فلما خرجا من عنده قال عمرو بن العاص والله لآتينه غداً عنهم بما استأصل به خضرائهم قالت: فقال له عبد الله بن أبي ربيعة وكان أتقى الرجلين فينا لا تفعل فإنّ لهم أرحاماً وان كانوا قد خالفونا قال والله لاخبرنه انهم يزعمون ان عيسى بن مريم عبد، قالت: ثمّ غدا عليه من الغد فقال: أيّها الملك انهم يقولون في عيسى بن مريم قولاً عظيماً فأرسل اليهم فسلهم عما يقولون فيه، قالت: فأرسل اليهم ليسألهم عنه قالت: ولم ينزل بنا مثلها قط فاجتمع القوم ثمّ قال بعضهم لبعض ماذا تقولون في عيسى ابن مريم إذا سألكم عنه، قالوا: نقول والله ما قال الله وما جائنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن، قالت: فلما دخلوا عليه قال لهم: ماذا تقولون في عيسى بن مريم، قالت فقال جعفر بن أبي طالب: نقول فيه الذي جائنا به نبينا هو عبد الله ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم العذراء البتول، قالت فضرب النجاشي بيده إلى الأرض فأخذ منها عوداً ثمّ قال والله ما عدا عيسى بن مريم ما قلت هذا العود قالت فتناخرت بطارقته حوله حين قال ما

قال فقال وان نخرتم والله: اذهبوا فأنتم شيوم بأرضي ـ آمنون ـ ردوا عليهما هداياهما فلا حاجة لي بها، قالت فخرجا من عنده مقبوحين مردوداً عليهما ما جاءا به وأقمنا عنده بخير دار مع خير جار.

أقول: من هدف البحث في هذا الكتاب ان نتناول فيه المطالب العلمية لأنّها المنشود الأعظم من قرائتنا للسيرة النبوية وبما ان حديث هجرة الحبشة تناول الإشارة إلى قرائة جعفر بن أبي طالب عليه السلام صدراً من سورة (كهيعص) أمام النجاشي وأساقفته وان الروعة الربانية في كلامه تعالى قد اختطفت قلوبهم فتأثروا لها منكسرين بالبكاء وجدنا من اللازم أن نبحث عن صدر من هذه السورة لنرى موضع الاعجاب فيها ودواعي التأثير منها وإن كان كلام الله بأسره معجباً مؤثراً ولكن الحديث الوان والتمتع بالقول الجزل ذو صنوف، قال سبحانه وتعالى:

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ **كهيعص** ﴾ هذا الذي نتلوه عليك في صدر هذه السورة ﴿ **ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا** ﴾ وزكريا نبي من أنبياء بني اسرائيل من أولاد هارون بن عمران أخي موسى كليم الله ﴿ **إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ نِدَاءً خَفِيّاً** ﴾ أي ما هي الرحمة التي خص بها الله سبحانه عبده زكريا بما تستوجب ذكر الذاكر لها فقال ان هذا العبد المطيع لله المتفاني في عبوديته الذي لا يعرف الاتكال إلّا به ولا التوجه إلّا إليه وانّه هو موضع انابة العبد ومرجع كل كائن توجه إلى ربه في أمل حار حصل في قلبه فنادى ربه نداءً بعيداً عن السمعة والرياء فـ﴿ **قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي** ﴾ أي ضعف ودق على انّه من الأُصول القويمة في بنية الإنسان لا يتداعى إلّا بعد أن تفعل به الطبيعة مفعولها القوي ﴿ **وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ** ﴾ أي بحيث ترى له ضوءً ﴿ **شَيْباً** ﴾ أي لكثرة ما فشى فيه الشيب بحيث استغرق أبيض الشعر في الرأس

أسوده وهذا من أبلغ التصويرات لكبر السن والطعن في الشيخوخة ﴿ وَ ﴾ اني يا رب على طول مسيري في الحياة تحت ظل عنايتك ﴿ لَمْ أَكُن بِدُعَائِكَ ﴾ أي بدعائي اياك فيما ينوبني ﴿ رَبِّ شَقِيّاً ﴾ أي محروماً من لطفك وتحفيك بل منذ قديم صرحت لي التجارب المتكررة باستجابتك لهذا العبد المسكين لك اللاجىء اليك ﴿ وَإِنِّي ﴾ يا ربّ ﴿ خِفْتُ ٱلْمَوَالِيَ ﴾ وهم كلالة الإنسان أو عمومته أو أبناء عمه أو مطلق القريب الوارث ولابد أن يكون لخوفه من هؤلاء منشأ صحيح وهو كونهم أشراراً بعيدين في الروية عنه ديناً وهدياً وخضوعاً لله ﴿ مِن وَرَائِي ﴾ أي بعد موتي ﴿ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي ﴾ منذ تزوجتها ﴿ عَاقِراً ﴾ لا تلد ﴿ فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ وَلِيّاً ﴾ أي انساناً يلي اُموري من بعدي يكون لي أقرب من هؤلاء الأشرار الذين أخافهم على ما أترك ورائي وليس هذا بخلا من هذا العبد الصالح ولكن مزيد تمسك بالدين حتى لا تكون أمواله سبباً مقوياً للعمل بالباطل يأتيه هؤلاء الأشرار ويكون منهم فإنّه يعد محروميتهم منه من المواهب التي تساق له ويوفق لها لتعديهم على حرمات الله وهتكهم لنواميس دينه وهذا هو أهم اللواعج في قلب الإنسان الغيور ﴿ يَرِثُنِي ﴾ ما أترك من ورائي ﴿ وَيَرِثُ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ ﴾ أي يكون بقيتهم وعنوانهم الصالح في زمانه فإنّ الذكر الحسن للاُسرة إنّما يكون بأفرادها الصالحين على ممر الأيّام لا بصرف الذرية فكم تهافت بيت رفيع وأصبح محكوماً بالعدم لانعدام الرجال العاملين فيه فكلالة زكريا وعمومته وأبناؤهم من آل يعقوب انتساباً ولكن لا بقاء معهم ـ وهم أشرار ـ لعنوان آل يعقوب وهو عنوان النبوة والدين وتعظيم شعائره وتبليغ طريقته ﴿ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيّاً ﴾ أي انساناً ترضاه لدينه وهديه ولهذه الخصوصية طلبه من ربه وإلّا فهو لا يعدم الأقارب والأرحام وإن كان يعدم منهم دينهم وتقواهم بما دعاه إلى طلب وارث لا يكون من سنخهم بل حائداً عن طريقتهم بما يحله محل الرضا من خالقه

سبحانه .

﴿ يَا زَكَرِيَّا ﴾ لا تشق بدعائك ايانا هذه المرة كما لم تشق بدعائك فيما سلف لك منا ﴿ إِنَّا ﴾ قد استجبنا دعوتك وحققنا أملك وانّا ﴿ نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ ﴾ أي ولد ذكر وقد سميناه قبل اعطاءه الوجود في الخارج تشريفاً لك وله وانّ ﴿ ٱسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيّاً ﴾ تسمى بهذا الاسم أي نحن لم نسم أحداً به كما لم يتسم به الناس أنفسهم .

﴿ قَالَ ﴾ زكريا اصحاراً بعظمة ربه ولتحقيق اطمئنانه بما وعده به باريه ﴿ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِراً ﴾ من أوّل استعداد اترابها للولادة ﴿ وَقَدْ بَلَغْتُ ﴾ أنا ﴿ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيّاً ﴾ أي سناً سقطت عن القابلية النوعية فما بها تلقيح .

﴿ قَالَ ﴾ الله سبحانه : ﴿ كَذَٰلِكَ ﴾ أي كما وصفت لك من اعطائي اياك غلاماً اسمه يحيى وانّه لم يسبقه أحد بهذا الاسم ﴿ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ ﴾ أي سهل لا مؤونة فيه ﴿ وَ ﴾ها أنا ﴿ قَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ ﴾ أن تكون ﴿ وَلَمْ تَكُ ﴾ عند ذلك ﴿ شَيْئاً ﴾ بل كنت غريقاً في العدم فخلقتك وأهم منه خلقة أصلك وهو آدم حيث لم يكن في طريق خلقته فاعل يصدر منه الألقاح وقابل يقبل اللقاح وها أنت فاعل وامرئتك قابل وان كنتما في جانب عن السنن الغالبة والطرائق النوعية في التناسل .

﴿ قَالَ ﴾ زكريا ﴿ رَبِّ ٱجْعَل لِّي آيَةً ﴾ أي علامة استدل بها على حين تكون هذا الغلام مني ومن امرأتي ﴿ قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ﴾ عاجزاً عن مكالمتهم بحيث تريد النطق وتراه متعذراً عليك ﴿ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيّاً ﴾ أي يكون هذا الخرس منك وأنت سوى الآلة صحيح الوسائل ولكن هذا العارض وهو عجزك عن الكلام مع ارادتك له وصحة وسائلك التي كنت تستخدمها في سبيله معجزة منا وكرامة لك ؛ وان زكريا عليه السلام أفاض بخبره هذا إلى قومه وجعله علامة بينه وبينهم .

﴿ فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ ﴾ كعادته ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ ﴾ بالاشارة والايماء لامتناع النطق عليه عند ذاك لتحقق ما وعده به ربه ﴿ أَن سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً ﴾ كعادتكم في صلاة الفجر والعشاء معي أو سبحوا الله واشكروه على تحقيق هذه النعمة التي اوتيناها وهي تكون يحيى في رحم امه فلما أن نضج هذا الجنين في بطن امه ووضعته محتفى به من ربه وأعطاه الكمال الروحي قبل أن تسير به الطبيعة سيرها اللازم في النوع اعجازاً قال له ربه:

﴿ يَا يَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَابَ ﴾ أي التوراة فاشدد يدك عليه ﴿ بِقُوَّةٍ ﴾ علم وعمل وتبليغ ﴿ وَآتَيْنَاهُ ٱلْحُكْمَ ﴾ أي النبوة أو الحكمة والمعارف الربانية ﴿ صَبِيّاً ﴾ أي وليداً ناشئاً في السن كاملاً في العقل رشيداً في الفهم واجداً لما يجده أكابر الرشداء من العلم والمعرفة، وبلوغ الرشد على مجرى الطبيعة في النوع لابد منه في العموم إلّا من أراد الله به اعجازاً.

﴿ وَ ﴾ إنّما فعلنا به ما فعلنا من هذه الألطاف الزائدة ﴿ حَنَاناً مِن لَّدُنَّا ﴾ عليه ﴿ وَزَكَاةً ﴾ أي تزكية وتطهيراً وتشريفاً له ﴿ وَكَانَ ﴾ يحيى في مجاري دنياه وأيّامه ﴿ تَقِيّاً ﴾ أي خائفاً لله بحق الخوف.

﴿ وَبَرّاً بِوَالِدَيْهِ ﴾ مطيعاً لهما نازلاً عند رغبتهما ﴿ وَلَمْ يَكُن جَبَّاراً ﴾ متكبراً ولا ﴿ عَصِيّاً ﴾ منحرفاً.

﴿ وَسَلاَمٌ عَلَيْهِ ﴾ هذه تحية من الله سبحانه وبها يعرف قدره عند ربه وجلالة مكانه منه وقربه عنده ﴿ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيّاً ﴾ جعل الله سبحانه تحياته عليه مستغرقة لكافة آنات وجوده فيا له من شرف يغبط على القليل منه صاحبه وهكذا فليكن نيل الرغائب انصافاً.

﴿ وَاذْكُرْ ﴾ يا محمّد ﴿ فِي ٱلْكِتَابِ ﴾ الذي أنزلناه عليك حديث ﴿ مَرْيَمَ ﴾ ابنة عمران وما أجراه الله عليها من حوادث خارقة تدل على عظمة الله وبعيد قدرته

﴿ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَاناً شَرْقِيّاً ﴾ أي حين اختلت بنفسها في مكان بعيد عن أهلها وان كانت معهم في محيط واحد.

﴿ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَاباً ﴾ أي ضربت بينهم وبينها ساتراً يحجبها عن كل ناظر لحرصها على خلوتها بنفسها ﴿ فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا ﴾ في هذه العجالة ﴿ رُوحَنَا ﴾ أي أميننا الذي نسند إليه وظائفنا العالية وأوامرنا الراقية ﴿ فَتَمَثَّلَ لَهَا ﴾ وهي في تلك الخلوة وتمام الانبساط لنفسها ﴿ بَشَراً سَوِيّاً ﴾ أي بريئاً من كل عيب تاماً في شؤون خلقته فلما لمحته مريم في ساحتها حيث لا تظن دياراً يفاجئها وهي في ذلك المحل المصون من كل أحد وحتى من تطرق أهلها اليها...

﴿ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ ﴾ أي أعتصم ﴿ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّاً ﴾ أي تحترم الله فتخافه خصوصاً مع تذكيري اياك به...

فـ﴿ قَالَ ﴾ لها عندما اوجس الفزع فيها منه ﴿ إِنَّمَا أَنَا ﴾ لست بشراً ولم اتطلع عليك عورة ولا أقصد بك سوءً بل إنّما أنا ﴿ رَسُولُ رَبِّكِ ﴾ أمرني ﴿ لِأَهَبَ لَكِ غُلَاماً ﴾ تلدينه ﴿ زَكِيّاً ﴾ أي بريئاً من العيوب ولا شبهة ان هذه المقالة أفزعتها أكثر لأنّها لم تكن تعرف طريقاً للولادة من غير جهة تلقيح الذكر للأُنثى وهذا ما تستكبره حد الاستكبار وتخاف منه كل الخوف ولذلك...

﴿ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ ﴾ وكيف يتولد مني ﴿ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ ﴾ من طريق التزاوج المشروع ﴿ وَلَمْ أَكُ ﴾ فيما سبق لي ولا في الحال الذي أنا فيه ﴿ بَغِيّاً ﴾ أي امرأة فاجرة لا أتهيب من فعل غير المشروع...

﴿ قَالَ ﴾ لها ﴿ كَذَٰلِكِ ﴾ أي كما وصفت لك آنفاً ﴿ قَالَ رَبُّكِ هُوَ ﴾ أي ان اودع رحمك ما يكون منه غلام زكي من غير أن يباشرك أحد أصلاً ﴿ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَ ﴾ إنّما نفعل ذلك ﴿ لِنَجْعَلَهُ ﴾ أي نجعل ما يكون منك ﴿ آيَةً لِّلنَّاسِ ﴾ أي معجزة يتحققون بها وجود الله سبحانه وعظيم قدرته وانّه يبدع من غير الطرق الطبيعية ما

يعجز عنه السير الطبيعي نفسه ﴿ وَرَحْمَةً مِّنَّا ﴾ لك بأن تكوني مصدر معجزة عظيمة وأُم نبي كريم ورسول عام الدعوة وللناس أيضاً بايتاهم من ينقذهم من هوة الكفر والجهالة إلى مستوى الايمان والفضيلة ﴿ وَكَانَ ﴾ ما وصفته لك ﴿ أَمْراً مَقْضِيّاً ﴾ أي مفروغاً منه في تقدير الله وعلمه فلا مرد له ولا محيص عنه فنفخ جبرئيل في درعها نفخة...

﴿ فَحَمَلَتْهُ ﴾ أي فتركز في رحمها نشوء آدمي آناً وأحست به من نفسها سريعاً وضايقتها الظنون من وضعها الذي هي فيه ذرعاً ﴿ فَانتَبَذَتْ بِهِ مَكَاناً قَصِيّاً ﴾ من أهلها ومن الناس حذراً من وقوفهم على حالها واستنكارهم لأمرها...

﴿ فَأَجَاءَهَا ٱلْمَخَاضُ ﴾ امّا بلا فاصلة من حملها كما هو الظاهر من وصل الآيات بالفاء أو بتراخ ﴿ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ ﴾ أي جذع نخلة كان في المكان الذي انتبذت له متباعدة عن الناس ﴿ قَالَتْ ﴾ وهي في حالة الطلق ﴿ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا ﴾ الحادث الذي وقفت معه في مأزق حرج فما أدري ما أصنع وبأي عذر أعتذر ﴿ وَ ﴾ ياليتني ﴿ كُنتُ نَسْياً مَنْسِيّاً ﴾ أي انساناً لا يسأل عنه لحقارته من ناحية ولفقدانهِ للأهل والعصبة من ناحية ثانية ومن يكن بهذه الدرجة لا يحسب لنفسه حساباً من الحوادث الطارئة محسنة كانت له أم مسيئة وحق لمريم أن يبلغ بها جهد الحالة إلى أشد مما تمنت فإنّها لا تجد من وضعها الذي هي فيه أقل منفذ تنفذ منه إلى الراحة والقاء المسؤولية عن عاتقها وحاشا لله سبحانه أن يدعها في هذه الحيرة التي لم تعمد مريم إلى أي مقدمة من مقدماتها بل انق لها نفس حملها الذي وضعته ساعتها هذه...

﴿ فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا ﴾ قبل أن تقوم عنه وتلفه في خرقة كما تصنع الأُمهات بأولادها ﴿ أَلاَّ تَحْزَنِي ﴾ يا أُم مما حلّ بك وهدد حياتك وقضى على راحتك ﴿ قَدْ

جَعَلَ رَبُّكِ ﴾ تكريماً لك وتخفيفاً من خواطرك المجهدة وبرهاناً على نجابتك وحجة قاطعة على صونك وعفتك وترفيهاً عن بالك وتهيأة لما تحتاجينه عاجلاً ﴿ **تَحْتَكِ سَرِيّاً** ﴾ نهر ماء تشربين منه وتغتسلين فكان بابداع الله ماء يضطرب من تدافع جريانه بعد أن لم يكن أصلاً...

﴿ **وَ** ﴾ أيضاً ﴿ **هُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ** ﴾ التي آويت اليها عند ما ألجأك المخاض إلى التسند عليها ﴿ **تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنِيّاً** ﴾ بعدما كان جذعاً خاوياً لا رأس له ولا ورق ولا هو من مظان الاثمار أصلاً وهذا أيضاً آية تزيح عنك كثيراً من الهموم التي أقلقتك...

﴿ **فَكُلِي** ﴾ من الرطب الجني ﴿ **وَٱشْرَبِي** ﴾ من الماء الهني ﴿ **وَقَرِّي عَيْناً** ﴾ فلا تتلفتي من ههنا إلى ههنا خوفاً من أن يراك أحد فيفضحك فيما تحسبين؛ وانذري لله صوماً سكوتياً تفادياً من لزوم اجابتك للسائلين إذا سألوك عما أنت فيه واحالة للجواب على رضيعك الذي سينطقه الله اعجازاً ليبرأ ساحتك ويشهد لنفسه بلسان حاله ومقاله على ان الله خلق به معجزة للناس ليتوجهوا إلى ربهم ويزدادوا ايماناً به ويقبلوا من داعيته ما يوجههم إليه ﴿ **فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ ٱلْبَشَرِ أَحَداً فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَانِ صَوْماً** ﴾ سكوتياً ﴿ **فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيّاً** ﴾ فلا جواب لك أيّها السائل بعدما أخبرتك بنذري فلما اطمأنت من نجاح موقفها ومستقبل أمرها مع أهلها وقومها وانها سوف تحرز برائتها عند أوّل نقطة من الاعتراض...

﴿ **فَأَتَتْ بِهِ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُ** ﴾ فلما أن تبينوها وعرفوها مريم تلك البكر العذراء التي لم تأخذ عليها الاقترانات الخارجية أقل بادرة وأدنى مؤاخذة ﴿ **قَالُوا يَامَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ** ﴾ بما نراه من وضعك ﴿ **شَيْئاً فَرِيّاً** ﴾ يقود إلى التعجب وبخاصة إذا نسب اليك...

﴿ **يَاأُخْتَ هَارُونَ** ﴾ باعتبار انتسابها إلى هذا العنصر الطاهر بالقرابة النسبية

وهو هارون بن عمران أخو موسى ﴿ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ ﴾ ولم تأخذ عليه الأيّام أقل بادرة من هذا الجنس أو من غيره ﴿ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيّاً ﴾ حتى تكون لك بها أُسوة...

﴿ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ﴾ أي إلى محمولها الذي جاءت به تحمله وأفهمتهم باشاراتها انّ الذي يجيبهم ويدفع كل اشكال لهم وكل ريبة دخلت في أنفسهم هذا الطفل نفسه فكأنما استشعروا من أنفسهم انها مضافاً إلى ما جاءته من عمل سوء جعلتهم محل سخرية لها بأن يكلموا طفلاً ليس موضعاً للتكلم من جهة صغره جداً ﴿ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلْمَهْدِ صَبِيّاً ﴾ أي من هو شأنه أن يكون في مهد لشدة صغره فعندها تجلى اعجاز الله في هذا الرضيع فشرح لهم بلسان نفسه القاصر في غيره حقيقة أُمّه وبراءتها وان الله استخدمها لأن تكون من أطهر الظروف لحمل نبي من أعظم الأنبياء...

﴿ قَالَ إِنِّي عَبْدُ ٱللَّهِ ﴾ بالعبودية الخالصة لأنني مخلوق عاجز محتاج إلى فضله ومنه في كل آن من آنات حياتي وبهذا الوصف الزمهم أن يعتقدوا فيه انّه عبد الله لا انّه ابن له ولا جزء تركبت الهوية الربانية جلت عن كل عيب منه ومن غيره ﴿ آتَانِيَ ٱلْكِتَابَ ﴾ أي حكم لي بأن يؤتيني الكتاب وهو الانجيل لارشاد جيلي إلى ما هو صالحهم في التوجيه نحوه والدلالة إليه ﴿ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً ﴾ أي حكم لي بالنبوة أيضاً وانني أنا الذي اوجه الأُمّة نحو مصالحهم بدلالة الكتاب المذكور...

﴿ وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنتُ ﴾ أي قرين بركة على الدوام فوجودي دائماً يستفيض خيراً ﴿ وَأَوْصَانِي بِـ ﴾ اقامة ﴿ الصَّلاَةِ ﴾ لأنّها من أهم مظاهر العبودية لله ﴿ وَ ﴾ أداء ﴿ ٱلزَّكَاةِ ﴾ لأنّها طريق المواساة واعانة الضعفاء ﴿ مَادُمْتُ حَيّاً ﴾ أي طيلة ما أكون في نشأة التكليف...

﴿ وَ ﴾ جعلني بتوفيقه اياي ﴿ بَرّاً بِوَالِدَتِي ﴾ أحسن اليها جهد ما أستطيع جزءً

وفاقاً لتحملها جليل الصعوبات من أجلي في سبيل الله ﴿ وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً ﴾ أي مظهراً من مظاهر التعنت والتكبر ﴿ شَقِيّاً ﴾ أي محروماً بفعلي للشرور من كل سعادة...

﴿ وَٱلسَّلاَمُ ﴾ من الله ﴿ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً ﴾ تشريفاً لمقامي الصالح في ذات الله...

﴿ ذٰلِكَ ﴾ أي بالهوية التي شرحناها لك بدقائقها من كونه بشراً وان خلقته كانت على سبيل خرق العادة في توليد المثل وانّه عبد من عبيد الله ورسول إلى الناس يوجههم إلى الحق بتعاليمه التي أنزلها الله عليه وان أُمّه في غاية التصون والعفة وانّه مبارك من الله ومحبوب عنده ﴿ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴾ ويتنازعون فبعض يقول انّه الرب وآخرون انّه ابنه وثالث انّه جزء تركيبي لهوية المعبود وكل هذه الآراء كما استبان لك خطأ وغلط من وجهتي النقل والعقل فإنّ واجب الوجود مجرد بتمام التجرد بسيط لغاية البساطة والتولد قاض بماديته ومادية الكائن حارمة له من صلاحية الصانعية للعالم وبساطته نافية لأن يتركب من نفسه ومن غيره لأجل أن تتولد حقيقة ملتئمة يحكم على مجموعها بوجوب الوجود وصانعية العالم.

وكأنّه احالة على الحس إذا قلنا ان للقرآن روعة ونضارة لا تسمج منظرتهما على طول تكرار تلاوته وان له لهيبة ورهبة تودعان وحتى النفوس البعيدة عنه في الاعتقاد خشوعاً وخضوعاً وان له لحاكمية على القلوب وتعجيزاً للقرائح وخطفاً للأبصار والأسماع ومن هنا حق للنجاشي وأساقفته أن تخشع قلوبهم لذكر الله سبحانه فتستفيض حواشي آماقهم دموعاً ثرة وتمتلأ قلوبهم انكساراً وعبرة فإنّ الحديث الذي سمعوه جد لذيذ في اللفظ جالب في صنعة التركيب محشو بالمعاني الجزلة قابع بأبهة وعظمة تحكمان له ان عظمة الخالق قد تسربت

إلى حروفه ومقاطعه وان هيبته تمشت بين آيه وكلماته فمقامه كمقام منزله في شدة التهيب منه وجليل الاحترام له خصوصاً وهذا الصدر من هذه السورة قد صادف من القوم الذين هم بكلهم نصارى اسماعاً مستعدة وقلوباً تحب التعرف بشؤون مثل هذه الحقائق لانستارها عليهم بالتشويش الكثير فسمعوا من القرآن جملاً مترابطة الفقر مرصوفة بأحسن رصف بما لم يجدوا له نظيراً ولا شبه نظير في أي كتاب سماوي قرأوه فإنّ التوراة والانجيل بواضح الضرورة لا يملكان أقل وجهة من ناحية التعبير ولم يستخدما من فصاحة الألفاظ وبلاغة المعاني أقل طرف وإنّما هدفهما سرد الأحكام والقصص بأي لون اتفق كما لا يحتويان على مضامين عالية وها هما بين يدي المطالعين فلينظروا فيهما وليجعلوهما طرف قياس للقرآن فهل يجدون بين السنخين أقل شبه ـ لا والله ـ.

وهذه الروعة هي التي ملكت قلب النجاشي وقلوب أساقفته وهذا الطرز من الحديث السالم عن المنكرات تؤخذ عليه هو الذي جمع حول الاصاخة لمضامينه قلوب القوم وحواسهم وهذه الموجبات هي التي عززت موقف المسلمين اللاجئين إلى جواره في نظره وآثرتهم على رسل قريش مع ما يحملون إليه من هدايا تعجبه فرد الرسل مقبوحين وأرجع اليهم ما أهدوه له قاطعاً بأنّ ذلك كان منهم رشوة يريدون بازائها دحض الحق انتصاراً للباطل والإنسان الغيور يأبى كل ذلك والنجاشي هذا كان انساناً غيوراً.

قال ابن اسحاق في ذيل حديثه السالف [١]: وبلغ أصحاب رسول الله الذين خرجوا إلى أرض الحبشة اسلام أهل مكة فاقبلوا لما بلغهم من ذلك حتى إذا دنوا من مكة بلغهم ان ما كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل

(١) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٣٨٨.

منهم أحد إلّا بجوار أو مستخفياً فكان ممن قدم عليه مكة منهم فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة فشهد معه بدراً ومن حبس عنه حتى فاته بدر وغيره ومن مات بمكة.

قال الطبري (١): حدثني يعقوب بن ابراهيم قال حدثنا ابن علية عن محمّد بن اسحاق قال حدثني سعيد بن مينا مولى أبي البختري قال: لقي الوليد بن المغيرة والعاص بن وائل والأسود بن المطلب وامية بن خلف رسول الله فقالوا يا محمّد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ونشركك في أمرنا كله فإن كان الذي جئت به خيراً مما في أيدينا كنا قد شاركناك فيه وأخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه، فأنزل الله عزوجل: ﴿ **قل يا أيّها الكافرون** ﴾ حتى انقضت السورة فكان رسول الله حريصاً على صلاح قومه محباً مقاربتهم بما وجد إليه السبيل فكان من أمره في ذلك ما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة قال حدثني محمّد بن اسحاق عن يزيد بن زياد المدني عن محمّد بن كعب القرظي قال لما رأى رسول الله تولي قومه عنه وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله تمنى في نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب بينه وبين قومه وكان يسره مع حبه قومه وحرصه عليهم ان يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم حتى حدث بذلك نفسه وتمناه وأحبه فأنزل الله عزوجل: ﴿ **والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى** ﴾ فلما انتهى إلى قوله: ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى** ﴾ ألقى الشيطان على لسانه لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتي به قومه تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن ترتضى فلما سمعت ذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به

---

(١) تاريخ الطبري: ج ٢ ص ٢٢٦.

آلهتهم فأصاخوا له والمؤمنون مصدقون نبيهم فيما جاءهم به من ربهم ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل فلما انتهى إلى السجدة فيها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون بسجود نبيهم تصديقاً لما جاء به واتباعاً لأمره وسجد من في المسجد من المشركين من قريش وغيرهم لما سمعوا من ذكر آلهتهم فلم يبق في المسجد مؤمن ولا كافر إلّا سجد إلّا الوليد بن المغير فإنّه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع السجود فأخذ بيده حفنة من البطحاء فسجد عليها ثمّ تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون قد ذكر محمّد آلهتنا بأحسن الذكر قد زعم فيما يتلو انها الغرانيق العلا وان شفاعتهن ترتضى وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله وقيل أسلمت قريش فنهض منهم رجال وتخلف آخرون وأتى جبرئيل رسول الله فقال يا محمّد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عزوجل وقلت ما لم يقل لك فحزن رسول الله عند ذلك حزناً شديداً وخاف من الله خوفاً كثيراً فأنزل الله عزوجل ﴿ **وكان به رحيما** ﴾ يعزيه ويخفض عليه الأمر ويخبره انّه لم يك قبله نبي ولا رسول تمنى كما تمنى ولا أحب كما أحب إلّا والشيطان قد ألقى في امنيته كما القى على لسانه ﷺ فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته أي فإنّما أنت كبعض الأنبياء والرسل فأنزل الله عزوجل: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلّا إذا تمنى ألقى الشيطان في امنيته فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثمّ يحكم الله آيته والله عليم حكيم** ﴾ فأذهب الله عزوجل عن نبيه الحزن وأمنه من الذي كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم انها الغرانيق العلا وان شفاعتهن ترتضى بقول الله عزوجل حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى ألكم الذكر وله الأُنثى تلك اذاً قسمة ضيزى أي عوجاء ان هي إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم إلى قوله لمن يشاء ويرضى أي فكيف تنفع

شفاعة آلهتكم عنده فلما جاء من الله ما نسخ ما كان الشيطان ألقى على لسان نبيه قالت قريش ندم محمّد على ما ذكر من منزلة آلهتكم عند الله فـغير ذلك وجـاء بغيره وكان ذانك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسول الله قد وقعا في فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم واتبع رسول الله منهم وأقبل اولئك النفر من أصحاب رسول الله الذين خرجوا من أرض الحبشة لما بلغهم اسلام أهل مكة حين سجدوا مع رسول الله حتى إذا دنوا من مكة بلغهم ان الذي كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل منهم أحد إلّا بجوار أو مستخفياً فكان من قدم مكة منهم فأقام بها حـتى هـاجر إلى المـدينة فشهد معه بدراً فعدد اناساً تبلغ عدتهم ثلاثة وثلاثين رجلاً ـ اهـ.

❊ ❊ ❊

حديث الغرانيق

أقول: هذا الحديث مزور مكذوب بوضع لا يقبل التأمل من جهات عديدة:

الأولى: ان من شرط كل رسول مبلغ عن الله العصمة وهو تحديد الله سبحانه لطبيعة الإنسان بالقهر على أن لا تكون إلّا مقرونة بالواقع في الجهات التي ترتبط بالتبليغ وفيها تماس مع المكلفين بالشريعة السماوية قولاً ما يكون من هذا الإنسان الرسول أو فعلاً أو تقريراً لأنّها كلها حجة على المكلف ولا تكون الحجة معنونة بهذا العنوان ما لم تكن قاهرة بمقطوع صدقها وذلك لا يكون إلّا بالتحديد المذكور من الله سبحانه لطبيعة الرسول تحديداً لا مساغ فيه لأقل تشكيك بحيث تحصل في المخاطب عقيدة جازمة في صدقه بمدارك صحيحة وقد أسلفنا كواشف الصدق في هذا الموضوع آنفاً فلا نعيد.

الثانية: انّ الإنسان الذي يختاره الله سبحانه للرسالة إلى عباده يوجب فيه ايجاباً قسرياً مرابطة ما كلف القيام به من وظيفة رسولية بحيث لا يكون لاختياره مساغ إلى الفرار عن ميدان التبليغ والدعوة ومهما جرت عليه الدواهي من مصائب فإنّه إلّا يكن ايجاب قسري بالوصف الذي وصفناه لا يؤمن على الإنسان الحر بارادته واختياره عندما يجابه بالمؤلمات الحارة والخطوب الهادة والمبارزات العنيفة أن ينكص في ميدان المبارزة مستسلماً ضارعاً للخصم وبذلك من التوهين على الله ومن انقلاب العقائد عن فطرتها بحيث لا تكاد تعاود الايمان بدعوة أي رسول يكون ـ ما لا يخفى ـ كما تكون الحادثة المومى اليها سنداً لمن يريد تكذيب الرسل الآتين بانك أيّها الداعي سرعان ما تنقلب عن ما أنت فيه وما تدعوا إليه إذا تضايقت عليك حلقتا البطان واضطرتك المخاوف إلى الاستسلام فالانقلاب على الرسول غير جائز عقلاً وان أتت الدعوة على نفسه

نعم لا مانع من انقلاب المكلفين امّا بالاختيار أو بـالارعاب فـإنّ ذلك لا يـضر بشرف الله ولا بدعوته بـعد أن تكـون ثـابتة مسـتقرة وان أجـفل عـنها النـاس السائرون.

الثالثة: ان الرسول ليس له من الأمر شيء إلّا ما يخوله الله التصرف به موكولاً إلى رغبته وكلما عدا ذلك من صغير الحركات وكبيرها حقيرها وخطيرها خارج عن رغبة الرسول منوط اثباته ونفيه بارادة الله فإذا أمره بشي ائتمر وإذا نهاه انتهى لأنّ شغله الذي بيده لا يـعود له ومـرجـعه إلى الله وحـده الذي يـعلم المـصالح والمفاسد وما يجب أن يكون في هذه الحال وما لا يجوز أن يكون فيها فإنّ معرفة الله بحقائق الأشياء وخواصها لا تلحقها معرفة أي بشر يفرض لأنّ الأُمور كـلها مرتهنة بيده والبشر عازب عنها أجمع إلّا ما يوضحه الله له من طـريق المـدرك الصادق.

الرابعة: قد أسلفنا ان الله مكلف عقلاً في مقام تقليده السفارة فـي عـنق مـن يختاره تأييد هذا السفير بما ينجح له مقاصده ويعلى كعبه عليم نابذيه ولا يجوز عليه ارسال قضايا النبوة ارسال سائر الأُمور التي تمشي بها الأسباب والمقارنات الخارجية مشياً ظاهرياً فقد تفشل الأسـباب فـتنخذل ابـد الدهـر وقـد تـنجح الأسباب فتتوفق فإنّ ذلك مما يدعو أن لا تكون لله حـجة قـائمة عـلى العـباد يتعرفون بها عظمة الداعي وقدرته وتسيير نظامه في الجامعة على ما يصلحها.

نعم تخلف المكلف عنها غير ضائر بعدما تكون الحجة غالبة بمقاومتها وثباتها ومن هنا كانت سيرة الله مع الأنبياء والأُمم لا تخلو عن حـالة مـن حـالتين امّـا باهلاك الأُمم المستعصية على رسلها بعد أن ينجي الرسل والتابعين لهم كما فعل ذلك بقوم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب وامّا بانجاح دعوة الأنبياء وتـغليبها على جانب المنابذين كما فعل ذلك بموسى بن عمران ومحمّد بن عبد الله.

كما لا شك ان الله سبحانه يوعز الماماً إلى رسله بهذا التأييد لتسكن نفوسهم تمام السكون وان توطنوا لتحمل كل مشقة واردة وقد صرح النبي ﷺ في بدء دعوته إلى انّه سيظهر على كنوز كسرى وقيصر وان الله ليتممن هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلّا الله والذئب على عنزه ونظير ذلك كثير ولا شبهة ان هذا من القاء الله له ومن هنا نستبين انّ الله سبحانه حافظ لدينه على كل الطوارىء وان ما يقال له شيطان وغيره لا يقاوم حفظ الله لرسوله ولدعوته ولا حكامه ولا يتسلل إلى رسوله فيضله ويغويه.

الخامسة: انّ الله صرّح في كتابه انّه هو المتكفل بحفظ الذكر الذي نزله فقال: ﴿ **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** ﴾[١] ومعنى حفظه له هو سد طرق التحوير والتغيير والزيادة والنقصان عليه بالأخص المعاني الأول فإنّها هي المشوهة لمنظره الشيء والموقعة كل ريب فيه بخلاف النقصان الغير المشوه كحذف سورة من سور القرآن مثلاً فإنّه لا يمس بكرامة الباقي منه بأقل حزازة تفرض.

السادسة: انّ الله صرّح أيضاً في كتابه بأنّ كل ما ينطق به محمّد ما هو إلّا وحي يوحى إليه وبتعليم من الله فلا يجوز التشكك في كلمة يقولها ولا احتمال الريب في مقالة يسوقها فقال: ﴿ **ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلّا وحيٌ يوحى علمه شديد القوى** ﴾[٢] وكل هذه الأُصول التي أمليناها عليك عقلية قبل أن تكون شرعية.

إذا عرفت ما تلوناه عليك نقول انّ هذا الحديث الذي ساقه الطبري على طوله مكذوب بجميع حروفه فضلاً عن فقراته وجمله فإنّ صدر هذا الحديث المتكفل

---

(١) سورة الحجر: آية ٩.

(٢) سورة النجم: آيات ٢ إلى ٥.

بقول مشركي قريش للنبي يا محمّد هلم فلنعبد ما تعبد وتعبد ما نعبد ونشركك في أمرنا كله فإن كان الذي جئت به خيراً مما في أيدينا كنا قد شركناك فيه وأخذنا بحظنا منه وإن كان الذي بأيدينا خيراً مما في يدك كنت قد شركتنا في أمرنا وأخذت بحظك منه فأنزل الله عزوجل: ﴿ **قل يا أيّها الكافرون لا أعبد ما تعبدون وأنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولي دين** ﴾ صريح في ان الله وظف لنبيه ترك هذه الشركة وأكد عليه بالتكرير المفيد لزيادة التأكيد ان دينك ودينهم على طرفي نقيض مضافاً إلى انهم لو خلوا واختيارهم لما عبدوا ربك يا محمّد ﴿ **ولا أنتم عابدون ما أعبد** ﴾، أي أنتم في كمال الاصرار على ما أنتم فيه من عبادة الأوثان والشرك بالله وكذلك أرانا الخارج منهم هذه الروحية القاسية حتى فتح الله لنبيه مكة فأسلم من أسلم منهم قهراً وتألفاً لا انقياداً وطاعة ومعرفة بحق الله ومع هذا فكيف يصح سياق الحديث بالنسبة إلى صدره ـ لا يصح طبعاً ـ خصوصاً ان الله سبحانه وظف لنبيه مع مشركي معاصريه هذه الوظيفة الجاهرة المؤكدة وجعل أوّل انطباقها على هذه الواقعة نفسها.

ونحن لا نلوم النبي إذا أحب قومه وأراد صلاحهم ومقاربتهم له ولكن في حدود الوظيفة المقررة له والقائم هو بها وليكن يشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله بعد أن كان ذلك تكليفه وبعد أن كان أمراً صائباً عند الله وكيف يلتئم ما يروونه ان الله أنزل عليه: ﴿ **والنجم إذا هوى ما ضلّ صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى** ﴾ فأقحم الشيطان بنفسه فأجرى على لسان محمّد بعد قوله تعالى ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى** ﴾، تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن ترتضى؛ مع هذين الحرفين الزائدين فإنّه ﷺ نطق بها ـ كما يزعمون ـ وليسا عن الله ولا هما وحي أوحاه إليه ولا علم علمه به ولا انّه ذكر حفظه عندما

أنزله ولا عصم رسوله بعد ما أرسله ولا دفع عنه المؤثرات المشوهة لأصل الدعوة وكيانها الرئيسي الأوّل.

ثمّ كيف لم يلتفت النبي إلى نفسه وهكذا المؤمنون به بأنّ هذا الذي صدر منه عين الشرط بالله خصوصاً والتمجيد الذي ساقه لتماثيل ميتة لا حراك بها ولا تملك ضراً ولا نفعاً ولا تسمع دعاءً ولا تجيب كلاماً والقرآن مملوء من أوّل نزوله من حين انبعاث محمّد إلى زمان الواقعة هذه بالتنديد بالأصنام تنديداً لا مساغ للانحراف عنه بأقل من هاتين الكلمتين: تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن ترتضى؛ ولو أراد جامع أن يجمع ما فضح الله به الوثنيين وعبدة الأصنام والزمهم به من دوافع الحجج من نفس القرآن لجمع جزءاً كبيراً يحتوي على ألوان التقبيح والتعيير بشتى الأساليب والتراكيب بمتنوع الحجج والبراهين أفكل هذا غاب عن محمّد وعن المؤمنين به وانهم لا يحسون من أنفسهم مع هذه الرجعة انهم كفروا بالله بعد الايمان به والحدوا به بعد توحيده وهدموا دينه بعد أن شيدوه وأرسلوا جهودهم التي تحملوها بكل مشقة ادراج الرياح.

انّ هذا التصوير فضلاً عما أسلفناه من اصول عقلية تدفعه وتقمعه لا يدنو من تصورات هؤلاء القوم محمّد وأتباعه الذين لم تكن وظيفتهم بادء بدء إلّا التوحيد ونبذ الشركاء صرفاً ولم يكن يزاحم هذه الوظيفة فيهم يومذاك صوم ولا صلاة ولا حج ولا زكوة ولا جهاد ـ ولا ولا ـ وإنّما كان وظيفة الداعي والمدعو جميعاً هي التمرين على توحيد الله وطرد كل شريك عنه من أي أجناس الموجودات كان.

وما أقبح قولهم في هذا الحديث وأتى جبرئيل رسول الله فقال: يا محمّد ماذا صنعت لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عزوجل وقلت ما لم يقل لك؛ فإنّ الرب إذا لم يعصم رسوله فما أكثر ما يتلوه على الناس مما لم يأت به جبرئيل عنه ولا قال له به وأين يكون قوله ﴿ **وما ينطق عن الهوى** ﴾ وقد نطق عنه وان هو

إلّا وحي يوحى وما هو بوحي بل كذبه الوحي ولم يعلمه اياه إلّا الشيطان لا شديد القوى فما أشد مناقضة هذا الحديث للعقل الصريح والقرآن الصريح أيضاً فكيف يحتمل فيه رائحة الصدق وقد افتضح به مزوره ولا شبهة انّه اسرائيلي ممن كان يعتز بهم الشيخان عمر وعثمان فطالما جللا من مقام كعب الاحبار وطرد عثمان لأجل كعب هذا اليهودي الدجال أبا ذر الصادق بشهادة الرسول الأكرم لرده عليه وقوله له يا ابن اليهوديين أتعلمنا ديننا؛ واليهود أخبث الناس قلوباً مع كل ذي نزعة تخالفهم وبخاصة المسلمين فما تظاهر منهم متظاهر بالاسلام إلّا للدس فيه والوقيعة به ككعب ونظرائه ولهم غرائب في هذه التدليسات من قديم وحديث.

ولا ربط لما يستشهدون به من قوله تعالى: ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾ (١) بالمقام الذي اوردوا له هذا الشاهد فإنّ هذه الآية لو خليت هي وطبعها لدلت بظاهرها الصريح على ان الرسول والنبي ربما يتمنى الامنية فيداخله الشيطان في امنيته ولكن سرعان ما ينسخ الله ما ألقاه الشيطان ثمّ يحكم الله آياته وما يريده كل ذلك قبل أن تصل النوبة إلى مراحل العمل الخارجي كما هو صريح منطوق هذه الآية ولا قيمة للأماني وحدها قبل أن تتصوب في خارج العيان فإنّ محور الحديث والطاعة والعصيان والثواب والعقاب على ما يقال عليه في ذاته انّه عمل وفعل ولا يكون ذلك إلّا في الخارج لا عنوان الشيء بما هو عنوانه الذي لا ازاء له في الخارج كما ان هذا لا ينافي مقام العصمة أصلاً ولا يناقض الغرض من بعثة الرسول حتماً فإنّ نقض الغرض إنّما يكون إذا كان هناك احتمال كذب في الأقوال الصادرة وتجويز خلاف في الأعمال الناجزة

---

(١) سورة الحج: آية ٥٢.

وليست الأماني الصرفة من هذا الوادي أصلاً.

فإن قلت: فما معنى الآية التالية السالفة: ﴿ لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي ٱلشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱلظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ * وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ آمَنُوا إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (١).

قلت: لا شبهة ان نزعات النفس لها المفعول القوي في التأثير على وجنات الإنسان وأسارير وجهه وانا نجد بوضوح ان الخواطر المريحة تبسط وجه الإنسان والمحزنة تقبضه بما يلوح للناظر من سحنة الوجه نفسه فإن أعمل الإنسان نزعته بوسائله البدنية ففعل وترك كان محل التحسين والتقبيح حسبما تؤدي إليه نزعاته من عمل حسن أو قبيح وان حدد النزعة في مكانها من النفس فلا محمدة ولا ذم إذ لا هدف يحمد من أجله أو يذم عليه وقد يحمد من ناحية رياضية وهي تمالكه على نفسه وتسلطه على نزعاته وقوة عقله على بدنه وهي قوة تستأهل مزيد الحمد والثناء فمعناه ان الذين في قلوبهم مرض وهم المنافقون والذين يطيرون بالأراجيف إذا تميزوا فيما يظهر على ملامح الرسول أو النبي انّه في خاطرة يجول بنظره عليها ويحوم بفكره حولها وهم يجدونها خطرة يستطيعون النفوذ منها إلى الطعن عليه قالوا افتتن الرجل ارجافاً به وامّا الذين اوتوا العلم والورع والتحقق في الحكم على الأشياء والتثبت في القول يعلمون انّه الحق وان الإنسان وحتى لو كان سائراً في الناس لا نبياً ولا شبيه نبي لا يجوز أن يقال في حقه قول أو يحمل عليه حكم ما دام غير منفرج عن عمل تقوم به يداه وتحققه في الخارج وسائل علاجه وما قصه الله سبحانه من أتم ما ينطبق على

(١) سورة الحج: آية ٥٣ ـ ٥٤.

القواعد العلمية والنظر الموزون والمنطق ولا يحيد عن الاعتراف به موحد ولا ملحد كما شرحناه ولا يفترق البحث عند هذه الآيات أعم من أن تكون واردة لبيان أمر عام وملاك كلي أو مخصوصة بواقعة خاصة ومهما كانت الواقعة في نفسها فإنّ الكلي وجزئيه من ملاك واحد وينطويان تحت مادة واحدة من الفن فاعرفه تغتنم.

هذا وان ما تقدم من آيات سورة النجم على ـ تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن ترتضى ـ وما تأخر عنها لا يلتئم بها كما لا يلتئم وقوع الثناء لشيء بين شتمتين قويتين له فإنّ الله يقول في مقام شدة الانكار على المشركين أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى ـ تلك الغرانيق العلا وان شفاعتهن ترتضى ـ ألكم الذكر وله الأُنثى تلك إذاً قسمة ضيزى ان هي إلّا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ان يتبعون إلّا الظن وما تهوي الأنفس ولقد جائهم من ربهم الهدى؛ فأي ربط ليت شعري لهذه الزيادة المقحمة بكلام كله طعن وذم للات والعزى ومناة الثالثة الأُخرى وانها لا تحتضن من معنى الربوبية والالوهية إلّا الاسم المجرد الذي أطلقه عليها هؤلاء الملاحدة أنفسهم وآباؤهم من قبلهم ما أنزل الله في حقها ما يؤيدها ويسددها ويجعلها من القرابين التي يتقرب إليه بها وان الذين اتخذوها بهذا العنوان لم يتبعوا في اتخاذهم هذا إلّا الوهم العاري عن شوب الحقيقة والاهوى الأنفس الرعناء والنزعات الهوجاء خصوصاً بعد ما جائهم من ربهم الهدى وانكار ما اتخذوه وسيلة تقربهم إليه. ولا يعد اصرارهم على عبادة الأوثان بعنوان انها مقربة لله سبحانه مع تصريح الله نفسه انها ليست مقربة له ولا ترتبط به غير ارتباط المخلوق بخالقه من حيث انّه صنعه وأوجده لا أكثر إلّا من أبعد مظان الجهل انصافاً وما يكون هذا وصفه من الله كيف يكون من الذوات المعززة العالية المرجوة الشفاعة ـ هذا ما لا يكون بواضح الضرورة ـ.

خاتمة يجب التنبيه عليها

وهي ان الدكتور هيكل ذكر بعد أن تناول حديث الغرانيق بالرد ولكن اني له بالحجج التي قمنا بتركيزها نحن فيما سقناه لك فقال: ويضيف (سيروليم موير) إلى هذه الرواية التي وردت في بعض كتب السيرة وكتب التفسير حجة يراها قاطعة بصحة حديث الغرانيق ذلك ان المسلمين الذين هاجروا إلى الحبشة لم يك قد مضى على هجرتهم اليها غير ثلاثة أشهر أجارهم النجاشي أثنائها وأحسن جوارهم فلو لم يكن قد ترامى اليهم خبر الصلح بين محمّد وقريش لما دفعهم دافع إلى العود حرصاً على الاتصال بأهلهم وعشائرهم وأنى يكون صلح بين محمّد وقريش إذا لم يسع محمّد إليه وقد كان في مكة أقل نفراً وأضعف قوة وقد كان أصحابه أعجز من أن يمنعوا أنفسهم من أذى قريش ومن تعذيبهم اياهم.

هذه هي الحجج التي يسوقها من يقولون بصحة حديث الغرانيق وهي حجج واهية لا تقوم أمام التمحيص ونبدأ بدفع حجة المستشرق (موير) فالمسلمون الذين عادوا من الحبشة إنّما دفعهم إلى العود إلى مكة سببان:

أولهما: ان عمر بن الخطاب أسلم بعد هجرتهم بقليل وقد دخل عمر في دين الله بالحمية إلى كان يحاربه من قبل بها لم يخف اسلامه ولم يستتر بل ذهب يعلنه على رؤوس الملا ويقاتلهم في سبيله ولم يرض عن استخفاء المسلمين وتسللهم إلى شعاب مكة يقيمون الصلاة فيها بعيدين عن أذى قريش بل دأب على نضال قريش حتى صلى عند الكعبة وصلى المسلمون معه هنالك أيقنت قريش ان ما تنال به محمّداً وأصحابه من الأذى يوشك أن يثير حرباً أهلية لا يعرف أحد مداها ولا على من تدور دائرتها فقد أسلم من مختلف قبائل قريش وبيوتها رجال تثور لقتل أي واحد منهم قبيلته وان كانت على غير دينه فلا مفر اذاً من

الالتجاء في محاربة محمّد إلى وسيلة لا يترتب عليها هذا الخطر وإلى أن تتفق قريش على هذه الوسيلة هادنت المسلمين فلم تنل أحداً منهم بأذى وهذا هو ما اتصل بالمهاجرين إلى الحبشة ودعاهم إلى التفكير في العود إلى مكة.

ثانيهما: قال: وربما ترددوا في هذا العود لو لم يكن السبب الثاني الذي ثبت عزمهم ذلك ان الحبشة شبت بها يومئذ ثورة على النجاشي كان دينه وكان ما أبدى من عطف على المسلمين بعض ما اذيع فيها من تهم وجهت إليه ولقد أبدى المسلمون أحسن الأماني ان ينصر الله النجاشي على خصومه لكنهم لم يكونوا ليشاركوا في هذه الثورة وهم أجانب ولم يك قد مضى على مقامهم بالحبشة غير زمن قليل أما وقد ترامت اليهم أنباء الهدنة بين محمّد وقريش هدنة أنجت المسلمين مما كان يصيبهم من الأذى فخير لهم أن يدعوا الفتنة وراء ظهورهم وأن يلحقوا بأهليهم وهذا ما فعلوه كلهم أو بعضهم على انهم ما كادوا يبلغون مكة حتى كانت قريش قد ائتمرت ما تصنع بمحمد وأصحابه واتفقت عشائرها وكتبوا كتاباً تعاقدوا فيه على مقاطعة بني هاشم مقاطعة تامة فلا ينكحوا اليهم ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم ولا يبتاعوا منهم وبهذا الكتاب عادت الحرب العوان بين الفريقين ورجع الذين عادوا من الحبشة وذهب معهم من استطاع اللحاق بهم وقد وجدوا هذه المرة عنتاً من قريش إذ حاولت أن تمنعهم من الهجرة [(١)].

أقول: هذا الذي ذكره في الأمرين معاً تدليس وتزوير وارتجال للتاريخ من غير مدرك بل كتاباته هو بنفسها في هذا الفصل تكذب ما ذكره في جوف هذين الأمرين: أمّا قوله أولهما ان عمر بن الخطاب أسلم عبد هجرتهم بقليل وقد دخل عمر في دين الله بالحمية التي كان يحاربه من قبل بها وحديث اسلامه اتصل

---

(١) حياة محمّد: ص ١٥٩ و ١٦٠ من الطبعة الثالثة.

بمهاجرة الحبشة وهو الذي دعاهم إلى العودة فمنقوض من ناحية التاريخ فاننا لم نر مؤرخاً يذكر ان عودتهم كانت لأجل اسلام عمر بن الخطاب إلّا هيكل وحده، وقوله مردود عليه؛ ومن ناحية الواقع فإنّ اسلام عمر إذاكان ذا تأثير في الوضع فلم يقول هيكل نفسه في أوّل قصة الغرانيق (ص ١٥٧) أقام المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة ثلاثة أشهر أسلم أثنائها عمر بن الخطاب وعلم هؤلاء المهاجرون ما حدث على أثر اسلامه من رجوع قريش عن ايذائها محمّداً ومن اتبعه فعاد كثير منهم في رواية وعادوا كلهم في رواية أُخرى إلى مكة فلما بلغوها رأوا قريشاً عادت إلى إيذاء المسلمين وإلى الامعان في عداوتهم أشد مما عرف هؤلاء المهاجرون من قبل فعاد منهم إلى الحبشة من عاد ودخل مكة من دخل مستخفياً أو بجوار.

فهذا هيكل نفسه يصرح بأنّ ما رأوه من امعان قريش في عداوتها لمحمد وأصحابه بعد عودتهم من الحبشة أشد مما كانوا يواجهونه منها قبل هجرتهم فكأن اسلام عمر عاد عليهم وباءً ونقمة لا عزاً ورحمة وكيف يصح لهيكل أن يقول علم هؤلاء المهاجرون ما حدث على اثر اسلامه من رجوع قريش عن ايذائها محمّداً ومن اتبعه ثمّ يقول بلا فاصلة فعاد منهم إلى الحبشة من عاد ودخل مكة من دخل مستخفياً أو بجوار، وكيف سوغ لنفسه أن يقلب علمهم جهلاً ببضع دقائق وعزهم بعمر إلى ذلهم الشائن بفاصلة سطر واحد.

ثمّ نسأل هيكل ونقول له: من أي طريق اتصلت بأنّ اسلام عمر كان معزاً للاسلام لا كسائر المسلمين قبله وها أنت بنفسك فضلاً عن تصريحك هنا بأنّ الأذايا التي توجهت إلى المسلمين بعد اسلام عمر كانت أشد من سابقها تعترف بأنّ محمّداً من أوّل بعثته إلى حين هجرته من مكة ما قرّ له قرار إلّا بأبي طالب وحده وكافة أصحابه وأتباعه كانوا في جهد وفي أذية حتى ان أبا بكر هاجر من

مكة لشديد ما لقى فيها من أذى المشركين وما عاودها بالدخول آمناً إلّا بجوار سيد الأحابيش وبعد أن أعاد عليه جواره نثرت قريش عليه التراب وضايقته أشد المضايقة وأنت مجبور أن تطأ اثر المؤرخين في ذلك فإنّهم لم يختلفوا بأنّ مسلمي مكة ونبيهم ما استراحوا من جهد التعذيب إلّا بأبي طالب بالنسبة إلى محمّد وبالهجرة إلى الحبشة حتى بقي جملة منهم إلى ما بعد الهجرة وبالهجرة إلى المدينة بعد وفاة أبي طالب فما هو اسلام عمر وما هو عزه وما هي قوته وما هي صرامته وشجاعته هذا عمر نفسه بعد أن كثر المسلمون وعزوا وجندوا الجنود وحاربوا قريشاً وكسروهم وانتصروا عليهم غير مرة ينقل لنا التاريخ في حقه انّه على طول سيره في خط الإسلام أعطاه النبي لوائه مرة واحدة في غزوة خيبر فرجع بأصحابه مهزوماً مقبوحاً يجبن أصحابه ويجبنونه إلى أن تولى الراية أبو الحسن فجلى بها الكرب عن وجه رسول الله والمسلمين، فيا هيكل أراك تنفخ في جراب ممزق من كافة جوانبه ونواحيه مهلا فإنّ الاندفاعات الجزافية لا مقيل لها من الثبات والتركز وسرعان ما تطير هواءً بعد أن كانت مادتها هراءً.

فقد روى المتقي الهندي في منتخب كنز العمال [١] عن علي قال: سار رسول الله إلى خيبر فلما أتاها ﷺ بعث عمر ومعه الناس إلى مدينتهم وإلى قصرهم فلم يلبثوا أن هزموا عمر واصحابه فجاء يجبنهم ويجبنونه فساء ذلك رسول الله فقال لأبعثن عليهم رجلاً يحب الله ورسوله يقاتلهم حتى يفتح الله له ليس بفرار فتطاول الناس لها ومدوا أعناقهم يرونه أنفسهم رجاء ما قال فمكث رسول الله ساعة فقال: أين علي؟ فقالوا هو أرمد، قال: ادعوه فلما أتيته فتح عيني ثمّ تفل فيها ثمّ أعطاني اللواء فانطلقت به سعياً خشية أن يحدث رسول الله فيهم حدثاً أو

(١) ج ٤ ص ١٢٧ وهذا الكتاب على هامش مسند أحمد طبع مصر.

فيّ حتى أتيتها فقاتلتهم فبرز مرحب يرتجز وبرزت أرتجز كما يرتجز حتى التقينا فقتله الله بيدي وانهزم أصحابه فتحصنوا وأغلقوا الباب فأتينا الباب فلم أزل اعالجه حتى فتحه الله ؛ ابن أبي شيبة ؛ والبزار وسنده حسن.

(المصدر نفسه ص ١٢٨) عن بريدة قال: لما نزل رسول الله بحضرة خيبر فزع أهل خيبر فقالوا جاء محمّد في أهل يثرب فبعث رسول الله عمر بن الخطاب بالناس فلقى أهل خيبر فردوه وكشفوه هو وأصحابه فرجعوا إلى رسول الله يجبن أصحابه ويجبنه أصحابه فقال رسول الله: لأُعطين اللواء رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله فلما كان الغد تطاول لها أبو بكر وعمر فدعا علياً وهو يومئذ أرمد فتفل في عينه وأعطاه اللواء فانطلق بالناس فلقى أهل خيبر ولقى مرحباً الخيبري فإذا هو يرتجز ويقول:

قد علمت خيبر اني مرحب — شاكي السلاح بطل مجرب

ان الليوث أقبلت تلهب — أطعن أحياناً وحيناً أضرب

فالتقى هو وعلي فضربه علي ضربة على هامته بالسيف عض السيف منها الأضراس وسمع صوت ضربته أهل العسكر فما تتام آخر الناس حتى فتح لأولهم ؛ ابن أبي شيبة.

وسوف نقوم بهذا الحديث تفصيلاً في التحديث عن غزوة خيبر ؛ ثمّ أي هدنة حصلت بين المسلمين وبين قريش حتى يتصل خبرها بمهاجري الحبشة فيدعوهم ذلك للعودة إلى مكة ، نحن لا نرى بين محمّد ومشركي قريش هدنة على طول سيره معهم قبل هجرته ولا نجد قريشاً إلّا متحاملين عليه وعلى أتباعه وعلى دينه دائماً نعم مثبتوا قصة الغرانيق يعترفون بذلك والذي ينكرها يجحد توابعها طبعاً وهيكل من النافين لها لا المثبتين.

وأمّا الأمر الثاني وهو حدوث ثورة على النجاشي حال مقامهم عنده فذلك

مما ذكره المؤرخون وذكروا اضطراب المهاجرين من هذه الثورة مخافة أن يتسلط على الحبشة من لا يعرفهم كما عرفهم النجاشي فلا ينالهم منه خير كما يريدون ولكن لا نجدهم مرتحلين عند هذا الاضطراب وعائدين إلى مكة ـ والقصة كما في السيرة الهشامية ـ.

قالت: ـ أي ام سلمة بنت أبي أمية زوج النبي أخيراً وهي المتحدث عنها حديث هجرة الحبشة آنفاً ـ فوالله أنا لعلى ذلك إذ نزل به رجل من الحبشة ينازعه في ملكه قالت فوالله ما علمتنا حزناً قط كان أشد من حزن حزناه عند ذلك تخوفاً أن يظهر ذلك الرجل على النجاشي فيأتي رجل لا يعرف من حقنا ما كان النجاشي يعرف منه قالت: وسار إليه النجاشي وبينهما عرض النيل قالت فقال أصحاب رسول الله من رجل يخرج حتى يحضر وقيعة القوم ثمّ يأتينا بالخبر قالت فقال الزبير بن العوام أنا فقالوا فأنت وكان من أحدث القوم سناً قالت فنفخوا له قربة فجعلها في صدره ثمّ سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي بها ملتقى القوم ثمّ انطلق حتى حضرهم قالت فدعونا الله تعالى للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين له في بلاده فوالله انا لعلى ذلك متوقعون لما هو كائن إذ طلع الزبير وهو يسعى فلمع بثوبه وهو يقول ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي وأهلك الله عدوه ومكن له في بلاده، قالت: فوالله ما علمتنا فرحنا فرحة قط مثلها قالت ورجع النجاشي وقد أهلك الله عدوه ومكن له في بلاده واستوثق عليه أمر الحبشة فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله وهو بمكة [١].

وذكر ابن اسحاق أيضاً [٢] قال: اجتمعت الحبشة فقالوا للنجاشي انك قد فارقت ديننا وخرجوا عليه قال فأرسل إلى جعفر وأصحابه فهيأ لهم سفناً وقال

(١) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٣٦١ طبع محمّد محيي الدين.

(٢) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٣٦٣ و ٣٦٤.

اركبوا وكونوا كما أنتم فإن هزمت فامضوا حتى تلحقوا بحيث شئتم وإن ظفرت فاثبتوا ثمّ عمد إلى كتاب فكتب فيه هو يشهد أن لا اله إلّا الله وأنّ محمّداً عبده ورسوله ويشهد انّ عيسى بن مريم عبده ورسوله وروحه وكلمته ألقاها إلى مريم ثمّ جعله في قبائه عند المنكب الأيمن وخرج إلى الحبشة وصفوا له فقال: يا معشر الحبشة ألست أحق الناس بكم قالوا بلى قال فكيف رأيتم سيرتي فيكم قالوا خير سيرة قال فما لكم قالوا فارقت ديننا وزعمت ان عيسى عبد، قال: فما تقولون أنتم في عيسى قالوا نقول هو ابن الله فقال النجاشي ووضع يده على صدره على قبائه هو يشهد ان عيسى ابن مريم لم يزد على هذا شيئاً وإنّما يعني ما كتب فرضوا وانصرفوا فبلغ ذلك النبي فلما مات النجاشي صلّى عليه واستغفر له.

وأنت كما ترى ان كلا هذين الخبرين لم يتضمنا وحتى إشعاراً ان المهاجرين حركتهم هذه الحوادث للعودة إلى مكة أصلاً ـ نعم ـ ذكر ابن اسحاق [١] فقال: وبلغ أصحاب رسو الله الذين خرجوا إلى ارض الحبشة اسلام أهل مكة فأقبلوا لما بلغهم من ذلك حتى إذا دنوا من مكة بلغهم ان ما كانوا تحدثوا به من اسلام أهل مكة كان باطلاً فلم يدخل منهم أحد إلّا بجوار أو مستخفياً.

أقول: لا يلزم أن يكون ما بلغهم من خبر اسلام أهل مكة صادراً عن منشأ واقعي في مكة من صلح أو هدنة أو اسلام أهلها واقعاً فإنّه ما أكثر الأخبار تنقل عن غير صدق وقد يكون وصل اليهم شيء من هذه الأخبار الطرقية فصادف منهم قلوباً لهيفة على أوطانهم وأهلهم فاستخفوا لسماعها مغادرين مهجرهم فلما شارفوا مكة لم يجدوا لمسموعهم عيناً ولا أثراً على ان الذي عاد منهم بالنسبة إلى من بقي قليل بالنسبة إلى كثير.

---

(١) السيرة الهشامية: ج ١ ص ٣٨٨.

المحتويات